مذكرات سجين

تأليف : وول شوينكا

ترجمة : نسيم مجلى

المركز القومى للترجمة

إشراف : فيصل يونس

العدد :

الرجل مات

وول شوينكا

نسيم مجلى

الطبعة الأولى0112

هذه ترجمة كتاب :

The man died

Prison notes of

Wole Soyinka

copyright@by Wole Soyinka 1972

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظه للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت 27354524 – 27354526

فاكس : 27354554

El- Gabalaya st., Opera House, El – Gezira , Cairo

e.mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-27354526 Fax:27354554

المحتويات

مقدمة المترجم

غير المعترف به

خطاب إلى المناضلين الوطنيين

إبادان – لاجوس

كادونا 68

كادونا 69

ملاحق

فهارس

مقدمة المترجم

وول شوينكا

أول شاعر إفريقى يحصل على نوبل

كان فوز وول شوينكا بجائزة نوبل فى الأداب عام 1986 لحظة كاشفة فى تاريخ القارة السوداء ، ألقت بأضوائها القوية على ثقافة هذه القارة وعلى كثير من أبنائها المبدعين. فلم ينقض عاامان حتى حصل عليها كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، ثم أكتملت الثلاثية بفوز نادين جورديمر كاتبة جنوب أفريقيا بهذه الجائزة عام 1991 .

كانت الجائزة إعترافا بنضج الأدب الأفريقى ووصوله الى المستويات العالمية فنيا وفكريا ، بعد مسيرة نصف قرن من الكفاح ضد الإستعمار والعنصرية ، لعب الأدب فيها دورا هاما فى تنمية الوعى الوطنى وتعبئة الجماهير ضد الإحتلال الأجنبى والتخلف الإجتماعى والسياسى .

وخلال هذه المسرة تعرف المثقفون فى العالم على أعمال متميزة من الشعر والمسرح والرواية مكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسة والألمانية أو مترجمة من لغاتها المحلية ، كما تعرفوا على أسماء مبدعين بارزين مثل الشاعر ليوبولد سينجور رئيس جمهورية السنغال السابق وإيمى سيزار شاعر جزر المرتنيك ممن يكتبون بالفرنسية وعرف فى مجال القصة والرواية أموس تيوتولا وتشيى أشيى (نيجيريا) وجيمس نجوجى (كينيا) وبيتر ابراهام (جنوب أفريقيا) بالإضافة الى الكاتب المسرحى المبدع والمثير للأهتمام أتول فيوجارد (جنوب أفريقيا) وهؤلاء يكتبون بالإنجليزية .

وفى قلب هذه البانوراما الأفريقية الزاخرة يبدو شوينكا علما من أعلام الفكر والأدب فى العالم كله. فان كان كل واحد من هؤلاء يتفوق فى جانب واحد من جوانب النشاط الإبداعى كالشعر أو الرواية أو المسرحية فان شوينكا يتفوق فى هذه المجالات جميعا . وقد وصفة أحد النقاد بأنه أحد عباقرة المسرح المعاصرين ، فهو شاعر مسرح له خيال تصويرى رائع وروائى بارز وأستاذ للأدب المقارن ومترجم وناقد أثار العديد من المعارك النقدية ولعل أهمها مهاجمته الدعوة للزنوجة التى تبناها إيمى سيزار وليوبولد سنجور بإعتبارها نقيضا لمحاولات الذوبان فى الثقافة الفرنسية .

حياة شوينكا وأعمالة :

ولد شوينكا فى 13 يوليو 1934 فى " ايبوكاتا " بالأقليم الغربى لنيجيريا لأبوين من قبائل (اليوروبا) حيث ينتسب الأب الى " الإيجيو " وتنتسب الأم الى " الإيجبا " . تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة " سان بيتر " بين عامى 1938 – 1943 وتلقى تعليمه الثانوى بأحد المعاهد التابعة للحكومة فى "إبادان " واثناء الدراسة كتب عددا من القصص القصيرة قدمتها إذاعة نيجيرا . وفى عام 1952 التحق بجامعة " إبادان " واستمر بها حتى عام 1954 حين رجل الى بريطانيا حيث التحق بجامعة ليدز التى تخرج فيها 1958 بمرتبة الشرف فى الأدب الانجليزى .

وفى انجلترا اضطر شوينكا لأن يعمل جرسونا فى حانة ، ثم مدرسا بعقد مؤقت وفى النهابة عين قارىء نصوص بالمسرح الملكى بلندن . وخلال هذه الفترة كتب مسرحيتى " سكان المستنقع " و " الأسد والجوهرة " وقدمت هاتان المسرحيتان فى عرض واحد فى " إبادان " عام 1959 .

عاد شوينكا بعد تخرجه الى نيجيريا حيث عمل باحثا بجامعة " إبادان " ثم محررا بمجلة " اورفيوس الأسود " وهى أشهر المجلات الأدبية فى نيجيريا ، وفى أثناء ذلك توثقت علاقته بالمسرح كاتبا ومخرجا وممثلا إذ شرع فى إنتاج المسرحيات وإنشاء المسارح .

كتب شوينكا روايتين ومجليدن من الشعر وحوالى خمسة عشر مسرحية ، بالإضافة الى ترجمتة لرواية " غابة الألف شيطان " لفنجوا Fagunwa من لغة اليوروبا إلى الانجليزية .وقد لقيت روايته المفسرون The Interpreters تقديرا عالميا . فهى رواية واقعية تتناول أزمة المثقفين فى نيجيريا . وقد شبه أحد النقاد الإنجليز (د . أ. ب جونز) " المفسرون " برواية " يوليسيس " لجيمس جويس .

فضلا عن ذلك فإن وول شوينكا شاعر كبير ، وقصائده رغم ما تحويه من فكاهة وسخرية فإنها تنقل انعكاسكا حزينا وجادا بالحياة. وهذا واضح جدا فى قصائد هاتين المجموعتين :

. إيدانر وقصائد أخرى 1967 " Idanre and other Poems ".

. قصائد من السجن 1969 " Poems from prison".

(لقد سجن شوينكا من 1967 حتى 1969 بسبب معارضته للحرب ضد بيافرا وكان رافضا للإنفصال وللحرب على السواء ، وفى ديسمبر 1968 ، فاز – وهو فى السجن – بجائزة " جوك كامبل " للأداب فى الكومنولث التى تنظمها جريدة " نيوستيتسمان ") .

شوينكا والمسرح :

وشوينكا هو رجل مسرح من الدرجة الأولى . انه أحد العباقرة الكبار فى المسرح المعاصر وانتاجه غزير ومتنوع، يضم الفارس والتراجيديا والحكايات

الرومانسية جنبا الى جنب مع المسرحيات الواقعية . وهذه الأعما لموضوعة فى نطاق خلقية إجتماعية وسياسية موصوفة وصفا حيا: هذه الخلفية هى نيجيريا حديثة الإستقلال حيث الفساد السياسى والأخلاقى فى المدينة، وفى الريف حياة متخلفة فقيرة مليئة بالخرافات .

ككاتب مسرحى تأثر شوينكا تأثرا عميقا بتقاليد مسرخ اليوروبا الشعبى ومسرحياته الفلكورية كما فى مسرحية " الطريق " The Road و " حصاد كونجى " "Kongi's Harvest"وكذلك "الموت وفارس الملك " Death and the King's Horeseman إذ يظهر التأثير واضحا تماما فى إستخدامه للغة الشعرية المليئة بالصور والإشارات الطقسية والعادات .

وهذا التأثير يعكس عقائد وطقوسا وتجارب ويثير فى المتفرج تخيلات وعواطف قوية ويفتح أمامه جو القنتازيا على مصاريعه ، كذلك يظهر هذا التأثير فى استخدام الموسيقى والرقصات الشهيرة جدا فى أوبرات اليوروبا الشعبية فى مسرحياته وخاصة فى مسرحية " رقصة الغابات " التى مثلت لأول مرة فى أكتوبر 1960 فى احتفالات نيجيريا بعيد الاستقلال .

لقد وجد شوينكا نفسه منذ اللحظة الأولى فى مواجهة قوى الديكتاتورية العسكرية وأعوان الاستعمار والتخلف العقلى . لكنه لم يتراجع أو يتوان ، فقد وقف فى وجه الأصوات الداعية لحرب بيافرا وحاول منع هذه الحرب ، فقبض عليه ووضع فى السجن لمدة عامين محروما من الكتب ، ومن جميع وسائل الكتابة ومحروما من الأصدقاء ، بل ووضعوه فى حبس انفرادى لمدة عام ، أى جربوا معه كما يقول كل الوسائل من أجل تدميره عقليا .

فقد ترك نيجيريا سنة 1994 فى أعقاب الانتخابات التى جرت فى 1993 لوضع نهاية للحكم العسكرى ونجح فيها زعيم المعارضة مسعود أبيولا إلا أن الديكتاتور سانى أباتشا رفض تسليم السلطة للمدنيين وقبض على مسعود ابيولا ووضعه فى السجن – رغم مرضه – حتى مات ، وفى نفس الوقت صادر جواز سفر شوينكا وأخذ ينكل بالمعارضين من كل الفئات ونجا شوينكا بمعجزة من مصير زميله الشاعر والمناضل كين سيراويوا الذى أعدمه النظام العسكرى مع ثمانية من رفاقه .

عاد شوينكا فبيل الانتخابات بأيام فى أكتوبر 1998 بعد أربع سنوات قضاها فى المنفى . وتذكر الصحف (2) أنه استقبل استقبالا حافلا ، ورأى الشعب فى عودته أملا فى إعادة الحكم المدنى . وقد علق رئيس اتحاد كتاب نيجيريا على عودة شوينكا بقوله " نحن فى حاجة ماسة الى وضوح فكره. إنه أحد الرجال القلائل الذين يستطيعون حفز همة المجتمع على السير فى الطريق الصحيح " .

وتحدثت الصحف أن كثيرين من أنصار الديمقراطية قد غضوا الطرف عما حدث فى الانتخابات من غش وفساد خوفا من حدوث اى اضطرابات تحول دون عودة الحكم المدنى إلا أن شوينكا رفض هذا الهراء وتحدث فى أبوجا عاصمة نيجيرا فوصف الانتخابات بأنها كانت بمثابة مزاد " نجح فيه من يملكون سيولة

مالية قوية ، والمسنودون من العسكر ، ومن لديه ميول طبيعية للمارسة الدعارة السياسية. وأن الخاسر الوحيد هو الديمقراطية "(B.B News 16/10/1998)

انه شخصية عجيبة لاتعرف المهادنة ولا تلوين الأقوال حتى فى أحرج اللحظات . فما سر هذه القوة والصلابة ؟ هل هو مجرد عناد ورغبة فى المخالفة من أجل الظهور؟ أم هى نزعة انتحارية تغريه بالاندفاع فى وجه الزوابع والأعاصير ؟ وإذا لم يكن كذلك فما هى المنابع الروحية والعقلية التى تجعله يقف الى جانب الحق بهذه الدرجة من الثبات الذى لا يتزعزع ؟

ربما نعثر على إجابة هذه الأسئلة أو بعضها لو رجعنا الى حديثه الهام فى جامعة بيركلى، إذ سئل شوينكا عن العلاقة بين الحقيقة والسلطة فأجاب:

بأن " الحقيقة و السلطة نقيضان أو خصمان يصعب حل التناقض بينهما " . وفى تعريفه لتاريخ المجتمع البشرى قال : " إن تطور المجتمع البشرى أشبه بمباراة بين السلطة وبين الحرية . وسواء سارت هذه المباراة فى مسارات ايديولوجيه أو دينية ، فما نجده فى الواقع هو أن الحقيقة فى تناقض مع السلطة . Truth Versus Power. الحقيقة بالنسبة الى هى الحرية ، هى وجهة ذاتية Self – destination . أما السلطة فهى هيمنة ، وتحكم ، ومن ثم فهى صورة انتقائية من صور الحقيقة أى أكذوبة . وأن الجمع بين هاتين الصورتين بالنسبة لى هو محور الكفاح الإنسانى من أجل خلق مجتمع اخلافى ، أى مشاركة أخلاقية . "

هذا عن الجانب الفلسفى فى رؤيته السياسية، أما ارتباطه بالناس ونشاطه فى مجال الدفاع عن حقوق الانسان فربما نجد أسبابه فى هذه الواقعة التى حكاها فى كتابه " الرجل مات – مذكرات سجين " وذكر فيها أن البوليس قد وضع فى زنزانته سيدة شابة بطريق الخطأ وتركوها معه ، وحين سئل عن هذه الواقعة قال :

" نعم ، حدث هذا قبل وضعى فى السجن رسميا . كنت لا أزال رهن التحقيق لذلك وضعونى فى زنزانة ثم ألقوا بها فى هذه الزنزانة . فى البداية كانت متوجسة جدا ، ربما ظنت أننى وضعت لأتجسس عليها ، فلم تكن تتوقع أن تجد أحدا فى الحجرة . لم تكن تعلم أننى مازلت رهن التحقيق . وفجأة نظرت الى أسفل ، فرأت أننى مقيد فى الأصفاد . لذلك تحركت لأول مرة ببطء لتنظر الى وجهى وتتعرف على . كانت لحظة غامرة ومؤثرة ، لأنها ارتمت عند قدمى وأخذت تبكى وتصرخ . ذكرتنى بإحدى الوقائع التى حدثت مع المسيح ، المرأة التى غسلت قدميه بدموعها . كان الوضع مخيفا فى أحد نواحيه . ثم صار مصدر قوة ، لأننى مضطرا الأن لمواساتها وتهدئة خاطرها واعادة الثقة اليها . وتقويت أنا بدورى وأصبحت قويا جدا من أجلها ومن أجل كل شخص يوضع فى مثل موقفها . ثم صرت اشد صلابة بقوتى الذاتية . إنها بذلك قد فعلت بى خيرا، الى درجة لا يمكن أن تكون قد خطرت لها فى ذلك اليوم ."

ثم سئل شوينكا عن استئناف دوره كمحرض سياسى بعد فترة السجن، وعن تصاعد هذا الدور وهو ما يتضح فى كتابه الذى نشر مؤخرا بعنوان " قرح القارة الملتهب Th Open Sore OF a Continent " الذى يدور حول الطغيان السياسى فى نيجيريا ، وعن الأسباب التى تبرر سيطرة الجنرال أباتشا على الحكم ، وما تأثير هذه السطرة على فكرة نيجيريا المتحدة ؟ .

وأجاب شوينكا بأن هذا ليس صحيحا ، وقال " الأصح أن الوضع فى نيجيريا قد تدهور بدرجة فرضت على أن أصعد نشاطى بدرجة موازية . لم يكن هناك أحب الى نفسى بعد خروجى من السجن من أن أقول لنفسى ، وأعتقد أننى قلت ، إذا كان هذا ما يريده الشعب .....، تذكر أنه كانت هناك ديكتاتورية عسكرية وقت خروجى من السجن، كانت نيجيريا تحت حكم الجنرال جوون . وهذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها الى المنفى باختيارى لكى أبتعد بنفسى عن محيط البشر الذين عجزوا عن فهم واستيعاب مغزى الحرب الأهلية ، ديمومتها وعواقبها فى المستقبل . بتعبير آخر ، كل شخص كان لديه إحساس بالسعادة ، فقد إنتهت الحرب ، وبقيت الدولة متحدة ، صارت الوحدة فضيلة . أما المساوىء والتصرفات الشاذة والتناقضات التى أدت الى الحرب الأهلية بالدرجة الأولى ، فلم يعد لها وجود .

فى نفس الوقت كان هناك رواج بترولى . لقد توقع الناس أن تصاب نيجيريا بالفقر نتيجة الحرب ، ولكن حدث العكس ، فالمال موجود . لقد رأيت المجتمع كله المحيط بى وشعرت أن المشكلة ليست فى أن أكون صوتا صارخا فى البرية ، بل إنه مجرد إحساس بالعزلة . لم أهتم حتى بالصراخ فى البرية . فقد عرفت فورا أن هناك شيئا ما خطأ ينخر فى الأعماق , أن القاعدة التى تقف عليها الأمة قد تأكلت وأوشكت على الانهيار. ولذلك ذهبت الى متفى اختيارى ، لأننى رأيت أننى لو قلت شيئا أو كتبت شيئا فى ذلك الحين، لكان قد بدا شيئا غريبا ، أوه ، هذا الشخص الحاقد الخارج من السجن لا يريد أن يرى شيئا جميلا ، لا يريد أن يرى الرخاء ، يريد فقط أن يسيىء الى النظام . كان مستحيلا على أن أتكلم . وأحسست بنوع من الراحة

" فهذا هو الحال الذى يريد المجتمع أن يكون عليه، أما أنا فذاهب لكى أكتب شيئا ولكى أسترد عقلى . "

لكننى لم اكن وحيدا، فقد وجدت ، عندما ذهبت، أن هناك آخرين احسوا نفس الاحساس ، وسوف نلتقى. سوف يأتون الى ويبحثون عنى. وسوف نتكلم عن المستقبل. انهم يعانون الإحباط واليأس بدرجة حادة مثلى. وبالطبع عندما انكشف الواقع ، اتضح لنا أن هذه هذا الديكتاتور (جوون) لا يريد أن يرحل وأنه مشغول حقيقة بتحويل نفسه الى رئيس مدى الحياة وهو يقوم فعلا بتبديد موارد الدولة. عندئذ بدأت العودة تدريجيا ، الى أن عدت من المنفى وانشغلت بشئون الوطن . لم يستمر الطلاق أكثر من ستة شهور. ثم سارت الأمور من سىء الى أسوأ حقيقة فى نيجيريا . وهكذا أصبحت بطبيعة الأمور مشاركا ."

وعن موقف الدول الأجنبية وبالأخص أمريكا والسوق الأوربية المشتركة من النظم الديكتاتورية فى أفريقيا .

وكان رده أن الدول الصناعية تفضل التعامل مع " الرجل القوى " أى إنهم يريدون فردا واحدا يمكنه تنفيذ ارادتهم الاستعمارية فى كل أنحاء القارة . إن مكالمة مع موبوتو سيسو سيسكو كانت كافية للحصول على عقد ببليونى دولار دون الرجوع الى لجان فحص أو موافقة. حدث هذا مع الغرب وكذلك مع الإتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية .

ورغم أنهم بدأوا يتفهمون أن أضمن سبيل هو التعامل مع حكومات مسئولة قائمة على المشاركة الديمقراطية ، إلا أن هذا لا يزال على المستوى النظرى ولم يتحول الى أسلوب عمل بعد ، وهم يفضلون جدا التعامل مع " الرجل القوى " محتجين بأن هذا أمر مؤقت ويقولون " إننا نتحرك نحو الديمقراطية ولكن لا تدعنا نتحرك بسرعة أكبر " .

وفى نفس الوقت يستمر التعذيب الوحشى ، وتجرى تصفية المئات فلا يبالون بذلك رغم وجود تقارير السفارات وجماعات حقوق الإنسان ووكالات الأمم المتحدة ولذلك فإنهم يلعبون على الوجهين . (3) وهذا الكلام يأخذنا الى أحدث كتبه " عبء الذاكرة ، إلهة الغفران " الذى يناقش فيه مسئولية الدول الاستعمارية عما تعانيه أفر يقيا من مشاكل ، فيطرح سؤالا هاما : هل الغرب مدين لأصحاب الأصول الأفريقية بتعويضات عن سوء المعاملة لعدة قرون ؟

فى المقالة الأولى : " التعويضات ، الحقيقة والمصالحة " يعرض القضية بجسارة . وبينما هو يتابع مرافعات لجنة (الحقيقة والمصالحة) بجنوب أفريقيا لاحظ وجود مشكلة فى طريقة التحقيق تتيح للمدافعين أن يواجهوا الاستجواب وكأنهم غير مجرمين ، ويستحقون العفو عن الجرائم الوحشية التى ارتكبوها بحق الأفريقين السود .

ويعارض شوينكا بعناد قائلا " إنه لا يمكن خدمة العدالة بإطلاق سراح المذنب دون دليل لتخفيف الذنب .... أو التعبير عن الندم . "

إن غضبه من غياب العنصر الأخلاقى فى هذه العملية دفعه لأن يتكهن بغياب ملازم للعنصر المادى . ويبنى شوينكا قضيته فى طلب التعويضات على حجة أنه بدون دفع تعويض مادى عن الجرائم التى ارتكبت ضد الشعب الأفريقى ، فإن مشاعرالاستياء والكراهية التى غرستها الأفعال الأصلية سوف تستمر فى الاشتعال . فالظلم الذى يتمثل فى الأعمال الوحشية التى تمس كرامة الإنسان لابد من التكفير عنه ، حتى يتخلص الضحايا من أشباح الماضى .

فالتعويضات سوف تقدم نقدا مقنعا للتاريخ ، كما تقدم قيدا فعالا يمنع تكرار هذه المظالم فى المستقبل . وشوينكا يصرح بأن هناك مشاكل تحيط بهذه المسألة عن قيمة المبالغ المطلوبة ، ولم يتم الدفع . وقد خا طب المسئولين فى البنك الدولى واقترح عليهم أن تقوم الدول التى استعبدت الأفريقيين بتمويل ديون الدول الأفريقية ، وبهذا يمكن للشعب الأفريقى أن يطهر جروحه وينسى مظالم الماضى

. لكن المسئولين لم يتحركوا وسرعان ما أدرك شوينكا الطبيعة غير العملية لأقتراحه . وهنا يقدم أدلة وشواهد حديثة لمسألة دفع التعويضات ويتساءل مندهشا :

" لماذا يترك الأفريقيون فى " حمى هذا التفكير " دون تعويض ؟"

من هذه الشواهد عملية إعادة تأهيل ضحايا اصطياد السحرة بمدينة ساليم 1692 ، واعتذار اليابان وتخصيصها ميزانية تعويضات للنساء الكوريات اللاتى ارغمن على ممارسة الدعارة أثناء الحرب العالمية الثانية ، واعتراف الحكومة الأسبانية بخطأ قرار طرد اليهود سنة 1492 . لكن يبدو هذا غير مقنع بالمقارنة بالمشكلة الضخمة والمعقدة الخاصة بكيفية تعويض قارة وأبنائها المشتتين فى الخارج . وفى النهاية يتضح لنا أن مهمة صياغة استراتيجية للتعويضات تقع خارج نطاق هذه المقالة المفردة .

" ليوبولد سيدار سنجور والزنوجة وآلهة العدل " مقالان يشغلان بقية الكتاب . حيث نجد شوينكا يستكشف الدافع الفلسفى الذى يدفع هؤلاء الأفريقين الى البحث عن نهاية سابقة لأوانها عن طريق الغفران المجانى لمن اضطهدوهم واستغلوهم . ويجد شوينكا المعادل الموضوعى للجنة الحقيقة والمصالحة فى حياة وأعمال شاعر الزنوجة العظيم ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال الأسبق .

ومصطلح الزنوجة صاغة لأول مرة إيمى سيزار شاعر جزر المرتينيك كاستجابة فرانكفونية لهؤلاء الشعراء الأمريكين السود مثل لانجستون هوجز وكونتى كولين وجيمس ويلدين جونسون ، وقد ادعت هذه الحركة أن الثقافة تتحدد بصفتها العنصرية ,إن ثقافة الشعوب الأفريقية ليست شيئا يدعو للخجل ، بل هى ثقافة يحق الاحتفاء بها . وهذا لم يكن يعنى رفضا للثقافة الفرنسية . أبعد من ذلك أن سنجور الذى أصبح أول أفريقى فى الأكايمية الفرنسية، قد استبدل أخيرا حبه كله للزنوجة بتبعية عبر عنها بقوة لما يسميه هو Metissage أى التهجين أو التخصيب الثقافى وفيها أن الثقافة الفرنسية تمثل إلهة الحضارة الإنسانية .

هؤلاء الكتاب الذين استوعبتهم الفرانكفونية يدهشون شوينكا لأنه يرى فيهم أسلافا لهذه الرغبة التى تسعى لإسقاط عبء الذاكرة واحتضان ألهة الغفران. والتى تشوه وجه أفريقيا والأفريقيين فى نظره . يقول كارليك فيليب فى عرضه لهذا الكتاب : (4)

" حين يحمل شوينكا ما هو أدبى الى السياسة ويستكشف الأسباب التى لم تسمح للزنوجة بأن تصمد فى عالم المتكلمين بالإنجليزية، نجده موحيا وأصيلا . فهو يتأمل الأسلوب الذى من خلاله كانت أفريقيا تتراءى لمن يعيشون فى الشتات إما إنها " ماضى مستمر Past continus " أو حنين جارف للماضى " Nostalgic past من حيث أن ذلك يعتمد على المكان الذى ينظر منه الإنسان الى القارة أكان فى أمريكا أو فى الكاريبى " .

ثم يعلق على الكتاب بقوله :

إن تحليل شوينكا لمشكلة القرن العشرين المتعلقة بالذاكرة والغفران فى عالم الأفريقيين هو تحليل على درجة كبيرة من الأهمية . وقد جاء فى وقته . فأفريقيا لا تستطيع أن تتحمل تموين الغرب وامداده بالمواد لقرن آخر من الزمان ، وهى عاجزة فى الوقت نفسه عن تنظيم ما يسمى بقيادتها . ولا يمكنها أن تستغنى عن قرن أخر تنزلق فيه من " حقيقة " معترف بها الى " مصالحة " مريحة ودون أن تتبنى أسلوبا صارما لاختبار الذات وموقفا أشد قوة فى مواجهة سادتها من المستعمرين السابقين .

ثم يختم الكاتب كلامه بأن تحليل شوينكا لهذه المشكلة هو مبادرة بإطلاق القذائف وسوف يكون هذا بالتأكيد هو إحدى مناظرات القرن الحادى والعشرين .

هذه ليست المرة الأولى التى ينتقد فيها شوينكا دعوة الزنوجة ، فقد هاجم الزنوجة فى مؤتمر كمبالا 1962 للفنون الأفريقية وقال " إن النمر لا يقف فى الغابة لكى يقول أنا نمر " وقد أوضح ذلك فيما بعد بقوله :

" التمييز الذى كنت أقصده فى ذلك المؤتمر كان تمييزا أدبيا خالصا . كنت أحاول التمييز بين الدعاية والأبداع الشعرى الحقيقى . بتعبير آخر ، كنت أقول ، إن ما يتوقعه الإنسان من الشعر هو قيمة شعرية جوهرية ، وليس مجرد تسمية" . ثم عاد ينتقدها فى كتاب آخر . فما هى حقيقة الزنوجة ؟ وما سر صدامه معها ؟ وكيف تتعادل الزنوجة مع لجنة الحقيقة والغفران فى جنوب أفريقيا التى تحاول تبرئة البيض من جرائم الحكم العنصرى ؟

إن مصطلح الزنوجة تمت صياغته لأول مرة فى أوائل الثلاثينات عن طريق إيمى سيزار شاعر المارتنيك الذى يعتبر مصدر الالهام الأكبر لهذه الحركة الشعرية بين الأفريقين الناطقين بالفرنسية . ثم انضم اليه ليون داماس من غينيا الفرنسية وليوبولد سنجور من السنغال .

وقد اقتنع دعاة هذه المدرسة بأن هناك فروقا فعلية بين البيض وبين السود فى القدرة على الإدراك ، أى الفهم الأساسى للواقع ، وأن الأدب الجديد الذى سوف يعبر عنهم سوف يجدون أصوله فيما يظنون أنه الحساسية الزنجية " الخاصة " أى الاحساس بالإيقاع ، بالأسطورة ، بالطبيعة ، بالحياة الجنسية والعاطفية وتضامن الجماعة . فأخذوا يمجدون ماضى أفريقيا ويحنون الى صور الجمال والأنسجام فى المجتمع المصرى الأفريقى التقليدى والتى تقوم فى رأيهم على العواطف السوداء وعلى المعرفة الفطرية Intuition كنقيض للعقل والمنطق الهلينى .

وقد تعرض بعض السود لإنتقاد هذه الدعوة على أساس أنها قائمة على اعتقاد غير أكيد بالنسبة لجوهر الثقافة السوداء ولأن دعاة هذه المدرسة أغفلوا أمر الواقع السياسى المعاصر . وكان أهم هؤلاء النقاد هو المفكر السياسى فرانز فانون .

وظنى أن نقطة الصدام بين شوينكا وبين أصحاب هذه المدرسة تكمن فى إيمانهم بأن ثمة فروقا طبيعية بين البيض والسود فى الفهم والادراك مثل قولهم بأن الثقافة الأفريقية تقوم على العواطف السوداء وعلى المعرفة الفطرية أو على الحدس كنقيض للعقل والمنطق الهلينى . هذه المقولة تتطابق تقريبا مع ما كان يردده العنصريون من أن البيض يملكون العقل التحليلى والمنطق الفلسفى ولهم القدرة على التفوق فى العلوم وفى الفنون . وبهذا يبررون تسلطهم واستغلالهم للأفريقيين .

وهذه المقولة هى التى حاول شوينكا أن يدحضها فى محاضرته التى ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة نوبل (6) ، اذ خصص المحاضرة كلها للحديث عن السياسة العنصرية الوحشية وقال : إن البيض لم ينظروا أبدا للسود على أنهم بشر وعاملوهم على أساس أنهم حيوانات. ورفض مقولة أن الأفريقيين عاجزون عن التفكير والبناء . وقال إن نظام جنوب أفريقيا التعليمى لو تحلى عن العنصرية وسمح بتعليم الأفريقين لبرز منهم مئاب العلماء والمفكرين الذين يستحقون جائزة نوبل . أى انه اتخذ من حصوله على الجائزة دليلا على قدرة الأفريقيين على التفوق فى مناحى الحياة وطالب بإنهاء كل مظاهر هذه السياسة والعمل من أجل إقامة مجتمع ديمقراطى لا تفرقة فيه بين البشر بسبب اللون أو الجنس أو الدين. وهذه مسألة ضرورية لخدمة التنمية والسلام العالمى.

كانت محاضراته مليئة بأدلة الإدانة للأوربيين، من حوادث أو شهادات واعترافات لبعض المفكرين وزعماء الأحزاب حتى الاشتراكيين منهم وذلك عن احتقارهم للسود . وكانه كان يصر على طلب الاعتذار ورد الاعتبار للأفريقيين . هذا هو مضمون محاضرته . مما يؤكد وعيه بمشاكل القارة واصراره على المطالبه بحقوق هؤلاء المظلومين .. ومن ثم كان موقفه المخاصم للزنوجة .

هوامش:

1-الأسد والجوهرة (من المسرح العالمى) الكويت ديسمبر سنة 1997

2- Mail & Guardian, Johensburg South Africa 16, October 1998.

3- Conversation with Nobel Laureate Wole Sayinka

Institute of International Studies , UC Berkeley April 16,1998.

4- Truth and Reconiliation

(The New York Review of Books).

5- The Emergence of African Fiction Macmillan Press L.T.D.1978.

6-Insitiute of World Theatre 16/12/1986.

7- The Writing of Wole Soyinka P.11

8- The African Ecperience in Literature and Ideology P.188-199.

غير المعترف به :

بين سطور كتاب "الدين البدائى " لمؤلفه بول راوين وبين سطور قصيدتى"إدانر" شذرات من مسرحياتى ومن قصائدى وكذلك رواية،وأجزاء من مذكرات سجين التى تشكل مادة هذا الكتاب.وهناك ست كتب أخرى أخفيت وجه الكتابة فيها مع كتاباتى خشية أن تقدم مفتاحا يقود إلى إعادة بناء الملابسات المحددة باتهام بعض الضباط الأبرياء.وأنالا أستطيع حتى أن أذكر عناوين هذه الكتب وأقل من ذلك لآ استطيع أن أشير إلى فترات سجنى التى هربت فيها هذه الكتب إلى داخل السجن.فبعد متعة القراءة التى لا توصف مضيت فى تغطية المسافات بين سطورها بكتاباتى.

لقد كانت هذه الكتب بين العديد الذى أرسل إلى أثناء وجودى فى السجن من مصادرعديدة.فى البداية كانت الكتب ترد سريعا. (إقرأ الخطاب المنشور فى الهامش)بعد ذلك كانت الكتب تترك فى مكاتب السجن بلاجوس وكادونا ليتراكم عليها التراب والعنكبوت.لقد كانت الكتب بل وكل أشكال الكتابة تمثل على الدوام هاجسا مرعبا لهؤلاء الذين يسعون لطمس الحقيقة.لكن برغم إتخاذ أشد الإجراءات الأمنية ألتى أتخذت ضد أى سجين فى تاريخ السجون النيجيرية، وهى إجراءات تم اتخاذها بقصد إحتواء عقلى وتدميره، رغم هذا كله، فإن الاتصالات لم تنقطع بل استمرت. لكن بصرف النظر عن درجة مكر هذا السجين، وسعة حيلته- وتعريف طبيعة السجين بأن فيه مكر الحيوان، فإن فعل الشجاعة الانسانية التى قام به بعض الإستثناءات من حراس السجن كان له الدور الرئيسى فى بقائه على قيد الحياة. لا يمكننى حتى الآن أن أرد هذا الدين باعتراف علنى، حتى فى فترة السنتين التى كنت فيها حرا لم أجرؤ على الاتصال بأحد من هؤلاء لعلمى أن أكبر أجهزة الأمن المنتشرة فى كل أنحاء القارة لم تزل مهتمة اهتماما شديدا بمعرفة كل اتصالاتى . فلكل هؤلاء جميعا أقول: صبرا ... ففى استمرار الجهود لهزيمة هذا الشر وتدميره تدميرا كاملا سوف تتم تسوية هذا الدين . وول شوينكا

حضرت السيد ...

بخصوص وول سوينكا : المعتقل مدنيا.

" لقد تم توجيهى لكى أشير إلى خطابكم المرسل فى 24 يناير 1968،وأن أخبركم مع الأسف الشديد أن المراسلة مع الاسم المذكور عاليه ممنوعة.

لذلك فإنى أعيد الخطاب ومعه كتاب بنجوين " أربعة حقائق إغريقية "

توقيع : أجونى ألى مدير السجن

الفصل الأول

خطاب إلى الوطنيين

يدفعنى الى الكتابة الآن موضوعان ماثلان أمامى على الطاولة. أحدهما ا العدد الأخيرمن مجلة ترانزيشان التى قدر لها أن تبعث ثانية فى مدبنة أكرا.و الثانى هوبرقية جاءتنى من الوطن، تحمل رسالة غاية فى البساطة تقول : الرجل مات .

مع ذلك فإن الحافز الأول هو خطاب من أحد ضحايا الفاشية الإغريقية الحالية الذى أحدث لى صدمة اعتراضية.هى دائما صدمة أن تقابل تجارب منسوخة نسخا من تجارب إنسان آخر خصوصا تلك التجارب التى تنتج أحاسيسا، وأفكارا، وردود أفعال، بل وتعبيرات متطابقة تقريبا عند الإنسان الآخر.لأن الأحاسيس التى نشعر بها شعورا حميما تكون مخيفة الى حد ما.وهذا مانعرفه بالطبع. الواقع إنه اقتناع كلى لايقبل التجزئة يؤكد بقاء المحنة، يتسلح باستمرار بمعرفة الأسلاف فى هذه الدائرة التى تحافظ على بقاء سجين فى أحلك لحظات حياته، وحين يستعيد حريته، يظل يلح عليه شعوربأن عليه عهد وواجب لكل ضحايا السلطة السادية فى داخل وخارج وطنه .

كاتب هذا الخطاب أستاذ فى بلاد اليونان، هو جورج مانجاكيس، وهو الآن أسير الديكتاتورية الفاشية. (كان خارج السجن وقت الكتابة) وأنا أقتبس الآن بعض فقرات من خطابه لتدعيم بعض الحقائق البسيطة عن حياة السجين المزعزعة فى عزلة. يبدو لى أن مثل هذه الشهادات ينبغى أن تكون نوعا من سلسلة خطابات تعلق دوما على ضمائر العالم الضبابى. فى سبيل هزيمة، واقتلاع أى مفاهيم أو إدعاءات بوجود قاعدة لتخفيف وطأة جرائم التعذيب التى تمارس على العقل الإنسانى، فلابد من الاستيعاب الكامل للمدى الذى بلغه هذا التنكيل غير الطبيعى.بعد هذا، لايمكن تقديم إلتماسات ولا مجادلات.كل فرد سوف يقوم بإجراء بسيط فقط للاختيار- هل أقول نعم أم لا لهذا؟

كتب السجين اليونانى:

من بين أشياء كثيرة لوجودك فى السجن هو الشعور العميق بالرغبة فى التواصل مع أخوتنا فى الانسانية. إنها حاجة تؤدى أحيانا إلى اختناق الانسان.

فالدفاع عن النفس.هو الحافز الذى يدفعنى للكتابة. ذلك هو الذى مكننى من الاحتفاظ بعقلى تحت السيطرة.فلو تركته طليقا، دون سند من إطار الفكرة المكتوبة، فإنه يتوحش، وقد يتخذ مسارات فرعية شريرة، وينتهى به الحال إلى أن يلد وحوشا.

.... نحن نحتاج الى عقل شخص آخر لكى نستمر فى العمل بالاتفاق مع عقلنا. كذلك فإننا نحتاج الى لحظات خالية من التفكير.

إننى شاهد على المسارات الفرعية ، الشريرة والغريبة للعقل البشرى الناتجة من احتجازه فى سجن انفرادى. شاهد على الوحوش الغريبة التى يلدها. من المؤكد أن كل السجانين وحراس السجون يعرفونها. إنهم يخلقون تلك الظروف خصوصا من أجل تلك العقول التى يخشون وجودها.ثم ينتظرون خفية حتى يحدث الانفجار.من الضرورى أن نتذكر دائما بأننا نعرف فقط الذين نجوا من هذا الممر المعادى للإنسان وبقوا على قيد الحياة.

لقد أخذ هذا الكتاب أشكالا كثيرة. منها مسألة ما الذى يجب أن يحتويه. وما الذى يجب تأجيله، مالذى يجب أن نمحوه كليا، هذا كله كان خاضعا لمشاكل الملاءمة.لقدرتى المستمرة على التأثير فى الأحداث داخل بلدى، وفى تحقيق التغييرات الثورية التى أصبحت مكرسا لها أكثر من أى وقت مضى.وكذلك اعتبارات سلامتى الشخصية، وعدم الرغبة فى فك آخرالقيود عن نظام يجبره احساسه بالذنب على البقاء بالقوة فى سلطة فاقدة للمصداقية. كل ذلك أدى إلى تغيير الفورما، والعنوان، بل وفكرة هذا الكتاب إثنتى عشرة مرةعلى الأقل. ففى الأسبوع الماضى فقط شطرته إلى قسمين. ليبقى أحدهما مؤجلا، كسيف ديموكليز، منتظرا، اللحظة الملائمة تماما للقصاص السياسى.وهذا الصباح كان العنوان لايزال" إعدام بطىء دون محاكمة" وفى وقت من هذا الصباح وصلنى العنوان الآخر فى برقية تحمل الكلمات البسيطة التالية: الرجل مات.

فى البداية صدمتنى صياغة الكلمات ، أعطتنى رنينا غريبا ثم رنينا مألوفا. وتكمن ألفتها فى أنها نهاية حكاية أخلاقية، كلبية- "إنه ذلك الكلب الذى مات" نطق جذاب انسانيا، عيون الجراح فوق الكمامة ، أو مفاجأة شيطان التعذيب هو الذى أساء تقدير قوته.فقد سمعت هذه النغمة فى أصوات من الماضى ,واصوات من المستقبل. ويبدو لى حقيقة أن هذا هو الشرط الإجتماعى للطغيان . الرجل مات . كلب مات . الموضوع مات.

يموت الانسان داخل كل قلب يقف صاحبه صامتا فى وجه الطغيان.

الكلب فى هذه الميتة القريبة كان صحفيا، اسمه " سيجن سويميمو" .تم ضربه بوحشية، هو وزملاء آخرون، بواسطة بعض العسكر وذلك بناء على أوامرالحاكم العسكرى للغرب، والسبب؟ هفوة خيالية.لكنه كان محظوظا فى البداية على الأقل،إذ حصل على مساعدة من الاتحاد الخاص بمهنته، وحين ساءت حالته الصحية،أجبر الحاكم على حساب الولاية، على حسابنا، انت، وأنا، وليست نتيجة لتكليف هذا الحاكم بدفعها عقابا له.أجبرأن يرسله للعلاج فى لندن. ولكن الغرغرينة بدأت تشتد فى الساق المصابة وأدت إلى بترها.

لقد تابعت حالته باهتمام، وبحثت عن مستر سويميمو فى لندن فوجدت أنه سافر عائدا إلى نيجيريا. بعثت كلمة إلى أحد الزملاء طالبا منه متابعة حالته وموافاتى بأخباره. وجاءت إجابته فى البرقية الموجودة بجانبى فى هذه اللحظة: الرجل مات .

فى هذا المساء فقط تعرفت على العنوان الوحيد لهذا الكتاب.لقد أدركت أيضا أننى تحركت منذ وقت طويل خارج نطاق المصالحة، حتى أن هذا الكتاب الآن،وكذلك تلك الأشياء التى يجب أن تحذف فقط، هى التى يمكن أن تعرض حياة أولئك الذين تعتمد عليهم الثورة الحقيقية فى داخل الوطن. حكمى أنا فقط على هذه الأمورهو المفيد ، وخبرتى، التى يدهشنى جدا جدا أنها خبرة فريدة بين الخمسين مليون مواطن فى هذا البلد.

يجب على أن أستشهد بجورج منجاكيس مرة أخرى،وبهذا العمل،فإننى أعترف أنه يعطينا ليس فقط تعبيرا معاصرا عن مصيرنا الراهن بل إنه يقدم فى الوقت نفسه علاجا صحيا لأنه ينقذ الكلمات من حالة الانحطاط التى كانت تستخدم فيها بواسطة السجانين، وهو انحطاط سوف يتبين فى هذا القسم من الكتاب، أنه كان يشكل أخطر التحديات أمام بقائى على قيد الحياة، فى أعقاب فنتازيا عن هروبى من السجن ا نسجها خيال أولئك الذين كانوا يتهيأون لاغتيالى .عندما بدأت الكتابة سرا فى السجن لاحظت كيف أن عقلى كان يدور ويلف بحثا عن بدائل لإحدى الكلمات المخيفة متبنيا أقصى طرق المراوغة فى تغيير فقرات كاملة، بل تسلسل كامل للإحداث تجنبا لمفهوم تلك العاطفة المسماة " إذلال". هذه الكلمة "إذلال" حقيقة العاطفة، تفعيلها فى هذه اللحظة مختزن ومعترفا به أخيرا فى سياقه الصحيح،باعتباره الشعورالمبجل الوحيد بالنسبة لأولئك الذين لم يحققوا قبل ولادتهم بهرمون الخنوع والاستسلام الذليل للعبودية.

لقد كتب جورج مانجاكس يقول:

" عندما تفرض الديكتاتورية على بلدك، فإن أول ماتشعربه، فى اليوم الأول- وهو شعورتلقائى ومباشرتماما، بعيدا عن كل تصورات العقل- هوالشعور بالإذلال.إذ يتم حرمانك من حق اعتبار نفسك جديرا بحمل المسئولية عن حياتك ومصيرك. وهذا الشعور بالإذلال ينمو يوما بعد يوم، بفضل جهود الطغاة التى لا تتوقف عن إجبار عقلك على القبول بكل أشكال السوقية والابتذال التى تشكل عالم الديكتاتور العقلى، فتشعر أن عقلك ووضعك الانسانى يتعرضان للإهانة الشديدة فى كل يوم.ثم تأتى محاولة أن يفرض عليك عن طريق التخويف والترهيب أمر قبول أفعالهم البربرية المختلفة التى نسمع عنها، والتى تراهم يرتكبونها فعلا ضد اخوانك فى الإنسانية فتبدأ تعيش يوميا فى إذلال الخوف، وتبدأ تكره نفسك . حينئذ تحس بجرح عميق فى ضميرك كمواطن فتبدأ الإحساس بالتضامن مع الناس الذين تنتمى إليهم ."

إننى أعيش تجربة التضامن مع هؤلاء الناس الذين يشاركوننى الإحساس بإلإذلال الذى يمارسه االطغاة علي حياتنا. إننى أستبعد تجاهل الآخرين جميعا. فمهما كانت العوامل التى تجعل من إحدى الديكتاتوريات قدرا محتوما فى

المقام الأول، فإن تلك العوامل لم يعد لها وجود الآن. فالديكتاتورية الراهنة هى استيلاء على السلطة يحط بكرامة الإنسان، فهى إذلال إضافى لأنها،فى حدودعلمك وعلمى، هذه الديكتاتورية، قد تجاوزت فى غطرستها الوحشية كل الحدود، فى القمع، وفى الفساد المادى، وفى إحداث انقلاب منهجى لكل الأغراض الثورية الأصيلة بأسوأ أعمال التطرف التى سبقت قيام حكومة المدنيين فى 1966. إنه اعتراف مخجل لكنه الحقيقة. إننى أوجه هذا الكتاب إلى الناس الذين أنتمى إليهم، ليس إلى النخبة الجديدة، وليس إلى تلك الطبقة العريضة من العبيد المنتفعين بالامتيازات الذين يمسحون بلاط القصور التى يسكنها الطغاة الآن. إننى أشهد بحكم خبرتى الشخصية وبهذا فإننى أتهمهم بجريمة الانتفاع بمصائب الحرب. أنأ لا أقصد الانتفاع بالمفاهيم المادية – فتلك الحقيقة معروفة جيدا، ومن السهل استيعابها فى نطاق صدمات المجتمع المادى .هناك ،مع ذلك ، شكل آخر للإنتفاع، إذلال أعظم يبدو واهيا جدا بحيث لا يقوى على تحدى إرادة شعب أنهكته الحرب، وهذه سلطة تنتفع بالكارثة العامة و التضحية المتبادلة فى الحرب. وأعظم إهانة توجه لذكاء شعب هى أنه ، حسب المفارقة الكبرى،إذا كان المنتفعون بهذه السلطة، ليسوا أبرياء تماما من ارتكاب الأفعال الأساسية التى أدت الى الحرب ذاتها.فإن شهادتى تقول إن درجة الذنب هى فقط التى تبقى موضوعا للجدال،أما حقيقة الذنب فهى واضحة بذاتها يعترف بها المنتفعون بالسلطة حاليا. إن إفراطهم الحالى والصفح المتبادل عن الجريمة فرض على هذا الكتاب أن تكون محتوياته رافضة للمصالحة، لأن أولى الخطوات لإسقاط الإرهاب هو فضح نفاقه الذاتى، فضح صورة البر الذاتى المجللة بالكذب والنفاق.

إنها فقط الخطوة الأولى، ففى حياة أى شعب يخضع بارادته إلى " إذلال الخوف اليومى" يموت الإنسان. (14 ديسمبر 1971)

إبادان – لاجوس

الفصل الثانى

اعتقالى واحتوائى هما شيئان مختلفان. أحدهما عجلت به النشاطات التالية:

إدانتى للحرب فى الصحف النيجيرية وزيارتى للجزء الشرقى ، ثم محاولتى تجنيد المثقفين داخل نيجيريا وخارجها لتكوين جماعة من أجل منع توريد الأسلحة لكل أنحاء نيجيريا؛ لخلق قوة ثالثة تستثمر موقف الجمود العسكرى،لرفض وإنهاء انفصال بيافرا ،وإيقاف الديكتاتورية العسكرية ومذابح الإبادة الجماعية والتى جعلت كلا من الانفصال والحرب قدرا محتوما.

لقد تم تقييد نشاطى بوضعى فى السجن، وتم تجميده وأوشكت تصفيتتى أن تتم بنجاح بسبب نشاطى داخل السجن.فقد كتبت خطابا شرحت فيه أحد ث الأدلة على سياسة المذابح الجماعية لحكومة جوون وهربته من السحن. وكان ذلك كشفا للمذنبين؛ ففكروا فى تسوية خيانتهم بمؤامرة إجرامية.

أوضحت فى البداية أن اعتقالى وتجميدى كان أمرين مختلفين؛ وهذا ليس صحيحا. لقد كان صحيحا فقط حتى وقت اعتقالى، وحتى وقع ذلك الخطاب عن طريق الخيانة فى ايدى المتهمين.لم يفكر الذين وضعونى فى الحبس إلا قليلا فى مسألة ابقائى خارج دائرة التداول (الاعلامى).مع ذلك، فمن الناحية الجوهرية فإن فعلى العنف والاعتقال ينبعان من نفس المصدر وهو الفساد. الأهم من ذلك، أن الخطاب تم تهريبه من داخل السجن وكان تصديقا للموقف السياسى الذى أدى إلى اعتقالى. وأنا اليوم أدرك حقيقة هذا التحدى المباشر والفورى والمتواصل للتأكيد على فساد السلطة عند المنبع. الذى فرض على واجبا بعيد المدى لتوصيل أحدث برهان على الأساس الأخلاقى لموقفنا إلى رفاقى فى الحرية. لقد فرض علينا إلتزاما بكل الأعمال الملائمة التى تثبت موقف اخلاقى مطلق حتى فى وسط ظروف الحرب. (لأننا الآن، بسبب الغزو الذى تم للقسم الأوسط الغربى أصبحنا نواجه حقيقة أن ذلك صار حربا أهلية أخرى سوف يستمرالقتال فيها إلى مالانهاية)

من أجل هذا فمن الملائم أن يكون نص الخطاب مقدمة لهذا الكتاب، لأن موضوعه صناعة الانفصال والحرب، وساهم هذا المستوى الحالى فى تربية الغرائز الوحشية فى شعب تهرع جموعه بمئات الآلاف، نساء وأطفالا، شحاذين أو من أفراد النخبة الفارغة، إلى التنزه على أساس الاعتذارت العلنية للمجرمين الذين ثبت تورطهم والذين لم يثبت تورطهم .إن الموضوع الأعمق للخطاب هو – العدالة- وهو يلخص مناظرة تمت تغطيتها بغلالة رقيقة هى قشرة الدم.هذه القشرة كانت تتآكل يوميا وتزداد رقة نتيجة لأحذية الطغاة التى تدوس عليها باستمرار.إنه يلخص الفشل الأخلاقى الأكبرفى الأمة. الفشل الذى أدى إلى الانفصال وإلى الحرب. حقيقته ببساطة هى أنه حدث حينذاك، كما يحدث الآن، إذلال للأمة ، بسبب خيانة تطورت واستمرت وازدادت حدتها بواسطة قوى تفتقر إلى هدف أوايديولوجيا مابعد البقاء الذاتى عن طريق الإرهاب المنظم.فكان الفشل فى أن:

" تكتسب وضوح الرؤية التاريخية غير العادية، وأن ترى بوضوح كامل أن الأمم المهانة والمستذلة تنقاد حتما إما إلى تحلل قاتل ،أى ذبول أخلاقى وروحى،أو إلى رغبة عارمة فى الانتقام، ينتج عنها سفك الدماء والانقلابات."

لقد استشهدت بمنجاكيس لآخر مرة. الآتى هو نص الخطاب الذى لايزال مخبأ فى الدواليب السرية، عند الوطنيين من حماة هذا الوطن ومنقذيه حتى اليوم.

ديورانس فيل (سبتمبر1967)

منذ بضعة سنوات مضت عندما ، تم إعادة ثلاثة جثث لثلاثة من العاملين فى مجال الحقوق المدنية فى أعماق الجنوب الهمجى من أمريكا ، أحدهما رجل أسود، نحن ، مثل الملايين من الشعب الأسود عبرالعالم كله شعرنا باعتقاد مقرف أن الآخرين من البيض (واغنياء), فاستجمعنا الجهد الضخم لاكتشاف مصيرهم واضطررنا للقيام بمحاولة عابثة لتقديم قتلتهم إلى العدالة.

لقد دارت العجلة دورة كاملة علينا، دعنى أذكرك بموضوع إمانويل أوجبونا المصورالذى ينتمى إلى قبيلة الإيبو، الذى تم اختطافه من الاستديو بأودوأونا، فى إبادان فى وقت ما من العام الماضى، وتم قتله وإلقاء جثته فى الأحراش على بعد أميال . وتم إتهام جنديين من الفرقة الثالثةهما، أمبروزى أوكبى وجانى بيبان بقتله وسيقا الرجلان الى المحكمة فى إبادان. أحاول أن أتذكر البطء الغامض فى محاكمة هذين الرجلين والمعوقات المقتعة والمناورات التى كان يمكن أن تفيد أى محكمة عشائرية حصينة فى جنوب ألاباما. تعجبنا برهة عندما أعلن المدعى العام فى النهاية أنه "بناء على التعليمات" فليس أمامه أى اختيار سوى سحب القضية.وقال إن السلطات العسكرية،قد قررت أن تتولى أمورها بنفسها.كانت هذه هى اللحظة التى يجب فيها أن نتكلم وننشط ؛وكالعادة استقر رأينا على هذا المرهم المسكن للضمائر الخائفة. " انتظر وشوف " .بهذه الحادثة ليس فقط محاكم الجزء الغربى،ولكن مظهر القانون والعدالة فى الدولة الفيدرالية كلها تم تحريفه لعقيدة الإبادة الجماعية المبررة .

والآن استمع إلى عاقبة الأمر.فقد عشت لمدة ست أسابيع فى صحبة حميمة مع ناتجين لما وصفته يوحنا أرنديت (إيخمان فى أورشليم) بتعبيرغريب- تفاهة الشر. وجدت نفسى (لعله القدر كما تسميه) محدد الإقامة هنا- من كل بلوكات الزنازين فى سجون نيجيريا – لأكون جار ملاصق لهؤلاء الجنود المتهمين ، مجبر على الاستماع ، وعلى الملاحظة، ، وأكدت بعيدا عن كل شك حججى التى أصر عليها حول ماذا حدث للبشر وللأمة عندما يعلن خفية أن أى جماعة فى هذه الأمة هى خارج حماية القانون وتعد لعبة نزيهة لأى واحد من المتعصبين ممن لديه أى ضغينة ليقوم بعملية القتل.هذا ليس المكان المناسب لمزيد من الصراحة، خصوصا حول شعور التفاخر والاعتزازالذى يصحب الاعتراف بالذنب كما عبرعنه أحد هذين الرجلين. يكفى أن نقول إنه منذ ثلاثة أيام مضت – يحسن بنا أن نستمر فى تسميتهما متهمين- قد تم إطلاق سراحهما من محبسهما البديل فى حالة انتصار.

سوف يكون هناك وقت لتناول هذه الأمور وأمور أخرى كثيرة مما قد رأيناه يحدث فى هذه الأمةخلال السنوات الماضية إذا عاد الهدوء يسود مرة أخرى.هناك بعض الأمور التى لاتحتاج ،ولا يجب أن تنتظر لحظة أطول. إنه من الضرورى حتى إذا تمت محاكمة هذه الحرب غير المقدسة تبقى هناك بقعة تعلن عن نفسها بجسارة بأنها معارضة لعقيدة مذهبية حبيثة ومهلكة ، التى يمكن بحكم طبيعة النضال الحالى أن تتدهورإلى حرب إبادة متوطنة. علاوة على ذلك ،فإننا لولم نكن قصيرى النظرولا نعترف بأى اهتمام زائد بنوع المجتمع الذى يجب أن ينهض على رماد هذا المجتمع، فمن الواضح الان أنه لابد من وضع الأسس فورا التى يمكنها أن تنقذ كفاحنا من الممارسة العامة للمذابح الوحشية .ومن أصل وسبب اللعنة الانسانية .لابد من البدء فى مكان ما، لنقم بها نحن فى الغرب .لابد أن تتوقع سوء التفسير المتعمد من هؤلاء القتلة والاتفاق داخل الإقليم الغربى، مع حلفائهم الملطخة أيديهم بالدماء فى أقاليم أخرى. عاجلا أو آجلا سوف يشعرون بالعار بسبب اتبعاهم هذا المثل الواضح :وأنا أقترح:

أولا وقبل كل شيء ،أن يعلن استقلال القضاء فى الغرب . لا أعرف ماذا يعنى هذا بالنسبة لغلاقتنا مع المحاكم الفيدرالية ولا أهتم بذلك على وجه الخصوص.أنا أطلب فقط هذه الطريقة أو الأخرى،إن القضاء فى الغرب يضع نفسه فى هذا الموضع حتى لا يمكن لأى سلطة من الداخل أو الخارج أن تتدخل ثانية فى عمليات التقاضى وتحوله، كما هو الحال اليوم ،الى مشارك بالخطأ فى عقيدة الإبادة الجماعية المبررة.

ثانيا: ثمة قانون يجب أن يصدر فى الإقليم يعتبر قيام أى رجل بالتحرش أو التدخل بأى طريقة فى شئون أى شخص آخر لأسباب قبلية، أو ممارسة أى شكل من أشكال التمييز على أساس قبلى ، جريمة.(أضف الديانة إلخ، إلخ ، إذا أردت أن تجعله قانونا شاملا)

دعنى أكرر: إن الذى حدث فى قضية إمانويل أوجبونا هو مثل واحد من ألف مثل لفظائع الإبادة الجماعية الرهيبة التى وافق عليها قضاة الغرب ، بتأييد من بعض القوى والسلطات التى يجب كشف أسمائها، وإدانتها وإجبارها على الوقوف أمام المحاكم فى أحد الأيام، هؤلاء الذين سممت فلسفتهم أمال هذا الوطن فى المستقبل، والتى تدين قطاعا كبيرا من شعبه و تعرضه للقتل والتشويه المدبر سلفا باسم الوحدة. كونوا أمناء واسألو أنفسكم، ما فائدة "كود السلوك" إذا كان الجيش يعج بسفاحين معترفين بجرائمهم - ولأن ضحاياهم كانوا من الإيبو - فإنهم يعاملون حتى فى فترة احتجازهم القصيرة كشخصيات مهمة جدا، ويتم السماح لهم بالخروج للتهوية بانتظام تحت قناع " التحقيقات"، حيث يعاملون معاملة محترمة ومتميزة حتى من جانب كبار المسئولين فى إدارة السجن.؟ إن " كود السلوك "ضد وجود الألف، بل العشرة ألاف من هذا النوع المغرور؟ وبين جنود أغلبهم من الأميين ؟ أنا أسمى هذا نفاقا.

ورغبة فى المقارنة، اخترت خبر من جريدة " النيجيرى الجديد" فى 30 يناير1967:

الحكم على رجل بالإعدام ، وسجن ثمانية آخرين بسبب قتل شاب .

لقد حكم بالإعدام على رجل واحد ، وعلى ثمانية آخين من بينهم أحد رجال الشرطة الوطنية ، بالسجن لفترات مختلفة تتراوح بين عشر وثلاث سنوات وذلك فى المحكمة العليا بسوكاتو، بسبب قتلهم شاب وتجمهرهم بطريقة غير قانونية فى سوكاتو خلال الاضطرابات. والرجال هم مايلايى (إعدام)، ليبا مامان، وعثمان سوكاتو، عشر سنوات لكل منهما، ألكالى تنجازا، دينيا مامانو وارنو، ألتين وزاجو تم الحكم على كل منهم بخمس سنوات وعلى بالاراب دوجن داجى بثلاث سنوات .

كان عثمان شاويشا فى قوة سكوتو المحلية. وطبقا للإدعاء ، ففى الفترة من 29 سبتمبرحتى الأول من اكتوبرفى العام الماضى، قام مايلايى وأخرون بالإغارة على منزل فى حى جايا حيث يعيش أحد حراس السجن الحكومى، مستر جوزيف يوشى، من إيجالا.

وقال الادعاء أن ميلايى وعصابته، ظنوا أن يوشى من الإيبو.وعندما لم يجدوه فإن أخاه الأصغر أوجيبى يوشى كان نائما فضربه مايلايى على رأسه وقام مايكاوا وهو من حراس السجن بقطع رقبته بسكين . أما الشويش عثمان، حسب قول المحكمة ، لم يقم بأى دورلكن الاعتقاد السائد أنه كان موجودا فى المشهد. القاضى مستر جستيس هولدن، أبلغ المحكوم عليهم أنه بإمكانهم أن يستأنفوا الحكم إذا رغبوا . لأن حكم المحكمة العليا غير نهائى .

إن وضع هذه العينة من الأحداث جنبا الى جنب، حتى بدون التذكير بجو الرعب الواسع الانتشار الذى أحاط بأأكبرعملية همجية شاملة لشعب فى ذاكرة القارة السوداء، كفيل بأن يحطم المنافقين المنكرين من أعضاء النظام. إنه يقرر حقيقة واحدة بسيطة . أنه فى أقل القليل فإن جهاز العدالة موجود فى كل مكان وبعد مذابح الشمال و انعدام أو منع عملها هو قرار مدبر ومختار من جانب حكومة يعقوب جوون. سواء كان هذا القرار يمثل إرادة الشعب النيجيرى أوطرف آخر فإن حكومة يعقوب جوون مذنبة بتهمة التآمر لهزيمة إرادة الشعب .أنا أنكرمسئولية الأول (الشعب). وهذا لايترك لى اختيارا غيراتهام يعقوب جوون وحكومته بالخيانة ، وبتزييف إرادة الشعب النيجيرى .

لكن ربما كان هذا موضوعا منتهيا.لعله لم يحدث. ربما خمسون ألفا من النيجيريين لم يذبحوا بوحشية، وأن مليونا ونصف مليون من السكان لم يهجروا من أماكنهم .ربما أن المجزرة لم تحدث وربما لم يكن لها خطة موضوعة ولكن للمرة الثانية ، ولعل الحرب الأهلية لم تحدث فى أصلها جزئيا بسبب التخريب المدبر لجهاز العدالة والمساواة بفعل الانقلابات التاريخية التى استولت على السلطة. وربما وقائع الإبادة الجماعية ليس لها علاقة بانفصال قبيلة الإيبو .

أخيرا،ربما لايمكن أن تحدث، ولا يمكن التفكيرأبدا أنها سوف تحدث ، مرة ثانية .

مع ذلك ، فإننى أفضل أن أتابع ملاحظتى للنبضات الانسانية.دون أن تعمى عيناى عن الوقائع الفعلية للتاريخ، وهى تسحق بجدولها المتكرر الوحشى هذه الانسانية. إن الكلمات التى قالها دافيد أستور فى الاحتفال السنوى لانتفاضة الجيتو فى وارسوا إنما تعبر ببساطة عن هذه الفكرة: :

عمليات الإبادة الجماعية فى حد ذاتها ترتبط بعمليات القتل الصغرى ... فإذا فهمت العمليات التى تنتج القتل العشوائى فمن المحتمل أكثر أن تفهم بدقة العمليات التى ترتكز عليها عمليات انحراف الحس الأخلاقى . هذه الدراسة الواسعة يحتمل لها أن تساهم فى إعدادنا وإعداد أطفالنا للإنتصارعلى أعراض هذا المرض فى المستقبل أيا كان الشكل الذى يظهر فيه...

يلزمنا أن نتعلم الكثيرعن عمليات الفكر الرهيبة المدمرة التى تجعل الناس يحسون أن أعمالهم ليست فقط مبررة بل إن لديهم واجبا يفرض عليهم تدمير الآخرين. نحن لانستطيع أن نتكلم عن العوامل التى يمكن أن تحرك هذه العملية الخاصة بسيكولوجية الجماعات . فالشكل التالى منها قد لا يكون عرقيا أودينيا بل سياسيا (كما حدث من قبل فى أوقات الثورة أو الحرب الأهلية . ..)

أندونيسيا ....أسابا ... مای لای .باكستان ... أسابا!

لكن هذا الكتاب ليس عن الإبادة الجماعية ،إنه عن القتل العشوائى الأقل نسبيا فى الأهمية - إلا أنه يشبهه بقدر كبير فى أعتراف رئيس العصابة بالذنب – كل مايحتاجون ألى قوله حول الموضوع متضمنا فعليا فى هذا الجزء من الكتاب. أما باقى الكتاب عبارة عن محادثات مع عدد من الأفراد – من مجتمع انتاج الضحايا ذاتيا الذين كانوا أو الذين سوف يجدون أنفسهم فى معركة ليس فقط من أجل فكرة يعتنقونها بل بطريقة حاسمة من أجل حياة مكتملة.(بقاء مكتمل) إنه ليس كتاب من أجل البقاء بل السجل الفردى لحياة واحدة .وربما يسهم على الأقل فى انعاش ضمير العالم عن الوجود الدائم لألاف من الأرواح التى ترزح تحت حكم سلطة منحرفة يتطلب بقاؤها تشرب ذاتى للأفعال غير الانسانية .

ا

الفصل
الثالث

عودتى من مدينة إينوجو أعقبتها حملة مطاردة لاصطيادى دبرتها المباحث العسكرية والجيستابو فى لاجوس. أؤكد أننى لم أقع فى يد واحد منهما لأستسلم أخيرا للاعتقال على يد رجل بوليس عادى لايرتدى الزى الرسمى عند بوابات جامعة (إفى) بعد اعتقاللى دبرت مسألة كبرى

عودتى من مدينة إينوجو أعقبتها حملة مطاردة لاصطيادى دبرتها المباحث العسكرية والجيستابو فى لاجوس. أؤكد أننى لم أقع فى يد أحد منهما، لأستسلم فى النهاية للإعتقال بعد اعتقالى لتأجيل تحويلى إلى لاجوس فترة كافية لتنظيم بعض الاحتياطات الأولية. بدأت إحدى المشادات حول جسدى، تمت هندستها بسرعة أذهلت المسئولين فى لاجوس وأغضبتهم. فقد زج فيها باسم الحاكم العسكرى للغرب. تأخر الأمر أربعة وعشرين ساعة كانت مكسبا ثمينا.لكن فى النهاية بعد كثير من المفاوضات والمكالمات التليفونية، تم الاتفاق على أن يتم ترحيلى إلى لاجوس فى حراسة ضابط بوليس ذى رتبة عالية جدا، لمقابلة جوون. لقد تم الاتفاق بين حاكم الجزء الغربى وبين جوون. سوف نذهب مباشرة إلى ثكنات دودان، وسوف يقوم جوون بتوجيه سؤال أو سؤالين حول نشاطى وبعدها نعود إلى إبادان فى نفس اليوم.

لقد كنت فى فرع (إى) من قبل ، المطاردة مستمرة لجواز سفرى التى خصص لها رجال الأمن ملحق حيازة منذ مناوشاتى الحميدة مع الحكومات السابقة منذ سنة 1962. واستطعنا من وقت إلى آخر من تطويرطريقة ثلاثية سلمية.باعطاء تنبيه كاف عن نيتى للسفر فكنت أتعرض، فى مقابل بيان نوايا الى تفتيش فى المطار ذهابا وإيابا، تفتيش ينزل حتى صرتى ،و السماح بهذا الأسلوب المذل فى المضايقة التى كنت أقاومها باستمراركحق أصيل من حقوقى . الحل المؤقت لايصمد دائما. شىء ما فى الزهو المقنع بالسلطة فى وجوه العاملين بفرع (إى) له طريقة فى تربية روح العدوان حتى فى أشد القرارات برودة. الحيل السيكولوجية كانت واضحة حتى فى داخل حجرات مفترض فيها الحياد حيث كنت أنتظر فيها رؤية الضابط المسئول عن قضيتى. والضباط هناك دائما لا أسماء لهم . إنه دائما (س7)أو(إى 5) لكن هذه الهوية الرقمية تبدو مغلفة بزى إنسانى ساحر، لتمثيل دور الجاهل، وهومعد تماما لإطلاق نتفة مضحكة من المعلومات يتوقع هو أنك سوف تنكرها. مع ذلك فإنهم دائما جهلاء تماما فيما يختص بالسؤال ،لماذا ؟ وما الهدف الذى يخدمه هذا التحرش إذا كان أى مخرب يعرف الكثير مما يفعله بدلا من أن يحمل وثائقا تدينه فى المطار، يعرف ماهو أفضل من حمله مستندات تجعل دخوله وخروجه من المطار من المحرمات - ذلك أن بلدا شيوعيا ختم جواز سفره. وهو يعرف جيدا أن أكثر العناوين خارجيا التى يمكن تقديمها لفرع (إى)هو عناوين المملكة المتحدة القديمة. هذه كانت فقط مجرد استعدادات مفيدة. العقول المشلولة توزع العجز الذى يأتى من هذه المقابلات، فتعرف أن فردا من الناس تمكن من الاستيلاء على السلطة لكى يحد من حركاتك. وكل شىء من حقه ، دون الحاجة إلى تبرير افعاله لك أو للمجتمع الذى أنتما جزء منه. مثل هذه السلطة موجودة لتسفيه حياتك الخاصة بمحاصرة حركاتك وتهديد حياتك بالخطر.

الحاجز الصامت فى فرع (إى) أغلق خلفى.وقادونى إلى أحد المكاتب لكى أنتظر. كانت هناك تحركات. أحسست بكهربة هذه الإدارة مباشرة منذ دخولى. ثم سمعت أصواتا. وظهر أن المفتش من إبادان يتلقى مكالمة توبيخ من شخص عرفته فيما بعد بصورة أفضل .كان المفتش يردد بيانات مهمته ورجل لاجوس كان يخبره بأنه لا يأخذ أوامر من أحد فى إبادان ، مهما كان علو مكانته. كان الصوت عنيفا، مملوءا إحساسا بقوته الشخصية.ثم انقطع الصوت عندما تم اغلاق الباب بعنف.

بعد ثوان قليلة أطل على فى المكتب الذى كنت أجلس فيه، جلف ضخم الجثة له شكل الغوريللا نظر إلى من كل النواحى كما ينظر إنسان إلى حشرة قضى عليها بأن تغرس فى جسمها الدبابيس وتوضع فى غاز الفورمالين. ومازال منتفخا بنشوة السلطة لانتصاره على رجل إبادان.لم يكن لدى شك فى أن صوته هو صوت المستبد. لم ينطق بكلمة. ربما كان حقده من مقابلة إبادان لم يزل ينضح وأنه يحتاج إلى هدف حتى يفيض فيضانه. ربما فكر فى أن يحرقنى بجذوة غضبه المحتضرة، أو لعله أراد حقا - بهذه السرعة فى دفع الباب ليفتحه فقط ليراجع مسئوليته المباشرة بالتعلق فوق أكرة الباب. ربما كان ينوى القيام بحركة لإضعافى بهذه التكتيكات المعروفة.لإحداث الصدمة عن طريق دوامة من العنف

المفاجىء: كل هذه الاحتمالات كانت متوفرة فى دخوله المفاجىء. الشبح، مخيف فى المفاجأة وكان هو فى الحقيقة أشبه بغوريللا هاربة منهكة- لقد تجسد هذا الشبح تجسيدا ماديا وتعلق بفتحة الباب وحملق فى. كان رد فعلى التلقائى تحت السيطرة. لم يكن لدى اختيارآخرغير أن أحملق فيه مباشرة، مستفسرا أولا- لاحاجة بى لاستعداء هذه القرود المتوحشة – لأننى لآ أقابل إلا الحقد، مع تغيير مفاجىء الى نوع من التعبير الذى كنت أرجو أن يسجل كشىء مقبول مهما كان التحدى الذى جاء يستعرضه. لكنه اختفى فجأة بنفس الطريقة التى ظهر بها ، يتأرجح بشعره الذى يغطى زراعيه ، فى اتجاه مروحة السقف. من المؤكد أن قوة ما شدته الى طوايا النسيان أمام عينى وكان من الصعب أن نتخيل أن سرعته كانت بغيرقوة دفع من آخرين .

عرفت فيما بعد أن اسمه – عيسى أديجو، وهو مفتش مساعد.

بعد ذلك جاء مفتش إبادان معتذرا، لم نكن ذاهبين الى ثكنات دودان. يبدو أن الأمر خرج من يديه.ومضى يتكلم ويتكلم ، لايكاد يتماسك من شدة الانهاك العاطفى. أكدت له إننى خمنت ذلك من الأصوات. حينئذ دخل علينا شاب. كوكى، واثق من نفسه، لقد استصغرته من أول نظرة كواحد من تلك البدائل قليلة الخبرة التى شغلت الأماكن الخالية بعد خروج الإيبو من الوظائف المهنية. وهو خارج لإثبات وجوده ، لاتسأل عن ذلك، سلوكه تجاه المفتش الذى يعلوه بعدة رتب كان سلوكا متغطرسا ومتعمدا. سألت هذا المخلوق الجديد عن سبب وجودى فى فرع الأمن بدلا من ثكنات دودان. رفع حاجبه كأنه لم يسمع اللفظ من قبل.كررت له احتجاجى الرسمى فرد على بحدة !

" وماذا لديك لتقوله إلى رئيس الدولة؟ هل تظن أنه يمكنك أن تطلب مقابلة رئيس الدولة هكذا؟"

" عندى موعد معه ، إنه ينتظرنى الآن"

" أنا لا أعرف شيئا عن ذلك. لقد طلب منى أن أوجه لك بعض الأسئلة. أى شخص يمكنه أن يمشى إلى هنا ويقول إن لديه موعدا مع رئيس الدولة "

التفت أنا إلى المفتش. كان يهتز من الدوخة التى لازالت تحيط به فتمتم ببضعة كلمات ئؤكد طلبى. لم يفعل الضابط الشاب سوى أن يكرر:

" قلت إننى لا أعرف شيئا عن ذلك.، أى شخص يستطيع أن يدعى أن له موعدا مع الرئيس " أغضبنتنى الآن عدم مبالاة الرجل فقلت : " آمل ألا تعنى أن رئيسك يكذب. لقد أخبرك توا أننى على موعد مع الرئيس "

نظر (د) إلى أعلى مستفسرا ، متصنعا - من الواضح- أنه الجهل – حينئذ فقط قدم المفتش نفسه، وحكى القصة كلها فى أسلوب محرف مما جعلنى أشعر بالتعب من المشهد. وبدون لياقة تمتم الضابط الشاب ببعض الكلمات كنوع من الاعتذار. لم يكن غريبا بالنسبة لهؤلاء فى فرع (إى) ألا يعرفوا وجوه المفتشين الإقليميين معرفة مباشرة. لقد كان خارج القطر لبعض الوقت – كل

هذا مع بعض التنازلات العابرة. لقد نظرت بإعياء إلى نائب المفتش هذا...أوه إذهب بعيدا يارجل ، إذهب الى زوجتك وأسرتك...وانصرف أخيرا،شاعرا بالذنب ، وأخذ يعتذر لى عن تغيير البروجرام حتى آخر لحظة.

" تعامل مع الأمر ببرود من فضلك، افعل فقط ما تستطيع للتعاون. إننى متأكد أنك سوف تجد نفسك فى أيد أمينة". لقد شعرت بالآسى من أجله :

يبدو أن الضابط الشاب قد أخذ النصيحة لنفسه. لذا بدأ يتعامل مع الأمر ببرود شديد حتى أنه اعتذر عن المشهد الغريب ، وشرح لى أن الأوامر الرسمية تغطى بعضها على بعض أحيانا. لقد طلب الأمن من شرطة إبادان ان يصطادونى وأن يحملونى إلى هنا لاستجوابى. من أجل ذلك ،فإن موضوع ثكنات دودان كان تطورا لا أتوقع أن أحدا منهم يعلم عنه شيئا. لقد قدم نفسه هكذا – على فكرة أنا (دى) – لقد وعدنى بأنه سوف يتصل بياور جوون ليعرف ما الذى يجرى هناك. لقد شاهدته يؤدى كوميديا هزيلة وهو يتحدث فى التليفون. بالطبع الياورغير موجود. لكن تركت له رسالة بأن يرد على رسالة (دى) كأول شىء." حظ حسن " إننى أعرفه معرفة شخصية، فى الواقع إننى أتوقع حضوره هنا بعد الظهر ."

الإعتذارات لم تصل إلى نهاية أبدا، (دى) يعتذر بأنه لم يقرأ كتبى رغم أنه سمع عنى كثيرا." هذه وظيفة كريهة قلما تترك لنا وقت فراغ لممارسة اعمالا من أجل المتعة الكاملة ، كلها نصف ساعة طيبة. قبل النزول إلى العمل. تدخين سيجارة ؟ لقد اخترت أن أدخن سجاير من النوع المصنوع محليا ماركة "موراد" أشعل سجارته وقدم لى النار لكى أشعل سجارتى . ثم بالصدفة " بينما كنا ننتظر مكالمة الياور تكلمنا فى شىء أو شيئين ؟ "

- آخر مرة رأيت فيها أوجوكو؟

- منذ ثمانية أيام تقريبا.

السؤال يدخل فى أرق تكنيكات المفاجأة. الصمت، ثم اللعثمةا لتى أعقبت إجابتى يمكن أن تكون ناتجة عن الدهشة. من الواضح أنه كان يتوقع منى أن أنكر.أو على الأقل أحاول التملص . لقد أعطى نفسه وقتا لإعادة النظر فى مدخله، بالسماح للإستطراد فى الاستجواب أو الخروج به الى قنوات غير منطقية.ثم عودة إلى الموضوع.

" لماذا ذهبت لمقابلته؟ "

من الواضح أن الأمر ليس كذلك ؟ لابد أنك قرات مقالتى فى الصحف "

أوه نعم،" ثم فتح درجا فى مكتبه وأخرج ملفا. مليئا بقصاصات.نعم ، قرأتها وقرات الردود أيضا.فما رأيك فى الردود التى نشرت عى مقالتك؟ النغمة ذات مذاق خاص . كانت النغمة تقول مارأيك فى الاعجاب بنا أليس هذا شىء جميل ؟ وهو ما أعطاها معنى معينا فيما بعد. فأجبت.

"يبدو أنها جاءت من آلة دعائية شديدة التعصب . معظم الاسماء الملحقة بهذه الخطابات مزورة.، خمسة وسبعون فى المائة من الخطابات كتبتها نفس المجموعة من الصحفيين المأجورين "

" ما الذى يجعلك متأكد من ذلك الى هذا الحد ؟"

"لقد أدهشنى تشابه الأسلوب، بل إننى عرفت الأسلوب".

"اوه نعم طبعا، فأنت من رجال الأدب".

" نعم ، الأسلوب الأدبى أشبه بالبصمة.أوأسلوب عمل لص بالنسبة لك . والحقيقة أن اليد التى قامت بتجميع المقالات كانت واضحة فى الخطابات التى كتبت ضد (طاى سولارين)* أيضا.هل أخبرك من الذى كتبها؟"

" من؟"

ذكرت المجموعة بالاسم .فابتسم وأزاح الملف جانبا.

" حسنا ، لا أستطيع أن أقول شيئا عن ذلك. فليس له أية أهمية..."

لكن ذلك كان يهمه. - لم يكن(معلام د.) -عند هذه المرحلة - يملك سوى القليل من السيطرة على زمام نفسه- بحيث يمكنه أن يتحمل أصغر الصدمات عن وجود أى خرق فى نظام الأمن. كان ذلك كله مطبوعا على صفحة وجهه.- كيف عرفت أنا؟ ماهى المعلومات الأخرى التى أعرفهاعن أنشطة هذه المجموعة لحساب النظام العسكرى؟ لقد شعرت بأنه ينبغى على أن أبقيه فى حالة عدم التوازن فترة أطول قليلا- مجرد ميزة ضئيلة مؤقتة فى المناوشة،لكنها كانت لحظة لنخس ضعفات حقيقية او وهمية، فى ضمير مذنب أوفى طموح الخصم. كيف كان "(معلام) مثلا يحس فى أعماق نفسه، إلى اى مدى ترتفع مكانته بالنسبة لنوايا الرجال الذين أمروا باعتقالى وبما هو أسوأ ؟

سألته" اخبرنى ، لماذا كانت لاجوس متلهفة على تصفيتى؟

"ماذا تقصد ؟"

"الجنود الذين أرسلوا إلى إبادان لخطفى والتخلص منى. لقد أعطيت لهم الأوامر باصطيادى بأى ثمن."

" مالذى يجعلك تظن أن الجيش يريد قتلك ؟"

" كذبت وقلت " لقد قابلت صديقا لأحد الضباط الذين أرسلوا من لاجوس.وحذرنى."

قال(د) بحماس" إنه يقول كلاما فارغا و ما حدث هو أننا طلبنا من الجيش أن يعتقلك، هذا كل مافى الأمر."

" هل تضطر إلى ارسال فرقة عسكرية خاصة من لاجوس ؟."

"ليس لدى أى فكرة عما إذا كانت هناك فرقة ارسلت من لاجوس ام لا. لقد طلبنا اعتقالك، ربما هذا ماسمعت عنه. لماذا يريد أحد أن يقتلك." لقد محا الفكرة كشىء وقح ينافى الأداب بإيماءة مفاجئة وقوية." على أى حال أنت هنا معنا فى أمان "

قلت " أتعشم ذلك"وأخذت أراقبه وهو يتحسس زمام دوره ، مصمما على ألا يسمح بأى انحراف خطير للمسار المرسوم.

لكننى تمكنت من إطالة زمن هذه الحالة التى انقلبت فيها الأدوار:كانت الخطة جميلة التنسيق. لقد ابتدأت بتلك الردود " التلقائية " على مقالتى. منها خطابان يستخدمان بدقة نفس العبارات التى تتهمنى بأننى قلت إن الجيش فى الجزء الغربى هو جيش احتلال. أنا أعرف أن إدارتكم لديها دفتر كبير يحوى كل شىء مما كتبته أو أتهمت بقوله.فاخبرنى إذا كان قد حدث أننى استخدمت تلك العبارة ؟ "

" الناس يكتبون كل أنواع الكلام. أعنى أنه يجب عليك أن تعترف بأنك أغضبت كثيرا من الناس بمقالتك" "

" إن دس هذه الأكذوبة فى داخل الخطابات كان عملا متعمدا. لقد نجح فى اشعال كراهية الجنود والضباط. وعصبيتهم حتى أنهم أظهروا إدانتى لعمليات الإبادة العرقية فى الشمال ! ظننت أنه كان يسعدهم لو نسوها.-إلا أن الهدف المباشر كان أكثر أهمية ."

فجأة ودون توقع اعترف د :" لم يكن هناك ثمة مؤامرة ،لابد أنك رأيت بعض الأشياء الأخرى التى حدد لها جدول للظهور.بعضها كانت أكثر ثورية .شىء رهيب . فقد ذهبت لجريدة المورننج بوسط بنفسى وقلت لهم إنه شىء زائد عن الحد. كان قد سبق إعداده ولكننا أمرناهم بإلغائه.

هذا تطورا لم أكن أعلمه. إن سيطرة الجيستابوتمتد حتى إلى باب " خطابات الى المحرر" واستغربت عما إذا كان قد شعر بأن اعترافه هذا يوحى باعترافه أيضا بتلك الأكاذيب الأخرى. كانت عينا (د) تستدير أحيانا بسرعة، وينظر إليك من تحت جفون مغطاة ، منزعجا من أى أفكار أخرى تبعده عن الأمور المباشرة. لم أستطع أن أقرر شيئا حتى انفجر فجأة وكأنه يجاهد لاقناع نفسه بعدالة أى تكتيك يتبعه:

"لكن من أعطى الناس مثلك أنت وطاى سولارين الحق فى أن يظنوا معرفتهم بكل شىء؟ مالذى يجعلكم فى أبراجكم العاجية تظنون أنكم تملكون الحلول لمشاكل الوطن ؟ وعندما تضع الحكومة خطة ،ما الذى يجعلكم تظنون أنكم تعرفون خطة أفضل ؟ أنتم مفكرون تعيشون فى عالم من الأحلام ،مع ذلك تظنون أنكم تعرفون اكثر من الرجال الذين وازنوا بين كثير من العوامل ثم توصلوا الى قرار ."

" لا، إنه أنت الذى تسكن الدور السادس فى هذه القلعة ليس لديك أية معرفة بالواقع .المثلان اللذان تتهمهما ، طاى وأنا وعدد من الناس الآخرين هم أقرب ألى الواقع الصعب من أى نظام أو منفذيه ممن يعيشون نصف أيامهم فى الخوف من التخريب او الانقلابات ."

" لكنك أيضا ضد مفكرين آخرين . أخرون يؤيدون موقف الحكومة."

" مثل من ؟ "

تردد. " حسنا، مثل لجنة العشرة . إنهم مفكرون مثلك تماما "

" هل هم كذلك ؟"

" لماذا لا ؟ "

"إنهم ليسوا مفكرين. ويفتقدون لأى نوع من المصداقية.أو الإلتزام.غير لعب المباريات فى دهاليز السلطة. لماذ تأخذ هؤلاء الناس على محمل الجد؟"

" ما هو الخطأ الذى ارتكبوه ؟"

" انحطوا بالقدر الضئيل الذى كانوا يملكونه من الفكرليبدأو به، هذا كل ما فى الأمر. من أيام أكينتولا العجوز. أتنسى الدور الذى كانوا يقومون به خلال تلك الفترة ؟ "

هذا تاريخ مضى . والكل يتضافرون الآن معا لوضع مواهبهم رهن الإشارة لخدمة الوطن. أحد هؤلاء عضو فى مجلس الوزراء "

" نعم، لقد انتقيت أسوأ ما فى المجموعة ، أليس كذلك ؟ "

" فيمى أوكونو؟ ما الذى تأخذه عليه ؟"
" هل أنت جاد؟ " لكنه تجاهل نغمة التحقير فى لصوتى تماما .

" بالطبع. نحن نريد أن نعرف أفكاركم ، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسات الرسمية بل أيضا بالناس الذين يشكلون تلك السياسات أو ينفذونها".

" هل هذا جزء من الاستجواب ؟"

كان احتجاجه قويا " لا، لا، من الخطأ أن تظن أن ذلك استجوابا .نريد أن نكون قادرين على فهم الناس من أمثالك.أريد أن نجرى مناقشة حقيقية. لماذا تكتب الأشياء التى تنشرها ؟؟ لماذا تتخذ لك موقفا ؟ ما رأيك في الطريق الذى يسير فيه البلد؟ وهكذا .أريد أن أعرف رأيك فى الشخصيات الوطنية – كبير القضاة مثلا،أولو إنهارو، تاركان وحتى جوون ."
" أنا لم أقابل جوون أبدا ."

"صحيح . وربما قريبا جدا . فى الواقع إننى متأكد تماما أنه يريد أن يقابلك، يعتمد هذا أيضا على ما نخرج به من مناقشتنا."

" انسل بطريقة عادية جدا ، لكن ليست عادية بحيث أن الفكرة التى كان يجب إغفالها ، ليست قوية جدا بدرجة تتطلب مساومة."

"على أية حال أنت لم تقل لى حقيقة سبب عدائك للجنة العشرة"

هززت رأسى " دعنا نقول ببساطة إننى لا أوافق على دعارة السلطة "."

أعرف. لذلك أسألك من هم المفكرين الذين ترضى عنهم ؟ أشخاصا مثل طاى سولارين ، على ما أعتقد ؟ "

" طاى لايزعم أنه مفكر. إنه مصلح اجتماعى مخلص وغيرأنانى فكره أصيل ولكنه أحيانا يختلط. يستطيع الوطن أن ينتفع بعدد كبير أكثر تخليطا لكنهم مفكرين أصلاء مثل طاى . "

لكن ليس جماعة أوكونو؟ أنت تظن أن طاى سولارين يجب أن يكون قوميسارأ بدلا من أوكونو."

تنهدت للمرة الثانية وسألته " لخبرنى، ،هل تعرف شيئا عن فيمى أوكونو؟هل تعرف أى شىء عن النمط الأوكونى من صغار البرجوازيين الانتهازيين.؟".

" لا، أخبرنى بما تعرفه عنهم. "

هززت رأسى وقلت." سوف تعرف ذلك فى الوقت المناسب ."

" لا، أريد أن أعرف منك أنت . نحن نسأل عن أرائك".

" آسف لكننى لا أستطيع أن أتكلم عنه. إنه يترك مذاقا مريرا فى الحلق "

ياله من مهرج! نكتة حتى فى ايام أكينتولا عندما كان التهريج حكرا خاصا للسياسيين .نسخة مثيرة للأسى من فانى كايود الذى أعلن بنفسه أنه فاشى وجلاد (ن ن د ب الحزب الوطنى الديموقراطى النيجيرى) لقد ارتدى ملابس شديدة الشبه بملابس فانى –كايودا فى البهرجة وبنطلونات محزقة حتى الكاب الذى كان يضعه على رأسه بنفس الزاوية التى يضعها فانى .يرتدى نفس النوع من النظارات السميكة السوداء ويشذب ذقنه حتى تبدو بالضبط كلحية الرجل الفاشستى القوى. يمشى على طريقة فانى فى المشى ،يستعرض نفسه فى الحفلات، والنوادى الليلية ، تمثيلية إيمائية للمشى ، قرد الماريونيت لحزب ال (ن ن د ب) الرجل الثانى . بل إنه رقص مقلدا فانى، أو محاولا أن يقلده .ثم سقط أل (ن ن د ب) ضرب فانى-كايودى على أم رأسه وسيق مقيدا الى السجن .وسرعان ما غير الانتهازى الترزى الذى كان يفصل له أزياءه، واختار قميصا عاديا غير مزخرف وبنطلون. خلع النظارت السوداء، وحلق لحيته وشاربه .وأقصى قرد فانى المختال بمجد ال (ن ن د ب) عن السلطة ونفى ...

" لا "، كررت الكلام " أنا لا أحب أن أتكلم عنه.دعنى فقط أقول إنه عندما تختار هذا النمط ليكون عضوا فى فريق يقوم بصياغة السياسات القومية فلا غرابة أن تتوقع وأن تطلب من طبقة الانتليجينسيا -أن تقول لك نعم كله تمام يا أفندم ."

فجأة سأل (د) ، " ماذا تعرف عن القوة الثالثة ؟"

من الواضح أنه لن يكون هناك كثير من الاعتراضات فى فترة بعد الظهر .

الفصل الرابع

لقد أجلسونى فى مكتب خالى- فى الدور الذى يعلو مكتب التحقيقات .(معلام د) المحقق المختص بى يضج بعصبية : "الذى أحب أن تعمله من أجلى يامستر شوينكا هو ببساطة أن تسجل كل ما قلته لى ، كل شىء عن نشاطك لإيقاف الحرب، كيف ابتدأ كله ، وما مقدار مافعلت ، الأشخاص الذين تكلمت معهم أو الذين مازلت تخطط للإتصال بهم... كماتعرف، كل التفاصيل وأى شىء آخر قد تكون أغفلته.أنا متأكد أن قضيتك لن تستغرق أى وقت حتى تتم تسويتها.فقط ساعدنى بتدوين كل شىء وحينئذ قد يمكننا أن نتخذ خطوة أو خطوتين فيها ..."

"هل يمكننى الحصول على آلة كاتبة؟ إن خطى ردىء جدا ... كانت أول ما خطر لى من أفكار عند هذه النقطة، لاشىء بخط يدى. ودون توقيع منى على أى شىء. ودون تشكيل احتمالات واضحة للخطر، فالمخاطر كلها يمكن تقليلها بأن نجعل كل شىء بطريقة آلية. هفف سريعا جيئة وذهابا بين المكاتب وسرعان ما عاد معلام د. لا ،لم يجد ألة كاتبة زائدة.قلت هذا لايهم ، ظنا منى أنه مثل جهنم لاأهمية لها. الكم الكبير من الكتابة بخط اليد يقدم كمية ضخمة من المادة التدريبية لمزور محترف.أنأ لا أفكر من بعيد فى عمليات التزويرالتى تتم لاستهلاك الجماهيرلكن فى تلك الحيل البوليسية الرخيصة – " اعرض قطعة من " اعتراف " لشخص سىء الحظ وحطم معنوياته بهذه الطريقة . هاهى ، إقرأ بنفسك ،لقد أتهمك فى بيانه .لماذا لاتقول أنت القصة من جانبك ؟ "

احذر. حتى التنفس لابد أن يتم بحرص ، متعمد. من الآن فصاعدا كل شىء محسوب . نظرة سريعة فى أركان الحجرة بحثا عن ميكروفونات مخبأة، أو فتحات

تجسس سرية . ميكروفونات ! لكنك وحيد يا رجل ! هكذا؟ "حالك يدعو للشفقة " رفيق زنزانة سوف يضاف فيما بعد .حسنا ، هناك وقت للبحث عن الميكروفونات عندما يحدث هذا .رتب أفكارك،اختار ماتريد أن تقوله وتكتبه .لاتمحو شيئا بعد كتابته ،لأن هذا سوف يثير حولك الشكوك . ماذا محوت أو شطبت ؟.

" لماذا؟ الجلسة الأولى مع معلام د تعرف بأنها- المناوشة الأولى.- لايوجد مثل هذا الشيء المسمى - المحقق "المستنير". الأساليب تختلف هذا كل مافى الأمر.فأى نظام يسمح للأجهزة السرية بأن تعمل ضد الفرد هو نظام جيستابو. فعقل الجيستابو يؤمن كثيرا بالقبض على الناس بالذنب أكثر من إطلاقهم بالعدل .هذا المبنى هو المركز الرئيسى للجيستابو ،لايوجد تعريف آخر ، ولا وجهة نظر أخرى للنجاة... إننى أبدأ الكتابة .

عامل التذكير موقوتا. ففى الحال دخل الحجرة ثلاثة رجال. فى البداية ظننت أنهم ضلوا طريقهم لأنهم كانوا يحملون معهم أغلالا وسلاسل أشبه بما كنت أراه فى متاحف تجارة العبيد. كان يبدو عليهم أنهم سذج ومرتبكين وتوقعت أنهم سوف يستديرون ويختفون معتذرين عن هذا الاقتحام .لكنهم توقفوا وأخذوا ينظرون إلى .أحدهم كح وتلعثم وهو يعلن الأخبار . إن لديهم تعليمات بتقيد سيقانى معا .

" هل أنتم متأكدين ؟ لقد وضعت هنا لأكتب تقريرى " لايويوجد خطأ. هى خمسة عشر دقيقة منذ تركنى معلام د .لم يقل شيئا عن السلاسل . مددت ساقى ، ربطت الأغلال ، هبطت سيقانى تحت وطأة هذا الثقل المكتسب حديثا.

الجلوس ثانية لم يعد سهلا .الشعور بالسلاسل كان إحساسا جديدا لم أستطع التأقلم معه فى الحال .لقد نظرت ألى أسفل الى هذه الأشياء الشاذة بفضول حقيقى محايد ، رفعت ساقى مرة ثانية لأتحسس ثقلها،حاولت المشى بها ، ووقمت بمائة تجربةأخرى .المشى كان ممكنا أو جرجرة القدمين بطريقة محدودة . غمرتنى ثانية موجة من عالم بعيد عن الواقع.، أظن أننى ضحكت بصوت مرتفع عند هذ الفكرة انحيت إلى اسفل، إلتقطت السلسة المفكوكة وامسكتها طولها قدم وست بوصات فى الغالب .

أحسست بتناقض قوى فى كل هذا ، تناقض فى كينونتى ، فى وعى الإنسانى والتعريف الذاتى .الواقع أنه حتى هذه اللحظة لم يكن هذا التعريف الذاتى أبدا بهذا الوضوح.كما حدث عندما نظرت إلى هذه القيود فى كاحل القدمين . كان التعريف سلبيا . لقد عرفت نفسى بأننى كائن لم تخلق له القيود، باعتبار.أننى انسان.وحسيما يمكن للبعض أن يقول إن الجوهر الانسانى يمتلك قيمة حقيقية ملموسة ، فإننى أستطيع القول بأننى تذوقت هذا الجوهر وأحسست به فى تلك اللحظة المليئة بالتناقضات. لاجديد فى الأمر، سواء بالوكالة أو بفعل أيديولوجية الذاكرة العنصرية،هذا التناقض يمكن الشعور به ، وقد شعرت به بقوة كافية لتحويل أكثر المدللين من البشرالى ثوريين متحمسين. القيود الفكرية المجردة رفضت لمجرد أنها عاطفية. لكن فى تجربة الكائن العضوى فإن الفرد

لايقف وحده، وبالأخص الرجل الأسود.لقد شعرت بها ، بدت لى ، مئات السنين من قبل، كما أعتقد ، اننى عشت تجربة انطلاق لحظة أعيد تجسيدها بدرجة مؤكدة عندما كنت فى المدرسة وقابلت نقوشا محفورة لمسيرات العبيد فى كتب التاريخ. حتى عندما قابلت أول مجانين تحت رعاية المعالجين التقليديين، مربوطين فى سلاسل من كاحل أرجلهم لكبح درجة عنفهم ، ففى رأى أن درجة الرفض لهذا العلاج تصل غالبا الى حدود الذاكرة العنصرية. بالتأكيد لايمكن أن تكون تجربة شخصية محدودة .

فكلما دار المفتاح فى قفل الباب تعود إلى تلك الذاكرة -أنا جالس على كرسى مستقيم الظهر، والرجلان منحنيان عند قدمى يثبتان أقفال القيود، الرجل الثالث واقف يراقب ذلك الحيوان الخطير إذا حاول الهجوم – وقد خطر لى ، ليس حينذاك، بل فقط الآن ومشهد السلاسل يمر أمام عينى،أننا جميعا سود ،إن معلام د. رجل أسود آخرأعطى الأمر وهرب ،وأننى لست " محكوما عليه " ضمن عصابة من جنوب ألاباما أوجوهانسبيرج.لكن هذا التناقض الانسانى يجد تطبيقه فى مكتب حدبث لناطحة سحاب حديثة فى عاصمة كوزموبوليتية هى لاجوس عام1967.

فقط فى حال كونه حقيقا ،فقط إذا كانت حقائق أخرى مثل الذهاب للحمام أو مد ساقى أثناء النوم أو هززها تلقائيا فى جنح الليل نتيجة لعضة بعوضة ، فقط فى هذه الحالة سوف تظهركل هذه الأخطار المهددة للحياة ، و سوف تزيد حدة الاحساس بالقلائد المعلقة فى أقدامى ، ابتدأت اضرابا عن الطعام دون مجادلة داخلية بينى وبين نفسى . من الواضح أن ذلك كان ترياقا مضادا لسموم حالة مزاجية كانت ساخرة جزئيا ، شغوفة جزئيا ثم استشاطت غضبا . أوجن ، يا رفيقى ، اشهد كيف أن معدنك تشوه! حسنا ، (إن الجراحين القدامى كانوا يسيلون الدم للتخلص من الكلوريد - لقد تعلمت أن ألجم غضبى بتجويعه.

لقد نجحت.إن أتخاذ القرار بعدم تناول الطعام وضع تشنجات الغضب وارتجافاته تحت السيطرة فى الحال تقريبا .بدأ عقلى يعمل ثانية بدون انفعال. الهدف القريب. والهدف البعيد. والهف الطارىء ،ما هو التأثير الذى سوف يحدث فى عقلية الجيستابو. بدأت العمل على التقرير. هناك حافز يهيمن على الآن هو – توقع المحاكمة وانقلاب الأدوار على الطريقة الكلاسيكية . رؤى كاسترو " البراءة التاريخية !" كانت هذه الجملة بمثابة تأكيد عميق لدورى فى تكوين لوبى أو جماعات ضغط لإيقاف إمداد الجانبين المتحاربين بالأسلحة. لقد كتبت بنزعة محسوبة لكى أدفعهم الى محاكمتى على أساس أن نشاطاتى معادية للحكومة ،أكملت المقالة فى ساعتين او ثلاثة ، وانتقلت إلى كرسى فوتيى، وألقيت نظرة على السلاسل فى أقدامى وحاولت النوم .

طرقة على الباب. الطباخ المتعاقد مع الجيستابولتقديم الطعام لمئات النزلاء الموضوعين رهن التحقيق يقوم باحدى جولاته التفقدية .شكرا، لا. لقد ظن الحارس الواقف على الباب أننى أريد " غذاء " اوربيا ". وهذا أكبرتكريم يقدم لأى سجين أو معتقل من الشخصيات المهمة جدا فى السجن. قلت لآ. ولا

حتى علبة سردين؟ خبز؟ لبن؟ قلت ، كما تعرفون ، أنه من الخطر إطعام حيوان مربوط بالسلاسل. ربما أحصل على القوة وأحطم هذه الحيل الرخيصة.

ازدحم فرع المباحث " E " جدا فى المساء. كل المكاتب ، والمكتبة ، حتى بعض بسطات السلالم، كانت تستعمل كحجرات تحقيق .كانوا يدخلون مئات من الإيبو والمتعاطفين معهم من المشكوك فيهم .الانكار كان سهلا والمسجلين القدامى كان يحجزون بمجرد همسة للبوليس. البعض، لم يكونوا من الإيبو جاءوا بهم ألى هنا فعلا واستولى عليهم الرعب و الإنهاك الجسدى ، يتوسلون من أجل فرصة للدفاع .كل مساء أسمع أصواتا لرجال ونساء. كانت الكلمات رتيبة ، الاحتجاجات ومواجهة الاتهامات :" أنا لم أقل هذا أبدأ . هذا كذب .إن لم أقل (داتكنتنج) . كان يكفى أن يتهم انسان بالتعاطف مع الإيبوأو إدانة الجيش أو قول الحقيقة عن تعذيب شخص أو جريمة قتل شاهدها.كان يكفى فقط أن تنظر نظرة عدم قبول لطرق الإرهاب. .

الليل. لقاء غريب موحش.كنت قد غفوت . وفجأة انفتح الباب وألقى بإمراة ألى داخل الحجرة." امكثى هناك ولا تتكلمى " لقد أعطى الضابط أوامره بحجزبعض الآخرين فى مكاتب مختلفة. عرفت من لهجة المرأة أنها من الإيبو. لم أشهد فى حياتى أبدا مثل هذا الرعب على وجه إمرأة. مضى بعض الوقت قبل أن تدرك أن هناك كائن آخر فى الحجرة .لقد اقتنعت فى البداية بأنه لابد أن يكون أحد الضباط ، ربما المعين لتعذيبها – الصدمة أخذ تها إلى الركن المقابل من الحجرة حيث كانت تحملق بعيون كبيرة مرعوبة وصوت مبحوح مرتعش عاجز عن الصراخ. حينئذ نزلت عيناها الى أسفل ورأت السلاسل .رأيت جسدها يسترخى ويتعاطف وتقدمت إلى الأمام ،يدها تضرب الطاولة كأنها تريد أن تمسك بشىء صلب يؤكد لها وجود اشياء واقعية من حولها . .راقبتها فى صمت .لم تكن محتاجة ألى ارتياح أكثر من جانبى. لقد تأثرت جدا بمنظرالسلاسل بدرجة لايمكن أن تحققها الكلمات، وجعلتها تهدأ. لكن عندئذ رأيت تغيرا جديدا فى وجهها . فجاة وقفت هادئة ، غير مصدقة. لحظة التعرف .رأيتها حتى قبل أن تتكلم .أليس أنت ...أليس أنت وول شوينكا ؟ أمأت برأسى موافقا. أخذت تحرك عينيها من وجهى إلى ساقى ، رجوعا الى وجهى . لحظة للتنفس . ثم انفجرت فى البكاء .

الحارس- لابد أنه ذهب لوقت قصيركى يساعد السيل الجديد المتدفق- لقد ألقى نظرة لمدة دقيقة وشهق. ماذا تفعل هذه هنا؟ صاح فى الممر مناديا على الضابط المسئول . ليس من المفروض أن يدخل الحجرة أحد مع هذا المتهم ! عندما اندفعوا جميعا إلى داخل الحجرة توقفت هى عن البكاء. كان الضابط النبطجى يحس أحساسا شديدا بالأسف ؛ لم يكن يعلم أن هناك شخص ما فى الحجرة .اقتادوا المرأة بعيدا وهى أكثر هدوءا وأشد قوة .التفتت الى الباب وهى تنظر إلى بطريقة كما لو كانت تريد أن تتأكد أننى أراها ، حتى أعرف أنها لم تعد خانعة أو مستكينة، ولن يرعبها شىء بعد الآن. رددت على الإيماءة اعترافا منى . وتساءلت هل تدرى هذه المرأة مدى القوة التى أمدتنى بها نتيجة لهذا اللقاء .

عاد معلام د فى صباح اليوم التالى " لماذا تضرب عن الطعام ؟"
" لست مضربا عن الطعام "

نظرألى فى حيرة " لا، لقد أخبرونى أنك لم تأكل بالأمس ولم تأكل فى هذا الصباح ."

" أوه هذا ، لقد أسىء تفسير موقفى . إنه ليس إضرابا عن الطعام "

اهتمامه المباشر كان مؤثرا " ما الأمر ؟ هل أنت مريض ؟ "

" لا ، أنا فى صحة جيدة جدا ، فقط بعض الاجراءات الاحتياطية ، هذا كل ماهنالك . "

اشتاط غضبا " أنت تخشى من أن يضعوا لك السم "

"إذا سمحت لى بتوضيح الأمر، إنها هذه القيود. أنا لا أعنيها – إنهأ مريحة فى الجلوس . ولسوء الحظ أن الذهاب الى دورة المياه شىء لا يستطيع الانسان أن يتجنب القيام به . أنا اتجنب ذلك كما ترى أو أقلل منه كما ترى بالانقطاع عن تناول الطعام . "

" أنت لاتستطيع ذلك مطلقا بدون أكل ."

أشرت إلى زجاجة الماء الموضوعة على الطاولة . " زجاجة واحدة يوميا. تكفى تماما. غدا سأحتاج إلى التبول مرة واحدة فقط فى اليوم. بعد ذلك قد لا أحتاج للذهاب إلى دوورة المياه نهائيا . هذا التقرير موجود على الطاولة.

أخذ ملاحظاتى وخرج ." سوف أرى ما يمكن عمله."

" لم يحدث شيئء فى ذلك اليوم . بقيت الأغلال بطول الليلة الثانية." فى صباح اليوم الثالث جاء د. ليسال بعض الأسئلة – هكذا قال . جاء مبتسما." أتعشم أن تكون قد بدات تأكل الآن ."

"لا، الموقف لم يتغير" نظرالى أسفل، رأى القيود أو تظاهر بأنه رآها لأول مرة. غضب، تصنع الغضب ونادى على الحارس وسأله لماذا لم يتم نزعها. أجاب الحارس أنه لم يتلقى تعليمات بذلك .

." إذهب وهات المفاتيح وانزع هذه القيود فورا."

اختفى الحارس

"آسف لهذا يا وول"- نعم ، لقد أصبح اسمك وول من هذا الصباح.- لقد أعطيت تعليمات بهذا الليلة الماضية.. بمجرد نزع القيود وأعطائك شيئا تأكله أحب أن نتحدث ثانية . سوف أرسل لك أحد الأشخاص." أزيلت السلاسل ولكنى كنت قد اجتزت تلك المرحلة الحرجة التى أود أن اشيرإليها باعتبارها "معركة البيلى بوقز او معركة الكروش الكبيرة " بمجرد انتهاء قرصة الاحساس بالجوع، يتحول الصيام إلى امتلاء.لقد ساعدنى التدريب على الاحتفظ بتوازنى، وبرود الحس – قررت أن استمر على الحد الأدنى ، بأن أشرب علبة لبن مزودة بالماء كل يوم . كان الحارس يرسل أحد الأشخاص يوميا لاحضارها .

لم أتناول اللبن أبدأ. بعد ساعة جاء د غاضبا يزمجر، كالعأصفة " كيف حدث أن الصحف الأجنبية تنشر أخبارا بأنه تم اعتقالك ؟ "

حملقت فيه بعدم اهتمام .وما شأنى أنا بذلك ؟"

" كيف استطاعوا معرفة ذلك ولماذا كل هذ ا النشر العلنى ؟إنهم يلمحون بأنك تعامل معاملة سيئة .آمل أن تدرك أن كل هذا الاعلام لايساعد فى قضيتك قيد أنملة. إنهم يزيدون موقفك حرجا"

"أى قضية وأى موقف بالضبط ؟إذا كنت أنا برىء من أى شىء تتهموننى به ، فما هو الفرق سواء كان الاعلام من الصحف الأجنبية أو المحلية . أم أنك الآن تتكهن مسبقا بأننى مذنب ؟"

" نحن لانتكهن لك بشىء..."

" اسمع، أنا لست مجهولا. حتى اللصوص الذين لا يعرف الناس وجوههم تنشرالصحف حادثة القبض عليهم . فهل تطالب أنت بميزات خاصة للجيستابو النيجيرى ؟"

" لا أحد يطالب باى شىء."

سواء لم يسمع أو أنه قرر أن يتجاهل رمز الجيستابو .انضباط ... انضباط...يبدو أيضا أنه يقدم لنفسه النصيحة ذاتها .

" انظر وول ،نحن نعرف أنك شخصية معروفة على مستوى العالم ، لكن هذه الصحف الأجنبية صحف الخبيثة تنتهز أية مناسبة للافتراءعلى السلطة .

"شاب،متحمس، قلق ضحية لأزمات مركزه الوظيفى.استمرفى الكلام بدوافعه اللا معقولة. بعد كل ذلك اقتحم الحجرة بنغمة إتهام وإدانة .وتنفس جرعة من ريح الابتزاز.

فقلت شاكيا " إننى لاأعرف حقا ماذا تتوقع منى أن أفعل؟ أنا لا أستطيع أن أخرج لكى أتكلم معهم. بالطبع تستطيع أنت أن تنظم مؤتمرا صحفيا وتقدمنى..."

بعد ساعة فقط أعطى أوامره بنقلى إلى سجن كيرى كيرى .

الفصل الخامس

فضول. حيرة . تعرف . عيون المساجين تتغذى على القادم الجديد. لقد قضيت وقتا من قبل فى زنازين البوليس، فى أماكن بديلة للمعتقلات، لم يطلق أبدا على هذا المجمع اسم السجن ممن هم داخله . التأقلم أصبح يتم لاشعوريا، لقد تباطأ إيقاع جسدى. وقد زدت من إبطائه كثيرا.

" إننى قلق بشأن إرسال نقود لأسرتى .هل يستطيع السجن أن يدبر لى شيكا ؟"

" لا ،أنت معتقل .لايجب أن نفعل شيئا دون موافقة البوليس.إنهم متشددون بهذا الخصوص." " كتب ؟"

" يمكنك أن تحصل على الكتب التى أحضرتها معك . هناك مكتبة فى مكتب الضابط المشرف.

" لاشىء أسهل من الإحالة إلى روتين السجن .إن استنساخ الحياة خارج السجن بكل جزئياتها يجعل القبول أيسر - بالنسبة للأسبوع اوالأسبوعين الأوائل ، كانا أشبه بالذهاب إلى خلوة أو دير. بالنسبة لأسبوع أو أسبوعين .وهناك التنوع الانسانى . إننى لم أرحب بالصحبة .إننى فى حاجة شديدة للبقاء وحدى مع أفكارى. بشرط واحد فقط هو أن يدركوا هذا الاحتياج ويحترموه. .

بلوك صغير ،عشر أو اثنتا عشر زنزانة ، سكانه أكثر من ثلاثين. كان يعرف باسم " الزنزانة الخلفية " ، فى الحقيقة هو بلوك العقاب ، لكن منذ ان ظهرت موضة الحبس بدون محاكمات وتضخم عدد سكان السجون، أصبحت زنازين العقاب فى كل أنحاء القطربلوكات خاصة. للمحتجزين . السكان هنا يضمون جماعة من النشطاء " الصناديد "الذين تدربوا فى غانا .مع هذه السذاجة السياسية الشائعة لأمراض ضعف العقل التى أصابت الهيئة صاحبة القوة المعقولة فى القارة فان النظام الغانى الجديد أرسل صور هؤلاء ومعلوماتهم الشخصية لجهاز الأمن النجيرى بعد سقوط نظام نيكروما . لقد حوصر هؤلاء فى نيجيريا وقضوا الآن أكثر من عام فى الحجز حتى أصيب أحدهم بالجنون وأصبح يكلم نفسه طول الوقت وينطق بتهديدات رهيبة ضد أعداء غير مرأيين .وفى ذات يوم إندفع هائجا كالمصعور .....

كان هناك أحد المحكوم عليهم ،أيضا، ضابط سابق فى مجموعة N.N.D.Pحكم عليه بسبب اختلاسه أموالا كانت فى زمته . هذا سجين من طبقة خاصةوهوحمامة صيد أى مدسوس من قبل الشرطة للتجسس على الآخرين .لقد اكتشفت ذلك قبل أن يجد الآخرون ضرورة لتحذيرى..

هناك تيجر بدرو ، سجين بسبب الاعتداداءات الجنسية وهو معترف بذلك وأصر على أن يحكى لى قصته. يقول، إن عضو الذكورة عندى حساس ، إنها ليست غلطتى ، هكذا خلقنى الله إننى أعرف نقاط ضعفى ....

باستثناء N.N.D.P الضابط المختلس، هناك نزيلان آخران من الطبقة الخاصة، كلاهما معتقلان. إنهم جنديان كان أحدهم شاويشا، والثانى أونباشى. وضعهما فى هذا البلوك أثار فضولا سريعا لأنه أعطى لهما وضعا خاصا بحيث يعاملون باحترام من جانب ضباط السجن كشخصيات بالغة الأهمية .أما المعتقلون والمساجين الآخرين فإننى كنت أنظر إليهم نظرة سوداء لكن بحسد وببعض التزلف عندما يفتح الجنود الخطابات غيرالمراقبة ،، أنظرإليهم عائدين من " التحقيقات "التى كانت تستغرق اليوم بطوله .تعج منهم رائحة الخمور وهم ينظفون أسنانهم ،عائدون وجيوبهم منتفخة بعلب السجائر، والكولا ومئات البضائع المهربة ،وهم يلومون موظفى السجن ويشكون من عدم التنفيذ الكافى لمئات من الامتيازات الأخرى .

لقد سألت أحد حراس العنبرإذا كانت هذه معاملة عادية لرجال الجيش المعتقلين ، أجاب بلا ، هناك رجال جيش محجوزين فى كيرى كيرى تحت إجراءات أمنية مشددة. باستثناء الضباط ،لا أحدا منهم يتمتع بهذه الامتيازات . لكن هذين الجنديين كان قد تم نقلهما من المحاكمة الجنائية فى إبادان بناء على أوامر سلطة عسكرية عليا .

وبعد ثلاثة أيام كان الجيستابو قد اسنعد لى للمرة الثانية.

الفصل السادس

معلام د الآن بات جائعا للأسماء، أسماء، أسماء، تلك السلعة الفاتحة للشهية جعلته فجأة يتضور جوعا ."نعم ، نعم ،الملاحظات التى كتبتها لنا هامة جدا لكنك لست رهن الطلب بخصوص الأسماء، اليس كذلك مسترشوينكا؟"

" لقد قمت بعملية تصحيح بسيطة ، وأشرت الى ستة أسماء مذكورين فى مذكراتى."

" آه، لكن هؤلاء جميعا خارج القطر "

ليس جميعهم. لقد قلت أنت أن امينو * قد وصل الى ارض الوطن.

" نعم ، لكن هذه مسألة أخرى . فكل الأسماء التى أعطيتها لنا هى أسماء ناس لم يفعل أصحابها شيئا، طبقا لأقوالك على الأقل. هم أناس جندتهم أنت أو حاولت تجنيدهم فى حركتك ولكن طبقا لأقوالك لم يتحقق شىء فى الواقع .أتوحى بهذا أنه ليس فى لجنتك أحد من المقيمين فى نيجيريا.؟

" لو أعطي لهم وقتا لجاءوا، لكنكم اعتقلتمونى قبل أن أشتغل بالعمل. لقد اشتعلت الحرب وأنا بالخارج "

" بالرغم من ذلك فقد تكلمت أنت مع أناس هنا "

" بالطبع. لقد عقدت مناقشات مع كل أصناف المواطنين "

" لم تذكر أسماءهم فى تقريرك "

" أنا لا أجد ضرورة لذلك. وأنا أشير إلى مناقشات عابرة "

" ليكن. أعطنا بعضا من أسمائهم "

" أنا لا أرى كيف أعطيك هذه الأسماء .أنا أناقش أشخاص فى موضوعى. أنا أعبر عن نفسى بحرية مع هؤلاء الأشخاص- لقد قالوا لى أن هذا فى الحقيقة

من أسباب متاعبى." " لكنك لا تعبر عن نفسك بحرية معنا "

" لقد بدأت أفكر بحرية كبيرة جدا.إذ نبت فى تفكيرك اصرار على أن أجرم أبرياء "

" أنا لم أطلب منك أن تفعل ذلك "

*** أمينو عبداللهى، من الشمال، هو واحد من النيجيريين الذين حاولت تجنيدهم فى لندن لحركة مضادة لدعوة الحرب .لقد أرسلته إحدى المنظمات إلى نيجيريا لمحاولة إطلاق سراحى .لقد عرض أن يذهب إلى أوجوكو أثناء مناقشتنا فى لندن، لكننا قررنا أن ذلك سوف يعرضه للخطر ، لكونه شمالى وأن الحرب كانت قد بدأت ،فذهبت أنا بدلا منه .**

"النتيجة واحدة ، أليس كذلك ؟ أعطيتك اسم واحد فقط وأنت تفكرأنه يجب عليك اعتقالهم. فما الذى تناقشت فيه مع دبليو إس فى ذلك اليوم ؟ لماذا؟ "

" مستر شوينكا لقد عدنا للحديث عن مستر – أخشى ألا تكون متعاونا جدا"

" إننى أكثر من متعاون "

" أنت لا تتعاون. سوف أعطيك مثلا آخر.أنت تقول هنا أنك كونت لجنة من أجل عمل حملة دولية ضد استيراد الأسلحة إلى نيجيريا . أنت تدرك طبعا أن ذلك من أعمال عدم الولاء من جانبك .؟"

" أنا لا أقبل ذلك "

ألاتظن أن هذا يساعد المتمردين ؟ وكيف يتم خوض الحرب دون سلاح ؟"

" المتمردون سوف يستخدمون نفس الحجة مع العدالة ليثبتوا معاداتى لقضيتهم "

" نحن بصفة خاصة لسنا مهتمين بوجهة نظر المتمردين "

" أنا مهتم . لقد أعلنت من قبل أن هذه الحرب ليست مبررة أخلاقيا ."

" هل أنت إنهزامى ؟"

" بالتأكيد لآ"

" هل كنت تقبل حربا أخرى ؟"

"هذا يعتمد. ودائما كالملجأ الأخير "

" أى نوع من الحروب سوف تؤيده مثلا ؟"

" أى حرب دفاعا عن الحرية ."

" ما رأيك فى أهالى النهر الذين نقلوا بالقوة إلى ما يسمى بيافرا ؟ ألا تظن أننا ملتزمون بأن نعيد لهم حريتهم ؟"

" أنا لا أؤيد انفصال بيافرا ، لذلك فأنا بوضوح مؤيد لدولة تضم كل الأقليات "

" كيف تريد إذن أن نضع حدا للإنفصال ؟"

" ليست بهذه الحرب خاصة "

" كيف؟"

" كيف ؟ هل لديك أية أفكار غير مجرد أنت لاتؤيد هذا، وأنت لا تؤيد ذاك ؟

إذا لم أحصل على مقترحات ملموسة وعملية، لن أطلب لقاء جوون، وإلا فإنى سأذهب الى هناك للحديث مع أوجوكو"

" حسنا دعنا نحصل على هذه المقترحات، فما هى هذه المقترحات بالضبط ؟"

" سوف أقول لجوون عندما ألتقى به ."

" أخشى ألا يكون هناك ضمان بذلك.فإذا تحدثت عنها الآن معنا ، فمن الممكن أن أعيد عرض رسالتك ولست أشك فى أنه يريد أن يراك ".

" قلت لك إننى أمثل مجموعة مستقلة.ورسالتى لجوون وأوجوكو . ليس معى تفويض بالتحدث مع البوليس حول الموضوع "

" ليكن مستر شوينكا، فهيا نعود ألى حملتك لحرمان الحكومة الشرعية من وسيلة إنهاء الانفصال الذى تقول أنك لا توافق عليه. هل تزعم أن لك الحق فى أن تأخذ على عاتقك مهمة شن حملة على المستوى الدبلوماسى عالميا ؟ "

" تجربتى كانت على المستوى الدولى"

" أعرف.هذا الرجل الذى ذكرته، الرجل الذى كان أول من وضع الفكرة فى رأسك – إنه اسم مضحك "

" إنه برازيلى."

" وأنت تقول إنه نيجيرى .؟"

" لقد ولد وتربى فى لاجوس."

" أقول لك إنه غير موجود ."

" إنه موجود ."

" لذلك فإن هذا الرجل يظن أنك فى نييورك ، وطلبك فى التليفون، هذا رجل غير معروف نهائيا ."

" لقد قابلته من قبل ."

" آه نعم ، هكذا تقر أنت هنا. رجل أعمال. ظننت أنك فنان .هل لديك علاقات كثيرة مع رجال الأعمال ، خصوصا هذه النوعية الشريرة ؟"

" شريرة ؟ لقد كنت أظن أنك سوف تكون ممتنا له ولى .كان بإمكانه أن يعمل لحساب بيافرا لكنه لم يفعل ."

" لو كانت قصته حقيقية ."

" لقد قبلت كلمته. لماذا يتعب نفسه بالاتصال بى لولم يكن ."

"ربما يعرف أنك مناصر للمتمردين "

" وهل انا مناصر للمتمردين ؟ "

" هذا ما سوف نراه .لقد جاءك هذا الرجل، وحكى لك قصة الديك والثورعن أهل بيافرا الذين يطلبون منه أن يساعدهم بالسلاح. ورغم أنه كان سيحصل على ربح كبير إلا أنه رفض, هل تظن أن هناك رجل أعمال أمريكى يترك فرصة للربح تفلت من بين أصابعه ؟"

" هذا الرجل ليس أمريكيا ."

" تلقى تدريبا أمريكيا إذن. إن أعماله فى الولايات المتحدة ."

" إننى أعرف وطنيين نيجيريين من أصحاب الصوت العالى يتمنون أن يبيعوا السلاح لبيافرا لو وجدوا الفرصة ."

" ربما صديقك هذا واحد منهم إنه نيجيرى أيضا أليس كذلك؟ "

" منذ لحظة قلت إنه أمريكي "

" أو برازيليا،. من يعلم .قل لى يا مستر شوينكا، هل اتصل هو بك أم أن المبادرة جاءت منك ؟"

" لقد أخبرتك من قبل أن صورتى ظهرت فى جريدة " نيو يورك تايمز" نتيجة لمقابلة صحفية.كنت هناك مرتبط بفيلم. فبحث عن الفندق الذى كنت مقيم فيه وكلمنى هاتفيا ."

" لماذا؟

" قلت لك من قبل ، لكى يرى صديق قديم ولكى نناقش هذا اللقاء مع مندوبى بيافرا "

" كان يريد أن يعرف رأيك "

" نعم واعطيته إياه. وأخذه هو.وأتفقنا كلانا على هذه النقطة الوحيدة، من كل مانحرص عليه هوإن هذه الحرب يمكن خوضها بالقوس والسهم .لقد اتصلت تليفونيا ببعض الأصدقاء فى الأمم المتحدة .وشاركوا فى النقاش. شكلنا مجموعة ضغط لتقف ضد توريد السلاح للطرفين. الحقائق موجودة هناك فى التقرير ."

"آه نعم ، مستر شوينكا، هذان الاسمان ليسا كذلك؟ أترى ما أعنيه ، ألا ترى مستر شوينكا ؟ أنت غير متعاون .كل مرة نصل فيها ألى مسألة الاسماء تقدم لنا أسماء لا نستطيع الوصول إليها. وهم إماليسوا من نيجيريا أوأنهم لايقيمون فى القطر."

" لكن لماذا تريد الوصول إليهم ؟"

" لماذا؟ ألا تري الناس الذين يؤيدون قضيتك ؟"

" هل لى قضية ؟ لكنك أتهمتنى بلا سبب.إذا كان التنظيم ضد الحرب جريمة فإننى قد اعترفت بها. فاى شىء هناك يحتاج للتأييد ؟"

" أنت لآيمكن أن تكون جادا فى إنكارك أنه ليس لك شركاء نيجيريين ؟ "

" شركاء يا معلام د ؟"

" أنت تعرف ماأعنيه – زميلك- المؤيدون لك ."

"ليس لى مؤيدون هنا "

" أنت تزيد الأمور صعوبة بالنسبة لك. أنت لاتتعاون مطلقا "

" دخل على الخط خصم قديم. هو يوجوى ، المدعى السابق الذى كان يحاكمنى سنة 1965 بسبب تمثيلية إذاعية .

يوجوى كان له صوت دامع. تنبع عاطفة الشفقة عنده من إيمان مسيحى أصيل إلا أنه كان يمكن أن يكون عديم الرحمة ويقسو استجابة لمتطلبات مهنته .لقد رأيته خارج وداخل عمله البوليسى ، وظهر لى إنه لم يفقد روح التقوى الانسانية تماما. إنه واحد من نوعية لم تمارس الظلم أبدا مع متهم . (أما د. فقد اعترف فى لحظة ارتباك وحيرة أنه كان أحيانا يمارس الظلم) لقد انحنى يوجوى على الباب وأنصت لبعض اللحظات إضافة إلى بضعة دقائق قليلة فى استجواب وتفتيش شكلى. من الواضح أن دخوله كلن محدد الوقت وأنه انتظر فقط بالمفتاح الصحيح لكى يساهم فى مهمته . فى البداية كان بسيطا بدرجة كبيرة ،يتكلم بمشاعر فطرية هى مشاعر الصديق، العاطفى تماما لحد البكاء. توسل وقتا طويلا من أجل "التعاون " وهو يذكرنى بعائلتى وأطفالى .أخيرا تحرك نحو الغرض الحقيقى من زيارته زاحفا بطريقة ناعمة على سطح أحتمالات " المكافأة " بمقعد وزارى فى مجلس الوزراء . *

لقد أسمعنى عظة دينية مثيرة للدموع ، تفيض بمعانى التقوى ، وبالاشارات إلى الأنشطة الغادرة التى قام بها أهل بيافرا حين اقتحموا أراضى إقليمه فى الجزء الأوسط الغربى وقاموا بأعمال التخريب فيه. تركنى مع هذه الأفكار الرفيعة ، ولاحظ أن معلام د شعر أيضا بأننى أحتاج إلى فترة راحة وأخذنى فى حراسة إلى زنزانتى .

لكى يضمنوا أننى لم أنس الموضوع الأساسى للتفكير، دخل حجرتى ثلاثة وجوه مألوفة لى . السلاسل .

" ما هذا ثانية ؟ لقد ظننت أن مسألة السلاسل قد سويت "

" معنا تعليمات بتقييدك ياسيد "

" لقد وافق معلام د . على عدم تقييدى بالسلاسل مرة ثانية ."
" أقول لك إن هذه هى أوامرنا "

" أوامر من ؟"

" الضابط النبطشى. قال إن هذه هى تعليمات معلام. د. يجب أن نضع القيود فى رجليك فى المساء ."

" عندما نزعت القيود تركت حرا اليوم بكامله ."
" هذه هى تعليماتنا "

القيود تطبق على كاحل قدمى بصوت مسموع. قبل وصول معلام د فى صباح اليوم التالى كان قد تم نزعها . سألته ماوراء كل ذلك فنظر إلى مندهشا .

" هل حاولوا أن يقيدوك ؟"

" نعم فى المساء "

" اوه لكن إرر.... ظننت أنك فهمت .القيود يجب وضعها فى المساء .متى وضعوها ؟"

" الساعة الخامسة وخمس دقائق ."

" هذا شىء سخيف. أنا رأى أن توضع فى وقت متأخر ."

" أخبرنى فقط ، لماذا تجد من الضرورى تقييدى بالسلاسل ؟"

" وصلتنا معلومات أنه يمكنك أن تحاول الهرب ."

" الهرب من الطابق الخامس فى هذه القلعة. ومن أى طريق ؟ من أين حصلتم على هذه المعلومات ؟ "

" حسنا ، هذه معلوماتنا "

" فى هذه الحال سوف أستأنف الصيام "

" كما تحب .أنا لاأنصحك . هذا لن يساعدك مطلقا ."

"الهرب ! عند تلك المرحلة بدأوا يضعون المخطط الأساسى."

" استمر الاستجواب يومين آخرين ،متصاعد فى حدته. أسماء! أسماء! أسمأء!!! الكتالوج المعد للأسماء مر فى تسلسل سريع. متى قابلت إكس آخر مرة ؟ فى أى شىء تكلمتما ؟ قلت من قبل أن آخر مقابلة لك كانت فى لندن.لا، لم أفعل . د. يراجع الجملة أو يتظاهر بأنه يراجعها، يقول إنه آسف ، واعترف مرة أو مرتين أنه بدأ يرتبك. فقط نصف الحقيقة .النصف الآخر من الوقت كان مندمجا فى اصطياد المشكوك فيهم . تزييف متعمد ، حتى الاصرار على نسخه ، ثم الامتيازات. إن تكتيكات الارتباك التى تدرب عليها وعلى كل الحيل أو المناورات . التكنيك آلذى يمكنه بالرغم من ذلك أن يثبت فاعليته حيث يكون الضحية نفسه ممن يلعبون بأسلوب المراوغة والتخفى. أنا لم أتورط فى التخفى بل فى عكسه . مرارا وتكرارا يقع معلام د فى الفخاخ التى ينصبها، لقد بنى كثيرا من الممرات الكاذبة (الوهمية) حتى أنه لم يعد يعرف ماهو المسار الذى ادعيت أننى سرت فيه. لاحظت ارتباكه المتزايد وحذرت نفسى ضد خطر كنت أدرك وجوده فقط نظريا . التعاطف.

من أجل إزالة هذا الخطر لآبد من نمو العطف المتبادل بين المحقق والضحية. لقد فحصت علاقتى مع معلام د. و أعترف بأننى شعرت نحوه بتضامن جيلنا الضعيف.إنه صغير السن يفتقرالى الثقة بالنفس، وهو يحاول أن يعوض ذلك بانفجارات عاطفة سلطوية . وبسبب عجزه عن أجراء أى تحليل عميق للأمور فإنه يتشبث بنوع من الدوجما المزدوجة ؛ دوجما السلطة فى داخل جهاز البوليس السرى ،ودوجما السلطة فى داخل الحكومة. لم أستطع أبدا أن أقرر أى " داخلية" منهما هى الأقوى. هى(نوسترا كوسا دوجماتيزم) الخاصة بالمباحث السرية أو مظهرية السلطة المتلكئة البطيئة ، المعروفة بقيادتها المتعاقبة لحكومات الشمال التى تتعلق لسوء الحظ بكثير من الشباب من أقرانه فى العمر . (أمينو ربما كان الوحيد من جيلى الذى أعرف أنه كان متحررا كلية من انعكاس هذا الشىء عن السلطة الإلهية)

لقد تساءلت إذا كان التشوش السياسى قد زود معلام د بامكانية لنوع من الحقد التخريبى عند مرحلة أعلى، متذكرا كيف أنه ذات مرة وضع رأسه على كفه فجأة وقال : " أحيانا يا وول نعمل أعمالا ... نعرف أنها مخطئة.سيئة حقا . لكن هذا هو النظام .أنت تعرف ، أننى بدأت بدراسة علم الإدارة . لقد ذهبت فى بعثة لانجلترا لدراسة الإدارة .ثم نقلت إلى البوليس. ربما عندما تنتهى الحرب أعود ثانية .هناك أشياء رأيتها هنا تجعلنى...أفقد الإيمان بهذا الشىء المسمى العدالة ."

" الحرب ضد الطغيان فى اوائل الستينات كانت تجد العون الكبير من رجال بوليس وضباط من الذين كانوا يعبرون عن مثل هذه العواطف. أو يشعرون بها .بعضهم ممن كانت مواقعهم الوظيفية تجعلهم فى حرج من الكفاح لم يعانوا سوى وخز القلق. إن مهمة النقاش (أو التخريب من وجهة نظر المؤسسة) كان قد بدأ التركيز عليه بمنتهى القوة إلى أن ظهرت الحاجة إلى حليف ثانى ,انفتحت ثغرة ثانية فى هيكل النظام . فى بعض الأحيان كان مثل هذا التجنيد يتم نهائيا من خلال المصلحة الذاتية. ؛ الأمل فى أن ينجح الكفاح فى خلق الحاجة فى أن نلعب بطريقة آمنة بأن نساعد أحيانا جماعة معادية للحكومة. لكن نواة من الغيورين على تحقيق العدالة ظلوا ومازالوا ليس فقط فى صفوف البوليس، والجيش ،والخدمة المدنية، وهم يكونون طبقة تحتية مستقلة وراسخة من الرجال الشجعان فى داخل الجسم الشهوانى للحكومات المتعاقبة. ففى الوقت الذى لاينشغلون فيه بأنقاذ حياة الأفراد باصدار قرارهم حول تفاصيل الخطط المدبرة ببرود للإبادة ،فإنهم يجمعون ملفات الجرائم، والأعمال الوحشية والفساد المادى

التى يقوم بها كبار رجال السلطة المختالين بالثقة فى أنفسهم . إن غالبيتهم تعمل فى استقلال ، دون ذكر أسمائهم، مدفوعين فقط بالاشمئزازمما قد عرفوه وباعتقاد أن مهمتهم هى أفضل من أن تكون سلاحا للمافيا النيجيرية .إنهم يخطفونا لأفراد المعروفين لهم فقط بالاسم وهم على شفا المضايقات الدنيئة، والمؤامرات الشيطانية التى تحاك على أسس مخلخلة ، وحتى الاغتيال المدبر. وحيث يفشلون ،فإنهم يسجلون ذلك، منتظرين اليوم الذى يمكن فيه فتح هذه الملفات وعرضها علنا على الجماهير.

بإعطائى كل انتباه لسمات شخصية معلام د ، أفكاره غير المدروسة، مثالياته غير المستقرة ، وتوسيع اللمحات التى أمدنى بها إلى أعماقه الداخلية ، معترفا بالمعوقات التى تعطل طموحاته. بدأت أفكر فى الانتقام الحلو الممكن بتدمير رجل هذه المؤسسة بمجرد انتهاء الصراع واستئناف الثورة الداخلية. كانت فكرة ثرية وأن عملية إعادة التربية والتحول الفكرى شغلتنى ليلة أوليلتين وأنا جالس فى القيود لا أتحرك.وقد أكدت لى الأحداث فيما بعد أنه ليس مبتدئا, معلام د سوف يمضى ألى الأبد هو الدعامة القوية للكوسا نوسترا كوسا نوسترا...

الفصل السا بع

فى الصباح أحضر أحد الضباط متهما آخر، نسخة ذكورية من المرأة التى ألقى بها فى حجرتى أثناء المرة الأولى لتولى وظيفتى . كان مريضا ، روحه المعنوية منهارة، يدخن بلا انقطاع،وأصابعه تهتز. ينفض رماد سيجارته على

نفسه. كان ينظر إلى بحذر من وقت إلى آخر. فى الخارج ، كانت الممرات ترتجف من تدفق الحركة.

إن رؤية إنسان آخر يعانى تخلق عبئا فوريا على قوتى الذاتية، تميت فى اللحظة على الأقل قلق الإنسان من موقفه الخاص. قررت أن أتكلم معه وأبعد عنه مخاوفه.

"لماذا قبضوا عليك ؟"

كان طبيبا فى المستشفى التعليمى بجامعة لاجوس .لم تمض ثلاثة أسابيع منذ عودته من موسكو .بعد حصوله على درجة الدكتوراه. لقد تعرض أولا لمتاعب ضخمة نتيجة أنه درس فى موسكو .بين الأشياء الأخرى ،فإن المستشفى التعليمى بدلا من تعيينه طبيب امتياز،وضعته تحت إدارة رئيسة الممرضات .لم يصبر على هذا .وساءت العلاقة بينه وبين رئيسة الممرضات .كان اسمه يتكون من مقطعين ولا أستطيع أن أتذكره لكن لأن له رنين يشبه لغة الإيبو ، فقد ذكرته رئيسة الممرضات فى أثناء صداماته الثورية بأن وضعه مزعزع جدا.وفى النهاية وقعت بينهما مشادة علنية كبيرة ، وحسب كلامه فإنها ألغت تعليماته الخاصة بأحد المرضى وفى الليلة التالية أتى إليه البوليس . التهمة : تقرير بأنه قال إنه لن يعالج أى جندى لأنهم جميعا قتلة .

أقسم دكتور اكس أن رئيسة الممرضات وشت به ؛ ورفض البوليس طبعا أن يكشف على أساس أى كلام تم القبض عليه كما رفض ان يجعله يواجه من اتهموه وجها لوجه. لقد تم إلقاؤه فى معتقل إكويى حيث أصابه المرض وأصبح خانعا. بعد أسبوع سمح له بزيارة قام بها رئيس قسمه فى المستشفى. وسواء كان من خلاله أو عن طريق شخص آخرتم أرسال تعليمات إلى أسرته لنشر أعلان فى الصحف بأن يغير أسمه إلى اسم يقل فيه رنين اسماء الإيبو.

" نعم لقد نصحونى بأن هذا هو الشىء الوحيد الذى يجب عمله و يجب أن يظهر فى الصحف اليوم أو غدا."

لم أستطع أخفاء اشمئزازى ." هل غيرت اسمك بسبب هؤلاء الخنازير ؟" أنت دكتور، أى رجل زكى ."

" تحولت عيناه مباشرة إلى الباب . "معذرة ، أنا أفضل ألا استمر فى هذه المحادثة .يبدو أنك تفترض أننى ضد الحكومة ."

قلت له " أنا لا يهمنى من تكون .أنا ضد أى حكومة تسمح تحت قناع حالة الطوارىء باضطهاد الرجال الأبرياء."

" حسنا ،هذا أنت .أنا لم أقل شيئا ولا أريد الاستمرار فى هذا الحديث"

فهمت مشكلته وضحكت." أوه، إننى أعرف ، أنت تظن أن البولس زرعنى لأسمع ما يمكن أن تقوله؟ أنا لست مخبر للبوليس . "

لم يقل شيئا، واستمر فى التدخين بعصبية." ربما تكون قد مررت باسمى خلال الأيام القليلة الماضية." هكذا قدمت نفسى.

كان رد فعله متوقعا." أوه... آسف.أنا لست رجلا سياسيا .لست مهتما بالسياسة.ولكننى أعرف اسمك."

" حسنا لا تغضب منى. ولا تهتم بأى شيء قلته. لقد فلت إسوأ منه لمن يضهطدوننى .لن يصدقوننى إذا قلت أشياء مختلفة."

غاص فى صمت غاضب مرة أخرى ثم انفجر" كنت مريضا جدا. فى البداية لم يكن لديهم رغبة فى علاجى. لم أستطع تناول الطعام وأظن أننى أصبت بفيروس. كنت أتقيأ وحرارتى ترتفع. أحضرونى اليوم لاستجوابى. هناك رجل جديد. لقد رأى حالتى المرضية فقام باجراء الترتيبات لذهابى إلى المستشفى".

قلت له: " لاتغير اسمك"

" أوه لكننا رغبنا فى تغييره فى داخل عائلتنا. أنت ترى أننا لسنا فى الحقيقة من الإيبو. نحن ننتمى إلى عائلة .... ولكن ترى أن عائلتنا انتقلت وأقامت مع عشيرة ال ... "

استمعت إلى تاريخ العشيرة كاملا، هجرتهم، وصراعاتهم حول الأرض ، وتزاوجهم . تصدعت أذناى. " لاتغير اسمك ،، كررت كلامى. " انتظر للحظة ملائمة أفضل . أنت ترى أن هؤلاء الناس يحتقرون المثقفين. فإذا غيرت اسمك امتدحت أنانيتهم الوحشية... "

دخل الحجرة أحد المفتشين.

" أرجوك استعد.سوف تعاد إلى السجن. ثم نظر ألى رفيقى . " السيارة هنا . سوف نأخذك إلى المستشفى بعد انزال مستر شوينكا فى سجن كيرى كيرى ."

يبدو هذا شيئا أجمل من أن يتحقق، لكنه لم يكن جيدا بدرجة كافية تماما.فإذا استطعت أنا أيضا الذهاب إلى المستشفى فسوف أجد الفرصة للإتصال بالعالم الخارجى. قد أستطيع أن أتصل تليفونيا بعائلتى.

قلت " لكننى حجزت للمستشفى أيضا "

" لا، هذا الدكتور فقط. أما أنت فسوف نأخذك إلى سجن كيرى كيرى."

" لابد أن هناك خطأ. من الأفضل أن تسأل معلام د . إننى يجب أن أذهب إلى المستشفى ثم إلى كيرى كيرى."

قال أكبان " معلام د. ليس موجودا فى هذا الصباح."

" قال بالأمس إنى سأرى الدكتورااليوم.ألن تأخذ هذا الرجل إلى المستشفى التعليمى أليس كذلك ؟"

" نعم "

"حسنا إذا ذهبت للمستشفى أولا أستطيع أن أرى طبيبا "

هز المفتش كتفيه " دعنا نذهب " تضرعت ألا يلتقط معلام هذه الفرصة ويدخل علينا " كنا على وشك أن نركب السيارة عندما رأيت الغوريلا ينزل من سيارته ويتحرك نحو الممر .

غصت فى السيارة وهبطت فى ركن الكرسى عندما قفز المفتش وزميله أنتباه.وعندما أخذت السيارة تتحرك بعد هذه المراجعة القوية سألت :

" من هو الرئيس الأعلى ؟"

رد على الضابط الأصغر :"من؟ هل تقصد كينج كونج؟"

" أهذا هو الاسم الذى تطلقونه عليه؟"

" أوه، نعم"

" لابد أنه ذو مكانة رفيعة جدا . من هو ؟"

" المفتش المساعد عيسى أديجو" ثم أضاف " أتمنى ألا يكون مسئولا عن قضيتك .." " لا، لماذا ؟ "

" نحن نسميه مندوب التعذيب أو كينج كونج. فى الحقيقة إنه يحمل ألقابا أكثر من جوون نفسه.على أى حال فإنهم لن يضعوا رجلا مثل هذا لتولى قضيتك .إنه أمى جاهل."

رد عليه المفتش بحدة " اسكت، وتوقف عن كلامك السايب. سوف تتعرض للمتاعب فى يوم من هذه الأيام ."

" أوه هيا تقدم يا أوجا. أنت تعرف أنك لن تقول كلمة صادقة عن حديثى اليوم. هو وذلك الرجل السخيف، جاءا من نفس الأم ."

فى المستشفى رأيت الطبيب الذى يعالجنى، كوكوأداديفوه. بقى المفتش ملتصقا بنا. شكوت لكوكو أننى أحس بأعراض مرض قديم. إننى أعرف الروتين- سوف يأخذ عينة ويطلب منى أن أعود إليه ثانية. ذلك هو كل مايهمنى – أن أنشىء صلات فى الخارج.

كما توقعت طلب منى أن أعود لعيادته بعد ثلاثة أيام. هذه المرة قامت إدارة السجن بترتيب الزيارة . وبعد عشرة دقائق من وصولنا أطبق فرع الأمن على العيادة بتوقيت دقيق. عندما نظرت فى الممر رأيت معلام د، وضابط آخر والمفتش. نظرت ألى الخارج ورأيت هناك فى موقف السيارات عربة واجون محملة بضباط الأمن.أحسست بالحزن عندما أصر رجال الأمن على أن يذهب كوكو معهم . لقد رأيته قبل ذلك فى صحبة الطبيب المذعورالقادم من موسكو. شعرت بعبئء رهيب بالذنب لايمكن التسامح معه ملقى على كاهلى.

تكلموا أولا مع كوكو فى مكتبه بينما كنت انتظر بلا حيلة خارج المكتب .ثم خرج الإثنان .ذهبا الى الحمام فى الباب التالى بعد العيادة وفتشوه، نظروا فى الشبابيك حول المبنى، وعادوا ليلوموا ضابط السجن لأنه لم يمكث فعلا معى فى مكتب كوكو . رد عليهم بتحدى بأنه يعرف عمله وليس من شأنهم أن يعرفوه كيف يؤديه.(شىء غريب ، هذه ومصافات أخرى. كان هذا الضابط أخا لإحدى الممثلات فى فرقتى التمثيلية) تناقشت مع معلام د. حول التحرش بالطبيب ومجافاته للعدالة ، ورجوتهم أن يتركوه لحال سبيله. سمح له أن يأتى بسيارته مع سائق.وانطلق الموكب الى فرع المباحث (E).

بدافع هذا الشعور بالذنب الذى يجتاحنى تغير مزاجى ألى غضب .لم يعد الندم يجدى شيئا على أننى تسببت فى توريط كوكو فى مشكلتى. كل شىء أصبح يتركز الآن على هذا العدوان الذى لايمكن التسامح معه على حياة رجل برىء .وقبل أن نغادر المستشفى اصطحبوا الدكتور أداديفو إلى مستشفى الجراحة اتى يعمل فيها وأخذوا معهم كل الملاحظات حول حالتى الصحية وعينات التحاليل

والشرائح.أما تقارير المعمل فلم تكن قد أعدت بعد فأخذوه الى المعمل ، وطلبوا التقارير واستلموها، وأخذوا كل شيء ألى فرع المباحث (E) .

فى اللحظة التى انفتح فيها باب المصعد لم نكد نضع أقدامنا على أرض الطابق الرابع، حتى واجهنا لجنة استقبال عنيفة فى شكل الغوريلا.وفى الحال بدأ فى إصدار أوامره بأعلى صوت.لقد أمتلأ الرجل بالإحساس بالقوة وبممارستها. والرجال من ذوى الملابس البسيطة يندفعون فى مئات الاتجاهات لتنفيذ ألأوامرالتى يعجزون عن معرفة عددها من كثرة المرات التى يصيح فيها ويشتم . وأبسط كلمة سباب هى : " لاتكن غبيا الى حد اللعنة، ليس هناك ." كانوا يسقطون بعضهم فوق بعض وهم يفتحون الأبواب ليغلقونها ثانية . وسقط معلام د. وزميله فى نوبة تهيج شديد، مشيرا ألى مائة اتجاه ومتوقعا أن نسايره فى خطوات العشوائية غير المعقولة . ولولم أر وجه عيسى أديجو المكرمش وتعبيرات الزعر والخنوع على وجوه رجاله لاعتقدت أنه تدريب معد عمدا لدفع أحد المتهمين الى الجنون .إنه مستشفى مجانبن يديرها او يسيء إدارتها هيكل بشرى مختل العقل .عند لحظة معينة دفعت بقوة أنا وضابط السجن إلى داخل الحجرة فقط ليفتح الباب مرة ثنية ويخرج أوكوتى المسكين مربوط الساقين واليدين ووجهه ألى الأرض ليأخذوه فى أتجاه آخر.لم تمر ثانيتان حتى فتح الباب ودخل حجرتى ضابط وقال لى : " أنت تعالى معى الآن "

نهضت ببطء بقدر ما استطعت وسرت وراءه بخطواتى المعتادة .الباب التالى، كان المكتبة. لم يكد الباب يغلق بقوة حتى انفتح ثانية وزرع احد الضباط داخل حجرتى ليمكث كمصيدة .لقد وجد لنفسه مقعدا أمام النافذة وتمتم لنفسه كلاما غامضا. قبل أن يغلق الباب تماما سمعت صوت كينج كونج الذى لا يمكن تقليده ، يستخدم نفس السجل الهيستيرى الذى استخدمه من قبل مع المفتش القادم من إبادان :

" أنت أخذت رشوة ،أعرف أنك أخذت رشوة .لو أن معى بندقية الآن لقتلتك رميا بالرصاص دون أى اهتمام " كنت متأكدا أن ضحية هذا الوابل من الأسئلة كان هو المفتش الذى أخذنى فى أول زيارة للمستشفى."

تمتم الضابط الذى معى ، " مسكين ...." نهض من مكانه وذهب نحو الباب واستمر ينصت .

بعد خمسة عشر دقيقة تقريبا انفتح الباب وشوف ، الوحش بذاته يطل علينا ! لقد كرر تلك الحملقة الطويلة التى ظن أنها يمكن أن تبيدنى من أول مواجهة. ألقيت نظرة سريعة نحوه ، ثم أدرت له ظهرى .

أغلق هو الباب بقوة اهتز لها المبنى كله.

لم تمرخمس دقائق حتى دخل معلام د الحجرة – " تعالى من فضلك . " تنهدت وتبعته. أخذنا المصعد ونزلنا وخرجنا من الباب، ثم ، واصلنا سيرنا ، مما أدهشنى، خلال البوابة حتى العالم الخارجى. انتظر حتى تهدأ حركة المرور ثم عبرنا الشارع إلى المبنى المقابل لبوابة البوليس حيث المستشفى الخاص الذى يديره دكتور...الطبيب الذى اكتسب شهرة سيئة بعد أن تحول إلى شاهد حكومى ضد طاركا، وإناهورو، وأولولو ألخ، فى محاكمة الخيانة سنة 1963. فماعسى أن تكون هذه اللعبة الآن ؟

كان ذلك الطبيب الطيب ينتظر وصولنا.خرج إلينا ويده ممدودة ، معتذرا لأنه سوف يتركنا ننتظر لحظة أو أثنتين حتى ينتهى من المريض الذى معه . لم

يحدث أن قابلته من قبل وأدهشنى أنه يخاطبنى بألفة شديدة . نظرت إلى وجه الرجل، وجه ضفدع منافق. كان رفضى له مباشرا. بينما كنا ننتظر فى الخارج، لم أستطع مقاومة التفكير كيف أن كل من قابلناهم يواصلون اتصالاتهم معا فى عناد.

قبل اندلاع الحرب وجدت نفسى على نفس الطائرة مع أخيه ،وهو معرفة قديمة جدا ورجل أعمال. فى رحلتنا دعانى للإقامة فى شقته فى ميدان دولفين . خلال حكم باليوا ساهمت بعض المصادفات فى أن تجعلنى أشك فى أنه يعمل كجاسوس لحساب قوى خارجية أولحساب الأمن الداخلى .ذات مرة اقتنعت أن وجوده فى بلد معين فى الوقت الذى كنت فيه خاضع لرقابة بوليسية مستمرة ليس محض صدفة. تحديته فى الطائرة حول وظيفته الحقيقية . فأكد لى أنه ليس جاسوسا وإنما رجل أعمال . تقبلت دعوته ومكثت فى شقته أيام قليلة بدافع الفضول . كل من اتصلوا به كانوا رجال أعمال يسعون لتاسيس شركات فى نيجيريا .لم نثبت شيئا ولم ننفى شيئا. لكن إذا كان جاسوسا ، فهو بالتأكيد رجل أعمال خطير.ورجل مضياف . لقد استمتعت بإقامتى القصيرة فى ميدان دولفين .

والآن أجد نفسى فى عيادة أخيه- منتظرا ماذا ؟ لم أسأل معلام د. ولكنى انتظرت. خرج الدكتور ... ودعانى للدخول .

"حسنا يا وول ماذا هنالك ؟ "

حملقت فيه. ماهذا " يا وول" أسلوب غير مهذب .

لم يتراجع، بل أتسعت ابتسامته أكثر، وصارت أكثر مداهنة، وبدا وجهه عبارة عن طية من الدهن .يلوح بيدين مسطحتين لا يبدو فيهما عصب أو شىء من العظم .

" كل هذا، لماذا يتحرش بك البولس هذه المرة ؟"

من الأفضل أن تسألهم هم، أليس كذلك ؟

" ماذا فعلت ؟"

" ألم يخبروك ؟ انظر، فقط قل لى ، ماهو المفروض أن أفعله فى عيادتك ؟"

" أنا لا أعرف .فقط طلبوا منى أن أفحصك. هذا كل شىء ."

" تفحصنى؟ لأى سبب ؟ عندى طبيبى المختص . "

أوه حسنا ، أنت تعرف أننى أحيانا أقوم ببعض الفحوصات لهم ..."

" هم . من هم؟ "

" رجال البوليس "

" أنا أعرف ، لحظة " وقفت وخرجت . لم يزل D واقفا بالباب ." أريد أن أتحدث معك ."

" هل انتهى ؟ "

" إنه لم يبدأ . هل يمكن أن تنزل معى قليلا ؟" اصطحبنى ، وهو يشعر بالحيرة . " لا أريد أن يفحصنى هذا الرجل ."

" ماذا جرى ؟ هل تعرفه ؟ "

" لا أريد منه حتى أن يلمسنى. لا أريد أن يضع يده على جسدى مرة أخرى ، هل تفهم ذلك "

تغير أسلوبه فى الحال ، " أنا آسف ، ولكن هذا هو الطبيب التابع لنا .أنت تقول أنك مريض ونحن مضطرين أن نجعله يفحصك . "

" إذا كنت تخشى من أطبائنا خذنى إلى مستشفى حكومى حيث يتم فحصى ".

حسنا ، إنه ليس إر ...مريحا. يجب أن يكون د...." ثم إنى لاأتعاون . اسمع يا د. لقد تعاونت حتى الآن. لقد كنت قابلا لوضع القيود فى رجلى ولكننى لن أقبل أن يفحصنى هذا الرجل ." تحول معلام د إلى رجل غاية فى الوقاحة. " هذا شىء سىء جدا. إذا كنت لا توافق على الفحص فإنك تزيد الوضع حرجا "

ضحكت. " حرجا لى؟ كيف تقترح على أداء ذلك ؟ "

" لقد كنت رقيقا معك بدرجة كبيرة.. لقد عاملتك فى الحقيقة معاملة حسنة . لكن إذا بدأت ترفض التعاون الآن فسوف تجعل الأمور حرجة جدا ."

كررت له قولى " أنا لاأهتم بما تفعل .لن أفحص علىى يديه."
" ليست بالنسبة لك. بل سوف تجعل الأمور محرجة للجميع " التقت عينا د بعينى برهة ثم استدار بعيدا وهو يكرر " سوف تجعل الأمر صعبا بالنسبة للكل" معنى كلماته كان واضحا لايخطئه أحد، لكننى أردته أن يكون بلغة واضحة.

" هل تشير ألى طبيبى المختص؟ "

" أنا فقط أكرر ما قلت. قلت أنت فى المستشفى إنك لاتريد أن تسبب متاعب لطبيبك. حسنا ، فمن الأفضل أن تتعاون. "

وكأن التوقيت كان مدبرا ، فقد وصل أحد الضباط حينئذ وسلم معلام د. كرت العلاج الخاص بى فى المستشفى وتقارير المعمل . أخذها معلام د وانتظر قرارى . استدرت وسبقته ألى مكتب الطبيب ، حيث كان الرجل الطيب ينتظرنى بتزلف سخيف متوقع.

" أخلع ملابسك لو سمحت ."

خلعتها لكن عينى لم تفارقه،لم تفارق يديه والألات التى يلتقطها. بينما كان يتحسس صدرى بسماعته كنت مستمرا فى مراقبة يده الأخرى وماذا تفعل.لقد قرر أن يأخذ عينة من دمى وراقبته من أى مكان التقط الدبوس لأخذ العينة. بعد العينة انتظرت لأى إحسياس بالدوخة أو الدوران ، وعينى على المشرط لكى أجز رقبته عند أول بادرة خيانة'. إن احضارى إلى هذا الطبيب والابتزاز الذى مارسوه على طبيبى الخاص كان ينمى فى نفسى جنون الاضطهاد .لكن الفحص انتهى بدون أى حوادث .

" ارتدى ملابسك " ثم " والآن اخبرنى، هل تريد أى شىء ؟ " أنت تعرف أننى طبيبهم، إذا صدر عنى أمر فإنهم سوف ينفذوه. هل هناك نظام غذائى خاص تحب أن اوصى به .؟ أى شىء، أنا هنا لكى أساعدك على أن تعرف "

تطلعت إليه ، شاعرا أننى أود أن أبصق علىى وجهه .لكننى ابتسمت فى النهاية . " أنا لا أحتاج إلى الطعام . إننى أصوم نصف الوقت . أنا محتاج لملابس.ليس لدى سوى هذه الملابس وأنا أشعر بالبرد الشديد فى بعض الأمسيات . "

وكأننى منحته بركة فتمتم " حسنا ، حسنا، حسنا، ثم ابتدأ يكتب بعصبية ." أى شىء آخر ؟ أمتأكد أنك لاتريد طعاما خاصا ؟ "

نهضت وخرجت ألى الشارع . توقفت ونظرت إلى د. أريدك أن تعرف أننى خضعت إلى ذلك على كره منى . بالنسبة لى فهذا أكثر التجارب إذلالا .كنت مشمئزا إذ أضطر للخضوع للكشف بواسطة هذا الرجل وأنا أحتج على هذا الإذلال. "

" إذلال ؟ لماذا تسميه إذلال؟ إنه طبيب كفء أليس كذلك ؟" إن الذى يهمنى فى هذه اللحظة هو مصير طبيب المختص .هل ستطلق سراحه أم لا ؟ "

" لاتقلق بشأنه ؟ سوف يكون بخير ؟ "

" هل ستطلق سراحه الآن؟ الآن ؟

" نعم "

" فى بعض المواقف بدرجة اكثر حتى كثيرا من المعدل المعتاد، أن تصير اللمسة شيئا شخصيا،حميميا، نفسيا، عاطفيا، سياسيا ، وفكريا. أن يلمسك مخبربوليسى يحتمى بعلم الخدمة الطبية ، وكذلل تحت حماية عينة من تلك النوعية من المرضى النفسيين، أن يلمسك ، او يخدش جسدك، او يفتشك مثل هذا الكائن فهذا تدريب فى الانحطاط .

أن رد فعلى القوى ضد لمسه لجسمى لابد أن يلقى تعبيرا قويا مساويا للكلمات التى التصقت بذهن معلام د .أو فى ذهن رؤسائه الذين لابد أنه قدم لهم تقريرا. لم يكن من قبيل الصدفة تلك الصياغة الدقيقة والقريبة جدا من التى استخدمت فى حكاية الهروب الشهيرة .

يمكن التكهن بأن البوليس و(الحكومة) قد أصيبا بالزعر بعد الحادثة العلنية فى المستشفى .فاندفعوا فى اليوم التلى يذيعون فى الصحف خبرا يقول " إنه ينام جيدا، ويأكل جيدا ، ومسموح له بزيارة طبيبه."

الفصل الثامن

مكثت فى رتابة سجن كيرى كيري التى استقرت على روتين اقرأ- تنزه- اقرأ- كل- اقرأ- نام. ليس هناك مزيد من استجوابات - هذا الكثير الذى تعلمته. الكتب؟ أساسا روايات رخيصة على رف صغير فى مكتب المراقب. لاتوجد مكتبة بالمعنى الصحيح. لقد سألت إذا كان فى الإمكان الحصول على الكتب من المكتبة الرئيسية فى المدينة لكن حادثة المستشفى تسببت أخيرا فى تضييق القيود على المعتقلين فى سجننا . لقد صدرت تعليمات بدائية متخلفة غير انسانية باسم الأمن عن طريق الجيستابو لحبس المعتقلين فى حجز أشد ضيقا، ليقللوا اتصالهم بالعالم الخارجى الى مستوى الصفر. وهذا يشمل المعتقلين القدامى، أولئك، يشبهون "الصناديد" تم القبض عليهم من عهد أيرونسى. والمراقب ،بعد موقفه الشجاع بخصوصى خطفى من المستشفى يلعب سرا ، متذكرا حقيقة أنه ينتمى إلى قبيلة متهمة . الاستثناء الوحيد كان هو الجنديان اللذان قتلا المصور من قبيلة الإيبو .هما وحدهما كانا يستقبلان خطابات ، وصحف،وزوار بصورة مستمرة كما كانا مسموحا لهما بمغادرة السجن فى الصباح والعودة إليه فى المساء فى أى وقت يوفر فيه الضباط عربات تحملهم بعيدا " للإستجواب ".كان تصرفا منتظما أن تراهما يقفزان ، يختطفان بعض الملابس ويندفعان الى الخارج نصف عرايا ، وهما يصيحان " أكيد، أكيد " لطلبات معتقلين من السجائر والبضائع المهربة الأخرى .

وهكذا حتى حدث فى أحد الأيام ، بطريقة حتمية، أن صدر الأمر بإطلاق سراحهما .أما المعتقلون الآخرون فق قفزوا ليصفقوا لهما على ظهورهما ويصيحون " تهانينا ". ثم لزم السجناء الصمت دون أى تعبير. أحد المعتقلين

سأل الشاويش، " أراهن على أنك حصلت على ترقية ." وتوقف جاك بالانس عن عملية التنظيف وأضاف بقوة،:" أكيد ، يجب أن يرقوه .تخيلوا كل هذا الوقت الذى قضاه هنا "بقيت مذهولا فى زنزانتى فحين كانت صيحات التهانى تدور من حولى، لم أستطع أن أصدق أن ما أسمعه كلام صحيح. أما بقية السجناء الذين يسكنون الزنزانة الخلفية بسبب مخالفات متنوعة جلسوا وأخذوا يحملقون .عندما سكنت الضجة وأغلقت الأبواب خلفهما خرجت لألقى نظرة على وجوه صانعى الفرح كنت متلهفا على معرفة مستوى الأمانة .هل يمكن أن يكون إطلاق سراح شخص مصدرا ليبعث فى صدورهم أمل الخروج للحرية بصفة نهائيا ؟. لقد وجدتهم جالسين فى الفناء بوجوه ساهمة خالية من أى دلالة على الفهم . لقد انطفأت العاطفة بنفس الطريقة المصطنعة التى أثيرت بها . لقد همس أحدهم " خنازير قتلة " ثم عاد إلى زنزانته. البعض الآخر هز رأسه كما لوكانوا غير قادرين على تصديق ماحدث .إذن لماذا؟ لماذا القبول الكاذب ؟ إنه يعنى شيئا واحد.إن هذين القاتلين قد أستعرضا هذه القوة بصورة ظاهرة داخل المعتقل ، وإن إطلاق سراحهما غير الطبيعى ، وبالطرق المنحرفة والظالمة ، قد أضفى عليهم هذه السلطة حتى أن كل معتقل فى داخل هذا البلوك أحس إحساسا غريزيا ، أنهما وقد خرجا الى الحرية ، فبامكانهما أن يقولا كلمة لصالحهم . إنهم باطلاق صيحة التهنئة والقبول بتسريحهما من السجن إنما كانوا يعلنون لهذين القاتلين من أدوات الإبادة الجماعية الحكومية.إنهما مواطنان طيبان، ومخلصان للحكومة.

بعد ثلاثة أيام، لم أعد قادرا على قبول الانتظار بين جدران السجن ، فبدأت فى كتابة الخطاب لزملائى السياسيين. إننى أستعمل هذا المصطلح مفضله على مصطلح " رفاقى السياسين "، لتمييز مدخلنا الى مواقف الصراع.ولتمييز أولئك الذين يؤمنون من ناحية أن السجن – مستشهدا بهذا للوضع الحالى- هو نوع من الأرض المقدسة الذى يجب على النزيل فيه ليس فقط أن يطيع قوانين السجن بل أن يمتنع عن التورط فى الكفاح الذى وضعه هناك .وأن يسلك نفسه دائما بتلك الطريقة التى يمكن أن تؤدى إلى اطلاق سراحه فى وقت مبكر. على الناحية الأخرى ، كرفاق، هؤلاء الذين يعترفون أن السجن هو فقط مرحلة جديدة لابد من إطلاق شرارة الكفاح عندها.. ذلك السجن ، بالأخص السجن السياسيى هو مبنى مصطنع فى كثير من المعانى أكثر من كونه شىء يجب تذكر خداعه وإظهار عجزه . ليس فقط الظلم داخل السجن هو مايجب أ ن نتناوله ، ليس فقط استمرار السلطة الفاشية الخارجية التى تمارس نفوذها داخل السجن هى التى يجب هزيمتها، وإن كان هذا يؤدى بالطبع إلى تشكيل تقييم قدر النزيل فى النضال. فحيث تفرض الضرورة، وحيث يدعوه ضميره الاجتماعى، فإن الإلتزام بمبادىء مطلقة لا يمكن أن يعطيه عذرا يبرر عدم لتحركه وإدارة ظهره للقتال من أجل إقامة مجتمع عادل .

بينما كان زملائى يرتعدون من مطالب هذه الدعوة المتجددة للعدالة،وصلت أنباء عن العثور على الخطاب إلى واحد من مئات العملاء الحكوميين من بين هيئة التدريس الأكاديمية فى إبادان. فحاول الحصول على الخطاب، أعد منه نسخة (فوتستات) وسلمها بإخلاص شديد لرؤسائه العسكريين .

قبل الخطاب، كان هناك قرار قد اتخذ بشأن اطلاق سراحى.فى أعقاب تقريرمعلام D. وشينكافى، لم يكد التقرير يعد- لم أكن معتقل رسميا بعد- حتى تسربت المعلومات عن طريق مكتب الاعلام بادرة الشرطة .وحملت الخبر عمليا إحدى الصحف :

مأساة الموظفين الشباب المتحمسين فى الجهاز مثل معلام D هى أنهم يتخيلون أنهم على دراية كاملة بالدوافع المختلفة للسلطة، لأنهم يرون فى أنفسهم جزءا من هذه السلطة . عندما يسمحون لأنفسهم أن يستخدموا لأهداف دنيئة ، يظنون أن أفعالهم فى حقيقتها هى أعمال للدفاع عن النفس لأن الضحية وجه نشاطه ضد وجودهم فى داخل السلطة . يظنون باختصار أنهم فى داخل أعماق السطة ، السرية ،حيث أنهم يعرفون كل شىء . إن قرارى بالإشارة الى الحرف الأول من اسمه .يرجع فقط إلى شبابه وسذاجته وإمكانية أن الأفراد مثله يمكن رغم ذلك إنقاذهم.

الرجل مات

أما البقية الباقية من أمثال، عيسى أديجو، كيم ساليم، فيمى أوكونو، ريمى إلورى الطبيب، الخ، فهى نوعية لاخلاص لها، لايختلفون إلا فى درجة الوحشية او الانتهازية.

بالكشف عن أسرار الخطاب إلى أحد أعضاء المجلس العسكرى الأعلى دخلت مشكلتى مرحلة جديدة تختلف تماما،عن أى وقت مضى ، أصبحت مسألة حياة أو موت .كانت كل المعلومات التى ترسل الى البوليس عن نشاطى تنقل إلى حتى داخل السجن ؛ كانت متاحة بسهولة لأنه من بين الأسباب الأخرى، أنها لابد أن تطبخ أولا،ثم تناقش، وتغربل لكى تقوم أجهزة الدعاية و المخابرات بتقييمها .فالاحساس بالسلطة، عن طريق المشاركة فى أحداث تاريخية فتح أفواه كثيرة بدرجة لاتكاد تصدق .لقد ذهبت هذه الوثيقة القاتلة مباشرة إلى أيدى المسئولين فى قمة الهرم العليا.فجأة أصبحت أجهزة البوليس والأمن على علم

بأن هناك قوى أخرى غيرهم تعمل. رجل واحد فقط من الجيستابو سمح له بحضور اللجنة الداخلية التى اجتمعت للتأمر على حياتى . كان هذا وحش بيلسين ، عيسى أديجو. واختيررجل واحد فقط من المدنيين من مجلس المفوضين هو فيمى أوكونو،نائبا فى الحكومة عن لجنة العشرة .

الباقون مثل معلام د. وتونى إنهارو كانوا مجرد أدوات جاهلة ، مغلوبة،وبما أنهم اليوم كما كانوا فسوف يكونون دائما فى أيدى سلطة لاضمير لها .

فى صباح أحد الأيام وصل ضباط الأمن الى السجن. أخذونى الى أحد المكاتب ، ولدهشتى، أخذوا بصمتى .سيطر على الغباء لحظة ، فداعبنى الأمل فعلا بأننى على وشك أن توجه إلى تهمة بشكل رسمى ويتم اعداد بعض الأوراق استعدادا لمحاكمة قادمة. لكنهم حزموا دواية الحبر مع بصماتى فقط. ورحلوا . فى وقت متأخر من ذلك المساء استقبلت زائرا هو زوجتى.تحدثنا معا حوالى ساعة، ليس حديثا خاصا بل كان فى حضور معلام د. وثلاثة من موظفى السجن . .....

تم الاجتماع فى مكتب المراقب العام.وفى اليوم التالى صدر تصريح صحفى أعلنه طونى إنا هورو.

نشرت جريدة الصنداى بوست فى 29 اكتوبر 1967

" أن مستر وول شوينكا، الكاتب المسرحى الشهير، ورئيس قسم الدراما وأستاذ للغة الانجليزية بجامعة لاجوس، تم اعتقاله ضمن الإجراءات المنظمة لحالة الطوارىء."

مستر شوينكا لسوء الحظ على علاقة بأنشطة تجسس لحساب قائد المتمردين أوديميجو-أوجيكو ضد الحكومة العسكرية الفيدرالية.

وقد أكد الرئيس إنا هورو أنه مفوض من الحكومة العسكرية الفيدرالية للإدلاء بهذا التصريح .

ثم قال المفوض أن تحقيقات البوليس أظهرت أن مستر شوينكا كان فى بلدة إينوجو فى السادس من أغسطس مع زعيم المتمردين، اود يميجو – أوجيكو وقيل إن مستر شوينكا كان قد صرح بأنه جاء لعمل ترتيب مع مسترأوجيكو للمساعدة فى شراء طائرة نفاثة لكى يستخدمها زعيم المتمردين .

وفى نفس البيان قيل أن مستر شوينكا قد صرح بأنه قد غير رأيه حول هذا الأمر منذ ذلك الحين .

وفى 9 أغسطس كان مستر شوينكا فى بنين مع الكولونيل فيكتور بانجو واتفقا على المساعدة فى القيام بانقلاب على حكومة الجزء الغربى بنيجيريا .أكثر من هذا أن مستر شوينكا اتفق على القيام بانقلاب تالى على الحكومة العسكرية الفيدرالية. هذا ما صرح به المفوض للصحافة."

كان التصريح مرتب بدقة جميلة ومركز.المكافأة المنتظرة لإعادة الوحدة الوطنية أدخلت الصورة التالية فى عقل أحد القراء. إنه مكافأة ل" اعتراف" الخائن النادم قد سمح له بزيارة من زوجته.وهو سعيد وراضى يحس بالراحة والسرور بعد أن أخرج كل ما كان يثقل صدره . الآلة العسكرية لديها بعض الخبراء فى علم النفس الجماهيرى وهم يتولون العمل فى الشئون التى تتعلق بى .

الفصل التاسع

كل شىء كان يجرى فى طى الكتمان داخل جدران السجن.لقد قام الجيستابو بعمل تعتيم كامل عن العالم الخارجى بالنسبة لى وكل النزلاء فى الزنزانة الخلفية قبيل المؤنمرالصحفى الذى عقده إناهورو. إن أى دحض أو تفنيد لما قاله سوف يكون محيرا.وسوف يبرهن أنه خطير، ويؤدى الى الشك فى أى رواية تقال

حول تنفيذ الفصل النهائى فى الخطة. ففى يوم المؤتمر الصحفى لم تظهر صحيفة واحدة فى البلوك.وحتى روتين الخدمة الخاص بالمعتقلين لم يتم تنفيذه؛وكان من المعتاد أن تقدم لكل معتقل إحدى الصحف لقراءتها ، يقوم بتوزيعها عليهم أحد كبار الضباط .فى صحبة المراقب العام . يوقع السجين على إيصال استلام ويحتفظ بنسخة منه :ربما لم أعتقل فى الحقيقة أبدا لأن توقيعى على هذا المستند أصبح مفقودا! إن ستار التجاهل الرقيق الذى حاولوا أن يغلفونى به لا يستطيع أن يصمد فى أى قضية . وبصرف النظر عن خطوط اتصالاتى الخاصة فإن كرمة العنب الموجودة بالسجن لها قرون استشعارطويلة.وعند الظهركنت قد عرفت الأخبار ليس فقط بل أمسكت فى يدى بقصاصة من صحيفة.لقدكنت أفكر فى بشاعة الموقف .كان خط اتصالتى الخاصة يعمل من خلال شخصين من المخلصين الذين أقاما فى مكتب بريد الجيش بالسجن .كانا يستخدمان أسماء "دان" و " سوجو".معظم ساعات النهار كانا متواجدين عند كوخ عرق البلح حيث كانوا يشربون الخمر بكثرة مع الجنود ويلتقون مع السجانين خلال نوبات العمل او فى أوقات الراحة . وكانا يتصلان بسهولة مع المساجين الذين يعملون خارج جدران السجن فى قطع الحشائش فى حدائق كبار موظفى السجن أو طلاء جدرانهم.

فى كل يوم كان واحد منهما يلتقى مع صديقا مشتركا، ضابط من الجيش يقوم بمهام غريبةغير محددة. كنا نسميه " ج" إننى مدين بحياتى ليقظة هذا الثلاثى.

بعد ظهريوم الاعتراف المنشور تلقيت هذه المذكرة من دان:

" سوف ينقلونك ليلا.ينتظر وصول طائرة الى مهبط الطائرات قبل حلول الظلام. جهة الوصول رسميا مدينة جوس ، لكن ليس هناك جهة محددة بطريقة موثوق فيها .هل تفهم؟ يقول "ج" انه سوف يتابع الأمر لكنه يحتاج إلى وقت .هامش الأمان ضيق جدا فى هذه اللحظة .هل يمكنك خلق انفجار، أى انفجار؟ إذا أمكن حالة شغب على مستوى كبير. جرب من فضلك.أفعل أى شىء لكسب الوقت على فكرة، هل تعرف من هو بيتر ؟هو هناك رجل الداخل - لاتسمح له بالاقتراب منك .

بيتر؟ إذاكان هو حقيقة فقد أحسنوا الاختيار .بيتر وأنا نهش ونبتسم لبعضنا بعضا يوميا لكننى أعرفه جيدا.السجانون يتحدثون عنه فى أغلب الأحيان ،وكذلك المساجين .لكن السجانون بصفة خاصة مندهشون لأسلوبه الملىء بالغطرسة والتكبر، وصعوده الصاروخى، و"علاقاته" مستواه العلمى سادسة ابتدائى.بدأ حياته نجارا يعمل فى خدمة السجن ورغم أنه لايتميزبأى موهبة خاصة فقد تم ارساله للتدريب فى انجلترعلى حرفة تشغيل السجون. عند عودته تمت ترقيته مباشرة الى درجة تلميذ ثم فى قفزه سريعة إلى مساعد المراقب العام.المساجين يتحدثون بمرارة بسبب صعوده نتيجة للتحيز القبلى.لقد لاحظت أنه يتميز بخصلتين هما الخمول والقدرة السادية التى لا تصدق. لقد شاهدته فى إحدى العمليات ضد مسجونين جىء بهما للاستجواب فى زنزانة مجاورة .المساجين يسمونه الوجه المفرطح. كلاهما السجانين والمعتقلين يعلنون أن طموحه فى الحصول على الوظيفة دفعه الى تدبير عملية قتل غير رسمية لرئيسه بواسطة جنود من المتمردين، من سكان اليوروبا وسكان الشمال من أجبومالو . فى وقت غزو الجزء الأوسط الغربى . عندما أخذوا المراقب الى الغابة لمدة ثلاثة أيام قام هو بإدارة السجن . مذاق حكمه لهذه المدة القصيرة وحد بين السجناء وحراس السجن ضد مشروع خلافته واقعيا فى المنصب . وقد شعروا بالسعادة عندما عاد أسابا فيوجتيف .(الهارب من قبيلة أسابا)

دفعتنى غريزتى الفطرية لأن أطلب مقابلة المراقب .سألت السجان أن يذهب إليه ويؤكد له أن الأمر عاجل .لكنى فكرت فيماأود أن أقوله لنقلى فورا من هذا البلوك. غاب السجان عشر دقائق، ثم عاد ومعه واحد من رؤساء الحرس. لا. لقد صممت. هذا أمر يمكن مناقشته مع المراقب الرئيسى. ما رأيك فى مساعد المراقب ؟ لا، بالتأكيد لا، لا اريد أن اقابل بيتر. لقد وعد الرجل بأن يتصل بالمراقب العام فى بيته . فى نفس

الوقت كتبت مذكرة سريعة أنكر فيها التزوير الغبى، وسلمتها الى زميل من المعتقلين لتذهب مع "مجموعة البريد التالية" .

الساعة السادسة والنصف ولم يأت المراقب ، وباقى من الوقت نصف ساعة ليتم الإغلاق بدات بعد ذلك افكر فى شخصية المراقب العام. هل يحتمل أن يتقبل حقيقة أننى فى خطر؟ الخلفية _ إيبو من الجزء الأوسط الغربى .أخذت أقدر إذا كان هذا يضعه فى جانبى أم لا .الإجابة بالنفى طبعا.فأكثر النيجيرين عرضة للاضطهاد فى ذلك الوقت هم الإيبو من أهل الوسط الغربى . خصوصا منذ الغزو الميد ويست . أصبحوا مسكونين بالخوف ، يتم اصطيادهم وقتلهم منذ تلك الحادثة وأصبحوا يعتبرونهم اكبرخطر على الأمن بل أخطر من الإيبو أنفسهم .ففى اليوم التالى بعد الغزو قضى رئيس الحرس والمراقب العام ثلاثة أيام مختفين فى الغابات حتى تبرد شهوة الدماء. فالإيبو من أهل أسابا مطلوب منهم عشرة أعمال مقابل عمل واحد فقط لبقية ابناء الأمة لإثبات أنهم من البشر أن تبقى متواريا عن الناس تتحرك بين البيت ومكان العمل بهدوء، متجنبا رؤية الناس لك، منفذا للأوامربالاستدلال وبدون أسئلة- هو الطريق الوحيد للاحتفاظ بلقمة العيش والبقاء حرا أو حيا .

فى السابعة إلا ربع عرفت أنه لن يأتى.وتأكدت بنفس الدرجة أنه إذا طلب منه البقاء فى البيت والتوقيع على الأم رمن أجل كل المفاتيح المطلوبة فلن يكون أمامه أى اختيار آخر.وفى أى الحالات فهناك بيتر. كيف يمكن لإنسان أن يحمى نفسه من حراسه فى لحظة احساسه بالخطر.

اجتاحت مخى عاصفة من الأفكار، حينئذ دعوت اثنين من النزلاء معا كنت قد حولتهم مؤقتا عن معتقداتهم القديمة فى تلك الأسابيع القليلة.

قلت " أريد حالة شغب.يجب أن يبقى السجن كله مستيقظا حتى أقلت من الخطر."

قرأت لهما التنبيه وشرحت لهما حيرتى. فوافقا على التعاون,فى ظرف عشر دقائق بدأنا تحريك سلسلة من الأحداث. كان لديهم قوى يعتمد عليها فى السجن-لقد لاحظت عملياتهم الخفية التى تبدو غير مترابطة،حتى فى وقت مبكر قبل موعد إغلاق السجن .

وصل المراقب ومعه حوالى دستتين من أعضاء إدارة السجن، فقد أجبرناه أخيرا أن يترك فراش نومه بعد تجاهله لنداءاتى طيلة فترة مابعد الظهر .هاجمته فى الحال ولكسب الوقت ألقيت خطبة طويلة اتهمت فيها السجن بالمشاركة فى مؤامرة حكومية لتصفيتى .نظرت إلى بيتر مباشرة دون احساس بالشك فى الاحباط الظاهر على وجهه الذى ينضح بالكراهية .لقد برأت المراقب من أى علم مسبق أو من المشاركة .أعلنت قرارى بالاضراب عن الطعام حتى الموت أو حتى تسحب الحكومة الاعتراف المزور .

واصلت الكلام ، مرتجلا ، ومستمعا، ومنتظرا إشارة المرحلة الثانية من خططى التى كان يجب أن تكون قد بدأت عند دخول هيئة الإدارة، يقوم بإطلاقها الشريك الآخر.لكنه رقد فى سريره بسبب إصابته بشلل مفاجىء نتيجة الخوف. لقد رأى ، حسب اعترافه فى صباح اليوم التالى عندما جاء " يتوسل لكى أسامحه " لقد رأى رؤية وجد نفسه فجأة فى مواجهة جدار فى ثكنات الجيش فى دودان يواجه إحدى كتائب الإعدام .بسبب دوره فى عمل الليلة. لقد تجمدت أطرافه وعجزت أن تطاوعه.

الابتهاج الذى شعرت به فى تلك الليلة بسبب مواجهتى لبيتر،فى التعرف تعرفا كاملا على أحد الوجوه فى جيش القتلة المجهولين، وباول فعل إيجابى ضدالنظام؛ نهاية فترة طويلة من السلبية ، من مجرد الانتظار وترك المبادرة للطرف الآخر. التعويق (على الأقل ، مؤقتا) لنوع من التحدى الخبيث لحياتى.هذا الرصيد

الكامل من الشعوربالبهجة بدأ يتناقص عندما كنت اتكلم فى انتظار الأصوات الأخرى التى رفضت المجيء.أخذ الاحساس بالخدروالذهول يزحف على ببطء.

رغم هذا فإن دان وسوجو كان لهما دورالمساعدة فى الخارج.فالطائرة التى بدأت تحوم حول مهبط الطائرات أوقفت محركاتها وحطت فى الظلام. ويمكن فى هذه اللحظة أن نضيف القليل عن الأحداث التى حدثت عند مهبط الطائرة والكارثة التى أحدثتها فى قمة السلطة بين السفاحين.التبرير الدقيق لبرنامج التصفية كما كشف عنه الضابط ج قد بني،خلال المناقشة "فى اللجنة" على أساس أننى فى وقت من الأوقات تعرضت للمحاكمة بسبب إيقافى لمحطة-*إذاعة.وأن الجماهير سوف تصدق القصة التى أعدوها.وهى: أنها بينما كنت فى الطائرة فى طريقى الى مدينة جوس،أخرجت بندقية وحاولت خطف الطائرة وأصابتنى رصاصة أثناء المحاولة . رجل عنيف لقى نهايته العنيفة .فرجل المسرح بالغ فى تمثيل دوره مرات كثيرة.

فى داخل السجن كان فشل النزيل الآخر كارثة لايمكن التنبؤ بأبعادها.بعد حالة الإرتباك الكبيرة التى حدثت، الهياج والشك المذعور من المستوى التى أجيبت به استغاثتى جمعت القتلة داخل مرحلة هياج مدمر قبيح لايهتدى بضمير لن يستخدم فيه سوى أقذر الوسائل. أول جرعة منه وصلت ضمن الفنتازيا التى تم نسجها حول أحداث تلك الليلة . فتم نقلى الى سجن به أقصى الاستحكامات الأمنية، موضوعا فى قفص اربعة وعشرون ساعة يوميا. لكن كل هذا توقعته وكان يمكن تجاهله.اما الذى لم أظن حقيقة إمكان حدوثه هو عمل تزوير آخر. يقول البيان الصحفى أنه تم القبض على " متواريا بجوار حائط السجن." كان هناك آلة صماء (تمثال لعرض الأزياء) فى سريرى.وأخيرا وأشدها ضربا لمعنوياتى .أننى، عندما أنكرت محاولة الهروب ، أعلنت أننى كنت فقط " أحتج ضد الإذلال الحكومى ."

فى فترة الدمار العقلى التى أعقبت تلك الضربة الموجهة للمستوى الرفيع لاحترامى لنفسى. لم استطع أن أتذكر أن تلك العبارة قد نقلت من الاحتجاج الذى قدمته لمعلام D، تعبيرا عن اشمئزازى من محاولة إخضاعى للفحص عند طبيبهم .

حركة مطابقة حدثت عن طريق صحفى مأجور هوريمى إللورى فى أعمدة الديلى إكسبريس، إنه صوت لجنة العشرة، إذ كان يأخذ من هذا الموقع "معلومات داخلية كثيرة" وينشرها على الجماهير. هذا القزم البذىء بعقده النفسية الهائلة تدرج أخيرا الى وظيفة مخبرصريح للبوليس حيث يمكنه اشباع خيالاته بما قضى على حياة كثيرين من الأبرياء المحتارين.

الفصل العاشر

"الاعتراف – محاولة الهروب الفاشلة – الشكوى من الإذلال " .ثلاثية تستهدف أكثرالعقول استخفافا بالدنيا أو أشدها اخلاصا.إحدى روائع الفنتازيا المقنعة التى يمكن أن تمزق أى مقاومة طويلة للقوة الشمولية للنظام . إذا أمكن كسره ، وكسره بطريقة ذليلة ، فإنه يمكن كسرأى شخص. هذا الجيش يستطيع كسر أى شخص .وأى إرادة.كان التسلسل مشحون بالهمسات،خيانات خفية تعقبها عمليات التطهير السريعة .

فى لحظة من لحظات الهدوء المفروض بالقوة خرجت أصداء أصوات من الشارع،أصوات الأسواق بعيدا عن همسات الدهاليز، نظرات التجمعات بعيدا عن أمطار البصقات والاحتقار،تحركت خارج مرمى الأصابع المصوبة نحوى .والضحكات فى الظلام ، بعيدا عن الإيماءات العاقلة الصادرة عن ضمائر كبار السن ، بعيدا عن التهكم ،الحسد الخفيف وابتهاج الموهومين. بدأت ببطء وبطريقة ملتوية استكشاف فى عقل العدووالأخطار المستقبلية.ماذا يفعلون الآن؟ يقرعون كئوس الشمبانيا بعضهم مع بعض ،ماذا.بعد ؟ يصفعون بعضهم بعضا من خلف ظهورهم من أجل الضربة القاضية،يتنهدون ارتياحا . نعم، نعم لكن، ماذا بعد؟ ضع نفسك فى موضعهم، فما عساك أن تفعل الآن ؟ هذه اللحظة !وما سوف تكون الخطوة التالية ؟

إذاعة المزايا, لاشىء آخر.لا مجال للمنشقين. اكنس ونظف كل جزيئات المعارضة.الاعتقال. التطهير! باعلان صغيرغامض،إشارة صغيرة ،بفضل ما كشف عنه أحد أعمدة النظام التى تحول حديثا، فأصبح فى الإمكان الآن تطهير الأمة مرة واحدة والى الأبد من كل كتاب الأعمدة التافهين . وتسوية كل الجروح القديمة ! أما بالنسبة لك أنت ...

نعم، تقدم. رغم كل شىء فأنت الكاتب،تلميذ الطبيعة الانسانية.اعطنا تعريفا مبدعا.ما هو أسوأ شىء سوف تقوم به حتى لآخر خطر،الشاهد الوحيدعلى مؤسسة الكذب والزيف التى أقيمت لأفراد الطبقة العليا ليمارسوا أبشع أساليب القمع العنيف ؟

لأن هذا الخطر سوف يبقى ماثلا، حتى بعد أن ملأت السجون حتى فاضت ، وبنيت معسكرات اعتقال لكى تضم مخربين "معترفين " خطر تسرب الأسرارفى الفقاعة سيبقى معكم أنتم أيها الأحياء.عندما تمتلىء القبور الخفية وترتوى شهوة الجماهير للثأر بأنات المعذبين، ما عساى أن أفعل؟ما الذى يمكننى فعله حتى أدمركم نهائيا، دون أن أترك منفذا للهرب ؟

جاءت الإجابة بوضوح شل قدرتى. أطلق سراحك . نعم فى اشارة واحدة لايمكن إلا أن تفسرعلى أنها وفاء لمساومة أو صفقة تحقير ، تفتح الأبواب وتتركك طليقا.بعد خلع أسنانك وتقليم مخالبك.وكسر صوتك.ببساطة بفتح الأبواب وإخراجك لحملقة الجماهير.

قل لى ، ماالذى سوف تقوله؟ هل تنكر؟ يا صديقى، رفقائك ماتوا ، تم حبسهم، ارتعبوا وانهاروا. حتى لولم يكونوا رفقاء لك،حتى لو لم تكن عيناك قد وقعت عليهم ولم تعلم بوجودهم، فالحقيقة، نعم ، الحقيقة- اتعرف الكلمة اللينة؟ - الحقيقة،الحقيقة هى تلك الحقيقة المتعلقة بالقبض عليهم عقب التلميحات التى تسربت عن أعترافك السخى.هذه هى الحقيقة.لقد أعدنا خلق الحقيقة والحقيقة تتحدد الآن فى صورتنا.كل رجل يفقد حريته أوحياته يضاف إلى سجل خيانتك .ماالذى سوف تقوله؟ كيف ستقوله؟من، فوق كل شىء،سوف يتجرأ ويصدقك ؟من سوف يريد أن يصدقك ؟ من سيفكر فى التصديق؟الحقيقة، يا صديقى العزيزهى الألاف الذين اختفوا منذ أن ثبتنا عقلك الصغير الذى يتدخل فى هذه الامور !

فى قفص من أقفاص الحيوان ، وفى عزلة روحية طيلة الأيام القليلة الأولى أصبح الأمل حقيقيا ومفزعا . لقد ابتدأ كأنه تدريب لتسليح نفسى ضد ما هو أسوأ ، ثم انغمس فى هلع الخيال ومخاوفه.إذ بدأت أفقد قدرتى على التمييز العاقل بين الفروض والحقائق.حتى قبل إعادة تأسيس خطوط اتصالاتى بالعالم الخارجى بوقت طويل، تأكد لى أن الحقيقة كانت معروفة حيث كانت أهميتها أعظم ،واحتاجت الذاكرة إلى تنشيط قليل للإنغماس فى الماضى بالعودة الى مرجل النبضات المتسارعة والتوتر العصبى. لكن كانت هناك حقيقة غريبة ،تتناقض مع كل التوقعات المنطقية- استمر عقلى يعمل.إذا كان هناك شىء حدث فإنه قد انتج نوعا من المكرالكسول الحاد فبعد أن نقلونى الى سجن به أقصى الاستحكمات الأمنية فى أعقاب قطع خطوط اتصالاتى المفاجىء، أدركت وأوشكت أن يصيبنى الفزع من فكرة أننى أصبحت أكثر من أى وقت مضى تحت رحمة جهاز الدعاية الحكومية، وأصبحت ممسوسا بالرغبة فى ايجاد وسيلة لتجديد هذا الاتصال .يمكننى فقط التفكير فى شخبطة خطاب انكار للخطاب المفبرك الذى سبق تسليمه لذلك النزيل الذى انهارت أعصابه فى اللحظة الحاسمة. والآن أدركت ربما يكون قد مدغه او بلعه قبل التفتيش الذى كان سيتم حتما فى أعقاب حالة الشغب.

شىء طموح وحشى مهلك لكل شىء- أن تخرج بيان باى تمن،أن تحبط خطة الآخرين للإنكارالتى يقومون ببنائها على حجر الزاوية الناتج عن تراكم التزوير. حالة الازدواج العقلى عندى ،ازدواجية اليأس البارد والمكر الغريب الغريزى الذى ظهر فى تلك الأيام فقط أدهشنى بعد ذلك بوقت طويل.

شاهدت ، وانتظرت وخططت.دارعقلى حول مئات المشاريع، وقمت بعملية مسح لكل سجان،استصغرت الموثوق به الذى يأتى لإطعام الحيوان.غصت فى روح كل نزيل باحثا عن تلك الومضة ،الدالة على مشاركته فى المعرفة . فالمسجون يعرف فى الحال من سوف يساعده ومن الذى لن يساعده. كنت مستعدا لانتهاز الفرصة، لم أترك شيئا للضياع .كان عقلى يسابق الزمن عندما حانت الفرصة أخيرا، مجرد بارقة أمل بوجود فرصة .فتمكنت من القبض على هذه البارقة ووظفتها .

كانت واحدة من بين ألف فرصة ،مصادفة كهذه قد تجعلك فى عداد المتحول عقائديا بقوة العناية الإلهية، تجمع ملابسات حدث كمفارقة بفضل رنين الحديد المحيط بى .كثيرجدا من الاحتياطات ذاتها، كل واحدة منها تلغى الأخرى – رسالتى كانت تنتظر.

عرفت حتى فى أثناء اندفاعى أنه يجب أن أعد صياغة بيانى بحيث يبدو وكأنه آتى من السجن الآخر. إنه يضع قيدا شديداعلى لكنه كان أفضل من نقلى فى الحال من هذا العازل المتخيل الذى اخترقته. اختراق يستحق الاعتقال. اتخذت مذكرتى أجنحة وطارت إلى أيدى جائعة إلى الأمل..صحيفة أو اثنتين داخل البلاد وجدت الشجاعة فى أن تطبع ؛ وبدأت عملية مطاردة خبيثة فى السجن الخطأ.

هذا الانتصار الصغير كان لابد أن يعزينى فى أعماق الهاوية التى أعيش فيها على مدى الأيام القادمة .هول الصورة التى استحضرتها حقيقة مخيفة .بينما كنت أنتظر أنباء مؤكدة .عرفت قسوة القلق التى تفتت الأكباد. إنه يرعى فى داخل مناطق من الكائن المرئى، وفى زوايا لا أستطيع أن أصل اليها .

كانت أيام بلا ملامح ، أيام لا يمكن أختراق ظلامها ونبضاتها التى أفلتت من السيطرة.كانت هناك مهدئات، حبوب منومة، زيارات من طبيب السجن. استرداد واهن للقوة من مصادرإرادة حذرة ضد الاعتماد على الحبوب، تحذرنى أن ارفض كل مساعدة زائفة وغير حقيقية .بعد يومين أجبرت نفسى على إلقائهم فى جردل الغسيل.وبعد يومين آخرين طلبت من الدكترر ثانية أن يعطنى بدلا منهم معترفا بما فعلته بالكمية الأولى . احتفظت بالحبوب فى الصندوق الذى يستخدم كمنضدة، وابتكرت طريقه تدريب لالتقاطهم أثناءالنوبات السيئة .عرفت عددهم بدقة، نمطهم ووضعتهم ثانية فى مكانهم.

رقدت ، جلست واضعا ساقا على ساق ،قمت بأداء عدد كبير من أدوار الريبورتوار التى أجيدها والأوضاع التى ارتجلها فى معركة التحكم فى سرعة النبض . واسكات أصوات الضجيج فى رأسى. رجوت نفسى أن تسمح لى بحباية فقط هذه المرة ولن أكررها ثانية.تحركت بسرعة لكى آخذهم ثانية فى يدى،عددتهم،ثم عملت منهم باترونات على الصندوق.تلاشى طعم الطعام او الماء تماما.السجائر فقط كانت تسبب لى دوخة .

الاستجابة لأوضاع حياتى المحيطة بى جاءت بطيئة.موت النزلاء باعتبار أنهم كائنات انسانية حية، كأفراد يتحلون بملامح متفردة.انتهت تلك المحنة .إذا عادت فسوف أجد القوة على التحكم فيها ، عالما اخيرا بأن رفضى قد أفلت من القبضة الحديدية وأنه قد تم نشره حتى التصعيد الزائد كان فى تأكيد مخاوفى .، عندما إتصل بى دان وسوجوأخيرا واخبرونى بأنه كان هناك برنامج للتطهيرمخطط ولكن تم التخلى عنه بقوة ، او تأجل وهم سوف يبحثون عن الانتقام من أولئك الذين يقعون فى نطاق قدرتهم. لكن هذا المصدر الممتع لا يمكن الآن توسيعه ولا يمكن إقامته على فنتازيا الغدر.

الفصل الحادى عشر

احلام بتعبير أكثر دقة تنويعات على حلم وحيد.هكذا رأيت أننى سوف أعلق على مشنقة فى مبنى مرتفع . فى جو بارد يحيط به ضباب كثيف لا يكاد يكشف معالم المتعاونين معى فى الأجزاء الأخرى من المبنى .تتراءى أشكالهم كظلال فى خطوط كنتورية مشوهة. فريق من العمال ينقل قوالب الطوب لى باالتمرير من الأرض.عندما يوضع آخر قالب فى مكانه أعطى اشارة فيطيرقالب جديد خلال الضباب ويظل غير مرئى حتى آخر ياردة أو ياردتين.لكن الهدف فى كل مرة كامل تماما . أراه بمجرد نظرة،وحرفيا بمد يدى للخارج كى ينزل القالب عليها.أضع القالب فى موضعه، واملأ الفجوات بالمونة وبشذرات من الأطراف .وهذا يصلح بالكاد ؛ تمضى اللحظات بالحركة البطيئة، بطريقة طقسية.الضباب يلف كل شىء حولنا؛من وقت لآخريمر بالقرب منى وجه انسان، يقف متوازنا على ممر القطط الضيق ، يدحرج كومة من التراب الى جزء ثانى من المبنى .

يمر وقت طويل قبل أن أعرف أن كل واحد من الآخرين قد ذهب.لم أسمع نداء الغداء.لم أستطع الشك فى أنه قد أعلن منذ أن بدأت القوالب فى السقوط على يدى الممدودتين .إنه الصمت الذى لفت نظرى أولا فعرفت ببط ء أن العمل قد توقف,لقد استمر العمل حتى الآن فى صمت حقيقى. صار الأن هذا الصمت أشد عمقا.إننى أنحنى لأسال فريق العمال الذين يتناوبون العمل معى إذا كانوا يرغبون فى التوقف أو فى الاستمرار حتى يكتمل هذا الخط من الجدار.أقول لم يبق إلا سبعة قوالب فقط. الرقم دائما سبعة .لم أتلق أى إجابة منهم وأنا الآحظ الآن أنهم قد ذهبوا أيضاٌقالب من الطوب جاء ببطء خلال الضباب رغم أنه لآ يوجد أحد منهم أسفل البناء..أمد يدى لأمسك به. لكنه ينزلق، وثبت لأمسك به , وأسقط عليه. وأنا الآن ساقط فى الفراغ منذ وقت طويل. .

تعرفت فيما بعد على المنظر الطبيعى . إنه واحد من الخيوط التى دخلت فى نسيج تلك الشبكة الميتافيزيقية التى تضم أناسا ميتين فى مسالكهم بسبب اليقين المخيف بأنهم عادوا ألى نقطة فى دورة الحياة . إن المنظر الطبيعى فى سجن (شاكى) استحضر الى ذهنى صور دفنت من وقت طويل حيث اشتركت منذ سنوات كطالب فى عملية بناء مساكن جديدة لضحايا كارثة نتجت عن أحد الفيضانات .إننى أتذكر العطاء الخالص البعيد عن التعقيد والذى تم بروح المودة وأعرف السبب الذى جلب هذا الحنين الحزين القديم. أما البقية فهى رعب من،السقوط الطويل فى الهاوية،ليلة بعد ليلة، فى الصمت المخيف ...

الفصل الثانى عشر

أستطيع أن أرى من خلال القضبان وعبر اسطح البنايات الأخرى فى الفناء.هكتارات من الأرض الخربة بين المبانى.،أحزمة ضخمة من الفضاء داخل الجدران.هذه الخلايا الصناعية بدت كبقع الجدرى الضعيفة على وجه الفراغ الحقيقى.مجموعات الأشجار ، والحفر فى أرضية الطريق والمستنقعات تتحدث عن عملية استصلاح أرض حديثة من البحر تنتظر معركة لإعادة تملكها.كنت استطيع، كما تخيلت، أن أسمع صوت غسيل خفيف بمياه راكدة لأكاليل الغار التى نراها فقط على الجدران. وطافت بى أصوات ثرثرة المساجين الكسالى الذين يأملون كأنها أصداء من عالم آخر. من منطقة معتمة فى الذاكرة لكزنى صوت،ولمسة، خيط من عش عنكبوت فى الظلام. كانت هذه هى اللحظة المحزنة للوصول، واللمس، والانزلاق، الوصول ثانية ولكن الفشل المطلق فى القبض على شىء حتى إننى كنت غير قادرعلى بذل الجهد للوصول إلى عقلى الذى بات كوعاء من الصوف عائم فى الأثير بينما نقطة الندى هذه من ماضى بعيد إستقرت بهدوء على حافتها وتحولت ثانية الى بخارفى حمى قد بدأت توا .

تلاشى الزمن.تحولت الى حجر. تحول العالم الى رغاوى مستنقعات.

لقد كنت هنا من قبل.مررت خلال هذه النقطة الحالية مرارا وتكرارا.رأسى مليئة بروائح وأحاسيس ذلك الزمن الآخر ومع الإدراك يأتى الألم المضاف بتكرارعملية نزع ورقة.اننى أحاول أن ابقى هذه اللحظة: أن أتوافق معها وإذا أمكن، تحديدها فى المكان والزمان.الوحشة تزداد مع يقينى الحاد بأن الإحساس أعمق

من مجرد مكان محدد أو حدث محدد.بل هو أقرب إلى أن يكون مرحلة من مراحل الحياة. فمن المسلم به فى تعريف النفس بالمصطلحات الإنسانية الإيمان الكرامة والعدل والمثل العليا. إنها تتحلل ذاتيا الآن كمايتحلل أى شىء بذاته اليوم تحللا خفيفاعلى حافة الوعى. فمعرفتى بأنى كنت حتى هذه االلحظة،على علم بأنها مرحلة لن أعود إليها.رغم الإدراك أيضا أن هذا الإنتقال الشعائرى هو أنتقال دائم وأن اكتساب الخبرة فى مخاضة العبور لا يقلل من حزنها الغامر.

إننى أعترف مرارا وتكرارا بأن هذه حدود الوجود.أعرف أننى أتيت ألى هذه الفكرة فى دورة الحياة أكثر من مرة. والآن فإن الذكريات فى غاية الحدة حتى أننى أتساءل إذا لم تكن قد جاءت حقا فى نبوءة متوقعة بكل هذا، فى وقت انتظارى لها فى هذا الأسر، متسائلا فقط ، متى؟ فأى معنى يمكننى إذن أن أربطه بها،وأى إسم يمكن أن أطلقه عليها، وأى تعريف يمكن أن نعطيه إلى وحشية هذا الميلاد؟ إننى أحاول تغذية الإحساس الخائربقوة عضلية .

بحث خاص ؟ مادة خام للمسرح التراجيدى والجولات الشعائرية العاطفية؟ بحث شجاع يتفرع من، دون نظرة الى وقع أقدام التاريخ على مساره الإجتماعى ؟ أهذه إذن لحظة الهجران التى كانت تهددنا منذ وقت طويل، أفكارالمسئولية الفردية والكفاح الذى تفرضه؟ هل ينبغى على الآن أن أرفض الفلاسفه مثل كارل جاسبرز؟ مهما كانت ضآلة الفرد من الناحية الكمية ضمن العوامل التى تصنع التاريخ، إلا أنه أحد العوامل. أيجب على الآن أن أقول له،نعم،لكنه عامل ميت؟ لا يتعدى تأثيره وزن قشة طافية فى تيارات المحيط .معلقا بدلا من ذلك على غموض الوجه الآخرلعملية الإكتمال؟ -- " فالإنسان يمكنه فقط أن يفهم كينونته الحقيقية خلال المواجهة مع صروف الدهر" لقد اختلفت مرارا كثيرة مع التفسيرات التى ترتكز على الذات التى تعطيها الذات الوجودية.فأية عقيدة تضع البحث الواعى عن الذات الداخلية كهدف لها، وأن سياق القوى مجرد عوامل مساعدة فى المعركة هى فى النهاية عقيدة مدمرة للإمكانية الاجتماعية لتلك الذات.إلا كأنها مصدرللقوة والرؤية التى تحفظ الذات الداخلية بعيدة عن كل التوقعات، لتبقى منتفعا غير واع بالتجربة. ولك ان تشك فى كل بحث بتم بوعى لمعرفة الكينونة الحقيقية للذات: وهذا غذاء مفضل لإلهة التراجيديا الخاملة.أنا لا أبحث :بل أكتشف. دع الأفعال وحدها لتكن هى وحدها مظهر الكينونة دفاعا عن رؤاها الحقيقية. فالتاريخ ملىء بأتباع بروميثيوس الفاشلين الذين تستحم أرواحهم الجريحة فى مجرى التاريخ.

فلنحطم جاذبية الإغراء التراجيدي ! التراجيديا ممكن فقط بسبب محدودية الروح الإنسانية.هناك مستويات لليأس تبدو على نحو صحيح، إن الروح الإنسانية لن تشفى منها.أن تغوص إلى هذا المستوىبعد أن تغمرك أنقاض الحواجز المعادية للإنسانية التى أقامتها آلهة الحقد.إن قوة الشفاء قريبة من اكتساب طاقات إنسانية عالية ، وأن المجتمع الإنسانى المغرم بالركود يجب عليه بغية الإحتفاظ بمصالحه الذاتية ، أن يحول هذه الطاقات الهائلة إلى قنوات ساكنة نسبيا،لأنهاتشكل القوة التى إذا أستخدمت كجزء من عدة الفرد فى النضال الإنسانى العادى. لا يمكن أن تقاوم بالأسلحة الإنسانية العادية، هكذا يتآمر التاريخ.إن عملية غسيل المخ ترفع التراجيديا إلى مستوى يبعد بها عن أن تكون استمرارا متجددا لكفاح بروميثيوس.

أن تعيش، ـ لكن تعيش فقط فى شكل متحول، ممتلئا بالحكم المبهمة،بعد أن أفسدتك حكمة الولاء والطاعة، وتم عزلك عن الإنتماء للناس ومشاكلهم. لقد انجذب أوديب إلى هذا النوع من الرشوة فى البداية، فأعمى نفسه جسديا ليقضى فى النهاية قضاء تاما على الطريق المؤدى لفعل الفداء الإجتماعى- وهذا الاختيار المفضل لكل المؤسسات.فعلى العكس من التساؤلات والتغيير، وخلافا للاصلاح الحقيقى للعوامل المسببة لأى كارثة ، فإن المجتمع يحمى نفسه بهذا التحويل للطاقات المتجددة روحانيا داخل ذاتية منغلقة.وضمانا لانعدام الرغبة فى تأكيد الإرادة انتشرت أمامه شراك السمو التراجيدى- أى سمو أعظم من شخصية عراف الآلهة الأعمى.وأى عاية أسمى من البحث عن النفس غير القبول الرشيق، المستسلم لهدوء الشيخوخة.

هل عندى دراية بهذا الغخ أم لا؟ أستدعى التاريخ لمساعدتى, بل ماهو أكثر من التاريخ،المعرفة المشتركة, الكشوفات المشتركة، الثورات المشتركة ضد غواية الوجودية المأساوية، لأن الغضب لم يعد كافيا لمقاومة غواية السقوط فى الحكم الساذجة التى لاتجدى شيئا. إننى أبحث عن الصوت المناضل فقط وأصطاده من أبعد فترات التاريخ القديم حتى المقابلات العادية العارضة فى الساحات العامة .التراجيديا ليست سوى طريقة لتصحيح المسار المؤدى إلى التعاسة الإنسانية، لمحاكاتها وهكذا تبريرها كضرورة حتمية ، حكمة أم تطهير.رفض هذه العملية والبحث عن وسائل تقنية لتفادى الشرك الخبيث المنصوب هو مطلب ضرورى اليوم ، أين، ومتى ، أنا لا أتذكر أو أهتم.أتذكر فقط أننى سجلت ذلك ذات مرة كملاحظة لاستخدامها فيما يسميه الطلبة ، بحوث مضادة للأدب. أبحاثى الخاصة المضادة للأدب.لكن الكلمات اطلقت معارضة واسعة النطاق لموجات الإنكار التى تغمرنى من كل جانب، لكراهية الغوغاء التى اسمعها بوضوح حتى فى داخل هذه المساحة المحاطة بالحواجز والقضبان، إنها تثير أعصابى فاتمتم، امخاخ مغسولة، بلهاء وسذج،حشود كثيرة الرءوس، لماذا تتسبب أصواتكم الجاهلة فى تعكيرسلامى.

لكنهم يفعلون، وأنا لا أستطيع الإنكار.

من وهدة الشجن التى حفرتها أيدى البشر، من هذا المرجل الذى يغلى والذى توقده أيادى بشرية، من ضجيج الكراهية الإنسانية وصخبها الذى يصم الآذان،فإن الكائن الخارج منها هو حرفيا " أنجونو". لن يعيد الفهم ولا التسامح كما كان من قبل. لم يعد له وزن أو حجم بالمعايير الدنيوية. الواقع بالنسبة له لونته الى الأبد نار المسار الرهيب، فلم تعد أفكاره ناتجة عن خبراته. أنت يامن تقف خارج هذه الجدران أعترف بأن الهيستيؤيا التى أصابتك، تخترق دفاعاتى. أعرف أنك تحس بهذا الخطر الذى يهدد بالانتقام فى المستقبل، ويجب دفاعا عن النفس، أن تضاعف جهودك الموجهة لتحقيق الفناء- روحيا، سيكولوجيا، فيزيائيا، ورمزيا.وهذا هو السبب الذى يجعلنى أحفرفى أعماق كيانى وأفهم لماذا فى هذه اللحظة بالذات تجد فى نفسك القوة للتأثيرعلى .لماذا حتى عندما رفضت عن طريق العقلانية الشرك التراجييدى فإنى مازلت مغلوبا بأبخرة الإحباط فى داخل كبسولة فرديتى الكاملة.

سعيد هيرميوس من أترنيا،بجسده المحطم والذى لا يكاد يمسك أنفاسه، " أخبر أصدقائى ورفاقى أننى لم أفعل شيئا غير جدير بالفلسفة." ذلك الشوق الذى يحرك نفوس البشر لتخرج عاجلا آخر أنفاسها فى كلمات تأكيد بدلا من الاحتفاظ بها من أجل الحياة على أساس إعتقاد بأن الحياة يمكن نبريرها، إذا أمكن فى اللحظة التى نغادرها فيها، أن توجه البصقه الباقية على حافة أى لسان جاف ضد العدو فى اشارة تحدى لإحتقاره، لنعطي فى النهاية أملا حقيقيا ، يشجع على العيش، مصدقين على صحة كينونة المرء الكلية بهذه الإشارة الأخيرة أو بكلمة تأكيد.أما انتصار الألم ، والتدهور الجسدى وحتى هزيمة المثل العليا،كل هذا لكى يرسل للرفاق الذين تركهم خلفه رسالة الإنتقام للعقيدة وأن يجعل حتى النصر المحتضرتأكيد أ نهائيا..

أعرف لماذا تأتون إلى ،أيها الرعاع الفاقد العقل، إننى أرى نفسى وديعة لموت حى، تنكرون إثباته. والأسوأ أنهم لاينكرون على هذا ففط بل هاهو جسدى معروضا للعالم فى سائل تحنيط كريه الرائحة نقيضا له : إنكار! خارجا كمالوكان من جسدى الكتاتونى، بروباجندا باصوات مجرمين خائفين ،يائسين لكنهم أقوياء يفتقرون إلى أدنى درجة من أفكارالكياسة،والعدالة أو اللعب النزيه. إننى أفتش بلهفة فى كتالوجات عن المواقف الجماعية التى ظهرفيها " نتوءاتذاتية" حتى بعد موت حقيقى او موت حى بوقت طويل لضحايا جنون السلطة،لكنى لا أجد هناك إلا قليلا من العزاء.إننى أحاذر عبثا من قبول أخلاقيات السلطة فى تسجيل الأكاذيب وعرضها للضوء الحقيقى. إننى أطحنها فى بوتقة الحقائق الدائمة طالبا كبداية : أن نفترض أنك حاولت الهرب ، فمن الذى سوف تهان أخلاقياته غيرأولئك الذين قد أثبت أنت أنهم منحطون أخلاقيا؟ هل يجب لهذه الفزورة ، أى اليقظة " الأخلاقية " المفاجئة للملايين الذين مات عندهم الحس الأخلاقى بالسكوت عن المذابح الجماعية التى أدت إلى اضطهادك كفرد- هل يجب ذكر هذه الكوميديا كشىء معقول أو صحى؟

تلك الجثة العفنة للإرادة االمسلوبة هل ستبعث فقط عند الاحساس برائحة احدى الضحايا االتى لا حول لها ولا صوت والتى يجرى تنشيطها بركلات أحذية السلطة؟.

ومع ذلك فإن هذا ليس كافيا. ولا حتى مواكب أشباح الموتى والأحياء التى تطفو فى مجال رؤيتنا للمحاكمات المماثلة، والتى تكفى لتأكيد الإيمان بالقرارات الفردية . من خلال تاريخ حياتى العقلية المركزعلى دراسة مصير الفرد فى مواجهة التعصب والقمع الناتج عنهما: أبراهام فيشر(أول الأمثلة المسجل فى صيغة " قتل أثناء محاولة الهرب؟"؛ الكاردينال ميندزنتى (الذى اختار سجنه الخاص)؛ دكتور أرياس مشلول على كرسى متحرك نتيجة رصاصة أصابته ، أثناء هروبه من ديكتاتور الدومينيكان ؛ جون ويلكينز يتحرك فقط فى نطاق الحصانة البرلمانية فى الداخل والخارج، حتى الرسول بولس، بفضل المساعدات "المعجزية "المتكررة...

مع القديس بولس فقد وصلت إلى وقفة مغاجئة. أى مجهود للسخرية بالذات يخلق تكشيرة مؤلمة لكنها تخفف قليلا من عقدة حنق الذات التى تكونت داخل أحشائى. آه نعم، لقد تخيلت نفسك تماما من أصحاب الرسالات أليس كذلك؟ رسالة من من القديسين الذين عرفتهم فى سجن كيرى كيرى حتى أهل إبادان...ابشر، الله معك،لكن احذر تلك الذئاب التى ترتدى ثوب الحملان الذين يتجولون بينكم ينقبون عن جثة العام الماضى ...

بذل الجهد فى المزاح قد ينقذ شبح آخر، هذه المرة من الصفحات المحلية المخصصة للتهكم والمفارقات : طونى إناهورو، بوق الأكاذيب الرسمية الأكبر.والمفارقة هى واحدة من تلك النكات المثيرة للقهقة التى بسخر بها الزمن من عقول الرجال.عندما هرب فى أعقاب الإنقلاب الفاشل قبضت عليه الحكومة البريطانية مجاملة لصالح محاسيبهما من الإقطاعيين، فطرت إلى لندن، يحفزنى اعتقاد بسيط. كان هوأيضا أعتقاد مجموعة صغيرة مجهولة من أعضاء غير حزبيين وهى الوحيدة من بين كل الحركات الكثيرة التى كانت تحتفظ لنفسها برؤية غير محرفة عن مجتمع المستقبل .كانت عقيدتنا هى:إن إعادة إناهورو سوف يكون خسارة كبيرة بالنسبة للصفوف الحساسة من الراديكاليين.ربما يكون أصدقاء إناهورو قد بدأوا يضغطون لمنع عودته؛ أعرف فقط أن الحملة العامة لم تبدأ إلا بعد العمل الذى قمت به فى لندن. لقد سجلت فى قائمة المساعدات اثنين فقط من السياسيين الذين أعرفهم، توم دريبيرجومستر واى لاند يونج (لورد كينيت) ، وجندت أكثر الطلاب وعيا من الناحية السياسية فى برنامج لوبى نشيط. .

يعرض السجن مشاهد ذكريات حية وكاملة. فى امكانى أن ألمس وجه واى لاند، يقول:" أنا لا أعرف كثيرا عن أوضاعكم السياسية- هل هو رجل طيب هذا الإناهورو؟"

أجبته: نحن نريده ، وفى النشرة قلت " أنا لم أكن حتى ذلك الحين قد قابلت إناهورو وجها لوجه.

فى الوطن قال "المثقفون "إنه جبان دعه يعود للوطن ويواجه الموسيقى.وهذا ليس له إلا إجابة واحدة : إن روح الرقصة الثورية مازالت فى يد عازف الفلوت.

ما اسم ذلك البروفسورالآخر بجامعة وارتون بورج، مواطن من بلد فريشلين، ربما كان معاصرا له؟ الدكتور صاحب الجدارة الذى رغم اعتقاده بانعدام العدالة فى المحاكمات الخرافية التى تجرى للساحرات إلا أنه أعد أكثر من مائتى محاكمة ناجحة لساحرات تم احراقهن على الخازوق. انقسام للإعتقاد والمسئولية يبررونه بالبحث ، فى الوقت ذاته ، عن طرائق ووسائل لفطام مجتمع العصور الوسطى من طرقه البربرية ؟ لذلك تضاءل وبساطة دورالمثقف الآن الى هذا الحد ! فماهو على وجه الدقة التقييم الذى يمكن أن نضعه لأبحاثك للدكتوراه أنت أيها الجمجمة الخالية من العظم والتى سوف تهاجمنا مجلداتك دون شك ذات العنوان " الانحراف الاجتماعى سنة 1966، جذوره وعوا قبه فى الحرب الأهلية النيجيرية ألخ.،الخ.، مع اشارة

خاصة بدور المصالح الإمبريالية ألخ.،الخ.، مائتان من الساحرات ؟ ألفان؟ مائتا ألفأ ؟ مليونان؟ عشرون مليونا؟ فى مجلدات لما عرض من أبحاث مطوية فى زوايا الصمت ؟

إننى أبحث فى عالم أفكارى الخاصة عن قواعد أساسية أرسو عليها بكيانى ضد الهجمات التى لاشكل لها التى تأتى فى نوبات اليقين العدوانى.لعله من الغريب كيف أخذ ذلك التجلى الإبداعى لبيكاسوفى إثارة مخاوفى: أنا لآ أبحث، أنا أكتشف.إنها أشبه بتعويذة تسربت الى العقل تحت تأثيرالتنويم المغناطيسى . إننى أسألها أخيرا، ما ذا تكون هى ؟ماذا تقولين لى؟ ماالذى تحاولين الإيحاء به إلى مما لم أكن أعرفه من قبل ؟ استدارة خفيفة للتلاؤم مع هذا الموقف ، للتصالح مع هذه الدورة ؟ مثلا هل ذلك، سلبي أو استفزازي ، مقاوما أو مذعنا للوضع فقد قدر على أن أسيرفى هذا الطريق؟ إن مسار صاحب الرؤية واحد، حتى ولو بعين مغمضة أو بيدين مضمومة ، فسوف يجده؟ مثلا: هل كل موقف يخلق استجابته الخاصة به؟ وعلى النقيض، لنغيرالتأكيد قليلا لهذه التنازلات اليومية المسلم بها؟ لهم عيون، ولكنها لا ترى ا؟ إنه أمرغريب وأنا لااستطيع أن اجد لك حلا.العبارة تدق على صدرى كأنها طلسم مبهم. ليست التورية على الأقل شىء آخر.رنين عال مؤكد وانا لا أستطيع حتى أتذكر إذاكانت الكلمات لجاسبرز أو لكانت: إنها دائما مسئوليتنا نحن فى أن نقرر بحزم إذا كانت إطاعة أوامر السلطة عملا صحيحا من الناحيه الاخلاقيه أم لآ. إننى أسمح فقط بهذا العامل الوحيد للقرار: هو القدرة البدنية على الإختيار.

دريفوس.ديميتروف مقابل جورنج. إلى أى مدى سوف يستمر،هذا النمط من الجرائم الناشئة عن السلطة وكبش الفداء السياسى؟ صورة بشعة تتجسم أمامى من تلك الغيوم النازية، التعطش للدماء نتيجة لوحشية السلطة . كلب مسعورمكشرعن أنيابه ونموذج للإستعباد لكل عيسى أديجو فى العالم.انتكاسة حيوانية تثيرمن هولها القشعريرة حتى فى قلوب الراضين عن المذابح . والأن من أجل تفهم الماضى عقب حدوثه فإنى أسأل أكان من الحكمة أن أرسل من السجن خطابا يحتوى على دليل إدانة على ذنوبهم بينما أنا واقع فى قبضة هؤلاء الرجال. (الضمير الحر حتى فى زمن ديمتروف كان يعرف ما هوأفضل من الإرتياح لفكرة وقوع البلغاريين تحت المسئولية الشخصية لجورنج.) إننى أخطأ نفسى الأن ،بالقبول ضمنيا لأمرالفيلسوف كانت، معترفا بأنه منذ أن وطنت فى داخلى كل الشكوك حول الإفلاس الأخلاقى لنظام جوون من لحظة اطلاقه سراح إثنين من السفاحين ، لم يكن كافيا أن ترسل كلمة الى زمرة من المثقفين المخصيين. كان ينبغى على أن أفعل ما أنا متهم به الأن – وهو الهرب. لأنه كان يوجد حينذاك، كما هو موجود الآن بالرغم من نقائضه بديل ثورى وطنى حقيقى.القوة الثالثة لفيكتور بانجو.الأخلاق،ومن أجل هذا فإن الأفعال التى تصدر عن إيحاء أخلاقى هى التى تخلق "الكينونة الحقيقية" الوحيدة. أنهم يشكلون الشخصية الفردية الدائمة والتى لايمكن استبدالها بمسكنات قابلة للإمتصاص.الفجوة فى أعماقى ،الثغرة المؤلمة التى تهدد بامتصاص جوهر ذاتيتى فى فراغها هو التهرب من هذا الوازع الأخلاقى. اليأس يأتى من معرفتى بأننى لا أستطيع الآن أن أنفذهذا التأكيد الوحيد ولا أستطيع أن أتصور فى نطاق هذه الدائرة القاحلة الجدباء إمكانية أى بديل عقلانى.أما بالنسبة لهذه الذات المجروحة وما تسببه من تدميرلسلامى العقلى كان وسوف يظل هو أسوأ عدو وأسوأ صديق فى هذا المكان الذى ألتقط فيه الكلمات التى حركت فى نفسى حالة غثيان شديدة السوء.إننى أسقط القاذورات التى ظهرت مع تقديرهم المجرد وأذكر نفسى بالقدرة الشريرة لغارسى هذه الكلمات ولمعرفتهم لسيكولوجية الجماهير.إنه تدريب قاسى ولكن لامفرمنها إننى أحشر الكلمات بين شفتى وأنصت الى الرد المفحم- " لقد زعم أنه كان يعترض على الإذلال الحكومى" .

أيها المجرمون، لقد أفعمتم قضيتكم بسلطة غير محدودة . رؤيتكم التحقيرية فى عقول رعاع مسيس مصاب بهيسنيريا جعلتكم محصنين ضد مزيد من المواجهات –هذا هو هدفكم وأنا أعترف بنجاحه حاليا. إذا بدأت الشكوك، حتى فى مثال وحيد مفرد، لو تم إفساد صوت أحد الداعين للسلطة المطلقة ، إذا تحول الإثبات إلى إنكار فى عقول الرعاع تكونون حينئذ قد أنشأتم جنسكم من العبيد الذين تبرر طواعيتهم إلى الأبد بالقول،´إذا كان من الممكن كسره، إذن فمع من سوف نضطر للكفاح؟" فبالنسبة للقلة التى تحكم وكانوا

يحكمون دائما سوف يجدون فى كغاءتهم الذاتية بذرة الشك الذاتى التى غرست بفعل الأمثلة المحفوظة فى الذاكرة .

كان ينبغى على أن أحتقر هذا العالم الذى تحكمه العغاريت (ZOMBIES) سوف أخلقهم أنا، ولكن عليك أنت أن تخلقهم أيضا. وأظن فى النهاية، أنك لا تستطيع.حقا، إن الأصوات التى أسمعها ليست هى الأصوات التى أبحث عنها. ايست فيها شهادات لذلك الرباط شبه الغامض ، الذى حتى لو كان يسمح بالإيهام الذاتى ،فإنه موجود بين أشد المكافحين عزلة وبين الشعب الذى يتبنى هو فى النهاية قضيته. فأنا لم أسمع مثلا صيحة طلب العدالة التى انتظرتها طويلا " خذوه إلى المحاكمة، لا بل اصلبوه ! – أصلبه! لنكن شهداء فى عملية كشف القناع. بل بدلا من ذلك أرى أيادى مرفوعة عاليا فى فزع. ارى تسربات خفية للشعور بالعار فى الشارع، فى الزوايا المظلمة للبيوت.أشم رائحة الكراهية، والشر، والخوف، والاستسلام. لكنها رائحتك، رائحة فساد غير قابل للإصلاح يسيرمعك حيث تسيرويتعلق بكل من تنفخ فيه أنفاس أكاذيبك.وأسمع صوت ريح منعشة آتية من خلف حدود انتهازية الفرص السانحة.

استمع إلى ماكتبه أدولف جوفى إلى تروتسكى قبل أن يموت منتحرا : " الحياة الانسانية لها معنى فقط عند هذه الدرجة وطالما عشناها فى خدمة الانسانية. فالانسانية لانهائية"

بالنسبه الى فالعدالة هى الشرط االأول للإنسانية .

الفصل الثالث عشر

سجن شاكى.أغسطس ونوفمبر 67. لقد اخترقت أقصى القيود الأمنية مرتين. هذا المبنى له خصوصية،إنه مشحون بنوع متعفن ومتهالك من الانسانية .فى غاية العزلة ، كنت أفكر فيهم كثيرا،وأتذكر معاناتهم و وشجاعتهم.ومحاولاتى للتغلب على ظروفى الخاصة التى ساءت أسوأ مما فعلوا.

لقد أصابهم العفن.

بلوك السجن يتكون من طابقين. طابق فوقنا سوف أعود إليه بعد انكشاف المؤامرة و طبخ الأوزة تماما، فى هذا الطابق يسكن أغنياء اللصوص لحكومة (N N N P) السابقة، لوردات السجن،خبراء فى الأطعمة والمشروبات الشهية، المتميزين بحسن الملبس. يحتوى كل طابق صفين من الزنازين وبينهما ممر فى سعة الزنزانة . فى نهاية الممرمدخل من الفناء، وبوابتين من الحديد ؛ وفى النهاية الأخرى المسدودة ، حمامات، ودورات مياه وأحواض، وفضاء شاسع يستعمل كمكان للجلوس والتسكع . البلوك عبارة عن جزء من مجمع يحيط بحديقته العامة المخصصة للنزهة والاستجمام. هناك طاولة تنيس، ومساحة خالية للعبتى التنيكوى والبادميدنتون. يستخدمه المعتقلون من أفراد الجيش والمدنين .حتى المساجين . لكن دون المعتقلين من قبيلة الإيبو.

إذ كان يسمح لهم بالدخول إلى الممر والحمامات مرتين فى اليوم لمدة ساعة واحدة فقط فى كل مرة. وهم يشغلون صفا كاملا من الزنازين فى الطابق الأسفل.وفى المقابل يوجد الصف الآخر خاليا إلا من وجود مفروشات مكدسة على الجدران،-ترتفع فى بعض الأحيان حى تصل إلى السقف. زنزانة واحدة على هذا الجانب كانت مسكونة، يشغلها- يون داكولا، رجل أعمال. لقد تقاسمنا هذه الزنزانة معا قبل نقلى المفاجىء الى كيرى كيرى وهو سجن ذو قيود أمنية مخففة. ففيه شبكات للناموس ودولاب وترابيزة. كنا نتحرك بحرية فى هذا الممر الذى يصدر أصداء ونستخدم الفضاء الشاسع الذى ظل خاليا متروكا لأبناء الإيبو معظم اليوم. لكن فى ذلك الوقت، من شهر أغسطس أصبح فى امكانهم أن يتجولوا حول المكان ، يتحركون من زنزانة إلى نزانة. بل وكانوا ينامون على الأرضية العارية، وتمكنوا من الرؤية بوضوح عبر الممر بين البطاطين والأسرة، فى الزنازين التى تشغلها هذه المفروشات. بعضهم لم يكن لديه بطاطين، وبعض الزنازين كان يشغلها عدد يصل إلى ثمانية أفراد فى الزنزانة الواحدة. والزنزانة مصممة لكى تسع رجلا واحدا أو إثنين على الأكثر.

كان بينهم تجار كبار، وطلبة، وأطباء، وموظفون مدنيون من الشيوخ والشباب يحملون عصى معوجة باعتبارهم كائنات بشرية. كان هناك رجل عجوز رأسه كلها بيضأء. وجدت أجيو موريس بينهمن ، وهوعازف بوق شهير.نكاته لا تتوقف وكانت ترفع الروح المعنوية للأخرين. كانت هذه هى الزيارة الأولى،أغسطس. لايمكننى الظن بأن احوالهم كان يمكن أن " تتحسن" حتى عودتى إلى هناك فى نوفمبر.

الآن يتم حبسهم على الدوام.تفتح الزنازين- لكل المجموعة وعددهم حوالى ستون سجينا، لمدة ثلاثين دقيقة بالتحديد يوميا. وهذه النصف ساعة ليست مخصصة للتهوية فى الهواء الطلق.فالبوابة الرئيسية لهذا الطابق تظل مغلقة .لأنهم لا يستطيعون غسل ملابسهم، ولا التبول فى جرادل داخل زنازينهم حتى فى وضح النهار،لأنهم فى أثناءهذه الدقائق القليلة- ثلاثون دقيقة لما يقرب من ستين رجلا فى مكان مزدحم- فحين يتم فتح الأبواب، تغلق الحنفيات ويجف الماء ويظل الجفاف أحيانا اليوم بطوله، ولأوهى الأسباب لا تفتح الزنازين أبدا، فتتعفن رائحتهم.بالنسبة لدا كولا ولى .كان الذهاب الى الحمام محنة أخلاقية .فحالتنا فى وسط

ظروفهم حتى فى تلك الأيام "المعتدلة" من شهر أغسطس كانت أشبه بواحة ظاهرة أمام عيون رجال أصابتهم ضربة شمس فشلت حركتهم.

الآن لم تفتح الزنازين حتى لتسلم وجبات الطعام. وكانت الطاسات – وهى أوعية ضحلة من الألمونيوم- تنزلق تحت الأبواب الحديدية. وأحيانا كانت تدخل بين القضبان الرأسية لو كان الطعام من النوع الجاف المتماسك. كان كل واحد منهم يأخذ دورا لكى يشم الهواء الطلق من الشباك الصغير. إن رؤيتهم، وشم رائحتهم، والمرور بجانبهم أثناء النهار حال جلوسهم على الأرض كان شيئا مؤذيا بصورة كبيرة.- بل إن السير بمحازاة الجدران من الخارج، من وراء النافذة، وحتى التوقف للحديث معهم كان تحديا يعرضنا لهجوم الروائح النتنة المنبعثة من اللحم البشرى المتعفن. وهى منبعثة من تلك الزنازين.

خلال تلك الإقامة الأولى، قلت لليون، لابد أن يتكلم أحدنا. لابد أن يكون هناك شخص يعرض هذه الأساليب الإجرامية. قال، قليل من التخمين سوف ينبئك -، " تمهل،أنت لاتعرف حتى لماذا أنت هنا" فهناك دائما أحد العملاء (فى جماعة N N N P) وهو محكوم عليه من نزلاء هذا الطابق وهو الذى كتب تقريرا عن المحادثة. وبعد يومين زارنا فى السجن رئيس سجون لاجوس.وقال، بأرق أساليب الضيافة، " لا أظن أنه يمكن اجباركما على ان تشتركامعا فى زنزانة واحدة." كانت الخطوة المنطقية التى نتوقعها هو فتح واحدة من الزنازين الخالية على هذا الجانب. لكن هذا لم يحدث. فقد تم نقلى بعد ظهرذلك اليوم الى سجن كيرى كيرى.

فقط لكى أعود الى نفس البلوك فى نوفمبر. الدور الأعلى مغلق بالضبة والمفتاح وبعد المرور من تلك المرحلة الحديدية ذهبت إلى الفناء للتدريب وتحدثت معهم عبر النوافذ. كنت قادرا على أن أقدم لهم السجاير لكنهم كانوا فى الحقيقة يحتاجون الى الهواء . الهواء الطلق فى الخلاء، وليس هواء الممرات.

وذات صباح وبطريقة غير متوقعة ، حصلوا على نصف ساعة كاملة للخروج للتهوية.فى صحبة أعظم الحلقات الكوميدية التى رأيتها طيلة إقامتى فى السجن.ففى ذلك الصباح فهمت أيضا لماذا يبقى كثير من السجناء على قيد الحياة .فقد استسلم سجانوهم. فهؤاء الجلادون يؤكدون مرة بعد مرة للضحايا إنهم لم ينالوا حقهم من مضطهديهم، ولذلك فهم يملكون شعلة من جوهر الإنسان يجدر بهم المحافظة عليها.لايهم كيف يحدث ذلك، سواء كان نتيجة حيوانية السجانين او نتيجة ظهورمفاجىء لإنعدام العقلانية ، أو فقط بكشفهم هذا الجانب السخيف من أنفسهم الذى يدعو للإستهزاء، عارضين السجين فجأة فى صورة شاذة من صور الإنحطاط المفترضة فى الإنسان.فيقول السجين لنفسه فجأة. هذا المخلوق لايمكنه فى الحقيقة أن يمسنى. لآيستطيع أن ينقذنى ولهذا فهو لا يستطيع أن يدمرنى. هذا المخلوق لا صلة له بالأمر،إنه شىء غير حقيقى. أنا أمثل الواقع الحقيقى.

عند ملاحظة أداء الحاكم فى ذلك اليوم لايمكننى بأمانة أن أتهمه بانعدام الإنسانية. فالأفعال الإنسانية فيها شىء من المنطق .هذا الحاكم بلا مبرر أو منطق. كدت أقسم على أنه عميل من بيافرا تم تجنيده سرا لتسلية المعتقلين.

ففى ذلك الصباح بدأت الغارة فى الفجر. اليوم السابق – كان فى الحقيقة ينبىء بقدوم يوم طويل قادم – لقد قرر أبناء الإيبو أن يرفضوا تناول الطعام اليوم. لكن المخبر استرق السمع. لقد لاحظنا أنا وأدينجو أنهم اقتادوه بناء على طلبه لمقابلة المشرف لأمرعاجل وكان ذلك بعد وقت الإغلاق العادى. كان من المفروض أنه يحمل حكاية من الحكايات لكننا لم نكن نعلم بكارثة الطابق الأسفل.(فى بعض الأحيان كنت أشك فى أن ذلك الرجل كان يستخدم ميكروسكوب للتنصت)

وهكذا حدث فى اليوم التالى، أن بدأت الإغارة، قبل فتح الزنازين. كان الحاكم يؤمن بأهمية أستخدام تكتيكات الصدمة. فقد أحضر معه كتيبة من الحراس مسلحين بالعصى الخاصة بمقاومة الشغب،عكاكيز طولها ثلاثة أقدام .واتخذوا مواقعهم بخطى سريعة فى كل المواقع لإستراتيجية،

غص فناء البلوك الصغيربعدد من الجنود ووضع بعض الرجال على رأس السلالم فى موقف تهديد.كأى عملية عسكرية صممت لمواجهة ثورة عنيفة لجماعة من المجرمين الخطرين . كان مشهدا مؤثرا.لقد تساءل لنا أى نوع جديد من أسرى الحرب الشجعان قد حصل على هذا المستوى من تدريبات الاستقبال.لا يمكن لعاقل أن يتخيل للحظة واحدة أنذاك أن هذا كله قد خصص لنفاية البشر الذين يشغلون الدور الأسفل من البلوك X .

عندما أعد المسرح أخذ الجنرال ، يتبخترفى داخل الممر: " افتحوا الأبواب واخرجوهم .بالخطوة السريعة !"

عندما بدأت الأبواب تفتح الواحد بعد الآخر" الى الخارج! الجميع يخرج! بالخطوة السريعة –واحد – اثنين، واحد – إثنين، واحد – إثنين ..."

لكن المساجين كانوا جميعا من المدنيين. لم يجدوا سببا يوجب عليهم السير حسب الأوامرالعسكرية. فأخذوا يجرجرون خطاهم الى الخارج فى تجهم ، وتحدى. حرك الجنرال عصاته ليحثهم على حركة ما ولكز أقربهم فى كتفه. كان حظه دائما أن يختار الشخص الخطأ. هذه المرة اختار جوى الذى قام فى سكنات دودان بالبصق فى وجه الجنود الذين إنغمسوا فى ممارسة نزعاتهم الصادية معه .كان طوله ستة أقدام وثلاثة بوصات ، هذا الطول مع انحناءة فى الظهر أضفت عليه مظهر الشمبانزى عندما يجثم أو يربض. لقد استدار ونظر إلى الحاكم وحملق فيه طويلا. اهتز الرجل رعبا من تحذيرتلك العينين ومال بكرسيه الى الخلف بعيدا بين المعتقلين الخارجين توا من الزنازين . وأحس فى الحال أنه جعل من نفسه مسخة فنهض ولكزه ثانية – فى صدره، صائحا فى محاولة للمحافظة على شجاعته:

" تحرك. بالخطوة السريعة ، مارش الى الخارج وإلاتعاملت معك، بالطريقة الملائمة ."

كان هذا يحدث دائما معه.أفكار وكلمات تفجرت فى رأس عربيد غبى كلما حدث استفزاز للحاكم أو حاول جاهدا أن يكون مؤثرا. حدث مثل هذا مرات كثيرة قبل أن ينتهى الصباح.

استدار جوى بعيدا وتحرك ببطء إلى الأمام. هنا هب حارس من المتزلفين لمساعدة الحاكم فدفع جوى بشدة . وسرعان ما أصبح كلاهما فى الفناء.

" شكلوا صفين . بسرعة. صفان مستقيمان بالخطوة السريعة.

كان مشهدا تعيسا. بدت عليهم الهزيمة، وانخفاض روحهم المعنوية ،رغم الحركة البطيئة التى اتبعوها كنوع من التحدى. هناك شىء من السفالة والدناءة فى جميع الصراعات غير المتكافئة.فجهدهم فى تحدى منظم كان مقدرا له أن ينتهى مثل جهود أخرى، فسوف تم حمل كباش الفداء إلى الزنازين الخلفية وهناك يقيدون الى الحائط حتى تسيل دماؤهم . سوف يتم ضربهم بطريقة منهجية. شىء واحد لن يخشوا خسارته هو الامتيازات. ليس لديهم شيئا يفقدونه سوى الرائحة الكريهة. سوف يحتاج الأمر إلى بعض الجهد للتفكير فى نوع جديد من العقاب الجماعى لهم لكن الحاكم يمكن الثقة به بأنه سوف يحاول ذلك. لقد رأيت علامات الإعياء على وجوه ستة ممن كانوا يشاهدون المشرف وهويتحرك لأداءعمله.فلم يستطع حتى الانتظار لهذه المناورات الطويلة الممتدة عمدا فى تشكيل الصفوف حتى تصل الى نهاينها. فتراه يقفز الى الداخل والى الخارج بينهم، يدفع شيئا هنا، ويشد غطاء هناك متظاهرا بالغفلة عن الرائحة التى انتشرت

حتى فى الخلاء الطلق ووصلت إلينا نحن المشاهدين وكأنه، للمرة الأولى ، قد تجمعت المخلفات المختلفة من كل الزنازين فى عملية انصهار عفنة.

لقد ظهرت عليه أخيرا علامات الرضا. وأخذ يستعرض الموكب وبدا عليه أنه يجمع شتات نفسه لإلقاء خطابه. هذا ما يفعله بالمشى هنا وهناك، مظهرا لهم فائدة كونه قادر على كل شىء. وأخيرا:

" الآن. اريدكم جميعا أن تنتبهوا. نعم، سوف أنصرف. وأقول جادا لكم .إنه يجب عليكم أن تنصتوا وتتأكدوا.أن، ذلك لن يدخل من أذن ويخرج من الأخرى! نعم أنتم نظنون أنكم جئتم إلى هنا لإثارة المتاعب، لى! أقول لكم الآن . إننى أيضا سوف أسبب لكم المتاعب. فأنا جندى كما تعرفون. حاربت فى السودان وفى مصر. أنا واحد من أوائل النيجيريين الذين تمت ترقيتهم الى رتبة قائد ..."

وبطريقة لاتصدق أخرجت القلم من مخبئه وقطعت ورقة تواليت .هذا مشهد يصلح للمسلس الكوميدى شاكى شاكى. (الذى كان يذيعه راديونيجيريا)

" نعم، النيجيرى الأول يمكنك أن تسأل المرحوم أيرونسى نفسه. لقد كان معى . أنـا أراسه. وسوف يخبرك بذلك، لو أننى اخترت البقاء فى الجيش فسوف أرأسه، والمرحوم أدميولوجن. والأخرين جميعا. فجميعم من رتب أدنى منى.

" أنا أدرس علم الأثار.أنا لست مجرد مدير سجن أنتم تعرفون أننى درست فى الخرطوم،أركيولوجى. ولو أنا فى جامعة اليوم لقلت لكم.إننى أحاضر فى علم تأثير البيئة على البشر. نعم . أنتم أعداء للدولة.مخربون! وهذا هو سبب وجودكم هنا .أنتم مخربون. ومن أجل ذلك فنحن نحتجزكم هنا.هكذا. ونعالجكم.فكيف تجرأون على المجىء إلى هنا لتدبير مؤامرة .أنتم تحاولون التآمر لقد عقدتم اجتماعا بالأمس. سوف ترفضون طعامكم اليوم. هل تعرفوننى؟ (يضرب على صدره) أن أحافظ على النظام. يمكننى أن أتعامل معكم كرجال محترمين ولكن إذا سلكتم سلوك البلطجية فسوف أريكم أننى بلطجى عظيم. بلطجى أكبر منكم. أوه نعم، هل تعرفوننى؟ يمكننى أن أكون محتالا.(راسكال) يمكننى أن أروى نكاتا وأضحك وأكون مرحا.لكن إذا أردتم أن تظهروا لى أنكم أشداء فسوف أريكم ."

لقد انتفخت أشرطة الخدمة التى وضعها خصيصا لهذه المناسبة حتى أوشكت على الإنفجار وتقطيع أربطتها . ضغطهم ثانية على صدره بصابع آخر ضخم لكن صدره ظل منتفخا... إننى رجل صلب . قدموا شكواكم بطريقة صحيحة إذا كانت لكم شكوى. لكننى لن أتسامح فى أقل القليل. يعنى أننى سيكولوجيست.أنا أعرف سيكولوجى . أنا درست أركيولوجى . أنا لست مجرد مدير سجن أمشيهم إلى الخلف در!"

فيما هم يعودون الى زنازينهم تعقبهم الخدم فى الحال وهم يحملون الطعام مع قصع الصباح المليئة بالويفل.

" قدموا لهم الطعام !"

كل حبة فول فى هذا الطعام تبدو، حتى من فوق السلم ، كما لوكانت بندقية صوبت للقتل.

" ذلك الرجل " أشار إلى جوى. لقد اختار ضحيته. " خذه جانبا .فهو يظن أنه شديد وأنه زعيم عصابة . سوف نبقيه فى الزنزانة الخلفية عدة أيام حتى يعرف المعنى ."

علمنا فيما بعد أن جوى التفت عند المدخل ، وحملق فى وجهه وبصق.

"وبالنظر إلى الآخرين" – لقد تعقبهم حتى البلوك وصوته يحتد داخل الممر- " سوف ترون أن الأبواب سوف تغلق عليهم لمدة يومين كاملين . لن تفتح إطلاقا . هذه الثورة لابد من القضاء عليها فى المهد.

أغلقت الأبواب عليهم .دفعوا طعامهم خارج الأبواب دون أن يمسوه . فى المساء قدموا لهم خبزا نيئا ومرض لاشفاء له اسمه يخنى. وقد بقى هذا أيضا دون أن يمس. حتى أولئك المحتجزون لم يمسوا عشاءهم.

بعد الظهرحدث واحد من تلك الأفعال التى تذكرنا دائما أن فاقدى العقول ليس هم الحصيلة الكاملة ولا هم الوجه الحقيقى للإنسانية. كان الحارس لفترة بعد الظهر رجل من بنين، جاء يهز مفاتيحه وفتح الأبواب للإيبو . " سمعت أنكم لا يجب أن تخرجوا ولكنى لم أتلق تعليمات رسمية " ثم تركهم طلقاء لمدة ساعة .

استفدت بهذه الفرصة الإنسانية وذهبت للحديث معهم ، آخذا لهم هذه السلعة الوحيدة المتاحة فى السجن ، وهى السجائر، كتعزية.فى زنزانة آجيو وجدت شابا من جامعة نسوكا. تم القبض عليه فى لورى رحلات فى الميريلاند فى نقطة تفتيش (إكيجا) مع أخرين من أبناء الإيبو المسافرين معه فى اللورى وأخذوهم إلى ثكنات دودان. مثل كثيرين . كأسير لم يسجل اسمه فى زنازين ثكنات دودان منذ مارس. انفصلت بيافرا فى أبريل . وبدات الحرب فى يونية. والداه يعيشان فى لاجوس وكان فى طريقه لقضاء إجازة عيد القيامة معهم .

قال أجيو نوريس : هذا الحاكم،يجب أن نشكر الله من أجله.إذا قدرلنا أن نترك هذا المكان ونحن محتفظين بعقولنا جراء هذا الكوميديان "

قال الطالب : "أخبرنى عن الفرق بين نصف ساعة ولا شىء إطلاقا.؟"

أجاب أجيو: (لا شىء.)

" إنه أحمق. لا تفتح الأبواب إطلاقا كما قال هو. كأن ذلك يزعج أى منا هنا.هل يعلم كم أسبوع قضيناها دون أن نرى ضوء النهار فى الثقب المظلم فى ثكنات دودان؟"

طلبت منه أن يفسر ذلك.قال أجيو "نحن جميعا من هناك. وفى يوم من الأيام قرروا ترحيلنا إلى هنا . لكننا جميعا تخرجنا من دودان "

لكن هل حدث اتهامكم؟ هل وجهت لكم أى تهمة؟ .

اعترف أجيو " أتهمت أنا، لم أ ستطع أن أشق طريقى أو أفلت من أى شىء. لقد سألونى ، هل زرت المنطقة الشرقية فى وقت قريب؟ قلت نعم. سألونى لماذا؟ قلت ، بيتى هناك . ذهبت لرؤية أهلى. لم نذهب أبدا أبعد عن تلك ABC "

التفت نحو الطالب " وأنت؟ أى استجواب؟ "

"لا. الاستجواب الوحيد الذى واجهناه هو أنهم سوف يأخذوننا ألى دودان روليت. هذا هو الاسم الذى أعطيته.الجنود سوف يأخذونك خارجا ويصفونك على الحائط استعدادا لضربك بالرصاص. يمكن أن تكون رصاصة حية أو فشنك. ذلك يعتمد على حظك."

قال أجيو فجأة " دعه يرى ظهرك ."

لقد تم جلدك ، أول ما طرأ على ذهنى ، بحكم معرفتى الجيدة بطريقة قضاء هذا الجيش لوقت الفراغ.

"لا، كنت محظوظا. لعبة الروليت فقط " بدأ يخلع قميصه " رغم ذلك حصلت على شيء آخر" لم يكن ظهره فقط . بل نوع ما من الفطريات يغطى جلده كله، فطريات خضراء وصفراء انتشرت كطاعون معدى فى كل أنحاء جسمه. " قال ،

" لقد تحسن الآن، إننى أظن هذا على الأقل، لقد أصبت به فى تلك الفتحة المظلمة.أظن أنه ينمو بسرعة فى الظلام."

قال أجيو" المرض لا ينزل علينا من الفضاء الخارجى ، أنت تحتاج أن ترى المرض من الفضاء الإنسانى ، إذهب الى الزنزانة رقم 3 واطلب من الرجل أن يريك ظهره"

" أى رجل؟

" صديقى ، E ظهر هناك يستحق أن تراه .لكن هذا بالذات الذى أعنيه سوف يعرف نفسه . كل جداول دلتا نهر النيجر مرسومة على ظهره. تعرف ان هذا أنقذنى من الكرباج؟ لقد أخذونى هناك للعلاج عندما تعرفت على أحد الجنود. وقال آه-آه، هذا أجيو نوريس، لا أ يها الموسيقار. أسمع لقد عملت فى ملهى ليلى وأنا أحب العمل فى الموسيقى . لا أحد أنقذنى.لكنهم لم يعيدوننى لذلك رأيت الجلد بعينى وأشكر الله لأننى أعزف موسيقى. إنهم يربطونهم فى أعمدة على الأرض ، مطروحين على بطونهم . أحيانا يضربونهم أربع وعشرين جلدة وأحيانا ستة وثلاثين. فإذا لم تصرخ فإنهم لن يتركوك. هذا الرجل أقول لابد أن يرسم دلتا النيجر على ظهرك، لقد أعطونى أربع وعشرين جلدة كل يوم. كل يوم. عندما يغمى على يتركونى. ولا علاج للجروح . عندما جاء الى هنا لم أكن بدأت العلاج . نظرإلى. قال لهم أقول دع هذه السحلية تريك ظهرها ."

" السحالي ؟"

"نعم . انت تعرف المثل الذى يقول – كل السحالى لاتنام بالنهار على بطونها لكننا نعرف أى واحدة سوف تصاب بالألم فى بطنها. حسنا، نحن نعرف أيها سوف تصاب بالمرض"

ذهبت ونظرت إلى ظهر ملىء بالقروح المتقيحة . لايوجد جلد . لاشىء مطلقا. كتلة من القروح التى لم يعد لها تعريف لأن كل القروح داخلة فى بعضها.

رجعت وسألتهم عن معلومات تفصيلية حول الحفرة السوداء. لقد قرروا فيما بينهما الطول والعرض. كانت مربعة تقريبا تربيعا كاملا. كان بها أحد عشرة رجلا يتقاسمونها منهم ثلاثة فقط يمكنهم الخروج دفعة واحدة. أما النافذة فكانت مجرد فتحة صغيرة أعلى الحائط . ولكى يحصلوا على هواء نقيا من خلالها كانوا يأخذون أدوارهم الواحد بعد الآخر واقفين فوق المبولة. هذه الفتحة الصغيرة للنافذة كانت موضوعة فى مواجهة السقف حتى لاتسمح إلا بمرور القليل من الضوء الى الزنزانة .عاشوا خمسة شهور فى غسق أوفى ظلام دائم . لقد اعتادوا النوم فى المكان الذى يجلسون فيه ، فى مثل قرفصة الجنين.التحية العظيمة هى الذهاب لتفريغ المبولة . كان هذا يعنى استنشاق الهواء والتريض .وكان هناك أحيانا ذلك الحارس الطيب القلب الذى يسمح بمد هذه المتعة للرجل المحظوظ ، يتركه معلقا لوقت ما فى الخارج بل ويعطيه سيجارة يدخنها. فى نهاية أحد الأسابيع حين لم يكن هناك عدد كبير من رؤسائه ، سمح بتفريغ المبولة إحدى عشرة مرة . وحين حدث ارتباك فى جدول الخدمة، فى مرة من المرات، جاءوا ينفخون. لقد كان الهواء الطلق والتمرينات الرياضية شيئا ثمينا.

لقد رجع ذهنى الى ظهر الرجل الذى رأيته، الشقوق التى مازالت متقيحة ، أورام بارزة سوداء.الحفر الناتجة عن طرف الكرباج لابد قد حفرت أكثر من واحدة . عدة بقع لمرض الجرب يصل سمكها بوصة.من رقبته حتى قاعدة الرأس مغطاة بالقروح.

" لقد تم جلدهم فى الخلاء ، قلت ذلك"

"نعم"

" وكانوا يصرخون ؟"

ضحك أجيو . " يا صديقى ، عليك أن تبتدع كلمة جديدة . أنت متخصص فى اللغة الإنجليزية أليس كذلك ؟ ابتكر كلمة جديدة."

" لكن جوون يعيش فى هذه الثكنات . لابد أنه سمع ذلك الصراخ."

قال أجيو ،" بصراحة لا أظن أنه يعرف. إنه يعيش بعيدا جدا عن حجرة الحرس".

فصممت على رأى " إن تلك الصرخات لابد أنها اخترقت الجدران المسلحة ."

أجيو يؤكد، " لاأظن أنه يعرف، لا أظن حتى أن بعض كبار الضباط يعرفون.إن هناك لقطاء بينهم .لكن، خذ مثلا، ذلك الحارس الذى أعتاد أن يتركهم يفرغون المبولة إحدى عشرة مرة فى كل نوبة .هكذا بينهم أناس مهذبون ."

نظر الطالب إلى أجيو لبعض الوقت. " لقد أخرجنا ذلك من قبل . أجيو يعتقد فى هذا حقيقة ... ماذا يسمى نفسه ثانية –آه نعم، وسيلة التنفيذ التى اختارها الرب ." التفت إلى ، " فى تلك الزنزانة السفلية ظللت أفكر وقتا طويلا عن الشخصية التى يذكرنى بها. وصلت إليها أخيرا . كان ذلك عندما وصلت صرخات المعذبين ألى مسامعى داخل الزنزانة تذكرت . لابد أنك تعرف فليكر ."

نظر أجيو فى حيرة " لم يكن لحسان أى علاقة بهذا. لم يأت أبدا إلى هنا."

فشرحت له " ليس البريجيدير حسان. حسان هو عنوان مسرحية ."

" مسرحيتك "

" بل مسرحية فليكر "

واصل الطالب كلامه : " هذه هى الصورة التى وردت على ذهنى .صورة الشخص الهادىء المصاب بالسادية الذى يتناول غذاءه ويشرب النبيذ ويهدهد نفسه لكى ينام على صوت المعذبين " استسلم أجيو " لم أعد أعرف عما تتكلمان ." بعد برهة تكلم الطالب " الإضراب عن الطعام كان فكرتى أنا"

قلت ، " كانت فكرة صائبة ،والسؤال هو كم من الوقت يمكنكم جميعا الإستمرار."

" اليوم كله. أما الذين لن يضربوا فسوف يختلسون شيئا من حقوق السجناء بطريقة أو بأخرى. هذا لا يهم . هل تعلم ما الذى دفع هذه الأشياء ألى المقدمة فى ذهنى ؟ لم تكن أوضاعنا، رغم أنها سيئة بدرجة كبيرة. لكن رغم كل شىء فلسنا حيوانات ، حتى نحبس هكذا فى العشش. لا، إنهم سجناء الجيش والمعتقلين الذين فعلوا ذلك. إنهم موجودون فى البلوك المقابل . أحدهم ظل ست سنوات يسرق مفروشات الجيش وأثاثاته. والثانى أعطوه إثنين لتزوير أذون صرف كميات من البترول وبيعها.عدة أحكام مثل تلك لمخالفات بسيطة وهكذا. منذ أسبوعين جاءوا بشاويش – تذكر، لم تتم محاكمته بعد ولم يقدم لمحكمة عسكرية . لقد أرسله ضابط الموقع إلى لاجوس ليجعلوا منه عبرة .لقد أطلق النار فقتل ثلاثة عشر فى أسابا بما فيهم بعض أسرى الحرب . قتلهم بدم بارد. لقد تم حجزهم معا فى حظيرة وكان هو يقظا. شاب من اليوروبا ،

شاب دمث الأخلاق حقا . جاءوا جميعا إلى هنا لاستخدام طاولة التنيس مع السجناء ذوى الشخصيات المهمة جدا . اعترف أنه قتلهم بفعل الخوف ، قال إنهم كانوا يتكلمون بلغة الإيبو وطلب منهم أن يتكلموا الإنجليزية فقط .فتجاهلوه. فقررأنهم يدبرون شيئا ما لذلك وجه بندقيته نحوهم وقتلهم .

" تم إطلاق سراحه منذ يومين . وأعيد تعيينه فى قسم جديد.كان موجودا هنا حين جاء أمر الإفراج عنه. كان الجميع يناقشون ذلك ، أقصد زملاءه. لم يشغلوا أنفسهم كثيرا بفكرة نظام العدالة هذا."

"هل ذكروا اسم من وقع على قرار الإفراج؟."

" قيل فقط أن القرار جاء من مكتب رئيس هيئة الأركان . كان الشاب أكثرنا دهشة من هذا الأمر. كان يتوقع محاكمة عسكرية أو على الأقل عدة سنوات فى السجن. أعتقد أنه سيأتى يوم حين تصبح العقوبة هى إجازة يوم عقابا كافيا لقتل أحد أبناء الإيبو."

" إنها الحرب" هز أحد زملائه فى الزنزانة كتفه.

" لقد فكرت فى ذلك .ثم سألت نفسى .إذا كانت الحرب فلماذا يبقى مهربو البترول فى السجن ؟ لا ، إنه فقط جزء من عملية الإبادة البطيئة ذاتها. لقد تربت فيهم هذه الرغبة. إنه خال من جميع الأمراض المتوطنة. هذا الشاب أدى دوره.، لقد تم اطلاق سراحه. لقد أدى مدير السجن الأحمق دوره، لهذا السبب فهو يهين انسانيتنا . كنت محتاجا لأن أفعل شيئا كنوع من الاحتجاج دون النظر إلى مدى غموضه أو بعده عن السياق."

" أكدت له أن هذا ليس خارج عن حدود الموضوع "

" إننى أخشى كما تعلم. أخشى كثيرا على المنطقة الغربية فى الوسط. حتى بعد أن تم إعادة المكان كله ولم يعد هناك اطلاق للرصاص.سوف تصبح اعتداءات الشماليين وفظائعهم كلعبة من لعب الأطفال."

هناك صمت فى الزنزانة.كل واحد من المقيمين داخلها لديه ذاكرته الخاصة عن تلك المذبحة وبات مشغولا بها. الطعام الباسل تحت عقب الباب تم اهماله. لم يستطع صوت الطالب ان يصل لكن كان من السهل الإحساس أن تلك الصدمة التى لن يمحى أثرها قد انتقلت إالى بقية المحتجزين، حتى انتشر نوع من الإكتئاب فى الزنازين الأخرى. وقف الطالب فى مواجهة النافذة ناظرا إلى.أدركت أن وجودى غير مطلوب فمشيت بعيدا فى هدوء.بدت الزنازين وانا أمر بها مزدحمة بأجساد، مسنودة على الجدران.

حل المساء وجاء المشرف ومعه قائمة الطعام .لم يعد يبدو كوميديا كما كان بصخبه وتهديده الذى تمكن الأن من الجمع بينه وبين بداية التفاوض و تقديم الوعود؛ كان فقط بذىء.لقد ظهر (الوهن) فى صوته مرارا ." لكن ماهى بالضبط شكواكم ؟ فقط ، ماهى شكواكم ؟" لا أحد نظر إليه أو تكلم . أمر بفتح الأبواب ووضع الطعام فى الزنازين. قعقع صوت الأبواب مرة ثانية لكن المساجين لم يتحركوا. عندما أخذت خطواته فى التراجع ، سمعنا أصوات الأوانى الألمنيوم تحتك بالأرضية . وسرعان ما امتلأ الممر بقصارى الطعام المصطفة والتى لم يمسها أحد.

الليل: نزل صوت إغلاق الأبواب الوحشى المحزن الى الزنازين، وحبست الترابيس نفسها فى فتحات الهواء الشديدة الضيق .كل سجين أخذ نصيبه من المجانين.؛ لم يمض وقت طويل حتى علا أحد الأصوات الأتية من مبنى بعيد وأخذ يسرد أسراره السوداء. تصحبه قعقعة القيود الحديدية ؛ أتت هذه الأصوات صافية فى جنح الليل مع تيار الهواء إلى سجن شاكى. كان القمر يقترب من اكتماله. كانت صيحته المرعبة جزءا من حركة تلك العين الفضية اللون المقتحمة .

فى منتصف الليل تقريبا بدأت تنمحى من الوعى، داخلة بهدوء فى سكون الأحلام . عندما جاء الصوت الجديد، قبيل منتصف الليل بوقت قصير، لم يبدو أنه ينتمى الى عالمنا،ولا ألى ذلك العالم الذى يذبل يوميا خارج هذه الجدران .إنه صوت غريب، بدأ كفيض مهدىء، داخل الى فيضان مظلم ، يلتف إلى داخل وخارج الليل.لقد لمس ولف نفسه حول الجلد، خفيفا كالنوم، لكنه غريب لا يمكن أن يكون جزءا مما كنا فيه، مما كنا نشعر به يوميا ، مما كان يهاجمنا أو يساندنا. أعرف أنه جاء من مكان ما عميق فى باطن الأرض، من التربة المسحوقة ، كنت أعرف هشاشة قرون الاستشعار الألم والنصر.

هؤلاء البشر المتوحشون من تحتنا كانوا يغنون، وصارت أجساد النزلاء المنصتين أداة توصيل حقيقية ملموسة. شعرت بأن كل نفس فى هذا البلوك مستيقظة تماما، تنصت ، لا تكاد تتجاسر على التنفس او الحركة. لا أحد يمكنه أن يتذكر كم من الوقت استمر الغناء.لم يصرخ أحد، لم يشكو أحد أن نومه قد اضطرب . ربما استمر بين ساعتين وثلاثة ساعات ، كل أغنية تنساب إلى التالية دون فاصل بينهما . تنتهى أغنية ، صوت جديد يبتدىء أغنية آخرى ونغماتها الأولى تكاد تكون استمرارا للأغنية الأخيرة . يتخلل كل هذه الأغانى حالة من الشجن والقوة . لاشىء سوى صوت الترانيم فى الصباح والصلوات فى المساء .كنا نسمعه فيما مضى من هؤلاء الناس. والآن فجأة فى هدأة الليل فإن الظلام الذى فى قلوبهم راح يستدعى أصواتا من المدفأة والضريح. إنه يضمنا جميعا ، يضم الغرباء الى بيوتهم ، فى انسانية واحدة مشتركة .

وهذا ما تأكد فى صباح اليوم التالى .حتى المخبرين تأثروا وربما أحسوا سرا بالعار.مع تصاعد هذه الأصوات الليلية سمعنا قيودهم تنفك ، بل وقيودنا أيضا .شعرت بأن السقف ينسحب ليكشف سماء مشتركة. لقد أداروا أصواتهم داخل أعماقنا وجعلوا كل رجل يشارك فى سر مقدس من أسرار أخوة الدم و الخطيئة والألم.

وفى نفس الوقت تقريبا الذى انفتحت فيه بوابات الزنازين فى اليوم التالى جاء السؤال من شفاه كل واحد، هل سمعتهم؟، هل سمعتهم ليلة امس؟ وكانت الإجابة المرافقة، لم أستطع النوم حتى بعد أن توقفوا عن الغناء .لم أستطع النوم ." هؤلاء المجرمين العجفاء من المحكوم عليهم والمصابين بسعارالكلاب من أتباع (N N N P) الذين كانت عقيدتهم السياسية هى فوبيا الإيبو، لقد توقفوا وهم فى طريقهم إلى دورة المياه عند زنازين أعدائهم السياسيين . أنا سمعتهم يقولون ،" هل سمعتهم ؟ هل سمعتهم يغنون ؟ " كانت المرة الأولى التى يعترفون فيها بوجود إكوكو وأديبانجو لكنهم اضطروا للمشاركة فى التجربة وشعروا أن هذين الشخصين هما أكثر المخلوقات االموجودة رقة واحساسا . بحث كل واحد عن تفسير دون أن يطلبه، كل واحد بحث عن مغزى لم يكن من السهل تحديده. كل واحد شعر بالخوف من الاستجابة التى كانت مضمرة داخله وتفسيراتها ومطالبها .وفوق كل شىء ، كان هنا الوعى فى داخلهم ، لأول مرة ربما، إن روابط الجسد والشجن قد تسامت حتى ولو لساعات قليلة ، بفضل هذه ، هذه الطفيليات الدنيا حسب التصنيف الرسمى، لمجتمع السجن .

يون داكولو،وحده لا يزال فى واحته المتميزة فى وسط هذا الخراب ،كان غاضبا بصورة واضحة. لقد نزلت من أجل الحديث معه متسائلا كيف كان أثرها عليه وهو فى نفس الطابق. وجدته يخطو هنا وهناك غاضبا فى زنزانته، معلنا عن أفكار غير متناغمة ، غاضبا من شىء ما لا يستطيع أن يفهمه، غالبا فى نفسه. بمجرد أن رآنى انفجر!

" ابعد عن هذه القذارة؟ ابعد عن هذا الروث؟ هل تعرف ،أننى فى بعض الأحيان وجدت نفسى على وشك أزدراءهم ببساطة لقبولهم أن يعاملوا بهذه المعاملة. إنه امر سهل كما تعرف . إذا رأيت البؤس مدة طويلة فسوف تنتهى إلى احتقاره. لذا فلماذا كل هذا؟ ما هذا الذى جاء منهم ؟ أنت لا تعلم، فلم تكن معهم فى غرفة الصوت. الشىء كله ... كان يبدو كأنه تعذيب . كان يؤذينى ومازال ... أنا لا أعرف . أنتم أيها

الكتاب . إذا لم تستطيعوا ... القوة. هذه هى . القوة . إن لها هذه القوة كما تعرف. لقد منحتنى قوة حتى وهى تؤذينى. لم أقض أبدا ليلة مثل تلك ، أبدا فى حياتى.

لقد مر بزنزانتى فى الدور الأعلى بعد ساعة ،ممسكا بالصابونة والفوطة وتوقف لكى يشرح. " لقد انهرت. كنت أحاول أن أجمع شجاعتى لأمشى بعد زنازينهم نحو دورة المياه لكننى لم أستطع أن أفعل ذلك. كما لو كنت خائفا أن أجد شيئا فى وجوههم غير إنسانى. أقول لك لا أستطيع أن أنسى هذه الليلة ."

قال أديبينجو، " أتمنى أن يكون علماء البيئة الإنسانية قد سمعوهم ."

مع ذلك فامس ، هو يوم ساحر ، تم فيه فتح الزنازين ، وإعطائهم الصابون لكى يغسلوا ملابسهم والبطاطين. وشموا الهواء وتشمسوا ، وأحضروا الحلاقين لمن يريد أن يحلق شعره.فصف المحتجزين النظيف الرائحة الذى شاهدتموه لم يكن هو كتلة النفاية التى بقيت دون غسيل، فى أوضاع غير صحية لعدة شهور. لقد اضطروهم للخروج فى الخلاء طبعا حتى لا ترون دليل الزحام والتكدس. هل ربطتم الفضاء بذلك البلوك السفلى بعدد المحتجزين فى الخارج.؟

أخيرا، من الأمور المبدأية أن تصمموا على التحدث سرا مع المساجين. أسئلتكم الموحدة نمطيا للمساجين المحاصرين بحراسهم، حول أوضاعهم ، كانت مهزلة مؤلمة. الإنتقام المتوقع نتيجة تقديم إجابة خاطئة من المؤكد أنكم تجهلونه.إذا كنتم لا تستطيعون أن تبحثوا بدقة ، فلا داعى لزيارة المساجين السياسيين مطلقا. إنها لا تقدم للنزلاء شيئا سوى أمال كاذبة .

هامش : موجه إلى الصليب الأحمر:

عندما زرتم السجن فى ديسمبر، 1967، كنت أراقب من نافذتى تفتيشكم لصفوف أبناء الإيبو فى الفناء خارج البلوك. قبل وصولكم تم فتح الزنازين الخاصة بهم ، لأكثر من ساعتين لأول مرة فى فترة شهر أو أكثر .أما مدير السجن ، المهرج الذى أسميه جنرالسيمو قد أصدر أوامر هو نفسه. قبل ذلك بشهر، بألا يتم صرف صابون لهم. ليس هذا فقط بل أمر الحراس بأن يجمعوا شرائح الصابون من الزنازين. السبب أن المحتجزين قد شكوا أنهم لا يحصلون على الكمية المخصصة لهم من الصابون . وهذا صحيح.فالصابون الذى كان مفروضا أن يأتى تناقصت جرايته بالتآمر بين المتعهدين و بعض الحراس. لذلك ظلوا لمدة شهر حتى يوم أمس بدون صابون.

الفصل الرابع عشر

لقد جاءوا فى منتصف الليل ،أحد كبار الضباط ، فى صحبة ثلاثة من الحرس. لف الحراس رؤوسهم بالطواقى واتخذ الضابط أسلوبا ونغمة مفاجئة وقاطعة. وفيما هم يعبثون بالقفل قفز عقلى غريزيا الى المحاولة السابقة التى استهدفت قتلى فى منطقة الأمن الوسطى (ميديوم سيكيوريتى) .

" اجمع حاجياتك واحزمها"

نزل على الصوت كأنه أمر موجه لكلب. سرحت بعقلى بعيدا عن لحظة وجودهم هذه ، ملفوفين فى مشاية تغطيها الظلال حتى أوشكت أن أحسب أننى أسير وراءهم أشبه بألة أوتوماتيكية .أما الركن الآخرمن عقلى ، فكان متحفزا بطريقةغريزية بكل احتياجات البقاء فى السجن، بدأ يدبركيف ألهى هذا الرجل بدرجة تتيح لى أن أخرج قصاصات الورق والقلم من التربة ، والملاحظات التى أعددتها لتوصيلها للمرة الثانية إلى رفاقى فى الخارج.

لقد أحسست بالارتياح لوجود بعض المحتجزين الآخرين ساهرين ومتجمعين عند مدخل زنزانتى- لم تغلق أبواب زنزانتهم طول الليل. أديبانجو بصفة خاصة،اقترب جدا من أحد الحراس واستطعت أن أسمع همسته حول الضجة التى كنت مستمرا فى إحداثها بالمبولة والجردل.- " إلى أين سيأخذونه؟" لمحت بزاوية عينى الحارس يهز كتفيه.

كيف فشلوا هذه المرة فى تحذيرى ؟ كنت أفكر فى ج. ورفيقى الآخرين. هل تم كشف أمر تجسسهم أخيرا؟

وبينما كنت أخطو أولى خطواتى خارج الزنزانة، سألنى إكوكو إذا كان ثمة شىء أحتاجه وأجبرنى على أن آخذ بعضا من سجائره. أديبانجوا وضع فوطته على وهو يضغط. فقبلتها ، ظنا منى ، أنى قد لا أحتاج الى شىء فى المكان الذى أنا ذاهب إليه.

انحاز الضابط جانبا و وأخلى الطريق لكى أتقدمهم فى السير. عند نهاية الممر، ازدادت مخاوفى نتيجة لضغط الممر الضيق على أعصابى وكذلك بسبب احساسى بتهديد الحراس الثلاثة من خلفى فتوقفت واستدرت وصحت بأعلى صوت:

" أريدكم جميعا أن تعلموا أننى لن أحاول الهرب. إذا حدث شىء لى فتذكروا هذا "

وأثناء نزولى على السلم سمعت صوت أوليو أديبانجو يرن فى كل أنحاء الممر طالبا من كل النزلاء أن ينتبهوا مذكرا إياهم بأننى خارج من هذا البلوك فى منتصف الليل، الى جهة غيرمعلومة وأنا فى كامل الصحة والعافية .مشينا عبر الطريق الصحراوى المحيط بالسجن، أحد الجراس يحمل صرة ملابسى تحت إبطه. وفى المكتب تركنى الحراس الثلاثة وحدى مع الضابط وكان هناك رجل عجوز يقوم بعمله. احتفظ الأول بتجهمه وأخيرا ذهب بوجوده المحزن الى مكان آخر. وقبل أن يرجع نظر الرجل العجوز إلى برهة ثم انفجر فجأة :

" لماذا لا يتركوك وحيداً؟ إلى أى مكان سيأخذونك هذه المرة .؟"

رفعت كفى إلى فوق لأبين أننى لا حول لى ولا علم فى هذه الأمور . فجأة اندفع الجنرالسيمو إلى داخل المشهد ، ليقدم فتواه . كان يفيض حيوية ونشاطا كما لوكان منشغلا بعملية ترقية من أجل الإنسانية.فى تلك الساعة من الليل . ظهر هذا المخلوق الغريب مغسولا من جديد، مدهونا با لزيت مهندما، منتفخا بسعادة خفية فى زيه.

"أخذت كل شىء ؟ أوه،هذا صحيح . هل أعطوك كتابك؟"

" أى كتاب ؟"

" ألم يعطونك كتابك ؟ الكتاب الذى كتبته أنت."

اندفع خارجا ، وعاد بنسخة من ديوان أشعار " إدانر" . لم أكن قد رأيت نسخة منه حتى ذلك الحين. قلبت الكتاب فى يدى. هناك اسمى مطبوعا بالبنط العريض على الغلاف. وبطريقة معجزية ، أحسست بتصاعد روحى المعنوية بسبب ملامستى لهذه الشريحة من كينونتى الداخلية المطبوعة حديثا وهى بين يدى . لقد قلبته ورأيت صورتى على الغلاف الخلفى، فتحت الصفحات فوقعت على القصيدة المكتوبة إلى إبنتى.

سألت الرجل " لماذا تعطونى هذا الكتاب الآن فقط ؟"

هز يديه بعصبية " لقد نسى أحدهم أن يسلمه لك ، هذا كل ما فى الأمر."

" إلى أين تأخذوننى ؟"

تمتم لفترة طويلة .ففى الوقت الذى دار فيه حول نفسه لكى يكذب بصوت خافت استدرت أنا بعيدا أقرأ قصائدى المطبوعة "

والآن بدأ الانتظار الطويل . ساعة . ساعتين .ثم ثلاثة. بعد ساعتين أقلع المشرف وانصرف الى بيته، وتركنى فى حراسة الضابط الكشر. وقبيل الفجر رن جرس التليفون ، رد عليه الضابط ، ثم التفت نحوى وأعلن :

" سوف نرجع إلى الزنزانة "

وفى فترة بعد الظهر فى نفس اليوم وصلتنى رسالة ج.المتأخرة . موجهة إلى دان تقول ببساطة، " اخبر صديقك الآ يفزع إذا أتوا إليه مرة ثانية . "

الفصل الخامس عشر

استطرادا حول موضوع الجرائم الوحشية واللجان والفراغ فى عقل أصحاب السلطة.

بعد تحرير الجزء الأوسط الغربى مباشرة من قبضة المتمردين الفندالز (ألخربين) بواسطة الجنود الفيدراليين الشجعان شكلت حكومة جوون لجنة باسم لجنة الجرائم الوحشية . كانت الحرب لاتزال دائرة طبعا. فإذا كان ثمة شئ فهى أشد سخونة، وأشرس، وأكثر شمولا عما حدث من قبل. كلمات الحرب الشاملة، التجنيد العام، السحق ، إلخ . لكن، فى وسط هذا التصعيد لإرادة الحرب ، تم اهمال الوقت والطاقة لتفعيل اللجنة والشهود والحراس المسلحين، والبيروقراطية، والنفقات . كان هذا كله كما يجب. ومن الضرورى تسجيل هذه الأشياء. الغزو بالمصطلحات الخاصة لهذه الحرب وبتعبير أغلبية الشعب فى الجزء الأوسط الغربى، كان جريمة . كل الجرائم يجب فحصها فى وقت السلم أو الحرب.

وبالنسبة لى فقد رحبت بذلك خصوصا وأن عبارة الجرائم الوحشية اختفت من موضة الكلمات والمعانى فى قاموسنا الخاص.فبالرغم من كل شىء فإن الكلمة تعنى شيئا ما. فهى تعطى تعريفا لظاهرة، وتحدد معنى حادثة تمت أو مازالت فى طور التكوين. الحقيقة أن هذه الكلمة من أشد الكلمات فاعلية.طبعا فى بعض الأحيان لا تستطيع كلمة أن تحقق الغرض، بمفردها على الأقل ،فلا بد من منحها الصلاحية عن طريق الإستجابة ، بالقبول الإيجابى أو بالمقاومة.إن الحكومة الفيدرالية للوسط الغربى بتكوينها لهذه اللجنة فإنها تثبت لى أن كلمة الفظائع الوحشية تستدعى الإستجابة الأخيرة .لقد سارت خطوة أبعد وحددت الشكل الدقيق الذى يجب على هذه المقاومة أن تتخذه. وأنا فى زنزانتى بسجن كيرى كيرى، كنت سعيدا أنه تم انقاذ هذه الكلمة من الإهمال.

يبدو أن حكومة أيرونسى لم تكن فى وقتها أقل اهتماما بمسئوليات هذه الكلمة. وهى مسئولية كما يتضح مما سبق ، قد أخذت شكلا حقيقيا فى نوفمبر 1967، بفضل يعقوب جوون. فى مايو 1966 قام أيرونسى بتعيين لجنة (بنفس الشكل) للتحقيق فى الفظائع ، التى تعرف عموما بالمذبحة الصغرى فى الشمال . كانت هذه اللجنة مازالت تقوم بالعمل عندما استولى جوون على السلطة فى يولية من نفس السنة. وأعلن للجماهير أن عمل اللجنة سوف يستمر دون تعطيل- كان هذا واحدا من أول بياناته للأمة. لكنه أماتها سرا. لم تعد الأمة تسمع شيئا عن اللجنة التى أنشأها أيرونسى والتى ورثها جوون للتحقيق فى الفظائع التى وقعت فى مايو. وعلى فكرة لقد وقعت فى زمن السلم .

فى سبتمبر-أكتوبر 1966 وجد حوون فرصة عظيمة لتشكيل لجنة كبيرة خاصة به . كان له كل الحق فى ألا يؤمن بجدوى التحقيق فى الفظائع. فالصمت الذى أحاط بلجنة مايو أعطى دليلا لأن يكون الأمر هكذا. هذه كانت ميزته. رجل ، خصوصا أنه واحد لديه مشاغل ، فله الحق فى أن يعتبرأن اللجان فى حد ذاتها لا لزوم لها. لذلك فإن الحقيقة التالية دونت فقط لمجرد التسجيل. فى سبتمبر- اكتوبر1966، وقعت فظائع أخرى فى كل أنحاء نيجيريا، بما فيها لاجوس مقر حكومة يعقوب جوون نفسه . لكن المكان الذى ظهرت فيه على مستوى واسع كان فى الشمال.كانت الفظائع عامة حتى فى الجنوب. (لاجوس) التى أوفدت مندوبيها إلى مؤتمر دستورى افتتحه يعقوب جوون وكان طبيعيا أن يديرها جيش يعقوب مباشرة على مرأى من مبنى المجلس حيث جرت تلك المناقشات الخاصة بالدستور. وتم تعميم اصطياد الرجال بواسطة البنادق

ذات العدسات، حول إيكوى حيث يعيش جوون ، وتمت الإعدامات، ومباريات التعذيب التى استمرت فى محل إقامته الرسمى . ثكنات دودان ، على المدنيين الذين تم القبض عليهم فى الطريق العام- نقطة تفتيش اكروديو كانت هى النقطة المفضلة لخطف الناس. كانت أحداث يومية عامة معروفة ليعقوب. أما بالنسبة لأحداث الشمال، دعنا نوجزها ونقول إن الفظائع وقعت على مستوى واسع وشامل ، ومنظم جيدا حتى أن مختلف الإشارات كانت تصفها بالمجزرة الكبرى(كما تميزت عن بروفات مايو) أوإبادة أجناس، وفى بعض الأحيان مجرد اضطرابات وهذه العبارة الجوهرة قالها أوكبابى أسيكا –حالة شذوذ! لقد خطى يعقوب جوون بنفسه خطوات بعيدة تكفى لوضعها تحت المجال الواسع للفظائع فى مناشدته. كلمة مناشدة فى حد ذاتها ذات مغزى. تقول الكثير عن جوون،.

الأحوة أبناء الشمال ،

أريد اليوم أن اوجه هذا النداء لكم جميعا بصفة خاصة. لقد تمنيت كثيرا أن أزوركم شخصيا لأننى أعرف أن هناك كثيرا منكم لم يقابلوننى أبدا، لكن هذه الزيارة لم تكن ممكنة نتيجة لضغط العمل.

تعلمون جميعا أنه منذ نهاية شهر يولية ،أودع الله ، بسلطانه مسئولية هذا البلد العظيم، نيجيريا، فى أيدى شخص آخر من الشماليين...

هذه المسألة المهمة (مهمة بالنسبة لجوون) أعاد القول ،لأنه من الواضح أن الشماليين هم الذين كانوا يحتاجون إلى التهدئة ، وليس الضحايا. إن تأثير هذه اللغة المهادنة على العجزة والمشوهين من الضحايا ، ليست بالطبع، غير مهمة.لذلك فهو يؤكد هذه النقطة: (مابين الأقواس هو تعليقات الكاتب)

أود هنا أن أكرر ما قلته سابقا.إن مسئولية بقاء نيجيريا كدولة قوية هى اليوم بأيدينا. وهى مسئولية لا يمكن التهاون فيها. إن التعا مل مع المسئوليات بنوع من التهاون لا ينبغى طبعا ، تعريفه على نحو يقبل الاستفزازالطائفى لهذا البيان.ولا يمكن لأى فوضوى مسعور أن يوحى لنا بأن طريقة عدم تناول المسئوليات بهوادة يعنى تجنب نغمة التهدئة فى وجه الفظائع الوحشية. لكن، دعونا نستمر:

منذ يناير من هذا العام ، حين قام بعض الجنود بإحداث الاضطرابات فى بلدنا وقتلوا قادتنا السياسيين والعسكريين، فإن الوطن لم يتعافى تماما من هذا الاضطراب.

إن الحزن المترسب فى عقول الناس عن أحداث يناير قد أدى إلى اضظرابات قام بها المدنيون فى الشمال فى مايو، مما تسبب فى خسائر فى الأرواح.

فأنا أتلقى شكاوى يوميا حتى الآن ، بأن الشرقيين الذين يعيشون فى الشمال يتم قتلهم والتعدى عليهم،ونهب ممتلكاتهم . (إننى فى غاية الحزن من أجل هذا.) ويجب علينا أن نضع حدا لهذه الحوادث. (يبدو أنها فى طريقها ألى الخروج عن العقل إلى درجة التهور والتخلى عن المسئولية.)

أظن أننى فى الطريق لأن أفقد عقلى!

ملاحظات أضيفت فى وقت متأخر:

لقد تذكرت توا ماكنت قد شرعت فى قوله:

الأن وقد امتلأ الفراغ فى عقل السلطة بلجنة التحقيق فى الفظائع فى يقظة شهر أكتوبر 1967 (الغرب الأوسط) فإننى أتساءل إذا، كان قد تم تطهير الغرب الأوسط من أخر بقايا الدخلاء، وأنقذ الأمة تماما وحمى ظهرها بالدرع اللا مع لأمة متحررة من الفظائع، فسوف تشكل لجنة الفظائع الأن للنظرفى المجازر والتعذيب

الذى حدث للمدنيين الإيبو من سكان الغرب الأوسط على يد القوات الفيدرالية ومعاونيهم من المدنيين. لقد تلقيت قبيل رحيلى من سجن شاكى تقارير شاهد عيان من جندى فيدرالى.شاب صغير ترك دراسته حين رأى مثله العليا تتمزق بسبب الإعدامات الطائشة للمدنيين. احتج ، ثم ، أحس أن حياته فى خطر، فهجرهم وهرب إلى لاجوس. فقبض عليه ووضع فى السجن بعد أسبوع. كانت عمليات الإعدام اليومية والتعذيب لازالت مستمرة عندما غادر المكان. لقد رأى عائلات كاملة تجلد بدم بارد. الفظائع ؟ أم ببساطة الحرب؟

كادونا 1968

الفصل السادس عشر:

بدأ الموكب من مكتب المشرف. رحلة صيد سفارى، صف من الحمالين يتقاسمون بؤس حمل الممتلكات،عبء لايكاد يذكرعمره خمس سنوات، ونحن نبدأ الرحلة خلال أقفاص حيوانات. أقفاص متشابكة، تبدو لقليل الخبرة كمتاهة صممها علماء مجانين لإختبار درجة ذكاء الفئران. من الذى سيختبر ذكائكم ، أيها العبيد، ذكاءكم وذكاء هذه الحيوانات التى تطيعون زمجرتهم.؟ من أجل أعمال شيطانية ، أوه نعم، هذا الخبث لا يحتاج إلى اختبار. سوف أكون دليلكم، الشاهد العلمى. من الفنان الى الإنسان خطوة ذكاء بسيطة، أقفاص ومتاهات لإذاغة العقول.تسمى إختبار. أو تكييف، ولعله من المفيد أن يبدأ هناك، تجديد، يعنى أن هذه الأقفاص جزء من العمل كله لتقييم شىء ما . والخبراء المثمنون؟ هم أسوا الجميع حتى أنهم لا يعرفون ما الذى يفعلونه. أطردوهم إذن لعدم اتساقهم وافتقادهم للمنطق ؟ إنهم أدوات؟ مجرد موظفين فى العملية؟ صبية محتقرون لخدمة حقيقة وحيدة هى أنتم.من أجل خداع النفس. و الآن أنت تعرف أنهم يملكون قوة إيقاع الأذى. هذا حقيقى ، لكن هكذا الثعبان السام ،السريع الانزلاق، يضرب ضربات عمياء.

أقفاص ، أقفاص من الأسمنت المسلح وبوابة من الصاج المضلع للمرور. حراس متبلدون يحرسون هذه المنافذ والبوابة ذاتها عبارة عن حاجز له ترابيس ثقيلة ، وأقفال لا توصف. يتم إدخال يد فى فتحة بالبوابة ، عين تختلس النظرفى داخلها، تحرك المفتاح ويتم سحب الترباس .ثم نمر من خلاله ، لكن نهاية الرحلة لا تبدو فى الأفق.يد مفصولة عن الجسد تصارع ترابيس حرة ترعد بصداها فى كل ياردة ، لكن هذه الفتحة المربعة الشكل فى البوابة، هى يد العذاب والبوابة تفتح إلى الداخل ، تشد لكى تخفى وجه البواب وجسده. هل أنت خائف منى ؟ او خجلان حتى تغطى وجهك بدرع.؟ أوهل أتيت أنا إلى هذا ، لماذا يحتاج الأمر إلى ثمانية رجال لكى يقودوننى إلى زنزانتى؟ أربعة من أمامى وأربعة من خلفى. ألم يعد وجود اليونيفورم وحده تعويذة كافية ؟

السؤال يطل من عين كل نزيل ممن يتدربون فى الفناء: من هو؟ هذه الضحية الجديدة من هو؟ تسرع الخطى فى سراديب الموتى. لولم يكن قد حدث خلل" فنى" وهذا ما أعرفه، لفضلتم احضارى أثناء الليل ، متسللا تجنبا لنظرات النزلاء المتسائلة وشكوكهم المستوحاة من المشهد . لا شىء يفلت من المساجين، على الأقل تفاصيل حياة أى نزيل جديد ، ففى غضون ساعات قليلة سوف يفصلونه قطعة قطعة ، يقارنون

بين الاستنتاجات حتى يتم الحصول على الحقيقة. لكن هناك قفص آخر.ونفس اليد تمتد فى ثقب الباب المربع ... فجأة ألمس، ثم أحتضن اليقين – لن نصل إلى جهة الوصول أبدا. ليس هناك أحد تصل إليه. سوف نمشى فى هذه الممرات إلى الأبد. سوف أنزل فى ممرات أبدية بحذاء طويل الرقبة للخوض فى الحصى الجاف من أمامى ومن خلفى.أنا وحاجياتى الرثة محمولة أمامى كإعلان عن جريمة سرقة.سوف نمشى فى ممر لانهاية له وسوف يسقط أفراد الموكب واحدا واحدا ، واحد من الأمام وواحد من الخلف ومعهم هذه الأدلة المريبة على معالم إنسانيتى .

إلا بوليفيموس. بوليفيموس – هذا اسم يقفزالى الذهن بطريقة طبيعية ودون جهد– بوليفيمويس يصعب الخلاص منه، تصعب قراءته وهذا مؤكد. (أنت نزيل جديد مسلى ، ،لا زالت لديك القدرة على هذه المسليات السارة ؟ بوليفيموس سوف يخرج الممسليات عنوة من الجانب الآخرمن فمك، انتظروسترى) لقد جاء فى مؤخرة الصف ،هل فعل ذلك بوليفيموس لكننى لا أستطيع أن أخلص عقلى منه، من وجوده المبكرفى مكتبه عند مراجعة بياناتى، إذ أخذت عيناه تحيط بى انتظارا لتلك اللحظة التى ينتهى فيها الجانب الرسمى ويصبح وحيدا مع وجبة غدائه: أنا. أسود جدا بدرجة تحير أكبر دعاة النقاء اللونى الأسود فى البحث عن تعريفات جديدة سوداء، بوليفيموس طوله ثماني أقدام، برج ضخم وجهه مغطى بالندوب وينذربالخطر حين يزمجر. تتحول نظراته سريعا عندما أبدأ أقيس أعماقه الفارغة بنظراتى، فيبدأ خفية فى فحص قطعة غريبة من الطعام قد تجرب قدرته على الهضم.فإذا وجد فى النهاية شيئا يرهق مخه، فهناك ألات التعذيب العتيقة، والعصى المطاطية الطويلة والفوط المبللة، أنا أعرف أن بوليفيموس سوف يكون الكاهن الذى يقوم بطقوس الخضوع وإلإذعان. خذ بالك لن تحرق أعضاؤك العصبية بسيجارة ولا بأقطاب كهربية لاشىء من هذه المعاملات الرقيقة . بوليفيموس ينتمى إلى أسلوب الرفع والقذف، الصفع وطرطشة الماء الملوث. فقط عندما يظهر نخاع العظم على الحائط ربما يتوقف، محتارا.

عرفت توا متى نصل إلى جهة الوصول. فالجدران مرتفعة وأعناق الزجاجات المكسورة ، وأنفاق الأسلاك الشائكة أشد مناعة وتحصينا عن ذى قبل. والأن توقفت مقدمة الطابور وأخلت طريقا لبوليفيموس لكى يصعد الى البوابة. يظهر من بين طيات جسمه مفتاح، ضخم الشكل يتسكع فوق القفل. رغم أنه فى ضخامة القفل، إلا انه يختفى فى كفه. إننى أستفيد بلحظات الانتظاركى أقوم بعملية مسح حول هذا القفص وأواجه تحديقة لاتصدق صادرة عن أحد القرود. وهو رابض كأنه يستعد للقفزفإذا به يتحول بعد كل هذا إلى إنسان يمكن التعرف عليه ، لكنه مجنون بدرجة لا يمكن علاجها. نحيف الى حد يبدوأنه هيكل عظم بلا لحم، جلده من الرماد القذر ومن بقايا عظمة متفحمة ناتئة، وفى عيناه تحديقة ثابتة ووجه مكفهر عليه تكشيرة. حراسى يلكزون بعضهم بعضا ويشيرون إليه . لقد صار الرجل المجنون نكتة لطيفة . وسرعان ما تنقلت عينايا بين الوجوه الأخرى . نزيل آخر يحدق على البعد بوجه ممتلىء بالعطف. عليك اللعنة ! عليك اللعنة أنت وكل أمثالك .! لاتقدم شيئا غير الكراهية . الكراهية فقط . إنها الشعلة الملتهبة التى تمنحك الدفء فى الجو الملبد بالرطوبة وتشحذ روحك حتى تغدو سلاحا بتارا فى المعركة من أجل البقاء. لا تشفق على الضحايا أيها الأحمق لكن فقط ، لا مزيد من الضحايا.! وإلا فارقد فى بيتك وتقبل الموت.

تمثل حاجياتى منظرا كوميديا رثا.مشط، قميص مكرمش فقد بياضه من كثرة الغسيل والاستعمال، بنطلون يلمع نتيجة لطول الاستعمال، فوطة يد، فرشة أسنان ومعجون – لقد قبضوا على حبوب الأسبرين والثلازول وقام الطبيب بفحصها ؛ اليوم التالى قام بالافراج عنها- وعن ثلاثة كتب احضرتها من محل إقامتى الأخير، على فترات من كثرة الاستعمال ومن المطر الذى نزل فى إحدى الليالى فأغرق كل شىء فى الزنزانة. وقد اختفت هذه الأشياء ذات صباح دون إعطائى تحذير أوأسباب. أقلام الحبر وأقلام الرصاص وقصاصات الورق حتى علبة السجائر الفارغة المصنوعة من الورق المقوى التى توفر بطانتها مادة ثمينة للكتابة .

بعد أيام قليلة فقط حدث استعراض، تدريب من الواضح أنه قد تكرر كثيرا، فقد اندفعت إحدى فرق البحث إلى داخل الفناء وانتشرأفرادها فى كل اتجاه فتشوا فى كل شق، وتفحصوا الأرضية، وقلبوا الأسرة، وهزوا فتحات الشبكة. كان الفناء صغيرا جدا فملأوه بدون جهد. كانت أحذيتهم تدوس فوق جلدى حيث كنت أقف خارج الباب مباشرة وأراقب. كان بوليفيموس يعطى التعليمات لكن التدريب كان يتم تحت اشراف عيون وادعة لواحد من كبار الضباط. لكن مهمتهم ليست فقط هى الأخذ. انتهت المرحلة الأولى ، كونى لم أتأثربوجودهم المفسد وتهديداته وإرجاء إعادة الأوراق والمطبوعات لى، فإن اساسيات حياتى تم فحصها ، و حيث ظهر المفقود او الناقص، تم تقديمه أو استبداله. وأنا أقف هكذا مزود ب : حمام (بدون ماء) فى الخارج؛ دورة مياه، عبارة عن فتحة فى قاعدة من الأسمنت المسلح، مقعد. فى الداخل – زنزانة للنوم ؛ سرير حديد؛ مرتبة من مادة صلبة لاتلين؛ بطانية، ملاية نظيفة لونها بنى، مخدة عبارة عن كتلة من مادة جامدة، صندوق للتبول وجردل للاستعمال الليلى. أربع سيقان من نخيل الرافيا منصوبين على أركان السرير الأربعة يحملون أقذر شبكة للناموس يمكن أن تتخيلها. ومنفضة للتراب لم تستعمل ، سرعان ما عرفت، أسباب عدم جدواها فى إعاقة دخول أى مخلوق أصغرفى الحجم من غراب، أعمى، يطيربا سطا جناحيه. أما فى الزنزانة الأخرى.، زنزانة " وقت النهار" : هناك كرسى ، ترابيزة، مبولة أخرى يقصد أن تستعمل وعاء للطعام . هذه المبولة مصنوعة من الخشب البنى ورغم أنها مغسولة، فالتقرحات الدائمة فى لون الخشب تلوث كل شىء. و فى أحد الأيام جاءت اللحظة الفاصلة حين مددت يدى خلفها فإذا موجة من البعوض تهب من شقوقها، بعوض سمين فى حجم الذبابة الزرقاء، بطونه السوداء الممتلئة توحى فورا أنها ليست من دماء السجناء التى على الجدران – كل هذا الدم لايمكن أن يكون قد جاء منى.! – لكن من دم قذر فاسد وبراز. اهاجنى المشهد فهاجمتهم بمكنسة ثم قذفت المبولة والطعام عليها . فى اليوم التالى قدمت لى صفيحة كيروسين فارغة مقطوعة.

الزنازين، غير متجاورة ، لى إثنتان فى وسط زنازين أربعة داخل كوخ فى قلب الفناء المعزول. الزنازين الأخرى مغلقة بصفة دائمة. كل زنزانة مساحتها أربعة أقدام فى ثمانية. هذا البلوك هو المكان المعتاد لعقاب المساجين ، صيحات المساجين الذين يتلقون (التعذيب) ربما لا تصل إلى أحد مطلقا إلا إلى تلك الزنزانة الأخيرة المجاورة لزنزانتى. وهى أقوى الأقفاص المحجوزة للمجانين ، والمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة وكذلك من يميلون إلى العنف. معظم الذين يأتون إلى هنا لعقوبة تأديبية فى هذا الفناء سوف يأتون من هناك بأى حال. لكن هذه اكتشافات متأخرة.إن قائمة حاجياتى الحالية وحياتهم تمتد فقط حتى السقف العالى لزنزانتى (أظن أن ذلك لمنع الانتحار عن طريق التعلق) ، النوافذ الصغيرة فى مكان عال بالجدران،تنفتح فقط على أفق من الشراك الزجاجية والأسلاك الشائكة.أرضية التدريب حول الكوخ فى قلب الفناء، الوجود العدائى للحارس مفروض عليه – أوه نعم، مفروض عليه – أن يحبس نفسه فى الفناء ويقوم بجولاته الدائمة حتى يخلى سبيله. والمعرفة العميقة بالعزلة غير المنتهكة حرمتها التى تأتى من رؤيتك لنفسك تحت رحمة قوى مجهولة لاترى وجهها.

أعترف ، وأرحب بداية بعملية الإنسحاب ، تنشيط عادى للعزلة المفروضة بفعل غريزة العزلة الذاتية . فأنا أولا وقبل كل شىء أجد أن جسدى يرفض كل الأشياء، عملية لم تحدث أثناء وجودى لمدة شهور أربعة فى لاجوس. فالعكس حدث تماما فى لاجوس، حبث تأقلم جسمى لمحيطه، واكتسب إيقاع السجن، تقبل واستوعب الضغوط ، والأصوات، وتلمس الأشياء وتحسس الطعام.إنه يتفاعل ضد الأشياء التى تثير اشمئزازى عادة.: القذارة والرائحة الكريهة، الخيانة بين المساجين، وقسوة الحراس. لقد انزلقت أنا الى حياة السجن كواحد يغطس فى مجرى ماء، عنصر غير طبيعى لكنه أحد العناصر التى يجب أن يتأقلم عليها. العكس حدث هنا. إننى أرفض كل شىء، ولا أدخل فى أى علاقة. فالجسم يرفض الأشياء واحدا وراء الأخر. حتى الرقاد ، لا يشتمل على أى علاقة. وحين أمشى لا أشعر أننى ألمس الأرض.العملية تتسارع نحو الآكتمال الكلى. الحقيقة قتلت وتم دفنها مع ذكريات الماضى. الكلمات تلعب جزءا فيها، تقوم بتنويم

العقل وتخدير الجسم. ، عندما فتحت آخر بوابة مثلا،،وجدت أننى أعددت دورة من الكلمات دون هدف . فهى تعيد نفسها مرارا وتكرارا حتى يأخذ عقلى الواعى مذكرة بهذه التعويذة فى نهاية المطاف . إقتباس من كتاب نسيناه منذ زمن طويل.أو فقط لأن أصالة العقلية المبدعة مهما كلفها الأمر تختلف عن هذه التيمة المألوفة: هل كل من يدخل هنا يفقد الأمل ؟ لابأس ان يمضى هكذا وفى لهجة رنين الأجراس: فى زمن الشر جئت إلى مكان الشر هنا جاءت بى أيادى شريرة ومن يعلم فقد أقع فى الشرداخل هذا المكان الشرير... ثم تدور الدائرة مرة ثانية . الآن فبعد عدة أسابيع فقط، سوف أعترف أننى نقشتها على باكية آخر بوابة حين وضع بوليفيموس قيضة يده على القفل الضخم بين كفيه الخانقتين وانفتح الباب على جهنم.

كل الأصوات تدق الأن ، ليس ضد جدران الفناء الشائكة ولكن ضد جدران الزنزانة. أما أنا فقد بدأت أنكمش داخلها. لقد ساعدنى فى هذه العملية ، أمبروزو، الذى يعذبنى جدا. بعض الحراس يختارون لحراستهم غالبا محيط الفناء، يمشون فى تؤدة داخل الجدران يؤدون واجبهم بإلقاء النظرات على الزنزانة فى حال مرورهم أمام الكوخ. إلا أمبروزو. فهو يمشى مباشرة على المدخل المرصوف للكوخ. ، يستدير عند النهاية ، ثم يمشى إلى الخلف مرة ثانية. شخص لقيط . من هو السجين، أنا او أنت؟ شىء واحد لم أفعله، تجنبت عمله بمنتهى الدقة هو المشى بخطى وئيدة. كما أن، حذاء لمبروزو ذى المسامير الكبيرة الرأس التى تدك الممر جيئة وذهابا – أرفض النظر إليه ، أو أن أراه ،أن أعترف به – خطوته عسكرية ثقيلة، رتابة خطواته الوئيدة وهى تضرب فى عقلى تجبرنى، وأنا فى وعى الآن، أن أسرع خطواتى فى الانسحاب الى الداخل. ليس هناك أى حماية أخرى. لكن ذلك يعنى أيضا أن خطوط الدفاع الخارجية قد تم التخلى عنها. حتى تلك الأصوات البعيدة لم تعد تدق الآن على جدران الفناء ، ثم على جدران الزنازين كما كانت من قبل ، ولكنها تدق مباشرةعلى جدران العقل، فتفقده اتجاه الرؤية ومنظورها. أقرر أن هذا الإختيار الأفضل. دع العالم الآن يركز على شخصى . أمبروزو بخطوته الوئيدة لايزال، الكبسولة لم تكتمل بعد ، ولم يشح الهواء ، المقاوم للعذاب بعد . يغمرنى هياج شديد وأعرف أننى أقترب من العنف أو الاستسلام. يمكننى أن اطلب بأسلوب رقيق أو أأمره بغضب أن يتحرك بعيدا. هناك فرصة متساوية لنجاح كل من الأمرين بسبب شىء ما أصبح واضحا بالنسبة لى فى هذا المكان- فأنا لاأعرف ماهى المعلومات التى أعطوها عنى للحرس أو ماهى الأراء التى يتمسكون بها فيما يعرفونه عنى لكن هذه الحقيقة واضحة الآن : إنهم بدون استثناء يقفون فى خوف مؤكد منى. حتى أنهم لن يترددوا فى وضع نهاية لحياتى إذا تلقوا امرأ بذلك وأنا متأكد منه. هناك عامل مخبأ بعيدا فى قائمتى،لكى أستخدمه عند الطلب ومن الممكن تقويته.

بخصوص مشية لمبروزو قررت أخيرا- ألا أفعل شيئا. بل أسيطر عليها،أبعد الأصوات ، وأعتاد عليها.لا أطلب شيئا، لاأرفض شيئا بطريقة يمكن رؤيتها. لا تكشف شيئا، مما يؤثر فيك. لاتظهر االسرور ولا الألم. لا. الانفعال ولا إشمئزاز. إبنى كبسولة الوقاية الذاتية ، بهدوء ، دون أن تترك أثرا لقبضة يد لكى يمسكو بها. أرسم بالألوان ابتسامة لا تتغير على هذه الكبسولة ودع عقولهم الفاحصة تقارن بالفراغ .

لكن لازال الماضى يعترض. وحيث أننى قتلت الماضى المهيض الجانب. – الحب، العلاقات، ذكريات التحقق الذاتى الأصيل.- إن الحوادث القريبة هى التى تكسر غلاف الكبسولة الواقى، ضاغطة على هبات الغضب التافهة والأبواب المفتوحة لإعادة تجريم الذات. مثل هذا المزاج يعرى نقطة الضعف ويعرضها للتعذيب .لقد شرعت فى الاختيار الوحيد، لكن عامدا. بدأت فى إحياء سلسلة الأحداث بالكامل حتى زمن حدوثها وإن كانت من الناحية الكمية ليست مضبوطة بدقة. فى الواقع من الصعب أبدا. فالأفكار، والذكريات ، تبرق خلال الذهن بازدراء كبير للصداع القاتل، التخطيط ، والإنتظار، والاستنتاج ، والتوصيات. فى وقت النشاط. مرارا وتكرارا أضغط على الفرامل: لديكم الوقت كله فى العالم .أيها الحمقى. إن إعادة إحياء قليل من الشهور التى مضت يعنى طمس بعض الشهور القليلة فى مستقبل فارغ. إننى أعترف ببطء، أن هذا سوف يصبح هو نمط الحياة . اضبط هذا فقط يا كرونوس! اضبط الأنقاض أو االذكريات فى مياه بحيرة

ليثى. قليلا فى كل مرة. اجعلها تطمس الواقع الحقيقى لهذا الزمن الحاضر. إن التورية تسلينى رغم أننى أنكمش من ارضية الأسمنت المسلح .

الماء هو الاستثناء الوحيد الذى لايرفضه جسمى. سواء مطر من السماء أو متجمد أقف تحت أنبوبة بلا دوش وأضع نفسى تحت ضغط خرطوم المطافى .بعد التنظيف ، أظل وحيدا فى فترة بعد الظهر وقوس قزح فوق رذاذ الماء . هناك موتور تيربوصلب يدق ارضية المسلح بضربات نفاثة - ثم إن أقدامى لا تنكمش من الأرضية. لكن بعد ذلك ، أمشى مشية المريض البطىء نحو الكفن.

الفصل السابع عشر

خنزيرهمجى شرير!

ليس هناك سقف للغضب. لاشىء سوى غضب هائج مترهل. تعبت لاأستطيع أن أصدق ...إن أمثالك من الحيوانات يمكن أن يكون موجودا؟ هل تنتمى أنت لنفس النوعية التى تدعى أن لها أرواح، واحساس وتفكير؟ ... انتهت اللعبة الثلاثية القذرة الآن، أصابعى تسد أذنى- جهد لاطائل منه فى أى الحالات؛ هذا السعال العميق القذريحطم جميع الحواجز المانعة للصوت. لاشىء يقاوم هذا المجرى الكريه حين يهىء نفسه لعملية النظافة. بمعدل ثمانى عشرة مرة فى كل نوبة. إسمه سهل – هوجروس. ببطء تستقر المعدة ويتوقف القىء. ثلاثة شهورمضت حتى الآن ولم أتعلم كيف أعيش معه. أعرف أننى لن أفعل.

أحيانا يعطى إنذارا. فأسمع يده الجربانة تدب فى جردل اطفاء الحريق وبعد قليل ، أسمع صوت الماء يتدفق وهو يتجول فى فمه المبطن بالكولا.هذا هو الوقت التى تطيرفيه أصابعى لكى تسد أذنى. ، وبطريقة لاتفشل،كأن كل الضفادع صارت واحدة وأن ذلك الضفدع المثير للغثيان قد انحشر زوره.- اااارغغ!- يتحشرج - ثم يضرب الحائط بكتلة البصاق.

هذا الرجل ، هذا الشىء له أسرة. عنده زوجات، وعنده أطفال، و أكثرمن بعض الأسر الأخرى عنده من يعولهم ويحترمونه ويقولون له يا بابا ..بالتأكيد هناك أصدقاء يزورونه وهو يزور جيرانه.إنه يرتاد الأماكن العامة ، يقف بين أى تجمع ويحملق مستغربا فى غموض، قد يقضى يوما فى إحدى المناسبات الاجتماعية ،أو أمسية فى حانة عامة ،فيضيف واحدا ألى الوجود الفارغ للآخرين فى مئات من الأفعال الشريرة. فهل يصدرعنك هذا الصوت الخنزيرى فى كل هذه المناسبات وبين أى نوعية من الرفاق؟ نعم أنت، أيها الخنزير، حنجرتك المخلوطة با لأسمنت المسلح ،تتقيأ الملاط وخبث المعادن والروث اللزج.

على بعد أربعة ياردات هناك كتلة من مادة غروية تضرب حافة البالوعة،نهاية باكية ملطخة تبدأ عند الفتحة وتنتهى عند االمسند!عادت الحشرجة الى حنجرته لينذر العالم بأنه سوف يقذف من فمه كتلة أخرى من بقايا ثمرة الكولا. يخطو، يجلس، يتكلم من خلال ثقب الباب الى زميله الحارس على الجانب الآخر ، حتى حين يتعثر فى جردل مقلوب على الحائط، ينفتح مصب كثير من الألوان على مصراعيه، بثرة أسنان مسوسة ، عليها فطريات لونها أخضرمصفر ، سقف فمه المطلى بالكولا يختفى فى فتحات سوداء داخل وعاء زنخ الرائحة ، فى مكان ما فى وسط جولاته الميدانية هناك جديلة من عروق الكولا التى تبطن المطحنة الدائرة فى حنجرته على هذا البلاء الفظيع، فى أعقاب ذلك تبدأ شبكة ثلاثية لإلتقاط الكولا و قذف التراب الأحمر فى وجه العالم. إنه لا يستيقظ. فالشخيرالمصاحب لا ينقطع .

رقبته توأم رقبة النسر، توأمان متطابقان، جلد رخو ذابل وملطخ. قد تحتاج الى قليل من الوقت لتضع حدا لهذا البلاء لكن- كيف يعيش الإنسان بعد ذلك مع هذه الذكري ويشعربأن له صلة بذلك الآدمى، مهما كانت قصيرة ? ليس لى أذرع زائدة لهذه المهمة. فطالما أنك متروك بلا اختيارفيمكنك أن تحك جلدك حتى يتقشر .لديك وقت طويل لتنمية جلد جديد خلال حياة كاملة تقضيها فى السجن. فلو تم شنقك لن يغير ذلك شيئا.فإذا كتبت لك الحياة، حك يديك حتى تدمى واجلس فى الشمس حتى تحترق كل الصلات. على ألا يتكررهذا من أى حارس لنزيل وحيد أن يبتليه بهذا القرف فى وقت حراسته. مات هوجروس. وظهروهج جديد فى الكون. أشعر أن السجن يقيم احتفالا. المشكلة هى كم فردا قتل كل واحد منهم.لأن هناك أخرين.كل منهم، بدون استثناء قد طور من طريقة تحرشه. إنها تتم عبر الصوت لأن السرداب عبارة عن غرفة تردد الصدى.عند ارتفاع الصوت وانخفاضه يأتون الى المستودع ،إلى مكبر الصوت المؤذى. من حمأة القنوط نسمع أنا والسرداب صرخات المعذبين ، بكاء الذين يجلدون،نباح ذئاب فى سكون الليل، ديالوج بالتمتمة بين زوار من عالم الروح غير مرئيين لنا.وكذلك وقوقة الضباع المجنونة. وباستخدام هوائى على الطرق السريعة تمرالأصداء الى داخل النفق أو السرداب وقد تضخمت مائة مرة ، ثم تطن فى حجرات العقل متضاعفة ألف مرة.

البذار عدو آخر. لا،ليس البذار مباشرة بعد هوجروث . خذ كاليبان، قليل من الراحة .

كاليبان،أنا لم أره أبدا. فعلى مستوى الرؤية ، سيبقى سرا.لكننى أعرف أن له ساق ونصف. او ثلاثة. ساق واحدة بالتأكيد هى طول الأخرى (أو وزنها) مرتين، ضرباتهما غير المتساوية على الأرض لاتخطئها الأذن عندما يدق أثناءجولاته الليلية فى فراغ رأسى. فهويجر قدميه فى البداية ثم تأتى طرقات عنيفة بعد ذلك .فى سكون الليل،مع إيقاع طرقاته الثقيلة الوقع يمر طيف من الرائحة الكريهة ثم يعاود المرور. إنه بخار الخميرة فى أقصى حالات التخمر، مع مرور طيف من البق النتن فى زيت رخيص الثمن كريه الرائحة-

هل يملك حرية التصرف بحيث يخفى رائحة الكحول العفنة؟ كاليبان يتعاطى نوعا من الدواء لايعرفه الانسان ولا الحيوان وامتزاج زفراته مع الرائحة تملأ الزنزانة أثناء مروره فى جولاته القصيرة.

كاليبان يغنى. فى هدأة الليل ، على إيقاع طرقاته العنيفة ينفجر كاليبان فى حديث بنفس لغة خطواته الواسعة- مقاطع متبادلة من ترنيمة حزينة لإبطال زعم فى داخل نفسه أولا ثم فى تحدى طائش للسماء .السماء ترتاع بتهديد أنفاسه القوية وتظل صامتة. من الركن البعيد فى الفناء يأتى صوت جديد يمزق الصوت الأحادى للقصيدة الروحية التى ينشدها كاليبان .إنها معركة رداء المطرالذى يغطى كتفيه إذ اشتبك مع صفيحة االماء او وقع فى مرمى شجيرة الليمون. تستمر المعركة وقتا طويلا ، حيث الكفاح صامت فى البداية ثم تنتقل كلية بسبب الاهتزاز العنيف للشجيرة أو وعاء صفيحة الرى و يظل كاليبان يبحث لحذائه عن مكان أكثر ثباتا على الحصى الخادع.ثم تقحم اللعنات ،تضغط مجبرة من أعماق روح كاليبان المعذبة . خطوته الطويلة المتقطعة الإيقاع واحد اثنين تتسع الآن الى خطوات انزلاقية و ينقض الوحش الآن ، ورغم سكره الشديد فهو محلل دقيق لتصرفاته إذ يطوى رداء المطر ثم يتوقف لبضعة دقائق ، و فى النهاية يقتنع بان الهجوم المفاجىء هو أفضل وسيلة ،فيقفزالى المناظرة بوابل من اللعنات الساحقة.

ينجرف النوم عائدا مع هجوم الليل،لكنه يرغم ثانية على التراجع. قصفة عنيفة ترد الهواء،قطعة من قماش القلوع ترفرف بعنف فى مهب الريح .إنه كاليبان مرة أخرى.لقد انفكت العباءة من فوق كتفيه وأخذ يهزها الآن ويفردها لكى يؤدى صلاة الخامسة صباحا. ترتيله منغم لكى يصل بأقصى قوة للإله على الجانب الآخر من الكون.إنه يحكى لمسبحته بنفس قوة الصوت ، يشد قطعة القماش عند نهاية الصلاة.يركل الجردل برجله مرة أو مرتين،عمدا، اعتقد أنها ركلة الانتصار، ثم يستأنف تجواله حتى وقت راحته. كاليبان لاينام أبدا. ولا أنا أيضا عندما يقوم كاليبان بدورية الليل.

الفصل الثامن عشر

لقد تغلبت على وقع أقدام أمبروزو ولكن يواجهنى الآن تهديد صوتى جديد؛ يثقب الكبسولة،ويهدد بتمزيقها إربا . كيف بقى هذا الصوت طيلة هذا الوقت دون أن نلاحظ ، إما أنه إشادة بقوة الأمبروزيين فى التعذيب، أو بقدرتى سابقا على الاستبعاد. لأن التعذيب الصوتى ظاهرالآن وهو شىء لم يحدث من قبل.

هذا الصوت يصدر عن المراقب الأكبر الذى يتبعه خمسة أو ستة من الموظفين بمافيهم بوليفيموس وعسكرى صغير السن يقوم بنوبة التفتيش الصباحية. يندفعون جميعا إلى مجال الرؤية،أما هو فقد وقف فى مواجهة الإطار المحاط بالحوجز،فحجب الضوء، فى حين أن الآخرين يقفون فى الخلفية خارج بؤرة الضوء. أنا أستيقظ فى موعد لايتغير قبل الظهور الفعلى للشبح ببضعة ثوان ، أنطلق حيا على صوت احتكاك الأحذية الذى يستدعى الإنتباه والترباس يمرق من فتحته فى بوابة الفناء بصوت وحشي.

كل شىء هادىء حتى الآن. لا أرى، لاوجود لى- نعم أعتقد أننى قد أفنيت كيانى كما أفنيت البيئة المحيطة . إحساس غامض عائم وكل ما بقى فراغ وقتل للوقت. لوحدث وأمكن أن يصير العقل خاليا تماما كورقة بيضاء، فهذا ما فعلته أنا حقيقة.وذلك بدافع الضرورة، بدافع معرفتى الغريزية بالوسائل اللا زمة للبقاء.أما الطعام ، فمجرد عمل روتينى.

أعترف أنه ليس له أى مذاق. لا أشعر بسرور ولا اشمئزاز. لا علاقة جسدية أو حسية ، لاتوافق مع جسدى ولا اعتراف من عقلى. لقد سجلت نظام غذائى عند نقطة محددة، أدرإلى جسدى التعليمات – كل هذا،كله دائما. وارفض هذا، فجسدك يمكنه الاستغناء عنه. فأنا آكل ألبرتقال ، متغلبا على كراهيتى للبرتقال.إننى أكره الحامض اللادموى الذى ينبجس من القشرة ، لقد سئمت طعم البرتقال ذاته. إنه ليس مثل اليوسفى،
اوتاد شمسية نحيلة فى الفم.أوفاكهة العنب.لايشبه الكثير من الفواكه الأخرى ذات الصفة ولا حتى مثل حبات المانجو اللزجة ولعلنى لم أزعج نفسى بأكلها، ولكنها فاكهة لها مذاقها المميز الذى أعترف به.لكن البرتقال هو الفاكهة المعتادة ولحمتها العادية تحتوى للأسف على قدر غير مضبوط من فيتامين س. ذلك ما أتذكره كثيرا، لذلك أقول كل برتقالك ! هذا ما أذكر نفسى به مرارا وتكرارا ، فهنا ليس المكان الذى يجب أن تمرض فيه.

لكن العدوى تواصل تهديداتها لعقلى من كل جانب،والتنوع الصوتى هو أسوأها.وعلى هذا البلاء الجديد ، صوت المسجل الثابت، استيقظت ذات صباح عاصف- صباح الخير كيف حال اليوم كوك كيف حال اليوم كوك... أحاول أن استيقظ ، وأنا أعرف أن هذا الريكوردر كان يعمل منذ أسابيع. وجه نحيل مخادع يطل من الجانب الآخر للحواجز،إنه المراقب الكبيريقوم بجولاته، إنه لايفتش عن شىء ،ولا بقوم باصلاح أى شىء، قوى النفوذ بدون قضية لكنه يستفزنى بقوة(يجعل أسنانى تصطك) – صباح الخير كيف اليوم صباح الخير كيف اليوم كوك صباح الخير كيف اليوم كوك.

مثل الأمس أيها اللقيط، ومثل اليوم الذى قبله. ومثل الغد والأيام الطويلة بعده يا أيها اللوح عديم الإحساس. لقد أعتدت النهوض من فراشى بمجرد أن يفتح الباب،
باب زنزانتى ذلك ما أقصده ،أضف إلى تمدد الزمن تلك الساعة الإضافية التى ماتت قبل ذلك نتيجة لرقادى بلا حراك فى الفراش، بلا عمل، بلا احساس ،تاركا دخان النوم يتبعثر ببطء فى حينه، ينساق ثانية بعيدا ويؤخرالصدام بالجدران ، والحراس، والطعام ، والرياح وحتى ضوء الشمس.تقصيرساعات النهار. أنساق بهدوء إلى تلك التمرينات الخاصة بإنقاص الوزن ، ففى جو الحرية، يمكننى أن أتدرب بطريقة آلية على الاسترخاء لبضعة لحظات قليلة .لقد أعتدت على النهوض مبكرا، وألمشى بعيدا عن توترالانتظارلتحية طائشة يمكن التنبؤ بها. فى الهواء الطلق أحس أننى أقل قابلية للتأثر إلى حد ما.

خطأ تكتيكى. وأنا فى الفراش تنكتم الصرخة فى شرنقة الجسد المسترخى ، اليمين الذى أقسمت عليه عند تراجعى مشمئزا دون رد التحية فشعرت وقتها، كما لوكنت أتسلق جدارا. أى ضوضاء أحدثتها فى البطاطين أسعدته كثيرا بحيث أنه لم يتقبلها كاجابة مقنعةعلى استفساره. كانت تتغيركل يوم :من عبارة "

النمو فى وقت الغروب " إلى " مثل حركة جدتك البطيئة" .سواء كانت إجابة مكتومة فى البطانية أو المخدة فهى نفس الشىء بالنسبة له. كنت أحمقا حين تخليت عن ميزة الرقاد. والآن يطل علينا بوجهه النحيل فى ثلاثة أبعاد فى الهواء الطلق،لم يعد كارت مسطح من الورق المقوى، أو مضغوط على الحاجز ، مع عودة التوترعند رؤيته وفى انتظارللتحية كان على أن أحارب إغراء صفعه على وجنتيه بكفتى يدى فى الحال. ذلك لأن لدى هذه القناعة المتنامية،إنه إذا تمكنت من القيام بهذا الهجوم،فسوف يتبطط وجهه ويتحول الى قرص بين يدى . أود أن التقط القرص وأهشمه على الحائط، مسكتا هذه الخدعة السخيفة نهائيا. إننى أهرب عائدا الى ملجأ الفراش.ويستمر الاضطهاد.إنه إعصارهارماتان وليس فى استطاعة رجل عاقل أن يأخذ حماما قبل منتصف اليوم، لكن يبقى أمامى الآن هذا الدفاع فقط. فأجمع ، الاسفنجة والصابون وأهرب الى منطقة التجمد المحظورة فى الحمام المكشوف. وعندما أسمع طرقات عكازه المتجبرعلى البوابة أفتح الحنفية. ارتعاشة تحطم جسدى وتيار من الماء المثلج يكسر جمجمتى . لكنه الأمان .

لنعد إذن لإصلاح الكبسولة .السلحفاة تسحب قرونها، مغلقة فتحة النهاية فى الغلاف بلعاب متجمد. خنزير يتدحرج فى نوبة شتوية من فقدان الذاكرة.قد أتجاهل سقوط الأوراق، وذرات الشمس وحتى بلورات البرد . لكن ليس إسيكا.ليس هذا الإعصارالشمالى الناهش للجلد.ليس فى زنزانة لها حائط واحد عبارة عن باب نصفه الأعلى مفتوح تماما باستثناء حاجز نصف بوصة . وهذا الإعصار يجعل منه لاشىء حتى نصف الحائط الأسفل. فقطع اخشابه بها ثقوب يصل عرضها بوصات تسمح بالإختراق الجشع لخبث الريح وغضبها الهائج. بالنسبة لعاصفة هارمتان فإن السرداب هو أعظم مصيدة تم بناؤها. فالريح تقذذف بنفسها من حائط إلى حائط، تضرب فى الكوخ وتهزه ، تعوى وتئز بالتناوب كآلة جهنمية توازن بين الانفجار والزأير فى الفضاء . أسمعها تتجمع فى الممر مباشرة خارج زنزانتى، تتوقف هناك ثم تعيد تجمعها ، تبدأ هجوما جديدا فى اتجاهات متزامنة تمزق أوعية دمى، تجفف عظامى والنخاع. حينئذ وتصير الزنزانة عندئذ مركزا للعاصفة ، تصب الريح فى كل شق وصدع، متصاعدة الى درجة لا تحتمل من ضغط الثلج قبل أن ينطلق من خلال الحواجز المفتوحة ومن نافذة السقف العلوية . تستمر دورة الريح أثناء الليل. يتميز النوم أثناء وقفاتها بحلم واحد فقط.إذ أرى نفسى وقد طلي جسدى بطبقة زجاجية من الجليد وأنا فى أحد العروض السحرية حيث تطوعت وقدمت نفسى بطياشة لكى يتم تقطيعى إلى قطعتين بمنشارالسحرة الذى فقد أعصابه ثم فر هاربا واختفى. الصراخ أو الإيماءة بعين تتدحرج طلبا للمساعدة، فيندفع بعض المتفرجين الى خشبة المسرح ويهاجمون النهر الجليدى بالمطارق. فاصحو من نومى على طرقات إسيكا فوق صدرى .

صباح الخير كيف حالك اليوم ياكوك ،صباح الخير كيف حال الجو البارد! أحتاج إلى بطانية إضافية.ماذا؟ كم بطانية حصلت عليها؟ واحدة . ماذا؟ واحدة فقط؟ إلتفت إلى بوليفيموس. ياريس ، سلمه بطانية إضافية من المخزن . المخزن؟ نعم، أظن أنه لدينا بعض البطانيات. سوف أسلمه اليوم.

إنها المرة الثانية .أفكر،إننى كسرت قانون البقاء الخاص بى.الأولى كانت حول ناموسية السرير.فقد أزعجنى حقيقة نهر الدم اليومى فوق ملاية السرير المتدفق من أسراب البعوض التى تهب على من أركان الزنزانة كلما جدث شىء يزعجها فى وضح النهار. تلك المئات من البعوض السمين الممتلىء بالدماء. فقررت أن أطلب ناموسية صالحة للإستعمال.كان جدالا بينى وبين نفسى سعدت بالفوز فيه. استمع،هكذا مضت الأطروحة،فى البلوكات الأخرى هناك مئات النزلاءوسوف يتقاسم البعوض معهم هذه الكمية من الدماء،كل نزيل سوف يحظى باهتمام أربع بعوضات على الأكثر. أنت على العكس منهم ، تقف وحدك فى هذا الفناء ولك مائة بعوضة على الأقل.لذلك فإن تطلب ناموسية للسرير فهذا ليس امتيازا بل ضرورة .فإذا

أنكروا عليك ذلك، فهذا هو الظلم بعينه. لكنهم لم يرفضوا. وحصلت على ناموسية لم تكن نظيفة فقط بل بها ثلاثة ثقوب، قابلة كلها للإصلاح.

هذا الانتصار البسيط إضافة إلى سكاكين إعصار إسيكاجعلنى أشدد عزيمتى على طلب بطانية. مضى أسبوع ولم تصل البطانية .لقد ذكرت بوليفيموس مرتين.لقد ظل وقتا طويلا فى سريره بسبب الإعصار.أو ربما لأسباب شريرة أخرى. فالمراقب الكبير (أوه) أثبت أنه غير ملتزم دينيا بنوبة التفتيش الصباحية كما كنت اعتقد من قبل. لم أعد أراه. فمساعده يقوم بالواجب بينما يظهر متلفعا حتى العينين بالبالطو والتلفيعة. لعله يحنى رأسه للعاصفة،ويجرى خلال الفناء، أخرسا دون أن ينطق! وفى النهاية يتخلى عن التظاهر.فهذا زمن السلم.لقد سكتت كل أجهزة الريكوردر.الحراس ملفوفون دائما فى تلفيعاتهم الكبيرة؛ لقد سمحت لهم التنظيمات الآن بأن يلبسوا سويترات ثقيلة تحت أقمصتهم الكاكى. فتجد صدورهم دون استثناء مبطنة أيضا بصديرات من الصوف، معظمها من الانتاج العسكرى للحرب العالمية الأولى.أغطية الآذان متوفرة. حتى الوثوق بهم ممن يحضرون لى الطعام وهم يرتدون الآن فنلات داخلية. وأثناء الدوريات الليلية يلفون انفسهم بالملابس مثل سكان الإسكيمو،ويلبسون سراويل سميكة وتلفيعات إضافية من اللباد. إن بوليفيموس يستعمل أغرب رداء بينهم- بالطو عسكرى ثقيل يبدو مغطى بالمطاط .للمرة الثالثة فى ظرف أسبوعين أذكره بحاجتى الى البطانية. وكانت آخر مرة أيضا .إذ قررت ألا أسأله ثانية.إسيكا لابد من مقابلتها بقمصان لها أكمام وبطانية واحدة.

ليس عندى مراهم. ولا أحذية. لدى شباشب فقط.جسدى بات كمركز معفر بتراب كورات الصقيع الجافة.لقد تحول الجلد الى قشورخشنة أو محرشفة. شفتاى وكفوف يدى،حتى بطن الأقدام قد تحولت إلى جلود قديمة. فأنا ألاحظ شقوقا ضخمة فى كعوب أقدامى وجوانب الأقدام. جسدى يستحق اهتماما جديدا وشديدا منى. شغلة جديدة فى الساعات الباقية.لم أهتم حتى الآن كثيرا بالوضع الفيسيولوجى لجسمى،ماعدا أحاسيسه. لقد أصبح منطقة تضاريس أرضية غريبة حيث يتقشر كل جزء فيه بمجرد حكه. هناك كاللوعلى كل كعب من كعوب أقدامى سمكه بوصة. حيث أخذت التشققات تظهر.إننى أنتزع حلقات من اللحم الميت ،ضوافرى تتكسر فجاة أثناء هذا الجهد. الشفاة تؤلمنى وتنزف دما ، بدأت شقوقها تزيد من حصاد النتف أو الشطرات الرقيقة .إننى أدعك يدى معا دعكا خفيفا وحالتهما الثابتة تمغنط شذرات من أوراق التواليت، الشعر يتقصف بجنون بمجرد مرور مشط فيه.

تعانى عيناى من البرد والتراب.لقد أصيبتا برشح دائم وأخشى أن تكون العين اليمنى قد أصابها ضرر.سوف أقتنع أنها بدأت تفقد الرؤية وأتساءل،هل سيصبح المونوكل مسليا إذا اضطررت إلى لبس نظارات ؟ ليس هنا،رغم وجود فرصة كبيرة لذلك. طلبات زيارة الدكتور يستقبلونها بإيماءة بالرأس.تفسر بالقول،" تم تسجيل الطلب" وفيما بعد أخذوا يستبدلونها بضجرواضح.لقد جاءت الممرضة ذات مرة ، رفعت يديها وهزت كتفيها.

اللعبة مع جسدى أصبحت تشعرنى بالملل والضيق.يعرف جسدى الآن بأن لمسة من وساخة القميص تثير اشمئزازى لكننى لاأجرؤ على أن أطلب منهم غسله إلا إذا أشرقت الشمس ثانية. لدى اختياروحد هو : إما أن استمر فى أخذ حمام بعد الظهرحتى فى مرحلة ضعفت فيها حرارة الشمس أو أن أغسل القميص وأبقى فى الفراش طول اليوم حتى يجف. أحس عقب الحمام بحاجة شديدة لأدفىء نفسى بكل الملابس.وأنا ليس لدى سوى قميص فقط وصديرى به ثقوب فى حجم تلك الثقوب التى كانت فى الناموسية التى رفضتها. فأنا يمكننى أن أخاطر بغسل الناموسية ، لكن القميص يمكن أن يخدع الريح ؛فإذا لم يجف فى فترة بعد الظهر فسوف أكون تحت رحمة ربة الثأر.

أشعر بأحاسيس غريبة فى جلدى.إذ وصل الى مرحلة الجفاف التى تجعله يتشقق بطريقة مؤلمة. تحدث هذه العملية فى الفراغ الخفى من الظهر.وهذا يعنى أنه لايجب أن أقوم بأى حركة مفاجئة. التمدد يجب أن يكون بطيئا، ويجب ألاأقعد فجأة ولا أنحنى مطلقا. يجب أن أتحرك حتى أسمح بتشقق بطىء.أتعلم الدرس ببطء ،عن طريق وخزات تذكرنى من وقت إلى آخر.أصابعى صارت كنتوءات غريبة بارزة، متيبسة المفاصل،تحتاج الى تليين وملاطفة حتى تؤدى عملها العادى جدا.لقد انزلق الفنجان من بين أصابعى لأنه لم يتواءم بسرعة مع وزن الماء داخله. أتعلم كيف أتحسس قبضتى بثبات أكثربسبب وجود كاللو يعوق حركة يدى..

واتتنى فكرة نيرة .جتى الآن، لا أحب الزبد الصناعى. فقد كنت أعيد دائما نصيبى منها الى المطبخ (متظاهر غالبا بأننى لم ألاحظ الحارس وهو يدسها فى جيبه ليزيد وجبة أسرته) إننى فى أمس الحاجة الآن الى نوع من المراهم قبل ان يتحول جسمى إلى جلد تمساح مدبوغ.لقد بدأت أجرب المارجرين (الزبد الصناعى) بدأت بدهن القشرة المعدية فى فراغ ظهرى ، لويت جسمى لكى أشحمها تفاديا لانشقاق الجلد المفاجىء. ثم الشفاة ومفاصل الأصابع. لا شىء ينقذ الأقدام إلى أن ينتهى الإعصاروأن تستسلم كل القشور والصدفات الى علاج المارجرين. عندما تصبح الأصابع ،والشفاه، وفراغ الظهر لينة وانسانية فى وقت واحد. أشك فى أن تكون ، كجلد مسلوخ.فى مدة أسبوع ثانى أحصل على جلد ناعم يثير الحسد ، جلد ينتظر أن يقوم كشاف عبقرى باكتشافه- ثم – ويتعاقد على إعلانات عن أحدث كريم للتجميل ! هذا الجلد... أيضا.. تفوح منه رائحة فظيعة .

الفصل التاسع عشر

جاءنى العسكرى الصغيرذات صباح وتحت إبطه مجموعة من شرائح الأوراق غير المرتبة وهى سمات الروتين البيروقراطى.

" صباح الخير يا سيدى، لدينا بعض الاستمارات نريدك أن تملأها" ابتسامته تشى بمن يحمل أخبارا سارة . انتظرته حتى يشرح الأسباب التى جلبت هذه البهجة الى نفسه البرينة . ناولنى ورقة واتسعت ابتسامته حتى برزت أسنانه أكثر. "على الأقل لن تجد ما يدعوك إلى القلق على أسرتك .لاشىء يرعب أى رجل اكثر من انشغاله بمشاكل أسرته."

امسكت الاستمارة بشك غريزى نابع من كيانى.إنها تطلب ببساطة أن أذكر اسم المنتفع بمرتبى ثم التوقيع عليها.وأما الجانب الأخر من الورقة مخصص لاسم وعنوان صاحب العمل.

" فكرة من هذه؟ " أردت أن أعرف.

" إنه أمر حكومى. لقد وقع جوون على منشور يوزع على كل مصالح وهيئات الحكومة بأن مرتبات المعتقلين يجب أن تسلم كاملة لمن يعولونهم،حتى المؤسسات الخاصة وشركات الأعمال.يجب أن تدفع مرتب كل معتقل."

" والذين يعملون لحساب أنفسهم"

" عفوا؟ "

" الذين يعملون لحساب أنفسهم،من الذى يدفع مرتباتهم؟ من الذى يرعى عائلاتهم؟"

حملق لمدة طويلة حملقة بلهاء. واخيرا قال" حسن نحن لانعلم شيئا عن ذلك" كل ما نعرفه هو أن المنشورقد تم إرساله للجميع وقد وصلتنا هذه الاستمارات لنملأها. لماذا تقلق بشأن هولاء الذين لا وظائف لهم.إن أسرتك هى الشىء الرئيسى؛ والإحسان يبدأ بأهل البيت."

" فى لاجوس " شرحت لهم ،" أننى فى زنزانة بأحد البلوكات معى كهربائى يعمل لحسابه، وبعض الفلاحين ، وصغار التجار، والمحامين، ثم زعيم عصابة ، وبائع، لنذكر فقط هذا العدد القليل. هل سيتسلم هؤلاء والألاف من أمثالهم فى كل السجون هذه الاستمارات.؟"

" بالتأكيد، يجب أن نوزع هذه الاستمارات على كل نزيل.هذه توجيهات المركز الرئيسى" قلبت له الاستمارة وأشرت الى الجزء المخصص لتدوين اسم صاحب العمل وعنوانه، " ماذا سيكتب هؤلاء الأشخاص فى هذا القسم؟ ألن ترسل هذه الاستمارة الى الخانة الفارغة المخصصة للعنوان.؟"

" نعم"

"لذلك اسأل ما الذى يكتبه هؤلاء فى هذا الجزء.؟ من يرعى عائلاتهم؟"

خلع العسكرى الكاب لكى يهرش رأسه. وأخيرا قال: " لا أعرف"

أعدت له الاستمارة .عدم مصداقيته كانت واضحة.

" ألن تملأها، يا مستر شوينكا؟"

" إن جوون ومستشاريه لايمكنهم أن يتمنوا إبعاد العدالة بهذه الرشوة الصبيانية الواضحة"

" لكن أسرتك يامستر شوينكا! أرجوك،أن تفكر فيهم. كيف يدبرون أمورهم بدون هذا ..."

" لاتقلق لأنهم لن يجوعوا. إن لنا أصدقاء ونحن أسرة كبيرة وزوجتنى لديها عمل"

" حتى لو كنت روكفلر، ياسيدى، فالمال هو المال. "

" ليس دائما. أو على الأقل هناك شىء يسمى مال الدم البارد.او خذ واسكت.هل سمعت عمرك هذه العبارة؟ خذ واسكت.إنها تعنى أنهم يدفعون لك حتى تسكت.أو يجعلونك تشعربالرضى عما يقع عليك من اضطهاد."

" أنا لاأوافقك ياسيدى.هذا المال ليس مالهم. إنه مالك أنت. مرتبك الذى كنت سوف تكسبه لولم يضعونك هنا، رغم أنك لست مجرما. فعلى قدر علمى أستطيع أن أرى الفرق بين المحكوم عليه وبين المعتقل. لوأنك كنت مداناً لفصلوك من وظيفتك.لكنك مازلت رئيس قسم بالجامعة. ومن أجل هذا ، يجب أن يدفعوا لك .هذا ما تقوله الحكومة."

" أنت مخطىء .فحتى لو اتسع أفق النظام ليشمل كل واحد هنا فما زال هناك الغش الأساسى. فما الذى يعطيهم الحق لكى يمارسوا الاحسان بالمال العام فى الوقت الذى يحناج الوضع فيه الى العدالة."

لقد تمسك غاضبا بالحرص على مصلحتى،

" سيدى،إذا لم توقع هذه الاستمارة الآن فإن أسرتك سوف تعانى بلا مبرر".

" أكدت له من جديد ،وأنا أنهض واقفا بطريقة غريبة منفصلا عن ذات مغايرة ارتاحت تماما من الشكوك ،مطلقا العنان لقوتى الجائعة بثقة مفاجئه غاضبة " .

كل يوم أقضيه فى هذا الثقب سوف يدفع أحدهم ثمنه. عملى، وحياتى المؤجلة ، وحرمانى. يستحيل أن تقاس هذه الديون بلغة النقود."

هامش: فى سنة 1970، استقلت من وظيفتى فى جامعة إبادان لأننى كنت محتاجا لتكريس وقتى للكتابة..ولم أقدم أسبابا لذلك ، تاركا الباب مفتوحا لفنتازيا المجتمع الأكاديمى.إحدى القصص المفضلة جرت هكذا: أن يعقوب جوون أرسل تعليما للجامعة لكى تدفع لى كل مستحقاتى المالية عن المدة التى قضيتها فى الاعتقال وعند استلامى لهذه التحويشة غير المتوقعة قررت أن أحصل على عقد من هوليبود وأقضى بقية حياتى هناك فى ترف ورفاهية. ولقد علمت لأول مرة أيضا أنه بعد اعتقالى السابق ، قررت إدارة الجامعة أننى فنيا لم أتول منصبى كمدير لمدرسة الدراما ، ولهذا فليس على الجامعة أى إلتزامات مالية نحوى. حسنا إننى رفضت احسان يعقوب جوون .

الفصل العشرون

ضوء شمس ضعيف يتخلل هواء شفاف، صمت فجائى ران على المكان حال عودة المراقب العام للدخول أخيرا فى القبو (زنزانتى) أثناء هبة اعصارهارمتان يسبقه حارس يحمل كرسيين. أما بوليفيموس فقد جاء فى المؤخرة، ثم راح يحوم فى الخلفية مع تقدم الحوار.

لقد طلبت هذا اللقاء.رأيت الحياة فى كادونا إما تأخذ نمطا أو لن يكون لها نمطا. إننى أعرف عمل العقل المكيف روتينيا، فإذااتفقت البداية العارضة مع الوقت،فإن التسهيلات ، حياء العمل ، الخمول أومؤامرات السجن وموظفيه.ثم هذه البداية سوف تصبح نظاما غير قابل للتغيير.أى تحسن ممكن يجب الحصول عليه مبكرا أوإبعاده من الذهن نهائيا. هكذا اعترضت تحيته ذات صباح.

" صباح الخير كيف حال اليوم" مع ملاحظة أن يومى سوف يغدو بلون الورد لو تفضل فى وقت فراغه ومنحنى فرصة لمقابلته. فقط حين يتوفر لديك الوقت.هكذا أكدت ، فإنى أحتاج إلى ساعة على الأقل.

بعد ثلاثة اسابيع تقريبا وجد الوقت. تصورت بسذاجة أنهم سوف يأخذوننى ألى مكتبه.وبدلا من ذلك اختار لى أن أقوم أنا بدور المضيف رغم أنه سوف يحضر الأثاث. جلسنا فى الخارج ، فى جو شمس فاترة .

بدأت قائلا " عندى عدد من الأسئلة والطلبات . لكن الأسئلة أولا لأن الطلبات سوف تعتمد على الإجابات. أعرف أننى هنا منذ وقت طويل ...."

ضج بالتوبيخ : "لا،لا، لاتقل ذلك.سوف ترى النهاية السريعة للحرب وبعدها ..."

حتى لو أن الحرب توقفت اليوم فلن يطلق سراحى . أنت ترى ، أننى أعرف لماذا تم طأطيرى، لذلك هيأت عقلى لإقامة طويلة.إننى مهتم فقط بالكيفية التى يمكن عن طريقها ان أستفيد لأقصى حد بالحياة فى ظل هذه الأوضاع.أريد أن أعرف التيسيرات التى يمكن للسجن أن يقدمها لى. الكتب مثلا. ماهو موقفكم بخصوص الكتب؟"

واصل كلامه قائلا ." أنا لا أعرف لماذا تعتقد أنك سوف تبقى لوقت طويل هنا. إذا كنت بريئا تماما.."

" لا، فى وقت الحروب، ليس هناك أحد برىء تماما. لكننى برىء من التهم المنسوبة لى. بداية أستطيع أن أخبرك أننى لم أصرح باعتراف أبدا"

" قل لى كيف تورطت فى هذه المسألة؟"

" إننى لم أتورط فقط . لقد كنت دائما متورطا .فى مايو من العام الماضى كنت هنا."

" نعم أعرف ذلك." وحين لاحظ دهشتى أوضح أن ذلك" كان بمحض الصدفة . إذ قابلت شخصا رآك فى ملهى ليلى فى اليوم السابق على أعمال الشغب التى حدثت." سألته أن كان شخصا أعرفه.

" لن تتذكره لأنه يعرفك عن طريق صورك المنشورة فى الصحف. لقد ذكر ذلك حين قرأنا خبر القبض عليك .أظن أنه قال إنه جاء الى طاولتك وصافحك."

" هذا ممكن. لقد قابلت أناس كثيرين فى هذه الرحلة. أنت تعرف ، أننا كنا نعرف أن بعض الاضطرابات سوف تحدث..."

فجأة سألنى ، " مارأيك فى انقلاب 15 يناير."

تذكرت الدفاع النموذجى . منذ مذابح 1966 بات المنهج الدفاعى ليس فقط من جانب أولئك ، الذين بحكم كونهم شماليين فإنهم كانوا أكثر المتورطين مباشرة فى ذنب الدماء بل حتى الذين اشتركوا عن طريق الاستسلام او التواطؤ.وبدورى أعطيته إجابتى النموذجية:

" هى مسالة أسىء تدبيرها.كان هناك المثاليون وكان الدافع الأساسى هوالحماس لثورة حقيقية. لكن المجموعة ضمت أيضا أولئك الذين لم تكن دوافعهم بريئة "

" هاها!بالضبط، أعنى أن كل انسان يعرف أن نيزيوجو* كان فى غاية الإخلاص.

نزيوجو. هل تحول فى قبره بحيث اصبح نموذجا لسوء التصرف بموافقة اتوماتيكية نموذجية ؟ لقد لاحظت وجود ألسنة تنزلق بسلاسة وهدوء من تحدى مباشر للإختيار ألى غايات التزلف والمداهنة الذى استغلوا اسمه لخدمتها .

قلت." نعم، العالم كله يعرف نزيوجو "*

" وأن قتل الناس كان عملا شريرا جدا. كان المقتولين من جانب واحد فقط."

" من المحزن أن يقع أى قتل ، لكنها الثورة النادرة والمحظوظة التى تتمكن من تجنب الدم.على أى حال،البعض منا رأى العواقب المحتملة لما سميته أنت على نحو صحيح القتل من جانب واحد، ذلك مادعانى إلى الذهاب الى الشمال.كنت

قائد انقلاب يناير 1966.*

مشتركا فى حركة تحاول أن تقلل من العواقب السيئة الى أدنى حد ، إذا لم يكن تجنبها تماما. لكن تم القبض على فى أعمال الشغب.إنه شىء خطير أن نعترف لأن، الموت هو شىء فردى تماما.ولا يجب أن نقيسه بالإحصائيات، لكننى شعرت ببعض الراحة إن أعداد القتلى كانت أقل مما كنت أخشى. وبعد يونية فكرنا ، أن ذلك بالتأكيد كان أكثر من اللازم."

انتظرت، داعيا إياه أن يعلق. لأنه كان يهز رأسه فقط بطريقة مبهمة سألته بدوره،

" ما رأيك فى مذابح سبتمبر؟"

كانت إجابته هروبا مفاجئا. قال،" لقد تم تحذيرهم.أنا بنفسى حذرت العديد منهم"

" السياسيون ؟"

"لا، أصدقائى من قبيلة الإيبو. معظمهم يستحقون اللوم على ما حدث لهم من معاناة .لايستطيعون أن ينكروا أنهم تلقوا تحذيرا."

كانت أغرب إضافة الى تركيبة تبرئة الذات.ومع ذلك فهو إنكارغير متعمد للنظرية " التلقائية" الخاصة بإبادة الأجناس..

تذكرت حادثا ثانيا، الأول بالنسبة لى ، كان قد وقع قبل هذه الحادثة . حدث الاكتشاف فى *عاصمة أوربية حيث كنت أحضربرنامجا لمدة شهر، معظمه كان ثقافيا. وأن الدور الغريب المسند لى هو دور. المرشح الثالث ، مرشح الحكومة. إنوارا إزيكيو كان من الإيبو.عرف أن حياته تستحق أن يحاول أن يركب الطائرة من إيكيجا. حتى أنا أعادونى الى المطارفى جو التوتر، الملىء بمناورات الحراس المنذرة بالشر ولم أتمكن من المغادرة لمدة أسبوع.

أن أصمم على المخاطرة بتجديد ذكرى هذه المقابلة التى وقعت فى المطاركان واجبا، ليس بسبب الأهمية التى أضفيتها على السيمينار لكن بسبب حاجتى الوقتية الغامرة الى العزلة بعيدا عن التوترداخل القطر.

شحنة زائدة من الإنغماس طول السنة، انكويت فيها بفقد الأصدقاء والرفاق،سنة ملطخة بالإذلال الصريح لشعب كامل بفعل طغمة عسكرية إرهابية متغطرسة، مغتصبة ، وقاتلة، أسابيع (بعد 26 يوليو) تشغيل رابط حساس فى" خط ميترو " لإنقاذ الجنود الشرقيين- الإيبو،إفيك، أوجوكا، الأنهار- وحتى بعض سكان الغرب (هؤلاء كانوا مختفين)؛والذين كان أدناهم جدا بدرجة لا تبيح لزملائهم أن يطاردوهم بدون رحمة. (نصف دولاب ملابس زوجتى ضاع فى أقنعتهم) لقد عجزت عن إجابة ورفعت الألف التماس التى وصلتنى من مدنيين لا حول لهم (غربيون، ومن الغرب الأوسط ومن الشرقيين) الذين لهم أقارب أو أصدقاء

فى قبضة العسكر ذوى الأمزجة المتقلبة، وهم يشاهدون يوميا عملية إخصاء شعب كامل بواسطة عصابة من الخارجين الانتهازيين الأشرار والقوى الغامضة. كنت فى منتصف سبتمبر 1966 فى تلك الحالة التى وددت فيها أن أهاجم دبابة مسلحة برأسى فقط من أجل ثمانية وأربعين ساعة أقضيها خارج القطر .استرجعت جوازالسفر الخاص بى،مصرا فى هذه المرة على الطيران فى وضح النهار ،حيث قضيت لحظات اليقظة فى مطارإيكيجا متظاهرا بعدم الانتباه الى قائد المطار الخاص بالأعمال المشينة الذى اتى ومعه بعض الرجال وجلس على بعد تربيزات قليلة فقط ينظر إلى بحذر كأننى لقمة سائغة ولكنها عسيرة الهضم.

كونى مرشح حكومى ربما خدعت ذلك الدبلوماسى فى مدينة---- فظن أننى واحد من رجال الحكومة، المؤيدين لنظام جوون، أو ربما أضرب المثل الأعلى فى الاخلاص من بين زملائه الصغار.إنه واحد من أبناء اليوروبا ممتلىء الجسم، كان ثالث الجالسين على مائدة الغداء الذى دعانى إليه فى مطعم الدبلوماسيين الفخم الذى يطل على أحد الأنهار، تذكرت حادثة الثلاثة أسابيع فى مدينة ---- وبقيت العبارات الواضحة لهذا الموظف التى قالهاعلى الغداء. : " " الإيبولم يستوعبوا الدرس بعد. الإستنزاف الكامل لم يتم بعد فى الخامس عشرمن يناير لكن لاتقلق.لقد جاء أحد رجالنا من وقت قريب،هو رسول دبلوماسى،وحتى قبل ذلك كان هنا وزير سابق حيث قضى يوما وتحدثنا معا وقتا طويلا. هى مجرد أيام ثم ، صدقنى،لن يزعجنا الإيبوبعد ذلك."

سألته ما الذى يعنيه ، محتقرا ابتسامة الموافقة على وجهى.

قال، " انتظروسترى.ألم تلاحظ كيف أنهم استمروا فى خلق المشاكل فى مؤتمر الدستور؟ أوجوكو هذا ! يظنون أن لديهم شكوى بسبب مايو ويونية.لم يتعلموا الدرس بعد.هذه المرة سوف يجدون سببا حقيقيا يشكون منه"

بعد ثلاثة أيام ،جاءت الأخبار الأولى عن مذبحة الإيبو.لايحتاج الأمر إلى جهد لتذكر ذلك الغداء وذلك الحوار.إن هذه الذكرى مشتعلة دائما أبدا فى عقلى.

هامش :

كان هذا الرجل وقتها موظف بالسفارة وقدأصبح الآن سفيرا فى عاصمة أوربية أخرى .

الفصل الواحد والعشرون

لن أكون هذا الأحمق ثانية ،لن! فمن كنت تظن أنت بنفسك ؟ اخبرنى، أين كنت تظن أنك موجود؟ هل كنت تظن أن هؤلاء الناس كانوا ... ؟

جاءت الكتب على مدى ثلاثة أسابيع، ثم لاشىء! كنت مسرورا جدا ، المقابلة مع المشرف الكبير حققت أهم التنازلات ورفعت الحظرعن الكتب حتى ولو أنها أخذت أسبوعا كاملا قبل وصول أول كتاب، جاء من" مكتبة" السجن، وهو عبارة عن مجلد مهلهل ومشوه بالعنوان الوحيد الواضح المعنى "خطابات الملكة فيكتوريا"وفى ساعة واحدة فقط فرغت من قرائة صفحاته الباقية ، وفى تسعة أيام إنتهيت من قراءة مجموعة الكتب الموجودة فى السجن، وهى أغرب مجموعة يتجمع علي أوراقها المطوية التراب وبيض الصراصير .ليس امامى أى اختيار فى طلب الكتب. فى البداية انتقدت عدم تقديم قائمة بالكتب تمكننى من الاختيار- فمن الواضح أنهم لن يأخذونى إلى الكتب لكى أنتقى منها. وحين اخبرنى الجندى فى اليوم التاسع أننى قد قرأت آخر كتاب، فهمت. فقد حدث بعد الانتهاء السريع من الملكة فيكتوريا أن أخذ هذا الجندى يحضر لى أربعة أو خمسة كتب فى كل مرة. لقد حافظت على صحبة ب.ج. وودهاوس،وأجاثا كريستى ،و نباتات غرب أفريقيا وطهارة الأراضى الأخرى.

قلت لابد أن هناك مكتبة عامة فى هذه المدينة. فلماذ لايحصل لى أحد الضباط على الكتب؟ لقد وعدونى . وأعطوا التعليمات لموظف صغير.قلت لجندى، إن موضوعات الكتب ليست مهمة. المهم فقط هو أن ينتقى أضخم الكتب ويحضرها لى. كلما كان الكتاب أضخم كلما كان أفضل. لقد زارنى تشارلس ديكنزمرتين ناجحتين، ثم هذا الداعر بوزويل. لقد أعقبه أفحش مجلد، عبارة عن ضفدع ضخم متخم فى شخص مدير السجن الجاهل، إنه مجلد فظ جاء لينهى كل المجلدات.

لم أحتج بعد هذه الزيارة غير المتوقعة الى كلمات لأعرف بان نظام التغذية والتمرينات سوف يتغير. توقفت الكتب فجأة، وجاء الحراس فى أحد الأيام ودقوا المسامير فى لوح من الإردواز لملأ هذا الفراغ.

الفتحة المربعة فى الباب هى نافذة نطل منها على الحياة .إنها تطل خفية الى فناء التطهير ،و بيت المجانين ، والمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ومرتكبى أعمال العنف ومن انتهكت أعصابهم ،والمكسحين،ومرضى السل،وضحايا السلطة السادية ، وهم يختفون جميعا فى أمان بعيدا عن الاستجوابات. يدفع الحراس قبضتهم خلال الفتحة ويحركون التراس من كلا الجانبين. وأنا أمشى فى الفناء عادة وعادة أختلس النظر سريعا الى يد أو وجه أو اشارة نادرا ماتبرق فى تلك المحرقة .ارقد فى فراشى حتى الصباح وأسمع ضجيج الطرقات. يتضاعف هجوم الطرقات فى فترة الصباح ويتم تكبيره بقوة القبو الفريدة فى

ترديد الأصداء. (عندما يرعد تصبح جمجمتى هى سندان الآلهة التى تتحمل الطرق). أخطو إلى الخارج للبحث وإذا بى أجد فرقة من الحراس على البوابة يقطعون ويحيكون ويدقون المساميروفى وقت الظهيرة يتم سد الفتحة. السماء فقط هى المفتوحة الآن.سماء بحجم منديل يد محاطة بقضبان مسننة وزجاجات مكسورة. النسورتحط على سقف يرى من فناء ثانى. والغربان.إ إجريتس تطير فوق القبو والخفافيش تتجمهرعند غروب الشمس.الخفافيش ، لونها ابهق، مريضة شاحبة، تبعث بصفيرمتقطع يتردد صداه فى الغرفة . لكن العالم مات فجأة.فالمطارق يظل وقعها الشديد مستمرا حتى بعد أن تتوقف. حتى السماء تتراجع الى الموت. إننى مدفون حيا ؟ لا، فقط هو شىء يقرأ الناس عنه. تمر الأيام، والأسابيع ، والشهور. العوامات والمعالم تختفى ببطء ،وينحل الواقع فى حزن والعقل يخونه اليقين .

أناوحدى مع الأصوات.التى اكتسبت بعدا رابعا فى قبو معيشتى ، واضحا، أشبه بحالة الرعد إذ يصعب على الجسد احتمالها – مسلم ومسييحى، وثنى و حتى من لاينتمى إلى أى دين. صفير الخفافيش البهقاء يصيب ترنيمة المساء بالبثور .قبوى حولوه الى مرجل، تكتل معكوس للولاءات يجمع له المصوتون، فيتحركون ، ينخلون الخيوط و ثوب الفطريات بسخامه على الجدران، فطر أخضر منسوج بأصابع المطر الماهرة .

مدفون أنا حيا؟ يجب أن أكافح الباب المسحورفى عقلى. يجب أن أتنفس، بعمق.

أيام لاتعد ولاتحصى وأناجالس فى الفناء، أحملق فى لاشىء صوت تزييق الكرسى يجلب السجان " عرضا" يتمشى حولى، طرقات أقدامه الثقيلة جدا على الحصى بدرجة لا تقدر على امتصاصها لفائف القطن والصوف فى عقلى، إنها حادة جدا ،عدائية جدا،خائفة جدا من الوقوع فى شرك بارع، عصبية جدا،تتوسل،معتذرة وغير واثقة بالنسبة لمن ، يهبط بهدوء،فى منظر طبيعى داخلى للراحة .لكن الساعات تمر،والأيام، والأسابيع. عندما يغضب هارمتان أتحرك إلى الداخل وأغلق الباب .يجلس الحارس فى الخارج فى حالة عصبية.يذرع المكان بخطوته الواسعة جيئة وذهابا يلتف فى معطفه الثقيل ، الذى يشوه تجويف عينه حتى تراها من فوق الإطار.أرقد ساكنا ، أحملق فى فتحات الناموسية أنتظر تقديرا للحظة التى يمكن فيها أن أصل الى أنتنا تجريبية خارج الشرنقة بدون وقوع طرقة قدم ثقيلة على المسبار.

الفصل الثانى والعشرون

من بين الأرواح التى تزورنى هنا ،فإن أكثرها ترددا وأحبها إلى هى أرواح الراحلين من الأقارب. جدى بصفة خاصة،وطيفى كريستوفر إوكيجبو،وأديكونلى فاجوى...بانجو، ألالى أيضا يزورنى، لكن ليس فى صورة طيف.

يجلس جدى كقزم خرافى، يضحك فى سره ضحكا هادئا ،تنبض كل خلجة من خلجات جسمه بالحب والقوة. أين كنت،أين أنت ذاهب،متى ستعود ثانية، ولماذا لا تستقر أبدا؟ أغ. لاتخبرنى، لست أنا الذى يحتاج جوابا. لكنهم جميعا يأتونى إلى ويسألوننى هذه الأسئلة السخيفة. أقول لهم، لاتسألوننى.إسألوه عندما يجىء. كل ما أعرفه أنه مختفى فى مكان ما فى صندوق الثرثرة هذا لأن هذا هو المكان الذى أسمع أسمه فيه.أفتح الصندوق فيقول لى إنك تقوم بعمل فى أستراليا. لكنه كان هنا بالأمس فقط فأقول، فقط بالأمس! على أى حال إذا كنت تشكو مما تلاقى فأنا أيضا لن أشكو. أحضر قرعة النبيذ من هذا الدولاب. لقد فقد مذاقه لكنك لم تنبهنى كالعادة . وأنا أظن أنك لاتستطيع أن تجد كمية طازجة حتى المسأء...

كم يلائمنى وصول هذه المعرفة الخاصة بموته عبر الأثير، كما لو كان انتقاما خرافيا لأننى أترك له شيئا قليلا من نفسى وراء صوتى عبرالأثير. كنت هناك فى استوكهولم أنتظر دون جدوى شينوأشيبى وآخرين فى وقت التوترفى شهرأبريل 1967 محاولا للمرة الثانية بناء جبهة مشتركة من ركام 1966. كانت البرقية التى حملت الأخبار تطاردنى كشبح مجرم من درجة الى أخرى بين خيبة الأمل واليأس...إننى أتعجب، هل سيكون لى أبدا ذكريات خاصة حقيقية، غير مرتبطة، ولا مهترئة بتراكم ضغط و توترهذا الماضى القريب.؟

يندفع كريستوفربطريقته العاصفة إلى مكتب المعاون فى انيجو.إننى أغوص فى كرسى ذى ذراعين عميق خلف الباب حيث وضعنى المعاون بعد الملخص الذى أعده جهاز الأمن فى فترة سابقة، لذلك فإن كريستوفر لم يرنى عدما دخل مكتب الضابط. بل سلم التعليمات التى أحضرها من الجبهة فى حماس وهو يلهث. الحرب بدأت منذ ثلاثة أسابيع، أخذ الضابط ملاحظات سريعة ثم قال، أنظر خلفك. جحظت عينا كريستوفرثم انجرف فى الصياح والرقص الشروكى التى أثارت دوامات من القلق بين جمهور كبير ممن يتمتعون بالوعى الذاتى الذين نعرفهم فى كل ركن من أركان المعمورة. لقد هدأ بعد دقائق، تاركا لى فرصة فيما هو قابل للتحول بقذف زيه الرسمى خلفه. وفيما هو يتجه إلى المقدمة :

" أنت تعرف، أننى تعلمت استعمال البندقية تماما فى الميدان . لكننى لم أطلق عيارا واحدا حتى فى الهواء طول حياتى.أقسم ، وأنت تعرف أننى لست رجلا عنيفا، أنا لست مثلك. لكن هذا الشىء سوف أبقى معه حتى النهاية".

كان كريستوفر يجلس بالساعات عبر الطاولة يناقش الشعر، فى حين كنت أنا انتظر محاكمتى داخل زنزانة السجن فى نوفمبر65،...

فاجوى من بين هذه الأشباح كلها،يبدو بجسده أشد صلابة منهم. يخطوبطريقة محيرة وهويمدغ شفته السفلى،التى تخضع للحركات المفاجئة.

" كيف فعلت ذلك؟"

أنظر إليه ببلاهة، متصنعا الجهل.إن بريق الشر فى عينيه أوضح من أن يستعصى معناه على الفهم، لكننى أقول،" كيف فعلت ماذا؟"

يرفع يده فى يأس، ثم يزأر:" أوقفت محطة الإذاعة؟" أنت تعرف جيدا ماذا فعلت.كيف فعلت ذلك؟ هناك جنود وشرطة يحرسون المكان. كيف تنسل فى الدخول وتخرج مرة ثانية بعدأن أوقفت كل شىء."

قاطعته وذكرته بأننى حوكمت وثبتت براءتى .

" هوه هوه هوه هوه ذلك شىء جيد.والآن ألاتعلم أنت ماذا قالت المحكمة . أريد أن أعرف كيف فعلتها؟

" أنت لاتؤمن بنزاهة تلك المحكمة "

أطلق موجه هائلة من الضحك،ثم تعقل فجأة، حسنا،إننى أؤمن بشجاعة تلك المحكمة، وشجاعة ذلك القاضى. ماذا عنك ؟ كيف تجد محاكم العدالة فى الغرب عموما."(يقصد الجزء الغربى من نيجيريا)

" مخربة.لا أحد يثق فى المحاكم بعد الآن ؟"

توقف فى الركن بجوار مكتب ضحم طراز الملكة فيكتوريا ،وهوأثرمن بقايا الذوق الثقيل للحكومات الاستعمارية السابقة. شد الغطاء المشطوف إلى أعلى وأخرج مسدسا.أخذ يلعب بالمسدس.

" تعرف أنت، أنه كان يجلس هنا حيث تجلس أنت،على ذلك الكرسى ذاته.لقد أرسلت فى طلبه. كنت متلهف للقاء الرجل المسئول عن كل هذه الفوضى فى الغرب. عندما يفقد الناس الإيمان فى إمكانية الحصول على العدالة عن طريق المحاكم فلا بد أن يأخذوا القانون فى أيديهم. لذلك، فإننى آخذ بالرأى القائل أن رئيس القضاة مسئولا بصفة شخصية عن كل الأرواح التى أذهقت وعن الدمار الذى حدث هنا. ففى اليوم الذى تعمد فيه تأجيل الالتماسات الخاصة بالانتخاب ثم عاد ليعلن أن القضايا قد تجاوزتها الأحداث، أصبح مسئولا عن الفوضى. القتل والحرق والاغتصاب، المصيبة كلها . يقولون إننا نحن الجنود ناس بسطاء.؛ هذا صحيح.هذه هى الطريقة التى ينظر بها عقلى البسيط الى ذلك الأمر.على أى حال فقد أرسلت فى طلبه. عندما جاء عرفت أن تقديرى كان سليما.قلت له،أخبرنى بالضبط ماذا حدث فى المحكمة فى ذلك اليوم . أريدك أن تقدم رؤيتك الخاصة .أنت تعرف أنه بدأ يرتجف . كان يرتجف كثيرا حتى ظننت أنه على وشك أن يقع من فوق الكرسى. سألته مابك؟ هل أنت خائف منى؟ *انتظرت وانتظرت لكن الرجل لم يستطع الكلام".

حدث ذلك حين أخرجت مسدسى. أنت تعرف أننا نحن الجنود أناس بسطاء . لم أكن أنوى تخويفه مطلقا، الواقع أننى كنت أحاول تهدئته. أخذت المسدس وفتحت خزينة الطلقات وعرضتها أمامه. قلت له ، انظر،هذه هى البندقية الوحيدة فى هذه الغرفة ، ليس بها طلقات. لمجرد أننى عسكرى لا يعنى أن تخاف منى.نحن هنا وحدنا،أنت وأنا.فتحت الباب ، والنوافذ.أكدت له أنه لايوجد أحد يختبىء فى الغرفة لقتله. تمام . هيا نتكلم .ملايين من الناس ذهبوا لانتخاب حكومتهم .أنت رئيس القضاة ويفترض فيك أن تكون فوق السياسة ، لذلك فإننى أفترض أن كل ماتفعله لابد أن يكون متفقا مع تعليمك كقاض ويتمشى مع المثل العليا للعدالة. وكل ما أريده الآن هو ماذا حدث بالمحكمة فى ذلك اليوم، من وجهة نظرك الخاصة واحكى لى القصة خطوة بخطوة .

" شعبنا شعب مضحك. انت تعرف ماذا فعل؟ لا، سوف أخبرك أولا بما كنت أتوقع منه.ظننت أنه سوف يقدم دفاعا جيدا أوحتى سخيفا أو فإنه سوف يقدم استقالته فى التو واللحظة. هذا كل شىء.تماما ، هكذا فشل أحد الناس فى أداء واجباته. إنه أمر فاضح،، ويجب أن يدفع ثمنه.لكن ذلك ليس نهاية العالم . الاستقالة هى التصرف الشريف. لكن هل تعرف ما الذى فعله هذا الرجل؟ ركع على ركبتيه، هناك، فى هذا المكان بالضبط، رجل عجوز مثله،رئيس القضاة بكل ماله،ركع على ركبتيه ثم بدأ يتوسل إلى.كنت غاضبا وطلبت منه ان ينهض ولكنه لم يفعل.وظل يردد القول، أرجوك ياسيدى. لذلك مشيت خارج المكتب.وحين شعرت أنه لابد قد عاد الى هدوئه أرسلت الحارس وقلت له اخبره أن ينصرف."

فترة طويلة ممتدة من التفكير الصامت." هذه هى المعضلة كلها .الناس لايحبون ان يذهبوا. ربما انظرثانية ببساطة شديدة لذلك، لكن هذه هى الطريقة التى أرى بها الأمر.شعبنا لا يصارح نفسه بهذا عندما يتفاقم عقمه. السياسيون يريدون البقاء فى كراسيهم إلى الأبد ومن أجل ذلك يدفعون البلد إلى الفوضى. القاضى يعرف أنه سلك سلوكا فاسدا لكنه يتوسل من أجل البقاء فى منصبه.لقد ظل يدور حول الموضوع

منذ أن أعطيته إجازة إجبارية . الوسطاء من جانبه يحاولون أن يلفوا حول أرونسى. على أى حال ذلك هو القرار الوحيد الذى أصدرته لهذا الإقليم . لقد ذهب . وإذا لم يقدم استقالته سريعا فسوف أفصله.

ثم فجأة: " يجب أن تعود إلى هنا .فالإقليم فى حاجة شديدة لإعادة البناء."

قلت له : " جامعة لاجوس تصرفت معى بأسلوب جيد أثناء محاكمتى. إننى مدين لهم ببعض الخدمات على الأقل."

" لديهم الكثير من الناس . ويستطيعون تسييرأمورهم بدونك."

يضحك فجأة . " أستطيع أن أصدرلك مرسوما. كما تعرف.فماذا تفعل إذا أعدتك هنا بقرار رسمى ؟"

تظاهرت بأننى أفكر فى الأمر " حسنا، فى الحقيقة أنا لا أعرف . أنا لا أحس بالرضى عندما أتحرك بالأمر. ربما أختفى فى هدوء."

يجلجل بالضحك للمرة الثانية،" كالرجل الغامض الذى اقتحم محطة الإذاعة."

أجبته بجدية ،" سيدى ، هل أذكرك بأننى ..."

" وأخذت براءة وتم إخلاء سبيلك .تمام .لكن يجب أن تفكر قليلا فى هذا الأمر، إن احتياجنا لك أكبر من حاجتهم. تذكر ذلك "

الحقيقة أنه لدى حساسية من الوظيفة الحكومية. ورغم ذلك، فسوف أعمل من أجل خاطرك إذا احتجت لى، فقط ألا أوظف عن طريقك.أعنى إذا كان لديك مشروعات معينة تحتاج إلى مساعدة خارجية، مثل هذا النوع من الأعمال."

رنت تهديداته فى أذنى وهو يصحبنى إلى باب الخروج.!" سوف آخذك إلى ذلك أسرع مما تظن "

انتشرت الإشاعات عن قرب المحاكمة العسكرية ،وحتى عن عمليات إعدام سرية لقادة انقلاب ،يونية66. نحن نشكل مجموعات ضغط ،نوقع على طلبات إلتماس لإطلاق سراحهم من السجن. إنه إلتماس مقلق. فالحقائق التى بدأت تتكشف،وتفاصيل الإصابات التى يمكن استخلاصها منهم تمثل أخطاراً جسيمة تهدد الشعور القومى. ورغم فشل المحاولة الأولى وتهوين شأنها من جانب شخصية مؤسسية مثل أيرونسى فهناك الإدراك بأن موقفا ما، أو أى موقف يولد من تدمير الماضى يبقى دائما طيعا فى أيدى قلة من الأعضاء الملتزمين. فرفض أو إدانة الذين خلقوا هذا الموقف يتضمن انتصارا للقوى التى تم خلعها من السلطة .واتخاذ قرار بالمشاركة فى حركة ، او على الأقل فى تنظيم حركة لايمكن من أجل هذا أن ينتهى بمجرد التوقيع على إلتماس. أولا وقبل كل شىء فإن قرار كل فرد يوقع على الإلتماس لايمكن الوصول إليه إلا نتيجة لقبول مسبب لما يكمن فى هذا الموقف من قصور ونواقص، بما فيه القبول بالأفعال المجرمة التى أدت إليه. يشتد غضبى من غباوة وسوء نوايا البعض، تعرف على المحتالين، والمنحطين ، والحزبيين وعمليات الاستغلال التافهة للموقف من جانب القلة. فأنا فى مواجهة مشهد غيربناء حيث الرفاق القدامى يسيئون فهم الموقف الجديد كلية ويجردون أنفسهم من المنطق والأمانة وينغمسون بشراهة فى الاستغلال المادى والفكرى للموقف .

لكن سوف تأتى لحظة لابد لمن يلتزم أن يسأل نفسه:هل أقبل هذا العمل – وفى هذه الحالة أقبل 15 يناير بمثابة القاعدة للهدف النهائى أو أرفضه ؟ إن ترفضه يعنى مسارين للعمل؛ أولها إدانة عاجلة وعلنية لمنفذى انقلاب 15 و ثانيا المطالبة بإستعادة الوضع الذى كان موجودا قبل 15 يناير.

الاختيار الآخر،هو القبول بقاعدة 15 يناير مطلبا بديلا لا يمكن الاستغناء عنه دون إستياء، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين كانوا يشاركون فى استراجية الانتفاضة الغربية . فتدخل الجيش لقى قبولا مشكورا لأنه تنبا بتدخل الجيش الآخر الذى نظمته مافيا الإقطاعيين والذى حدث بعد يومين . لقد قضيت الليالى القليلة قبل 15 يناير متنقلا بين اماكن متغيرة لأننى تلقيت إنذارا عن برنامج الأرض المحروقة للغرب." أى بتصفية جميع " المثقفين المنشقين " وأعضاء اتحادات التجار بل وقلة من القضاة الذين عجزوا عن الإلتزام بالخط السياسى. أمضيت أمسية الانقلاب فى مكتبى بجامعة لاجوس، بالقرب من قارب "صيد" كان راسيا فى البحيرة خلف الجامعة . كل شىء كان مرتبا بفعل أفيق وهو عضو فى فرقة مكافحة التهريب فى مركزأوبلندى الرئيسى، وأحد المؤيدين الكثيرين للحركة .

- لم أكد أغسل وجهى يوم 15 يناير حتى اندفع الى مكتبى صحفيان أجنبيان هما ، والتر شوارتز من الجارديان ولويد جارسون من النيويورك تايمز، فى حماس يتحسسان إن كنت اعرف شيئا عن الانقلاب . بدلا من ذلك ، بدأت أنا أسألهم.وجعلتهم يعيدون حكاية كل ما سمعاه من تفاصيل حتى قال لويد ،" يدهشنى أنك لم تفاجأ مطلقا "

" أنا لم أفاجأ بل ذهلت.طالما هى حادثة من طرف الجيش.لكن التفاصيل التى أمدونى بها الآن فى غاية الغرابة .فهذه ليست الصورة التى توقعت أن يتم بها تدخل الجيش،والتى كانت تلح على أن أوافق أن أكنتولا،الذى عاد منذ قليل من لقائه الحاسم مع ساردونا قد قتل باطلاق النارعليه.أو أن المخططات الشيطانية التى تمت بين الإثنين، باتفاق مباشر مع باليوا فد تم اجهاضها "بضربة استبقاية"

لم أستطع فى النهاية، عندما هضمت طبيعة انقلاب 15 يناير، أن انكر أن النشاط والحيوية قد دبت فى أوصالى.لقد تمنيت ومازلت أتمنى أن تحقق الثورة فى الغرب انتصارا باعتبارها انتفاضة شعبية.ولو تم أعطائها بضعة أسابيع قليلة فسوف يتحقق لها ذلك. لقد سقطت كل المدن ماعدا إبادان .فالحكومة ، حسب تعريف الرجال المطرودين (من جماعة N N D P) لم تعد تدعى أنها كانت تقوم بعملها فى الغرب حيث كانت المجالس المحلية جميعا يتولى إدارتها رعاة العصيان المسلح. وقد بدأت الآن المرحلة التالية الخاصة بالقضاء على سلطة هذه الحكومة فى العاصمة ، إبادان، ، وسوف تكتمل فى ظرف أسبوعين آخرين .

لقد قرأ أكنتولا وباليوا وجماعتهم (N P C) وفهموا ماتنذربه فهما صحيحا .كان لديهم أيضا تقارير البوليس و تقاريرمخابرات الجيش.ففى جزء من إبادان كانت القوات الموجودة سابقا تنتمى إلى خصوم الحكومة. لم يكن هناك اختيار سوى الاستسلام أو الخيانة العسكرية .اختار قادة (N N A) الثانية .والتقوا فى كادونا لاعداد الترتيبات. لقد فات وقت تسريع عملية محاصرة إبادان فى الوقت المناسب لاجهاض الاعلان الكلبى للطوارىء وعمليات الإعدام الرهيبة لكل المعارضين للطغيان البغيض . وحتى لو كانت الخطط التى روجتها الإشاعات عن اغتيال أكنتولا أثناء عودته من كادونا بعد ظهر 14 يناير قد نفذت ،ماكان لها أن تحرف رد فعل المافيا الإقطاعية التى كانت تعد عدتها بسرعه الألة البخارية لسحق خصومها.لم يبق شىء يمكن عمله سوى الاستمرار فى المقاومة السرية بعد هذه الضربة التى لامفر منها الآن.

هل كانت حركة 15 يناير بكل سقطاتها،وخياناتها الذاتية،وعدم اتمامها، وانتهاكاتها مقبولة أو غير مقبولة كقاعدة لحركة نضال قومى ؟ العنف أو الموت هى أشياء شخصية،ويبقى فى النهاية هذا القانون الذى به تسفح المسئولية أو يتم الاعتراف بها .مع العلم مقدما بماسوف تسفر عنه من نتائج ، ومنحى فرصة اختيار الدورفى التقدم أوفى المشاركة فى مجرى الحدث الذى قام به هؤلاء الضباط الشبان فهل كان يمكننى أن أقبل هذا الدور؟ لا توجد توصيفات لإجابتى المؤكدة .

بعد زوال الكابوس الطويل تغير حظ الغرب الى وضع أفضل. شاهدنا فاجوى على البعد، يقوم بفحص أعماله، وقراراته. وفى اول لقاء أخبرنى بكل ماكنت أود أن اعرفه. لكننى بقيت على معرفتى الوثيقة بنمط

الفساد المتدرج للسلطة .إلتقينا مرة ثانية .لقد قررت أن آخذه إلى جانبنا فى الإلتماس المقدم نيابة عن قادة الانقلاب شخصيا. قال فاجوى:

" يجب تصنيفهم ،إذ يوجد بينهم بعض البيض الفاسد من الذين لهم حزازات يريدون تسويتها. إن رئيس هيئة الأركان الشاب جوون، قد تم تكليفه باجراء تحقيق وسوف يرسل تقريرا ردا بذلك .وقد استجوبت بعضهم بنفسى. سأقول لك إنه الشيطان والبحر الأزرق العميق. أنا لا أحسد أحدا منا .؛ رغم كل شىء فنحن جميعا فى الهم سواء، لواخذنا القرار الخاطىء... وحالما يقدم جوون تقريره، سوف نعمل شيئا ،و ليكن الله فى عوننا إذا أخطأنا."

فى الحديث عن القرارات ماذا يحدث لأولو وكو ؟"

"نحن جميعا موافقين أن نطلق سراحهم لكن حسان مصمم على الاعتراض, ليس لأنه ضد هذالكنه يقول يجب أن ننتظروإلا فسوف يتهمون الحكومة بالعداء للشمال. فهو يقول إنهم قدإبتدأوا فعلا يرفعون الشكاوى بأن الانقلاب كان ضد الشمال على وجه التحديد. على أى حال،إنه يريد منا أن ننتظر اللحظة المناسبة ."

سلمت برأيه " الشمال مهم . لأنها حدثت هناك فى الغالب. لكن الشمال الجديد فقط، ليس القديم .لايجب إعطاء أى تنازلات للشمال القديم ولا بد من عمل سريع لجعل الشمال الجديد قوة ملموسة ."

" كيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟"

"سوف أدعك تعرف ذلك لأنك تستطيع أن تساعد. فنحن نعلم أن كل المبادرات يجب أن تأتى من الغرب. لسنا متهمين بذنب من قتلوا فى أحداث 15 يونية لذلك فنحن نملك إحدى المزايا.هناك مجموعة لنا تخطط للقيام بجولة فى الشمال فورا- أتعشم أن أجد وقتا للذهاب بنفسى ."

بعد أن راقبته عن قرب ، وصلت إلى فكرة عاهدت نفسى أن أطرحها أمامه."أرى أنك بصدد الوصول إلى اتفاق مع رولز رويس ..."

قاطعنى وقال " آه، أعرف ما ترمى إلى قوله.،وأعترف لك بأننى لا أحبها أيضا. لكن ليس لدى شىء أستطيع عمله فى هذا الوقت .لقد تأخرنا تقريبا ورجال الأمن هؤلاء قد خصصوا لى السيارة. لقد دفعونى إلى ذلك تقريبا .لكننى أتفق معك تماما .إنه من المخجل أننا نحن العسكريين يجب أن نقلد مظاهر السياسيين العاطلين. ما هورأيك فى نوع السيارة التى يجب أن أركبها ؟ ".

قلت " سيارة جيب"

تراجع الى الخلف فزعا " سيارة جيب مفتوحة؟"

" مقفولة أو مفتوحة، جيب "

هز رأسه . لا،هذا يبعدنا كثيرا عن الصواب . بداية فإن رجال الأمن لن يقبلوا. وأنت تعرف، أننى مضطر للقيام بجولات كثيرة . لتغطية ألاف الأميال . "

" تمام ، بالنسبة للجولات هناك شىء يريح أكثر "." مثل ...؟"

وقبل أن أتكلم مضى هو يكمل " ماهو الخطأ فى ركوب سيارة مرسيدس بنز ؟ إنها منتشرة بدرجة كافية فى هذا القطر .كل محامى يستطيع أن يقتنى سيارة منها."

تظاهرت بالتفكير فى الأمر، مما جعله يضيف سريعا"" سأخبرك بما يمكننى عمله، سوف أنتقى واحدة من الجراج-هناك أسطول كامل من السيارات-وأطلب أن تدهن بلون السيارات العسكرية . بهذه الطريقة لن تبدو فارهة جدا وهو ما يزعجك ."

ضحكت " حسنا! ، لقد كسبت أنت الرهان."

" أما فيما يخص بقية السيارات فسوف أعرضها للبيع. الكاديلاك ، الرولز رويس،بل كل الغواصات. تستطيع الحكومة أن تنتفع بمواردها"

مايو 66، تلقيت رسالة منه تدعونى للقاء عاجل معه.كان ذلك بعد صدور المرسوم .34، مرسوم التوحيد. لقد هاجمنى بمجرد دخولى المكتب : " أيها المثقفون كلكم سواء .لماذا ذهبت فى هذه الجولة إلى الشمال؟"اعتذرت لنفسى ." لم أكن قادرا على الاستمرار .لقدأصبح القسم يعانى نقصا فى هيئة التدريس .لكننى حافظت على علاقتى ببعض الزملاء من الشمال .ونحن نخطط لإقامة مؤتمر بمناسبة انتهاء الفصل الدراسى."

" طلبت منك أن تأتى إلى الغرب .كان يجب على أن أحضرك بمرسوم. متى تستطيع ترك موقعك ؟

" أترك الجامعة ؟ "

" لا، متى يمكنك أن تقوم بالجولة .تعالى إلى المكتب لترى تقارير المخابرات الآتية من الشمال .أتظن حقيقة أن الأمور يمكن أن تنتظر حتى تسمح الجامعة بالإجازة االدراسية ؟."

عندما اطلعت عليها قلت : "إنه ليس فقط مرسوم التوحيد. هذا مجرد اعتذار ."

" أعرف. هذا هو السبب الذى يغنينى عن وجهة نظر الشرطة."

كان كل شىء على مايرام خلال فصل المحاضرات. لكننى أكدت له أننى سوف أترك الجامعة خلال الأيام الثلاثة التالية.

لقد واجهنا أعمال الشغب عند بيركين لادى التى تبعد حوالى ثلاثين ميلا من مدينة جوس . وعلى طول الطريق نحو الشمال ، كنت فى صحبة صديقى فرنسيس مدير إحدى شركات السينما. وكان الموضوع المفضل هو مرسوم االتوحيد الذى ألغى الأقاليم شبه المحكومة ذاتيا واختزلها فى مجموعة مقاطعات .كان قرارا ثوريا جسورا. لكن هناك طرق عديدة أخرى لمحاربة الفساد والبيروقراطية المتفشية،للقضاء على القبلية، وإثارة أحساس وحيد بالقومية .

مرسوم التوحيد هو بداية واحدة فقط من بين إمكانيات كثيرة ، و قد نال استحسان الجميع باستثناء الاحتكارات الإقطاعية فى الشمال والموظفين ذوى المراتب الرفيعة ممن يكرهون اختفاء الوظائف المدنية الكبرى ذات الرواتب العالية. الهتاف لهذه الحركة العنيفة أغرق أصوات المنشقين بعضهم يحملون مخاوف حقيقية من دوافع قد تكون غير مثالية، كهيمنة الإيبو. على أساس هذا الاشمئزاز الرجعى. كانت مافيا الشمال فى حالة عمل يعاونهم بعض الحلفاء من الجنوب .تحرك الكثير منهم محملا بالمال الكثيرمن أجل هذا العمل القذر الذى وضعوه نصب أعينهم. نحن لا نسعى وراء حدودهم القابلة للبيع بل نحن نسعى وراء جيل مختلف مفترض من ذوى الاستنارة. لم أكن أدرى أن التمييز بين الاثنين قد صار اكثر تشويشا .

مواجهة غريبة فى مساء الهولوكوست ،ثم تلك الفنتازيا فى التوتر التاريخى الذى أكد بالصدفة على الدلائل الأولى لزوال الوهم عندما جاء.فى فندق حمدالله . عرض للموضة كان هو الحدث الرئيسى للزوجة

الحديثة فى الشمال بمساندة طبيعية من المركز البريطانى .المصممة البريئة لهذه الحفلة هى شادية، التى كلفها المجلس البريطانى بتقديم محاضرات مصورة عن أدوات التجميل والماكياج والموضة والوظائف الأولية للمرأة ، وذلك لزوجات الطبقة الوسطى من الصفوة الجديدة فى كادونا .وبعد ذلك ذهبنا مع شادية إلى ملهى ليلى ، تصحبنا صحفيةجاءت الى كادونا لتكتب تقريرا عن هذا الحدث لصفحة المرأة فى الديلى تايمز .

اتصلت بزميلى الشمالى تليفونيا من الفندق .وافق على اللحاق بنا فى الملهى.وصل فى حالة توتر مكبوت. وظل وقتا طويلا لايقول شيئا اكثر من المشاركة بغموض فى الحديث العام .فى التليفون أحسست ببداية نذر الشك ولكنى طردتها من ذهنى. الصوت الذى أجابنى لا يمكن أن يكون علامة ترحيب، لكن هذه كانت زيارة ألحت على طويلا من جانبه هو ونظائره الشماليين.. فى النادى انتظرت أن ياخذ دوره ويخبرنى عن الموقف فى كادونا فيما يختص بفشل أو نجاح بعثته التعليمية. وعلى اقتراح منى بأن ننفصل عن المجموعة أجابنى بأن لديه موعدا و سوف يعود فى وقت لاحق. وأخيرا تركنا فجأة، وهوفى حالة قلق كما كان جالسا على الطاولة ،على وعد بأنه سوف يعود فى ظرف ساعة . لم يتطلع إلى وجهى ولو مرة واحدة أثناء اللقاء. و منذ ذلك الحين لم أره .

عدت الى الفندق.أجريت محاولة خاليه من الأسماء للوصول إلى الأسماء الأخرى.عندما كنت أستجدى توصيلة من فرنسيس وكنت مرتبطا بجدول مواعيده لم أجد شيئا أفعله سوى ترك ملاحظات قلت فيها متى سامر بكادونا مرة ثانية . لقد عدنا بأسرع مما نخطط.

نفحة من العنف كانت ظاهرة فى الجو بين جوس وبيركين. امتدت فى بيركين لادى لدرجة نشم منها رائحة الدم المتوقع.فقد تجمع الناس فى مجموعات، وهم يدورون ويدورون حول أنفسهم مثل كثبان الرمال اللولبية نحو دوامة العنف. لم يبذل أى جهدلاخفاء السيوف والسكاكين ، الأقواس والسهام المسننة النصل.لم يبذل أى جهد لاخفاء كوة الموت فى العيون التى قامت بمسحنا كغرباء .النشرات، سيكلو ستيليد ، توزع علنا . التقطت إحداها؛ كانت مكتوبة بلغة الهوسا لذلك ركنتها جانبا لترجمتها فيما بعد.

كان لفرنسيس عم يعمل جيولوجيا فى مناجم القصدير.لديه بندقية ورخصة .ذهبنا بالسيارة الى شلالات كورا بل وقمنا ببعض أعمال الصيد.لم ندرى أننا قد اندفعنا الى الأمام بعيدا عن صيد مهلك فى القرية التى غادرناها توا.عدنا بعد الظهر الى قرية هادئة هدوء لايوجد مثله على الأرض واحسسنا بالعيون خلف الشيش والأبواب . فى بيت الجيولوجى علمنا ان أعمال الشغب قد وقعت وسقط فيها بعض الضحايا . تذكرت المنشورات السيكلوستيليد وسألت الرجل وهو متحدث فصيح فى لغة الهوسا ،أن يترجم لى المنشور. كان دعوة صريحة تحرض بحماس على الجهاد ضد " اليمنرين" . كانت تدعو المدرسين الى إغلاق المدارس والأباء الى حجز أبناءهم داخل البيوت وكل أبناء البلد الحقيقيين أن يمكثوا داخل بيوتهم حتى " نفرض إرادتنا على الجنوبيين الكفرة . "

قلت لفرنسيس "لابد أن أنصرف فورا بالقطار.أنا لا أعرف ماهو موقفى مع الأمن فى لاجوس ولكننى لا أستطيع البقاء حيث يكون الشغب.فقد يفكر رجال أيرونسى أننى جئت هنا لإثارتها"

قرر فرنسيس أيضا أن يلغى بقية جولته فى العمل واتجه للتعقل.

أسرعنا هربا من موجة الرعب الثانية .كتائب القتل بدأت تعيد تجميع نفسها.وفى أذاننا تتردد صيحة الهجوم – أرابا ! (الانفصال)

عند أطراف كادونا وجدنا " بوكا " أى كشك للأطعمة حيث توقفنا فى رحلتنا الخارجية بحثا عن الطعام. كان الجو هادئا بدرجة كبيرة، فالشغب لايبدو أنه قد امتد إلى كادونا. طلب منا أحد الأشخاص أن نمسك أنفاسنا ونقف هناك ثانية من أجل وجبة خفيفة. وفيما كان فرنسيس ينطلق على الطريق نحو الأرض الخشنة هاجمنى انطباعان متزامنان: باب معلق بسمار قلاووظ واحد فى المفصلة السفلية .حائط الكشك الداخلى متفحم ؛شخصيات صامتة، وساكنة تراقب المكان من حولنا. حتى حين صحت فى فرنسيس لكى يسرع قبض على يدى وأشار. هناك ساق أدمية ملتصقة بين الشجيرات.

المسافة الصامتة إلى كادونا ذاتها، أخذناها بأقصى سرعة، تذكرت أن الكشك يديره شخصان من الإيبو.

كان من حسن حظنا أن ندخل الى كادونا. فبعد دقائق حل الظلام وأغلقت أبواب المدينة. ولايمكن بعد ذلك لأى سيارة أن تدخل أو تخرج منها .قبل ذلك كانت الشوارع مهجورة ،والمتاجر على جانبى الطريق مقفرة من الناس. لقد أغلقت المدينة لكن، الغريب أن حظر التجوال لم يفرض أثناء الليل.ويمكن لأى انسان أن يتحرك بحرية داخل المدينة.

لم يتحرك أحد سوانا. ربما لأنه رغم توقعاتنا إلآ أننا فشلنا فى القبض على الحدث، فشلنا فى معرفة السرعة التى تتدحرج بها الأمورنحو الاكتمال، وفجأة أصبح من المهم لى أن أعرف كل ما يجب معرفته عن هذه المقدمة التمهيدية- لأننى لم أخدع نفسى مرة واحدة بأن هذا هو الفعل المنتظر - وبدا لى أن رحلتى المتأخرة لن تكون فشلا كاملا لواستطعت أن اعرف شيئا عن النمط الذى سوف تأخذه الإضطرابات مستقبلا فى ضوء هذه العلامات الحالية. قلت لفرنسيس سوف آخذ السيارة وأتجول بها فى المدينة ونتيجة لشعورالآخرين بالملل والضيق من البقاء محبوسين فى الفندق قرروا جميعا أن يأتوا معى. بل حتى مصمم الأزياء رفض أن يبقى وحده. اتجهت بالسيارة إلى نادى فندق الأميرة، الذى يملكه رجل من اليوروبا يسمى أديجيمو.كان لى رفيق هناك يعمل بارمان، وهوعضو سابق فى اتحاد التجار. كان قد وقع ضحية الخيانة منذ اضراب لجنة مورجان. لم أخطط للقائه لما أصابه من يأس منذ فشل هذه الحركة القومية الواسعة . والآن لايبدو أن هناك أحد آخر.

لم يعد ثمة شىء اسمه فندق الأمير.الجدران مازالت قائمة لكن لاشىء آخر. فمثيروا الشغب غادروا المكان قبل وصولنا بساعة واحدة ؛ جارسون وحيد برز من خلف كومة من الكراسى والترابيزات المهشمة.سألته أين يمكن أن أجد صديقى لكنه لم يعرف. والمدير؟ بدأ يتهرب من الإ جابة المحددة لكننا أكدنا له من جديد أننا أصدقاء أديجيمو من إبادان؛ فإذا لم نره كيف يمكننا أن نطمئن أهله فى البيت ؟

تتبعنا تعليماته التى تبدو متسقة حتى وصلنا الى بيت أديجيمو فى قلب كادونا .انفتح جزء فى الباب حين طرقته .أطلت علينا عيون لانراها تحدق من كوات غير مرئية فى البيوت المجاورة. حين وقفت على الرصيف أحسست أننى عرضة للخطر، فنزهة المساء اصبحت تمرينا لايغتفر فى حالة التهور والغباء . مر وقت طويل دون أن يعترف مدير الفندق بالطرقات على الباب. أخيرا سمعنا صوتا ،صوت راح صاحبه يتأكد بدقة من هويتى قبل أن ينفتح جزء من باب بعيد، اطلت علينا رأس حذرة حدقت فى الآخرين الجالسين فى السيارة أولا .ثم بدأت عملية فحص طويلة لنا قبل أن تمتد الأيدى الأخرى لفتح الباب ويقودنا المدير الى الداخل.

أقنعت نفسى بالاستماع فقط إلى قصة تخريب النادى، الهجوم على المومسات وحماتهم غيرالشماليين قبل ترك هذا البحث. كنت متلهفا على إستعادة الأمن للفندق. فى رحلة العودة كانت سيارتنا هى المركبة الوحيدة فى شوارع كادونا. فى طريق العودة وصلنا الى مركز البوليس، الموضوع تحت حماية مشددة .وقفت مرة أخرى وتحدثت مع الضابط النبطشى.

عندما تحركت ثانية خطر لى أن أسأل شادية إذا كانت قدهرعت إلى زميلى خلال فترة الإضطرابات فقالت" لا" ثم أضافت ،أعتقد أنه كان فى وسطها. كان يحمل سيفا طويلاتحت ثوبه، فى تلك الليلة بالنادى.لقد سقطت أكمامه ورأيته قبل أن يخفيه بعيدا."

لقد تحول من رفيق مناضل إلى مرتد.فلم يعد يخامرنى شك فى أننا شاهدنا المقدمة التمهيدية لحالة فوضى مرعبة على نطاق واسع .

فى إبادان راح فاجوى يحدق فى المنشورات التى أحضرتها معى وفى النهاية سألنى،" ماهى الخطوة التالية ؟ "

الحالة حتى الآن غيرميئوس منها تماما . قلت إننى سوف أقوم بجولة فى الشرق بأسرع ما يمكن .

تنهد وقال ."أتمنى لو أستطيع التحدث مع أيرونسى .لسوء الحظ فإنه لم يعد يثق بى .هل تعلم كيف يخاطبنى فى هذه الأيام منذ أن توليت منصب رئيس القضاة " مرحبا أيها الراديكالى".قد ينحنى للضغوط كما تعرف،لأنه يفضل ألا يعادى أحدا بالاسم. فلو أخبرته أنا بكل هذه التطورات فسوف يشك فورا فى دوافعى. فالناس المحيطين به ..." هز كتفيه قائلا. " هل تنوى المضى فى موضوع المؤتمر "

" لقد أصبح ذلك أمرا شائكا .سوف أحدد لك تاريخا بعد جولتى من الشرق. " لم يستطع أن يريح نفسه من الندم المتسبب عن فقدانه لثقة أيرونسى، " كان من عادته أن يكلمنى كل مساء لكننى أخبرتك عن كل ذلك من قبل.ألا تعرف ، أول شىء عرفته عن قراره فى تدوير الحكام كان علىالراديو.هل نتخيل ذلك ؟ أنا كلى ندم من أجل ذلك طبعا"

" أنا لا "

" لماذا لا ؟" كل شىء تمام على أساس المبدأ ."

طبعا ، المبدأ شىء رائع . لكن ليس بعد، لقد أخذ شوطا طويلا من سوء الحظ فى القيادة والآن أنت معنا من أجل التغيير. من الذى سوف يأتى هنا؟هذا الغندور الرسمى فى الشرق او لاعب الهوكى السكيرفى الشمال. وانا لا أهتم كثيرا برجلك فى الجزء الأوسط من الغرب أيضا ."

لكى أقول لك الحقيقة فإن ذلك لا يسعدنى كثيرا. أود لو ننتهى مما بدأناه، أعنى ، أننا لم نكد نبدأ! مع ذلك ، فإننى أذكر نفسى دائما بما انتقده فى الآخرين- لا أحد يريد ان يترك مكانه أبدا.لقد بدأت أخشى ألا يعرف الجيش متى ينبغى عليه أن يرحل. لو شك الناس مرة واحدة فى ذلك ...!"

إن زيارة الشرق، قد أعادت التفاؤل إلى قلبى، لكن عودتى مزقت ذلك .ففى الشرق يوجد انضباط، تبريد لحالة الغضب وأفكار الانتقام، هناك أيضا بداية لتاكيد الذات ،ليست كثيرة ولكنها أكثرمن الكفاية لخلق المواجهة العلنية . وهو الشىء الوحيد الذى يؤدى إلى ميلاد جبهة قومية . لقد ابتدأ السخط بسبب الصفوة المتعالية فى إدارة أوجوكو .الأضرارالتى نجمت عن أحداث الشمال قد دفعت الراديكاليين فى الشرق ألى الانطواء.وهى ظاهرة غريبة وغير منتظرة ، وإمكانياتها غير محدودة .

وفى ليلة عودتى من الشرق وقع فى يدى ملف ملىء بالنذر .أنهى فترة الابتهاج القصيرة . لقد ركزالتقريرعلى أنشطة المافيا التى تقوم بها بين الجنود، وعن مبالغ ضخمة يقتسمها بعض الجنود الموجودين فى الثكنات الشمالية والغربية. من زوجات الوزراء السابقين من جماعة (N N A) ودورهم الذى يقمن به فيما بين الجيش والسياسين .يبدو أن فاجوى كان ينتظر مكالمتى.جلسنا فى اللوج بدار الولاية وأخذنا نقارن الملاحظات.لقد صدمت فجأة بالسكون و الفراغ . لعل شعورى بالفراغ فى داخلى قد أصاب

حساسيتى الخارجية بالتبلد نحو البيئة المحيطة . هناك ساعتان على الأقل قبل موعد الاغلاق الليلى قبل أن أسأل .

" أين الناس كلهم هنا؟"

لوح بيده فى توتر." قد طردتهم.فى كل مرة أزيل فيها شيئا من التفاهات الرسمية يطلع على شخص منهم بتفاهة جديدة.خصوصا رجال الأمن هؤلاء ."

قلت ، " أنت لا تستطيع أن تتجاهل هؤلاء كلية ."

" انهم مصدر قلق .منذ أسابيع قليلة نظرت حولى ووجدت كل هؤلاء الحراس ." قلت لنفسي يا للهول ، إذا أراد شخص أن يطلق على النار فلن يفعل ذلك هنا . سوف ينتظر حتى أخرج إلى العراء ."- ضحك ضكة ساخرة – " فى واحدة من سياراتك الجيب المفتوحة "

حل الظلام . رأيته يدخل فى فترات صمت اكثر من المعتاد .تغريك أن تظن أن لديه أحساس بالموت الوشيك .أرى رباطة جأشه ثانية ، لحظات الخمول الفكرى الطويلة.شربت ولكنه لم يشرب .لقد توقف عن تعاطى الكحول بصفة مميزة لإرادته- فهو يشكو من كثرة المهام، كثرة حفلات الاستقبال الرسمية،وكان يشرب بشراهة .لكنه منع حفلات الاستقبال الرسمية نهائيا فى دار الولاية .

أعاد ذكراعتقاده بأننى أتكلم مع أيرونسى." يعرف أنك لست حزبيا لذلك فهو يستمع لك .

" لا أعتقد أنه قادرعلى فهم شىء. بل إنه لا يحس بالأشياء.أى قائد، خصوصا أى قائد عسكرى يترك زوجته تذهب إلى الكوافيرمع سائق عربة وسرينتها تدوى. .."

ضحكته مزقت سكون البيت الفارغ. " أيها الناس لا تعبثوا كثيرا "

" الحقيقة ليست هى المهمة. فالمهم هوماتشير إليه هذه الأعراض المخيفة . الرجل يسرع نحو الانتحار لكن الطريقة التى اختارها سوف تهبط بالأمة معه الى الحضيض.

" تكلم معه ، على أى حال . يجب عليك أن تنبهه . " ران عليه الحزن ثانية "إنه لايثق بى كثيرا كما تعرف.وهذا شىء محزن.أوه- أنا لم أخبرك أبدا- فى أحد لقاءاتنا حاولت أن أقدم له بعض الأفكار، عن السيارات والبيوت وهكذا .والأرض ،هل تعرف ، الطريقة التى بدأ بها كبار الضباط من أجل الحصول على أراضى التاج. قلت يجب أن نسير حسب المثل ، ضحك .كان ينبغى أن تكون هناك. لقد تخليت عن ذلك . بمجرد أن ينظر الناس إليك وأنهم يقولون ، إنه يحاول .

..... على أى حال "- لوح بذراعيه حول الفراغ وقال – " لقد حاولت أن أثبت النظام فى بيتى "

" إنه مكان جيد مثل أى مكان آخر من أجل البداية .."

لقد نفض الإرهاصات غير المتوقعة لما بدا وكأنه تعليق غير ارادى ،وأصابه هو فجأة للمرة الثانية. " هل تكلم أيرونسى؟"

هززت كتفى " سمعا وطاعة "

لقد تذكرت توا أنه فى هذه اللحظة موجود فى الشمال . لكنك تستطيع أن تتصل بمكتبه وتحدد موعدا " توقف فجأة " أوجنديب! لماذا لاتتصل به ؟ إنه رئيس هيئة الأركان، إنه الرجل الثانى فعلا فى القيادة... نعم ، وجدتها .سوف يفهم أكثر كثيرا , تكلم مع أوجنديب "

افترقنا على درجات سلم دار الولاية . فى حوالى السابعة مساء، 26 يوليو . قدت السيارة إلى لاجوس فى اليوم التالى، واتصلت من مكتب فرنسيس بأوجنديب فى مركزالقيادة العليا. طلبت منه موعدا ، وشددت على الضرورة الملحة .وبعد مرور خمسة عشرة دقيقة اضطررت إلى إعادة سماعة التليفون بسبب الوضع غير الواقعى المبهم . سألنى فرنسيس عن الأمر. حتى الكلمات بدت لاتكاد تصدق عندما تخرج من لسانى: " إنه يصمم على أن أكتب له مذكرة " بعد أقل من ستة وثلاثين ساعة كان يبحث عن ملجأ فى مراكب الأسطول وكان فاجوى قد تم قتله.

كادونا

الفصل الثالث والعشرون

وفيكتور بانجو

لو أن تاريخ الثورات شهد ضياع ثورة ، فلن يكون ذلك فى إحدى اللحظات المشهورة بل سيستغرق بضعة أيام ! على مدى أربعة وعشرين ساعة كاملة،أوبعد يومين أو ثلاثة.بل حتى بعد أربعة أيام سيظل هناك أمل لهذه الحركة. أما بعد اليوم الخامس تكون الفرصة قد بدأت تنزلق بعيدا. وفى نهاية أسبوع واحد تضيع الفرصة إلى الأبد.

ما الذى منعه؟ ما الذى حجزه فى بنين بينما الفاسدون يرقدون فى لاجوس لاحول لهم ولا قوة بعد أن تعرت عوراتهم ،وهم ينتظرون فقط من يخترقهم؟ فى إمكانى أن أخمن الجواب،لكن ليس فى هذا أى عزاء. ففى انتظاره لأول بادرة تأييد فعالة كان قد أكدها له أولئك الذين لا تتماثل دوافعهم فى مثاليتها مع دوافعه تعنى أن بانجو قد نسى أن أمته هى أمة جلساء الحاجز،ذلك أنه فى وقت الأزمة،تبدأ السلطة المستقرة بميزة تؤدى بالجميع، باستثناء القلة المداهنة، إلى حالة شلل سيكولوجى .لأنه كان قد أعلن ان قواته الغازية هى ضد انفصال الشرقيين.لقد تخيل بانجو أن هذه إجابة كافية لمواجهة أزمة المتخاذلين .وهكذا – خطب فى الراديو،وفى اجتماعات طويلة مع قادة أشرار فى الغرب الأوسط ، ومحادثات تليفونية طويلة مع رفاق مفترضين من الجيش فى أجزاء أخرى من القطر. لقد أخذت القاعدة الثورية المفترض أنها " مدعومة " بوجوده المتواصل فى الغرب الأوسط فى التفتت.

لقد دفع حياته ثمنا ، ومعه رجال مثل ألالى،وإيفيجونا، وأجبان... وحتى مع الاتفاق على ان الأمة ليست فقط ماهى فى لحظة معينة ولكنها فى إمكاناتها الكلية، فإن الخطريبقى بالنسبة لهؤلاء جميعا الذين يتساءلون، كما أفعل كثيرا، إذا كانت الأمة التى يعرفونها ليست هى التى فى خيالهم .لأن إمكانية المستقبل المهدئة هذه هى سلاح ذو حدين، لكونها يمكن أن تكون خيرا أو شرا ،إما إللانتكاس

أو للتقدم نحو تضامن رجعى أوتجديد راديكالى .يثبت التاريخ باستمرار أنه لا يوجد تاكيد لما سوف يكون عليه الاتجاه النهائى، حتى إذا تطابقت مجموعة الظروف و الملابسات.

جزئيا لأن العامل البشرى هو أكثر العناصرالمحددة، فإننى أحتاط لنفسى وأحاول استبدال الأمة بالناس، فمن الأفضل أن نؤمن بالناس أكثر من الأمة . ففى لحظات الشكوك الكبرى يصبح التعلق بواقع الشعوب هو الشىء الأساسى؛ لأن هذه الشعوب لايمكن أن تتلاشى. أولوية هؤلاء ليست موضع تساؤل.- كونهم موجودون.بالنسبة للمفكرالمستقل حقيقة فهذا سهل دائما- ومما يتصل بالموضوع غالبا – أن تتذكر التصنع، وغطرسة الفرسان ،والدوافع الاستغلالية التى اتجهت إلى الاستغناءعن الشعب الأفريقى وتحويله إلى جنسيات. فالمرء يتغلب على الاحساس بالمهانة التى تصاحب ذكرى هذه النشأة بتأسيس هويته الأساسية كتلك التى تذهب إلى حد خلق هوية شعب.لا يمكننى أن أرى هذا الجوهر على أنه جزء من هوية الحدود الخاصة بالدولة.الحكم يمكن تطبيقه فقط على الشعوب ،أى الحكم الذى يعنى ، فى معناه الأخلاقى الأساسى أن يطبق فقط على الشعوب وهو ؛الولاء، التضحية، المثالية ،بل حتى الأيديلوجيات باعتبارها فضائل تتغذى و تطبق لصالح الشعوب . وأى ممارسة لفناء الذات دفاعا عن حصانة تفسيمات حدودية مؤقتة تسمى أمم هى صورة لاعقلانية للمثالية. الشعوب ليست مؤقتة لأنه يمكن تحديدها عن طريق الأفكار غير المحدودة . أما الحدود فغير ممكن .

المركبات البديلة لسيارات الإسعاف "كيا –كيا" ، مرت خلف نافذة الشقة فى إنيجوحيث كنا جالسين نناقش موضوع الحرب، وهى تحمل الجرحى من جبهة نوساكا.بعد كم من الوقت سوف تحمل هذه المركبة جثمان كريستوفر أوكيجبو الذى انفصلت عنه قبل ساعات قليلة، اتجه هو إلى أصوات البنادق ، أما أنا- ففى أى اتجاه بالضبط؟ أما أنا فسرت فى اتجاه يدعو للحياة فى المستقبل متهما بتقديم تنازلات ؟

سأل بانجو للمرة الخامسة " ماذا فى الرسالة الآتية من الغرب ؟ أعنى، ماذا يقولون؟ ما الذى يقولونه حقيقة عن هذه الحرب ؟

" أنا أعرف فقط ما نشعر به جميعا بسبب الانفصال".

"عاد إلى الخلف :" نعم، و نحن جميعا متفقون على هذا . لماذا لم تستطع مواقفهم أن تتساوى إزاء المذبحة ؟ لم يكن الإيبو يشكلون خطرا على أحد. إن جرائم القتل فى مايو ويولية أنهكت قدرتهم على إثارة أى متاعب. فماهى التفسيرات التى تمنعكم من الكلام فى وجه تلك الأيام الملعونة من سبتمبر وأكتوبر؟ "

قال ألالى ، "إن جوهر هذه المواجهة هورفض أو تجاوز الدافع النفعى للمذابح الجماعية.أو الشوفينية القبلية ."

المذابح الجماعية هى العلاج المختار لتثبيت الأصول المالية . ففى لاجوس بقدر ماكان الوزراء الفيدراليون ، ورؤساء المؤسسات إلخ، بقدر ما كانوا معنيين، فإنهم لم يبدأوا أبدا. فملايين السياسيين الشماليين المحميين ظلوا فى أمان لم تمسهم يد الحكومة برغم الصيحات الصاخبة للصحف الجنوبية، والجيل الجديد من أهل الجنوب. الأمثلة كثيرة -، هناك أمير شمالى كان رئيسا لإحدى المؤسسات لديه ستة ملايين فى حسابه الخاص غير محسوبة. فجأة تأجل التحقيق. وباستثناء وقفه من وظيفته فليس هناك عواقب أخرى. ثم بدأت تصدر بيانات غريبة عن الحاكم العسكرى حسان، مثل طلبه التركيز على إصلاح الشروخ فى الوحدة الوطنية أكثر من ضياع الوقت فى البحث

عن الأخطاء السابقة . ظلت لاجوس محصنة بطريقة غريبة؛ المنتفعون بالجهاز المدنى المطرودون الذين يستحسنون العمل الخاص يختالون عبر البلاد، أمنين وغير معرضين لأى خطر . الغرب فقط حافظ على إلتزامه القوى بالمبادىء الثورية،علنا وبدون مهادنة.

لكن أصوات المنشقين لن يتم إسكاتها. فاتحادات التجار، والمثقفون وكتاب الأعمدة أدانوا الخيانة ، وطالبوا أن تقوم الحكومة بتنفيذ أهداف حركة 15 يونية خصوصا وأن تلك الأهداف قد أيدتها وتعهدت بها حكومة انقلاب يونية. وفى نهاية المطاف فإن المنتفعين من المدنيين والسياسيين أعترفوا بالخطر الذى يهددهم هم أنفسهم. وكان لابد من التشويش ،وكان يجب أن يحدث على هذا المستوى بحيث يعتم على اهداف المجتمع الأخرى تعتيما تاما. فالمافيا الشمالية إتفقت مع نظائرها فى لاجوس وساهمت بالاستثمار اللازم للمحافظة على النفس. فقد تم التخطيط للمذبحة بدماء باردة ، تم تخطيط كل مرحلة ،ووزع المال على المراكز المختلفة لإرتكاب الجرم لتشويش الإيبو ، ضحايا مرتين ،كان واضحا أنهم للمرة الثانية، هم ضحايا هذه المذبحة الجديدة التى تهدف إلى الربح. لكن لكى يكتمل الدرس، وحتى لاتبقى هناك فرصة لعودة خطرالتدخل القديم بين الأقاليم فى شأن هذه القاعدة لصالح كل المؤامرات الرجعية فإن الجنوبيين من" صانعى المتاعب " بصرف النظر عن مناطقهم تم ضمهم فى الاكتساح العاصف . و كان الإيبوهم الضحايا غير المؤهلين .

أقول إنه "عندما انفصل الشرق، تركوا لنا المافيا والعسكر فى تحالف لاينفصم على الجريمة المربحة .وعلى أساس فلسفة الإبادة الجماعية الناجحة . لأنه لو أن الشرق ذهب حيذاك لن تكون هناك جريمة فى الكيان الجديد التى مازالت تعرف باسم نيجيريا .وسوف تكون الأمة مشغولة جدا باصلاح الحواجزبحيث لاتشغل نفسها- حينذاك- بالمطالب المملة من أجل تطهير أخلاقى. وبالنسبة للأمل فى بناء أى شىء يقترب من دولة اشتراكية.. ."

انفجر ألالى ثانية، " هل توافقنى على ان هذه هى الفرصة الوحيدة لنيجيريا ؟" " لا يوجد بديل آخر. فالجيش يجب أن يعود إلى وضعه كجزء من البروليتاريا . فعقلية بطاركة السياسة قد دمرت سلفا لكنها بدأت حياة. جديدة بتسللها المجهول الى داخل جيش ساذج يتحرك بدوافع غريزية خالصة. نحن فى حاجة الى قوة ثالثة تفكر فى أسس ذات مقام مشترك بالنسبة للشعب. فإذا توقف الشرق، فاطلب وقف إطلاق النار وأعطى القوة الثالثة وقتا للإنتشار فى كل المفاتيح الرئيسية...حسنا، الوقت مناسب.أنا لم آت كل هذه المسافة لأطلب من الشرق أن يستسلموا. لكن الانفصال يجب إنهاؤه"

هز بانجو رأسه. " أوجوكو لن يوافق أبدا. وإنصافا له سأقول إن هناك شىء آخر يمكنه عمله . لقد شاهدت المظاهرات ,فإذا لم يستسلم فسوف يسقطونه جسديا"

" أخبرنى هو بكل شىء عن هذا الموضوع . عن مشاهد عاطفية عنيفة رآها أمام دار الولاية . أنا مستعد لأن أوافق أن يده قد أجبرت ؛رغم ذلك أظن إنه بارع بدرجة تكفيه لأن يجد مخرجا، لو أراد هو ذلك حقيقية ."

" بالطبع هذه هى المعضلة .إنه لايريد طريقا للخروج من المأزق، وسوف أخبرك لماذا. لأنه مولود رجعى. إنه يعرف رأى أنا فيه . لقد قلت له هذا فى وجهه."

تذكير أخر باعداد الذين ماتوا فى الحرب التى وقعت على بعد عشرين ميلا منا إذ جاء به ضابط شاب دخل الشقة وناول قصاصة ورق لبانجو. قرأ بانجو الورقة وأعطاها لألالى ثم استدار نحوى .

" هل تعرف جوى أخاهان ؟"

" نعم "

" لقد مات. حادث سقوط طيارة. إشارة اعتراض فيدرالية."

ظل الضابط الشاب موجودا، قال، " كنت أنا الطابط المراسل له خلال حملة تيف "

أبدى بانجو ملاحظة "حسنا علينا ألا نقلق الآن من أى جانب سيكون هو فيه. "

قال الضابط بصراحة ، " لا أصدق أنها كانت حادثة "

هذا الحوار أشبه شيء بذلك الحوار الذى دار حول زيارتنا لإنيجو، يجب أن يظل جزءا من اللغزألأكبروهو الحرب. حيث كان حضورنا فى تلك الشقة،وهى مركز عمل بانجو التى كان يستخدمها كمكتب. لأن أحدا منا لم يكن من الإيبو، فيكتور بانجو كان مثلى من اليوروبا .أما ألالى أجاوى فكان من الوسط الغربى.،وهو ماركسى تدرب فى موسكو وعمل مع نيكروما فى الحزب الشيوعى(C P P) إلى أن أحس بحرج متزايد بسبب دعوته لتقليل عبادة الفرد وعن الانفصال المتزايد بين النخبة الحزبية وبين الجماهير وقد اكتسب لنفسه قدرة سحرية فى عمليات الاعتقال الوقائى. كان ألالى ، رشيقا وقلقا راح يذرع الحجرة فى خطوات واسعة مرنة ، ينفجر من وقت لآخر لكى يسأل :

" كيف يمكن لنمط جوون هذا أن يفكروا فى بناء أمة على مذبحة إبادة ناجحة، أو أوجوكوعلى أساس رد الفعل العاطفى للمذبحة ؟ ماذا يفعل هؤلاء المثقفون جميعا الذين نسمعهم كثيرا يرددون رطانتهم الاشتراكية الزائفة ؟ لقد أعتدنا أن نضحك على هؤلاء المزيقين حين كنا مع نيكروما. لذلك فما الذى حدث عندما وقع شيء معادى للإشتراكية مما يهدد بتفجير الوطن. لماذا لا نسمعهم الآن فى وقت الحاجة ؟"

قلت ، " أنت لاترغب فى الاستماع إليهم، إنهم يستمتعون بشجن الاختياربين إثنين من الشرور ".

قال بانجو ، " إن الأمة لاتواجه فقط الاختيار بين إثنبن من الشرور.أيا كان الطريق الذى تاخذه هذه الحرب، فالنتيجة هى فقط ترسيخ أسوأ ما فى الشرين.

فقد خاض السوفييت حربهم الأهلية وبنادقهم فى أيديهم و الأيديولوجيا فى رؤوسهم. كان ذلك منذ نصف قرن مضى .لكننا نقذف بجنودنا الآن الى الميدان بشعارواحد فقط هو : أقتل أبناء يا ينمرين أو أبناء الهوسا .ولمصلحة من ؟ إنه مطلب البرجوازيين الرأسماليين الذين بدأوا يحصدون أرباح الصناعات الحربية الناشئة . كيف يمكننا أن نتخلص من تحالف المغامرين الرأسماليين وبرجوازية العسكر بعد الحرب ؟ ألا يعرف هؤلاء المثقفون تاريخهم ؟ ألم يسمعوا أبدا عن أسبانيا "؟

" وكلما طال زمن الحرب .." بدأ بانجو يتكلم فقاطعته لأسأل إن كان يظن أن الإيبو سوف يقاتلون حتى آخر خندق. لقد طافت فوق أفكارى ملاحظة جورج أورويل :

" إذا كان من الصواب ... أن تشجع الأسبان على الاستمرار فى القتال عنما يعجزون عن إحراز النصر فهذا سؤال من الصعب الإجابة عليه. أنا نفسى أظن أنه الصواب، لأننى أعتقد حتى من وجهة نظرى أن يعيشوأ لكى يقاتلوا ويواجهون الهزيمة أفضل من الاستسلام بدون قتال."

بناءا على ما رأيته وسمعته، كان من غير المحتمل أن يستسلم الإيبو.

تنهد بانجو ." من يستطيع أن يخبرنا بما سوف يفعله الإيبو ؟ الحكاية كلها جنون من البداية، لكن من سوف لا يجن بعد أن وقعت الكارثة ! لقد أشار مرارا وتكرارا ، كما فعل ألالى، الى لب الفشل ذاته ، وهو الإحباط المزعج النابع من إنحراف أخلاقى لآ يصدق باتت الأمة بسببه مذنبة." لكن ما الذى حدث لكم أيها الناس فى الغرب؟ أوتيجباى وكل هؤلاء الناس الذين لا تختفى صورهم من الصحف . لم تصدر عن أى واحد منهم كلمة إدانة واحدة للحرب, ولا أى احتجاج على جوون ، ولا حتى مظاهرة من الطلبة، ولا أى عمل من أعمال التضامن مع الضحايا. كيف توقع بقية أبناء القطر منهم ألا يغذون المقاطعة ؟"

" قلت ، " ربما كانوا يريدون قطيعتهم. هناك أسس متبادلة على كلا الجانبين لأصحاب المصالح المكتسبة ."

" المقاولون !" بصق ألالى الكلمة من فمه باشمئزاز شديد.

" سوف تجدهم فى مجال الأعمال والخدمة المدنية. الواقع أن الأخيرة أسوأ. على الأقل أنت تعرف رجل اعمالك.أما رجال الخدمة المدنية فهم أخطر.إذ يدعى كل واحد أنه لا يحمل سوى مصلحة الدولة فى أعماق قلبه." شق الهواء فى تقطيعات كاراتيه دقيقة،يسار، يمين أمام."إنها ليست الأمة فقط هى التى تحتاج إلى تقطيع. إنها عقلية الشعب ككل.تحتاج أن تقطع إربا ثم تجمع مرة ثانية ."

ما جمعه الله (الرجل الأبيض)، لن يسمح لأى رجل أسود أن يفرقه. إن تعقيدات سياسة الاستعمارالجديد فى التدخل تفرض على الانسان أن يتقبل مثل هذه التعاليم الملعونة الآن كضرورة برجماتية. ربما فيما بعد تستطيع الأمم السوداء الجلوس مع بعضها البعض، وبناء على إتفاق ، يضعون البوصلات والسطور المربعة على الورق ويعيدون تشكيل نفقات الحياة ، مستخفين، بقيود هذه السلطة المقدسة المفروضةعليهم.

فما هو واضح ، بطريقة بائسة ، ومهينة أن حربا يتم خوضها بدون برنامج متزامن للإصلاح وإعادة تحديد الهدف الاجتماعى . إنها حرب صمود ؛ لأن الصمود كلمة أكثر دقة من كلمة الوحدة فى وصف حرب يمكن فقط أن تعزز القيم الأساسية التى أشعلت الحرب بالدرجة الأولى، لأن هذه القيم لم تختبر فى أى مكان أو أى زمان.لم يظهرأى برنامج تم تصميمه لضمان القضاء على المظالم التى أدت إلى الصراعات الأولية .

سوف يكون هناك انتصارات بالطبع ، لكن المنتصرون لن يكونوا من ضحايا الجماهيرالشعبية سواء فى بيافرا أوفى بقية الأمة. وبعد أن أتخموا وشبعوامن ، فإن هرم النخبة سوف يندمج فى ألية الإغراق الطبيعي فى مجال سوف يمتص قطاعات أخرى من النخبة،خالقا كتلة مافيا متضامنة ذاتيا من العسكريين والسياسيين القدامى والمقاولين . بعد ذلك كله، فإن إرادة الأمة القتالية ليست بلا حدود. فإرادة الحرب وضعتها فى توتر عنيف حتى أنه لن يتبقى منها سوى القليل الذى يمكنها من تحدى قوة المنتفعين بالحرب عندما يأخذون فى دفع الأمة إلى الموت. وكما يشاءون، وبعد أن انتفخوا بريح النصر، سوف يظل المنتفعون بعفونة الموت حكاما مقررين. بحكم الأولوية فإن القوة القتالية لأى شعب ترتبط بالعمل الحاسم للثورة الداخلية .فأن ترهقها أو تبددها بغير احتياج معناه أن تضع الشعب تحت رحمة الانتهازيين بعيدى النظر من اصحاب نظرية الاندفاع والفوضى.

المقاولون العسكريون والديكتاتورية المتعددة : هذا هو الميراث المحتوم لحرب تمت إدارتها على أساس الشروط الحالية . الفراغ فى القاعدة الأخلاقية – لأن الحدود القومية ليست قاعدة أخلاقية أو أيديولوجية لأى صراع- هذا الفراغ سوف يتم ملؤه بأخلاق عسكرية – هى الإكراه القسرى . والتكوين النخبوى للجيش، العقبولة الاستعمارية العالقة االتى بقيت بسبب العجز القومى عن إعادة التقييم سوف يستمر بذاته ويرقى بالتراث الطبقى للمجتمع. إن التشعبات فى تحالف الطغمة العسكرية الفاسدة والمافيا المغتصبة لا حدود لها فى المجتمع وهى مسألة تكاد تستعصى على العلاج . الحرب تعنى تعزيز الجريمة، والقبول بسلك القيم التى خلقت الصراع. إنه فى حقيقته ولاء وتقديس لسلم القيم هذا لأنه الآن صار مرتبطا أرتباطا حميميا بمعنى الهوية الوطنية .

كل شىء يتم تعريفه عندما يجلجل شعار الهوية الوطنية. كل شىء يتوحد فى الترحيب الهلامى بالوحدة القومية. التفكير(لا أستطيع أن اجد كلمة أخرى ، لكن العملية كلها غير عقلانية) التفكير فى أن القيم التى كانت سائدة عند تحقيق النصرهى القيم التى تخلق النصر.فى جو الضباب المشوه للغبطة القومية فإن الانحراف الأخلاقى والعقم الأيديولوجى الذى أدى إلى الصراع لم يعد نراه هكذا، ولا نراهم كأشياء مستمرة فى هوية الأمة حيث أن هذه الهوية لم تتغير، ولم تجتز أى تطهير ثورى سواء فى أحشائها أوفى رأسها. فأى حرب ، بما يتخلف عنها من معاناة انسانية طويلة ، لابد، حين يصعب تجنب ذلك الشر،أن تؤدى إلى مزيد من التجزئة لا البناء:لا بد أن تمزق أسس التفكير والابداع . بهذه الطريقة فقط يشارك كل فرد فى الكارثة و يفهم الهدف من التضحية .

أظن، بعد كل ذلك ، أن هناك تعريفا واحدا مشتركا لكلمتى شعب وأمة – وحدة من البشر مرتبطين معا بأيديولوجيا مشتركة.لابد أن يكون الشعور بهذه الهوية أو بفقدانها هو الذى أحس به فى لحظات اليأس عندما تطوف بى هذه السطور من (أفلاطون)

وهؤلاء الذين يكرهون الشر من أعماق قلوبهم

سوف يطردون من وطنهم ، عندما يتأتى للشر

أن تعبده أمة من العبيد

من الحكمة أن تنبذ هذا البلد وهذا أفضل كثيرا

من أن تحمل نير رعاع أعمته الكراهية

فى انتكاسة شعب يعود إلى مرحلة الطفولة.

أو فى لحظات أكثر بهجة عندما، أتذكر سطور كاسترو بكل ثقة "

هذه الأرض أرضنا

والهواء

والسماء

سوف ندافع عنهم دفاعا
عن هذه الأرض ، وذلك الهواء والسماء التى تشكل رؤيتنا الى ماوراء الحدود التى رسمها سادة

الماضى الاستعمارى أو أعيد رسمها بفعل هبة الغضب الغريزى للمنتهكين فنحن ننطلق ، كل إلى مصير مختلف.

الفصل الرابع والعشرين

اخطر لحظات الضعف هى تلك اللحظات التى تسبق اليقظة،هى اللحظات التى تقع بين الصعود الى قمة الوعى وحالة التسلق الفعلى نحو الشاطىء .هكذا أفكر أنا فى الصباحات الخطيرة : ربما يكون هناك أنواع كثيرة من الوعى تحوم فوق سطح مشترك فى تلك الساعة وعلى الشاطىء اكوام كثيرة من الملابس وعقول مخدرة تنجرف الى الداخل والى الخارج ، فلو قدر لإنسان فى مثل هذه الحالة أن يختار لباسا خطأ ، أو انجرف حول نفسه إلى الأبد لأنه لم يجد شيئا. فكل شئ يختفى بطريقة غامضة .

فى كل يوم أقضى وقتا طويلا بحثا عن الملابس ، قطع غريبة تحملق فى وجهى . قميص ملوث ، بنطلون طويل ، شبشب غريب . ثم إننى اقع فى أخطاء وأواجه نظرات غريبة ، واحيانا ضحكة ساخرة . كم من الوقت تستغرق ؟ بريقا كما فى حلم ؟ أو تدوم دهرا ؟ كم من الوقت يأخذ البحث ؟ كم من الوقت بطول اليوم ؟ لمن هذه الوجه التى لا أكاد أتعرف عليها فى العتمة ؟ كيف يتأتى لإستعارة مجردة أن تأخذ مثل هذه الأصول ؟ من غير الممكن أن ترى نفس الحلم عند الفجر كل يوم. ربما أنجب التفكير حالة من الرعب وراح العقل يقفز بدافع غريزى نحو الخوف المدفون فى وقت اقتراب اليقظة.

تعود أحلامى النهارية الى تلك البحيرة، تعود مرارا وتكرارا بحثا بين الوجوه الغربية ، التى تجر أقدامها فى خوف متزايد ، خوف الرعب ، خشية أن أصحو فأجد نفسى غريبا عن نفسى.

أنا اعرف السبب . أعرف احداث الأيام السابقة التى اتهرب من تحديدها . من الواضح أنها مفزعة، لكن ماهو السبب المباشر ؟ البوابة. دق المسامير فيها . إننى أشخص هذه التجربة غير المسبوقة : تجربة الخوف من الأماكن المغلقة .

نوبة زائدة من القمع عمياء ساحقة. اندفاع عنيف لرائحة سموم فى الرواسب المحبوسة داخل كبسولتى العازلة ... فجأة فى جنح الليل أرغمت على اليقظه كما لو كانت كبسولتى الذاتية مجرد فقاعة فى بركة الوعى . لكن الكبسولة صمدت وابت الانفجار ، قبضت بمخالبى على السطح الأملس وتوسلت كى يدخل فيها الهواء. كانت يقظة رطبة فى ليلة عاصفة . البرد يضاعف حدة العزلة داخل الفقاعة، يأتى الخوف من طعنات الضغط الباردة كالثلج. لماذا ؟لماذا تنسد رئتاى فجأة ؟ اضطراب وحشى ابتدأ فى نبضاتى،أ سمعه يدق فوق رأسى بمطرقةوأصبحت قبضتا يدى المنطبقتين شيئا حيا. طائرا مفزوعا يضغط ليسد راحة يدى. إنه النبض ، نبض خالص. شعرت أن قلبى يوشك على الانفجار. الكبسولة تنفك. وقطيع من الفحول تلطم خدودى.

سالت ان كان يمكن احتمال هذا، جمجمتى توشك على الإنفجار. البحيرة الساكنة انفجرت فجاة وأخرجت أنا منها نظيفا ، فقاعة من الزجاج فى قفص من البلاستيك كبسولة مبهرجة حشرة مشبوكة بدبوس صعدت نظيفا بفعل الإنفجار الذى قذفنى من جانب إلى جانب فى موجات تموجية ضخمة .امتدت يد طويلة من بين الموج فى انحراف شرير وشدتها ثانية الى قاع النهر، وانزلقتا من قمة الى قمة حيث لا ضوء و لا اتجاه . البحيرة مغارة تحت الأرض مغلقة باحكام من الطرفين ،لا يوجد شئ يمكن لليد ان تقبض عليه. مجرد زئير فى اذان القبو، جنونفى قلب الأرض العارى - قنبلة من المياه تنفجر وتتناثر منها كرات قاتلة نحو مراكز النبض فتحدث دمارا .

لكنك تعرف ما هو الغرض منها !إحداث الفزع! أنت تعرف أنها من أجل هذا فقط! شىء بلا معنى !

سمعت صيحتى واستيقظت. قفزت وحدى من سطح البحيرة نحو الشاطىء وا تجهت دون خطأ نحو ملابسى.

لكن الكبسولة تم امتصاصعا ثانية. والآن فقد كافحت فى فراشى وجلست ساقا فوق ساق. هذا ما تريد أن تفعله كما أنذرتك: اقفز، امسك هذه القضبان وهزها كما يفعل قرد هائج. واصرخ ! لأن هناك هذا الشئء، هذا الانقباض الحديدى اسفل القلب والتنفس صار عذابا. وأخذ الجسم ينكمش حجمه إلى سمك قرص لعبة الهوكى ليقفز طائراكى يصطدم بالحائط ويمزقها مكتسحا أمامه كل شئ بتلك القوة غير الانسانية التى هبطت علي فشعرت بقوة تيتانيك الجبار. حاضرة هناك! قوة ملموسة. لو تركتها تحكم جسمى حتى لكى يتحرك بخفة من ذلك القيد الرقيق لساقى المربعتين تحتى، فسوف تنطلق قوة التدمير الذاتى.

لماذا ، لكن لماذا ؟ ألست انت سبد هذه البيئة؟ ألم اتوجك ملكا للعزلة ؟

اضبط . اضبط. خذ نفسا ، إخرجه. لا تترك صوتا آخر يفلت منك. استند على الحاجزين المتوازيين للباب، درجة تعادلك توٴهلك لهذه العلوم الغريبة التى تشغلك الأن. أمامك قضيبان ، معادلة واحدة. وازن السماء بالأرض و الأرض بالسماء. اقبض عليهما بشدة لكن فى صمت. تلمس الحديد ودكه فى داخل روحك. واحفظه هناك .

لكن متى وصلت إلى الباب ؟

الأرض. الأرض.إجلس على أرضية الزنزانة. بطانية.إذا لم تصل البرودة حد التجمد. توسد إذن.اجلس على الوسادة لتحمى مفاصل قدميك. لف البطانية حول جسمك ثم تنفس.أدرج أشياءك فى قائمة بادئا بفرشة الأسنان الموجودة على الرف. مافائدتها؟ والصابون؟ عد القطع واحدة واحدة مستبعدا درجات التعادل لا، من خلال الأنف. تنفس فقط من خلال الأنف.كل ماتحتاجه من الهواء يمكن أن يأتيك من الأنف. لاتلهث .أنت لم تكن تجرى، ليس لهذا متسع هنا.لا تترك الشياطين تدخل هنا. والآن إفرغ ذهنك .وضع المرساة .

فى هذه الليلة القارصة البرودة تغطينى بحيرات من العرق.وربما يكون من الأفضل أن أبقى فى الفراش،مستلقيا.هناك سطح أكبر يغطيه التراب.إفرد ذراعيك على الأرض.إدخل كعبيك فى كتل من الحشو.أنا انتظر لحظة إهمال فى هذه الهجمة، لكى أحشد قوتى فى لحظات الصفاء. كيف تصفها؟ إنها تستقر فى نمط معين ،بإيقاع مقبول من المد والجذر، بين سوء الحكم والوضوح. هجوم وحشى بقطعان من الذئاب ثم لجوء فترة قصيرة تحت مظلة . اصابعى على منحدر صخرى آخذة فى التراخى والإعياء. قطرة فى فراغ طويل، سكون محير فى قلب الاستنشاق. استلقيت ذات مرة على وجه صخرة منتصبا تماما لا يحملنى غير القوة التى رفعتنى فوقها لأول مرة. متى ؟ لا أعرف ، لزقة يحميها توزيع للقوة خبيث لاحيلة لتركها طليقة ،ولا ثغرة لدق خابورمن العقلانية فيها . بعد كل غسلة عميقة بالماء ينكمش الحجم ويتقلص البعد. تم لقد تأكالت بفعل الغسيل حتى صارت فى سمك الورق الحساس. هل هذه هى صورة الأشعة الخاصة بى فوق الصخرة.

قصاصات

لا يمكننا ان نمسك بها

تعترض ومضات البصيرة

خطوات نعبرها ثم نعود لنعبرها ثانية نحو عتبة الإدراك

تثبت ذاكرتى على الأقل أنها واعية حافظة .تلك التسبيحة تؤدى الغرض. انطق الكلمات اطلب حالات ان لم تصمد الأفكار مرة أخرى.

مرارا وتكرارا تتدحرج الكلمات فى الفم .نتذوق نعمة النبيذ ، و نكهة حبوب اللقاح ، تراب الروح. الرحيل الى ما وراء الحاضر، دع الكلمات تعد طريقها ثم ترحل عبرهذا الطريق وهى تنشررائحة البخور حولها. ابسط خياشيمك بنهم. لكن بنهم! و ابتلع مايفوق حد الامتلاء.

هل هذا انتصار؟ لا بل، جذر ومد . لكن قد يكون واحد منهما هو القمر ويحلق عاليا فوق الأخطار،رغم أنه قد تم قذفه واجتياحه فى أعماق مظلمة، تفصل مابين الذات الأصلية وتوأمها المنعكس وتجعل كل الوجوه الجارحة أشد تعاطفا على المستوى الحسى. ظلى واقع فى مصيدة لكن جوهرى لا . أكرر. ظلى واقع فى مصيدة لكن ليس جوهرى.والآن إقذف تعويذة جديدة إذا تجدد الهجوم.

أيتها الأقمار الدهرية

أفتحى عينيك الحوراء تين

فوق معابريدى

مشطى

أعراف الريح البحرية على رمالى التى جرفها المد.

لقد شفى كبدى.وانا أنتظر النسورحيث لاوجود للصقور هنا .

الفصل الخامس والعشرين

وصل أمبروزو للعمل ، متأخرا . فإذا لم أوقفه بسرعة أو أجمده بطريقة معادية فإنه يقدم دائما شرحا إن كان قد تأخر دقيقه أو لم يحضر مطلقا فى نوبته السابقة . وغرضه الحقيقى أن يرى اذا كان هناك أى متروكات يريد أن يحصل عليها قبل عامل النظافة .

صباح الخير! أنت لم ترنى – لقد ذهبت الى المحكمة . فى المساء عدت متأخرا قليلا . نحن نحظى ببعض التملق بسبب الوظيفة.حدث فى هذا الصباح ." صباح الخير صه. كلنا نحن السجانين

اخذنا حقن التطعيم. هذا سبب تأخرى. الحمى الشوكية منتشرة فى المدينة ومات كثير من الناس . كشفت قليلا من رد فعلى وأخذ هو فرصته " نعم ، أظن أنهم يقولون أن الحمى الشوكية وهذا اسمها. إنهم يديرون رأس الرجل الى الخلف .كل شخص داخل السجن يجب أن يأخذ جرعة الطعم اليوم . كل السجناء والمعتقلين . لذلك فعليك أن تجهز ذراعك وسوف تشعر بقليل من الآلم .

كل شئ نرحب به فى السجن ، حتى تهديد الحمى الشوكية ووخزات الحقن غير المحببة . هناك ساعات انتظار دخول الإبر ، لحظات وقوع الحدث ، ثم بقية اليوم عندما يتجسد ذلك الحدث فى فتح فجوات فى جو خانق لحياة لا هدف لها . أنا لا أحتاج إلى أمبروزو لكى يخبرنى متى جاءوا الى فناء المجانين ، فهناك الطرقات السلطوية المألوفة على الباب ، مدخل الفرقة الطبية، إعلان الأوامر ، الأنين الذى يعقب كل صيحة ألم . لقد اندفع أمبروزو وأعلن ، " لقد أتوا !" ثم عاد الى موقعه .

مرت ساعة.وسمعت البوابة تفتح والفريق يغادر المكان بنفس الطريقة التى أتى بها. لم يصدق أمبروزو ففتح بوابته قليلا ليرى ماذا حدث، ثم أغلقها ثانية وعاد أدراجه. قال " أنا لا أعرف . أظن أنهم نسوا أن يلقوا عليك تحية الصباح أو ربما غدا يلقونها عليك "

نزلاء السجن ، بما فيهم أولئك الذين فى زنزانة الموت ، قد حقنوا ضد الالتهاب السحائى .

حاولت أن أتذكر ما أعرفه بشأن هذا المرض . أساسا هو مرض سريع العدوة ، ولكن ليس عن طريق الاحتكاك المباشر بالمرضى فالجراثيم تنتشر فى الجو عن طريق الهواء .أثناء سيرى بخطوات واسعة فى السرداب . وجدت نفسى ألقى نظرات لا ارادية تجاه الحائط ، كأننى أفتش وأراوغ بذور هذا الخطر الأخير الراكبة بلطف فوق الأسلاك الشائكة لتحقيق آمال أولئك النفر من الناس الذين أمروا بعدم اعطائى حقنة التطعيم .

لأننى أعرف أن هذه لم تكن رؤية مبالغ فيها.بل إنها إمكانية "طبيعية " جدا نحو الحل النهائى

هامش :حوالى أغسطس 1968،انتظرت الحكومة أكثر من شهرين قبل أن تنكر التقارير المستمرة التى تنشرعن موتى . إعلانات الوفاة كانت تكتب وتذاع ، لكن، هناك صمت من جانب الحكومة. فهى تنتظر، كنوع من الاختبار.

الفصل السادس والعشرون

لم أمارس أبدا فى حياتى عملية نشل الجيوب – الآن ، تمهل لحظة ، فربما أكون قد فعلتها . فى المدرسة يمارس الأولاد كل أنواع اللعب مقلدين أدوار الجاسوسية المثيرة والروايات البوليسية ،وتصوير الأفلام الخاصة ، أى من هذه الألعاب كانت كافية لوضعنا فى اختبارعما إذا كانت أصابعنا أو ردود أفعالنا أكثر رقيا منهم، أى من اللأطفال.

علاوة على ذلك هناك معرفتنا المكتسبة فى علوم الكيمياء والفيزياء.الآن سرقت أنا أقفالا ، ليس بقصد اللهو.إنها حافظة مفاتيح مفقودة . الخ ، ناهيك عن عدد المرات التى استعمل فيها مفتاح الباب الخلفى لادخال صحيفة تحت عقب الباب – وهذا ما استفدته من خبرتى المدرسية . لكن القيام بنشل جيوب ،لا، لم يحدث هذا على ما أتذكر. أقصى ما كان يحدث هو سرقة شىء بقصد المزاح فى وقت اللهو بالمدرسة.

لكن ، منذ أسابيع قليلة مضت – هذه، حقيقة، إنها أول سرقة يسجلها هذا القلم ـ أديتها بكفاءة وسلاسة كأى تلميذ من الفائزين بجائزة فاجين ، فقد سرقت جيبا ، وليس أى جيب ، ليس الجيب الخلفى لبنطلونه ، أو جيب المعطف الخارجى لكن جيب القميص الموجود على صدره . كون هذا العمل البطولى لم يبدو لى شاذا فى ذلك الوقت ،فإنه ادهشنى بدرجة غريبة.إنه برهان آخر على كيفية تحول الإنسان يوميا، لا، بل لحظيا إلى مايشبه الثعلب بسبب حبسه بعيدا عن الوجود الحضارى العادى. إن الذى استدعى هذه الحادثة إلى ذهنى هو أن القلم – وهوقلم جاف رخيص – قد بدأ فى عرض البوادر الأولى، ووجدت ذلك بطريقة غير واعية تماما فأخذت أتمنى عودة الطبيب. متحيرا لماذا، تذكرت حادثة القلم الرصاص لعملى الأول كنشال جيوب.

أخيرا حدث أن قام الدكتور بجولة روتينية فى الزنازين إلا أنه فى حالتى لم تكن زيارة روتينة أبدا . لقد مشى الدكتور بين المساجين لم يره أحد ، يصحبه فقط ممرضة وأحد موظفى السجن الصغار. ذلك ، بالإضافة إلى الثقة المرتبطة بالصيدلىأكملت الفريق كله . ثانية ،فإن أى نزيل جديد للسجن لا بد أن يرى طبيب السجن فى الحال ، وهذا يتم بالتأكيد فى الثامنة والأربعين ساعة الأولى . لسبب واحد أنه هو الذى يصف له نظام الغذاء ، ويقرر بعد الفحص الدقيق ما هو العمل المناسب له . ورغم طلباتى الكثيرة ، فإننى لم أشاهد طبيبا لعدة شهور . عند اقامتى تولى المشرف العام نفسه وصف النظام الغذائى لى. جاء فى الصباح وسألنى ما هو الطعام الذى أعتدت على تناوله. لقد حصلت حتى الآن على نوعين فقط بينما اشارهو إلى كميات كافية. ومنذ ذلك اليوم ، حتى وصول المشرف العام الجديد كنت أكل اليام فى فترة بعد الظهر والأرز فى المساء وفى الصباح يأتى اللبن ، السكر ، الزبدة ، والبيض معظمه ليزيد وزن عامل النظافة وحراسى ، وأمبرزو بشكل ظاهرجدا.

والآن ودون سبب مفهوم ، ظهر الطبيب فى صحبه المشرف العام ، واثنين من الضباط الصغار .سجان كبير، وكتيبة من صغار السجانين . أما الممرضات فقد انتظرن فى الخارج . خضعت للفحص ، أجبت أسئلته ثم سألته بدورى سؤالا

" أنا هنا منذ شهور. وحيدا ليس لدى كتب، و لا شغل أيا كان. هل تظن ان هذا مفيد لصحتى ؟".

دفع إصبعه الابهام فى صدرى وضحكز" ها ، ها أنت تبدو لى بصحة جيدة جدا".

" لكن هل تظن أنه اجراءا صائبا؟ هل تظن أن هذا تصرفا انسانيا ؟فإذا كنت لا تظن ذلك فينبغى عليك ان تفعل شيئا. لقد تعودت على استعمال عقلى وتغذيته ، فهل من الصواب أن اتعرض لهذه المجاعة المتطاولة؟."

اتضح لى أنه أبله. لم اكره ابدا اللهجة الأسيوية كما كرهتها فى تلك اللحظة . وفيما هو يتكلم ، تذكرت تاريخ التدخل الهندى الباكستانى فى الخدمة المدنية النيجيرية، و فى مصلحتين على وجه الخصوص – السكك الحديدية والخدمة الطبية . كان الراحل ساردونا سوكوتو هو المسئول الأول عن جلب هذه المواهب الأسيوية الضعيفة إلى بلدنا. فضيحة بين ألاف الفضائح تشمل موظف بإحدى المستشفيات ،هو ابن أخ مضيفه المسلم أثناء بعثة من بعثاته الإسلامية التبشيرية فى باكستان . ففى إحدى لحظات توسعه على حساب الأمة منح ساردونا لهذا العامل منصبا رئيسيا فى شمال نجيريا قبل أن يعود معه . لقد فعل هذا وتم تعيينه ضابط طبيب. ومارس الجراحة وكانت النتائج يمكن التنبؤ بها. واخيرا فى 1963 ، نتيجة الإنزعاج الشديد من كثرة عدد الوفيات فى الجراحات التى يجريها ، تم التحقيق معه. وتم الكشف عن سوابق هذا الصنيعة الخطير. رغم هذا فإن القرار النهائى كان مجرد : يمنع من اجراء أى جراحات أخرى. هذا الجزار احتفظ بوظيفته ضابط طبيب برتبة رفيعة ، واستمريعمل بانتظام فى استقبال المرضى بالعيادة الطبية .

لقد رأيت طبيب السجن وسمعته ، بلهجته الكاريكاتورية فبدا لى أشبه بواحد من حثالة الواردات الساردونية الأخيرة . البداية ظننتها مجرد نكته رديئة المذاق عندما أصر على ترجمة شكوتى من الفراغ الذهنى بمصطلحات الطب الطبيعى ، ثم أدركت أنه فاقد الوعى .

كنت أشكو" من عينى ، إعصار هارمتان أو ربما شىء آخر قد أحدث فيهما إصابة.إننى أحتاج الى علاج."

وفى طرفة عين ضغط بإصبعه السبابة على جفونى السفلية.بسرعة، الواحد بعد الآخر." نعم ، نعم" وأضاء كشافه مرة فى كل عين " ماذا فى عينك؟ إنها تبدو طبيعية جدا."

" لكن هناك بقع تظهر امام عينى ". نظرت اليه وعينى فى عينه .على أمل أن يفهم ويمارس سلطته . " لابد أنها من قلة القراءة "أحسست بأنه أبله.

" لا، لآ " قال وهو يركض حولى وأخذ يفحص كل مقلة عين بجدية صارمة . ربما تكون قد قرأت كثيرا جدا فى الماضى . الأفضل أن تريح عينيك !""

قبضت عليه فى اللحظة التى استدار فيها الى اليمين حولى . هو الآن بينى وبين أعضاء إدارة السجن . أمسكت بيده التى تحمل الكشاف وأوضحت كل كلمة ببطء" إنها تحتاج الى القراءة "

حقا ، حقا .....آسف ، هل ذلك يزعج ؟

فككت معصمه برقة وقال " سمعت الآن أنك لم تكن تآمل جيدا. أنت تعرف أنه يلزمك أن تأكل جيدا" .

و فى تللك اللحظة فكرت أنه من المؤكد أننى لن أخرج بشئ من هذه الزيارة من ذلك الرجل حتى أن ذهنى علق على قلم الحبر الجاف من جيب الصديرى . للكتابة ! لكى أتمكن من عرض أفكارى على الورق ، ربما لبداية مسرحية،أو رواية ، أو قصة قصيرة ،أو حسابا لنفسى ..... كل ذلك كان

، لكن الأهم من ذلك ، الشغل " أنا والقلم سوف نفعل شيئا . سوف يجرى الوقت بسرعة أو يتم قرضه ببطء .

أخذت اكرر " بقع ، مثل الآن ، هناك" وأشرت الى السقف ، لكن خلفه بدرجة ما ، فوق كتفه الأيمن .كان الجيب على الشمال . كنت مرك أن رجال السجن ينظرون ولكنهم يحاولون ألا يشاهدوا ، ينصتون و لا يستمعون ، مدعين أنهم تركوا أحد النزلاء فى استشارة خاصة مع طبيبه . التفت الأسيوى فى اتجاه إصيص ، فملت عليه الى الأمام ، خطفت القلم حين استدار صدره الأيسر خلفى أطبقت عليه كفى ، ثم بسطت كفى على النضدة ، فاستكان فى داخلها "

قلت " بالطبع أنت لن تراها "

" هذا سببه أكلك بطريقه غير منتظمة" بدأ يجمع أوراقه أما أنا فقد ثبت عينى على عينيه لأرى إن كان قد لاحظ ، دافعا إياه لأن يلعن نفسه بصورة مطلقه كواحد مفروض فيه أنه عضو فى مهنه انسانية بسبب خداعه لى . لكنه لم يلحظ شيئا. تأكدت أنه لم يظهر أى رد فعل من جانبه ، "يجب أن تأكل جيدا ،تتغذى بطريقه صحيحة ، ولن ترى بقعا أمام عينيك ": هذا كل ما قاله.

عدت إلى التفكير،أظن أننى تمنيت أن يعرف أمر السرقة. لكان ذلك يعنى وجود ضمير انسانى ، مما يقلل من واقع العزلة . ربما كان ذلك هو السبب الذى حرمنى من الفخربدقة تلك العملية الصغيرة غير المعدة سلفا . كنب مهتما جدا بمتلبعة كل لحظة تظهر فيها ردود فعله ، أملا عكس الأمل فى أن يعرف ، أن يدرك احتياجاتى وأن يتحرك لتلبيتها. لماذا الشىء الآخر الذى أتمناه الآن والحبرقد بدأ يجف من القلم ، هوأن يزورنى ثانية ؟ لكننى حسب معرفتى بحقيقته فإنه لن يعود ثانية ومعه قلم بارز من جيب قميصه . فإذا عاد فربما لأنه ، عرف وجاء عمدا لكى يسرق مرةُ انية.

الحبر أخذ يجف..لابد أنه يمكننا أن نحسب حسابيا (أو هندسيا) سرعة جفاف الحبر فى قلم.او الأنسب أكثر سرعة الإرتداد النفسى لأى نزيل تحت رعاية من طبيب ساردونى .

-الفصل السابع والعشرون

بدأت أنات الحزن تسمع بعد العشاء مباشرة . كانت تأتى من ناحية ذلك الجدار الذى يواجه مدخل زنزانتى . الجدار به فتحتان للضوء ، تغطيهما شبكة من الحديد تسمح بمرور قط و من نتف الفراء التى تبقى عالقة على الشيش الحديدى أعرف دائما متى استعمل الممر بالليل . ثم انطلق فى الفضاء المتسع عاريا مرعوبا ، ليختفى خلف الكوخ بحثا عن فتاتة يأكلها.هناك مجرى ماء مباشر خلف الكوخ . يربط هذا المجرى فناء المجانين عن طريق سرداب بحظيرة النساء . هذا المجرى هو الخط الذى يجرى تحت الأرض ويربط قبور جهنم كلها .

أشم رائحة الموت الأن فى الهواء . لا يمكننى ان اخطئها لذلك فإنه يتوجب على أن افكر فى الأشياء الحية ، اطرد هذه الرائحة بعيداعن انفى،ومعها تضرعات الأيدى المعروقة بسبب عجزى وقلة حيلتى.

منذ أسابيع ولد لنا طفل هنا – سمعت صرخات رضيع وتساءلت كيف يمكن هذا .أيوجد طفل فى هذا الجحيم ؟ كان الوقت مساء ، نفس الوقت تقريبا الذى بدأت فيه الأناث الحالية المقتحمة. ربما تكون زوجة قد جاءت لزيارة زوجها السجين ومعها طفل حديث الولادة .

ليس هذا غريبا. لقد سمعت أصوات النساء من قبل لكننى ظننتها اصوات أطفال. لقد مرت عدة شهور قبل أن أعرف أن القبو الذى أقيم فيه يقع بين فناء المجانين وعنبر النساء ! كانت اصواتهن خافتة كأنها خارجة من فجوة فى مغارة بعيدة، ففى المساء يلعبون العاب صبيانية – ومن الأصوات والضحكات أتبين أنها لأبد ان تكون نوعا من العاب الأطفال. وهذه النغمات هى التى كنت اتخيلها آتية من خارج السجن ؟ فى إحدى الأمسيات الهادئة كتبت بعض الكلمات :

أخى جونى

أخى جونى

هل تنام

هل تنام

أجراس الزفاف تدق

أجراس الزفاف تدق

دينج دونج دينج

إنهن يغنين هذه الأغانى فى نغمة غيرمعروفة وغير ذات معنى، نغمة كان أطفال المدارس يرددون الأغانى الأجنبية مثل؛ أجراس اسكوتلاند الزرقاء ، وغابة الرماد ، والفتاة ذات المظهر الرقيق، تلك الأغانى التى فرضها على المنهج الدراسى عديمو الخيال من أعضاء البعثات التبشيرية. إذ تنطق هذه الكلمات بنغمة مسطحة حتى حين تصحبها ألألعاب . فالكلمات لا تحمل معنى بالنسبة لهن لأن المجال مختلف والعواطف غريبة ،وهكذا فإن هذا الأداء الهزيل هو كل ما يمكن لمدرسة الموسيقى التى أسئء توجيهها أن تحصل عليه منهم . لأبد من تذكر هذه النوعية التى جعلتنى اتخيل لوقت طويل جدا أن الأصوات التى سمعتها فى الغناء واللعب جاءت من أطفال يلعبون فى الخلاء الخارجى تحت أشجار المانحو. ذلك العالم يقع فيما وراء حائط العنبر حيث تشرق الشمس خلفها مباشرة .

هناك طريق يمر بطول حائط العنبر Amber Wall لا يبدو مزدحما بحكم الأصوات الآتية منه . أو ربما لأنه يجرى بعيدا جدا عن الحائط بدرجة تجعل أصوات المركبات تبدو مكتومة .هناك قدر معين من التشويش خصوصا فى هذه الناحية ،المؤكد أن هناك مساحة واسعة من الحشائش تفصل بين الحائط وبين الطريق وهذا الفضاء تشغله غابة من أشجار المانجو التى تبدو هاماتها ظاهرة للعيان . أشاهد البراعم تبرز ،عملية الإزهار وبوادر القرون الخضراء على الأغصان . أسراب من الحشرات تطير خلف أفراد اللصوص الذين يتسللون لسرقة الفاكهة عندما تظهر بوادر النضوج ككل

الأشياء الموجودة فى كتالوج المقذوفات العريض التى تقذف بها حبات الفاكهة . وهى كثيرا ما تسقط فى القبو وأنا أسمع الحارس يقسم ويتوعد ويعيد قذف بعضها للخلف.

أنا لا أهتم . حتى خطر إصابة المخ مصادفة بأحد المقذوفات فى فصل المانجو يبدو كنوع من التوابل المثيرة للنشوة التى تجعل الحياة تدب فى جو الملل الذى أعيش فيه . أى كسر مؤلم فى الرأس هو علامة على الحياة ، والحيوية . لا أظن أنه كان يمكننى أن أهتم مطلقا .

ذات صباح نظرت الى أعلى – مشيتى فى الصباح المبكر تبدأ بعد ساعة الإفتتاح مباشرة . هناك فوق قمة غصن ، منطقة لآ تكاد تقوى على حمل ما هو اكثر من وزن الفاكهة، كما كنت أظن دائما ، إنها تحمل ثقلا أكبر من الفاكهة حيث يجثم صبى محاولا الوصول الى حبات المنجة فى أعلى الغصن . كانت رأسه أعلى من قمة الشجيرة ذاتها؛ كان يتأرجح قليلا تبعا لحركة الغصن . كنت متأكد أنه لا يوجد سوى هذه الحزمة من المانجو على الشجرة. ففى أغلب الأحيان يتحرك تبعا تبعا للشجرة ويهتز بعنف حين يأتى واحد أو اكثر من اللصوص ويتسلق الأغصان السفلية لكن لم يجرؤ أحد منهم على تسلق هذا الغصن العالى من قبل . كانت يد الطفل موضوعة على الهدف عندما التقى بعينى تحملق فيه . فتوقف . وأخذنا نحملق بعضنا فى بعض . ابتسمت له استجابة كانت تدل على الحيرة والارتباك . حينئذ أدار عينيه الى بعيد ونظر فى الجانب الأخر . رأيت عقله النبيه يسرع ويتساءل لأنه كان يطل على الحوش المزدحم لحظيرتى . أخذت الشمس ترتفع ببطء من خلفه ، كانت ساطعة بدرجة كبيرة . لا أستطيع معها الاستمرار فى الحملقة . فواصلت مشيتى حول الكوخ .عندما عدت وجدته قد رجع ليحملق فى داخل القبو وعندما عدت ثانية وجدته قد ذهب ، ومعه حبات المانجو .

عندما سمعت صوتا ثلاثيا فى ذلك المساء . تخيلته بين أخرين من أقرانه ، يلعبون فى ضوء القمر. لأول مرة استحضرها ، حاولت بقدر ما أردت أن اكتبها ، ذكريات الطفولة، دار كاهن ملئء بالأطفال . بذلت جهدى النهائى واغلقت هذا المشهد ، بعنف . فى مكانه جاءت رائحة الزهور ، وشروق الشمس ، رجع صوت الجيتار ، النهاية الوثنية الشهوانية لمسرحية أورفيوس الزنجى لجان كوكتو ، رقصة الربيع للطفلين ،ورثة شروق الشمس السحرى المثير ،بذرة تسقط فى التربة تحت أقدام الأبرياء .....

لأنه قد ولد لنا ولد .... انها صيحة طفل وليد، أصوات القهر المحزن الذى صنع عالمه الجديد كله .عقل برئ لكل ما فى جسده الضئيل من حدة . سمعت أمه تدندن وكنت متأكد. إنضم اليه صوت أنثوى أخر عصبى ومتألم بشكل واضح. المشهد كله إنسانيا صوت الأم العادية القلقة كان يقدم نصيحة وهو مهموم الى جانب الطفل . لكن الأصوات ظلت مكتومة ، النساء غير موجودين فى الواقع لم يكونوا ابناء للشمس ، لا يشتهون تزاحم حبات المانجو فى وجه شروق الشمس .إنهم أشباح ، أشباح كاملة لا وزن لها تنجرف فى مغارات الضباب . فى عالمهم السفلى الطفل هو معجزة كاملة الحنجرة . بديل . إننى أفكر الآن بحزن، لأن مولد الطفل قد جاء فى الموسم الخاطئ – كان ينبغى أن يكون الفصل ربيعا . لكن ، إذا كان بنتا فيمكننا أن نتغافل عن التوقيت ونسميها بيرسيفون.

لكن لا عزاء عند حائط المبكى والمغلقة حتى منتصف الليل .إننى اغلقت عقلى عن الأصوات الأخرى التى بدأت منذ ساعتين ، الأصوات التى سرعان ما لزمت الصمت . النزلاء الأخرون ، رفاق الرجل الذى يئن أطلقوا صيحة استغاثه . سمعت أصواتا هيسترية تنادى ، يا سجان ، يا سجان ! واستمرت لمدة نصف ساعة دون أن يهتم بها أحد ثم زادت بالدق على الأبواب ، والشبابيك ، والجرادل ، ثلاثون صوتا على الأقل تطلب المساعدة الآن . وتحتها جميعا وباطراد إستمر الأنين ، بنغمة ومسافة لا تتغيران كأن آلامه قد تصاعدت تلقائيا حتى وصلت إلى ذلك الصوت. سمعت صوت

أحذية عديدة تجرى . سمعت صليل الحديد عند فتح البوابات ، سمعت التهديدات والصيحات ، سمعت الإستجابة ، المحددة للأسئلة . سمعت هؤلاء يصمتون . سمعت وطأ أقدام طويلة للسلطة تقترب من فراش المريض ، سمعته ينحنى ويكشف عليه و لا يقول شيئا . سمعت الخطوات تعود. فقاعة من الأصوات المنفعلة تعنى أنه كان يغادرالمكان دون أن يقول ما الذى يجب عمله . لو أن شيئا سوف يتم عمله . إذن إننى سمعت الكلمة التى تتكرر – دكتور كتمها بسطحية وغضب، صلصلة الأبواب ، وشخللت الأقفال ، ومشيت الأحذية بعيدا .تمتمة الحراس العائدين كانما تعبر عن احتجاجات رجال مظلومين ، رجال قطع وقت فراغهم دون حاجة ماسة .

لم يتوقف الأنين ولم تخف حدته . واستمر صوت هذا العذاب الإنسانى غير الدموى بصورة مطردة وهو الجانب المثبط للعزيمة فى هذا كله . فهو لا يأتى بإختيار ارادى وانما ناتج عن قصور ذاتى وهبوط للنبض . وكأن الرجل قد ترك فمه مفتوحا وصار الصوت يخرج مع حركة التنفس .

وقرب الفجر توقف الصوت . فجأة حتى دون أن يضعف ، وإزدادت حدته . أعرف أنه انتهى .

إن جسدى يتوتر بتيجة لأقل صوت أسمعه . لقد نهض أحد الرجال ، اقترب من الصمت لكى يسأل . أخرون جلسوا فى سريرهم ، قلة انضمت للأول بجوار السرير. بعد دقيقة أسمع تمتمة الصلوات . واستمرت الصلاة حتى انفتحت الأبواب ، دخل أحد الحراس ، توقف ،وصاح منبها لقدوم رئيسه .

وسرعان ما حانت الساعة التى " يستيقظ فيها جميع الموتى " وعندما دار المفتاح فى قفل بابى سألت السجان ماذا حدث للرجل الذى كان يتعذب .

قال : "الرجل مات "

الفصل الثامن والعشرون

أطلقت على الحوائط الأربعة أسماء. " حائط المبكى " هو الحائط الذى تأتى من فوقه أصوات التسابيح الدينية، ثلاثة مرات يوميا ، وفى بعض الليالى ، تأتى انات حزينة لمريض يتألم أو يحتضر، هذا الجدار يوفر أحد الممرات النادرة الإستعمال . هناك تحت الحائط فتحتان صغيرتان لخروج مياء االأمطار.و فى الحالات التى تصفو فيها هذه المياه كنت أرى وميض كاحل قدم لأحد السجناء أو حذاء سميك عادى لحارس، أوحذاء خفيف لعسكرى أو لضابط كبير.وهنا ابتدأت هلوستى أيضا .

نتيجة خداع الضوء والضعف الجسمانى فى اليوم السادس لصيامى الإنقطاعى ، رأيت خلال أوراق النباتات المتسلقة ، هيئته بوضوح . وبصورة لا تخطئها العين، بخصلة شعره فى مقدمة الرأس وشاربه الذى يشبه فرشة الأسنان، إنه وجه إدولف هتلر .

جلست بلا حراك لعدة دقائق ، تاركا الطيف ينمو كما يهوى . لم يحدث أى تغير غير أن مقلة العين السوداء زادت حدة فأغلقت عينى وحولت عينى تجاه الحائط ، تنفست ببطء . وبعناية ثم ادرت وجهى لأنظر فواجهنى نفس الوجه البارد بتعبيراته التى لا تتغير . أعرف أن صرخة أفلتت منى وانننى قفزت الى داخل الزنزانة . لقد كنت جالسا فى الممر ، فى أول المساء ، وقفت فى الظلمة حتى جاء الحارس لإغلاق الباب ، ثم ذهب للفراش . أغلقت عقلى ،ورفضت كل الأسئلة .لقد مضت ساعات قبل أن أنام وبطريقة مدهشة دون أحلام .

فى الأمسية التالية ، وانا أقيس الوقت بدقةذ ، عدت إلى نفس الموضوع . هذه المرة ظهر وجه البرت شفيتتزر . بتغير الوضع وجدت أنه بالامكان أن أحصل على زخيرة من الوجوه . رفضت ومشيت ببطء ناحية الشبكة الحديدية ، شاهدت الظل ينصهر .رأيت النبات المتسلق يرسم خطوط ارتفاعاته وتستعيد صحته العقلية فترة قصيرة من الصعود . اليوم التالى خفضت كمية الصيام كله فقبلت الفول السودانى والبرتقال . فيما بعد اضطربت بسبب استمرار اليقين بأن الوجوه انقلبت ، تراجعت وأطلت بصورة هائلة . فيما بدا أنه تليسكوب من الأثير يواصل ضبط الصورة بإستمرار يتراجع أحيانا ، فتطفو متناهية تماما دون سيقان أو أجساد ، تتحرك ، تتكلم وتشير بإصرار متزايد ، ظللت أراقب بحثا عن لحظة مناسبة بالنهار لأقطع النبات المتسلق . منذ ذلك الحين عادت الفتحة لما كانت عليه ، مجرد بقعة ضوء . وفى النهاية ا ختفت من الوجود لكنها كانت ، تخطط لبعث مزيد من الصحوة العقلية المتعمدة . لقد حررت نفسها من الظلال ، من أجل احدى مسرحيات الظل المحزنة .

موكب هذا الصباح فى الجانب الأخر من بقعة الضوء . شئء لاسابقة له. فحصنها لمدة طويلة وبوقار، كاحل بعد كاحل ، قيد بعد قيد صوت القيود حقيقى . هذا ايضا فى وضح النهار ، عبر شبكة الحديد تظهر أطراف البشرببطء وبالتدريج – حركة ، رنين ، حركة، رنين ، حركة ،رنين . أقدام حافية ، القيود كلها ظاهرة ، والكواحل . انها من نفس النوع الذى كان مثبتا فى أقدامى اثناء استجوابى فى لاجوس، قيود السلاسل الثقيلة اقفالها كانت تعض فى عظمى مع كل حركة. الحركة

المكوكية هى الحركة الوحيدة . وضع القدم اليمنى فوق اليسرى ، واليسرى بعد اليمنى بغير استعجال. أى رفع للأقدام أو الجلد فوق الكواحل إلا ويقشط الجلد وحتى المراوحة فى المكان تصبح عذابا . إن أحذية الحارس اللامعة تحاول فى نتاقص أخرق أن تتبارى مع رقصة الموت الذى يؤديها الشجناء منطرحين أرضا ، لكن كيف ؟ إنه ينقصهم التفوق المعدنى . أحد عشر سجينا وواثنان من الحرس قد أحبوا الصور داخل الإطار الضوئى مبدلين أقنعة الموت فى أول الغسق بمهرجان جديد يتحتم على اكتشاف سره .

حالات صعبة؟ حلات هروب مزمن أو جنون القتل ؟ يبدو غريبا أن يتحدث الحراس إليهم . أصوات الحراس ، لها وقع هادئ عادى يبدو مفروضا عليهم . فلا أسمع كلمات ، بل أصوات. أشك فى أن هناك من بعيد حكاية تحكى وهى شئء مضحك تماما .أنا متأكد من أن الأصوات التى تضحك هى أصوات السجانين لكننى لا أحس أى قسوة. بهذا الادراك التعسفى الذى يبرز مفاتيح الجسم العارية والأحساسات فى السجن يجعلنى أستنتج أنه شىء على حساب الوظيفة الرسمية وربما يكون ضد راوى القصة نفسه . بعد الضحك ، والصمت ، وهو جهد مألوف فى أثناء الوقفة قبل استئناف الأصوات .

لماذا إذن نبذل هذا الجهد لكى نكون عطوفين ؟ فالنوايا الحسنة تنتقل عبرحواجز الجدران ، حتى من خلال الممثلين المقنعين الذين لا تظهر وجوههم . أعرف أصوات الحراس المستبدة و الضوضاء السادية التى تهدد وتبتز . حتى النغمات الهزيلة المهدئة . سمعت أصوات هؤلاء جميعا الذين يزاولون سلطتهم الخاصة ، أعرفهم جميعا . أصوات المساء بعد رحيل الضباط الكبار،عند وضع الحواجز والقيود المفاجئة بأمرالضابد الكبير او مساعديه ، فالحدود بين السجانين والمساجين تنمحى وتبدأ بينهما مشاعر ارتياح انسانية فهم رجال يتقاضون مرتبات ضئيلة – ولهم مشاكل كبيرة فى الحب ، ومسئوليات ورغبات فى الحياة .لقد ميزت بين اصوات يهوذا الخائن عندما أخذت تواسى السجناء الذين خدعوهم هم أنفسهم .

++++++++++++++++++ للمراجعة حتى ص 291

فقواعد الثقة بين السجان والمسجون تراعى بدقة وفقط عند الضرورة تتم المواجهة بين السجين ومن غدر به. أعرف صوت يهوذا الذى يرحب بعودته من المطهر ، صوت المنافق الذى يوبخه لأنه شديد الثقة بأخوانه المساجين . إن اصوات الحراس فى هذه المشاية المظلمة تلوثت بظلال نغمة النفاق لكنها صادقة فى شعورها بالحياء .إنها أيضا ليلة تبادل االأصوات المريحة لكنها مرهقة ،كما لو أن الزيارة السرية كانت متوقفة لكن من خلال مدخل بالغ السوء ينذر بالشؤم بدرجة لاشك فيها.

لكننى مازلت غير قادرعلى الفهم ،فبعد ساعات انسحب الموكب راحعا، فنبضه المميز يكمن فى الصوت إلى أن تنسحب اصابع الأقدام الأولى الى داخل اطار الصورة . استقر فى المركز حتى يتم الهجوم عليه ببطء من قدم آخر، كعب متعب يستريح فى داخل الاطار وثقل متعب . اسمع هذه المرة استجابة أو استجابتين من السجناء .لقد أصبح الحرس يتصرف بصورة طبيعية ، لطيفة ، استرخاء بسبب العلاقة التى ربطت بين من يعذبون وبين الذين يفرض عليهم الواجب أن يتحللوا من جريمة التعذيب .

لقد مر أسبوع قبل أن يعود الموكب . بنفس النمط كما كان من قبل ، كما كانت سابقا الآلية الدقيقة أشكال ثقيلة ، متعبة ومنبسطة وملصقة على لوحة خلال الضوء . اغلقت عينى وأيقظت

مسامعى لهذا الفيضان منذ مروره الأول ، لكن للمرة الثانية هناك فاصل من الأيام . ثلاثة أيام على ما أظن.

هذه المرة هناك سلسلة من المواكب تمتد ثلاثة أيام متوالية واليوم هو الثالث والأخير- لأننى الأن أفهم - ! إنه يبدأ بطريقة غريبة ومبكرا . ما هى السدادات التى أقمتها حتى فوق حدسى أو فطنتى لكى أفوت حتى الأن هدف هذه المواكب ! أن أبقى مخلصا هكذا متنبها للعبور يعنى ، وأنا أعترف ، هو وعى بفعل لم يكتمل ، احساسى بتمثيلية لم تكن فى الحقيقة سوى مقدمة قاسية. استيقظت بطريقة معجزية فى وقتى المعتاد لأن الأصوات كلها التى تستفزنى غير موجودة. يبدو للوهلة الأولى أننى استيقظت متأخر لكن ميل الشمس يبطل هذا . أدرك أننى يقظ فى جو من الصمت .إفتقدت كل الأصوات التى تدعو للأفطار والتى تمر خلال السجن ، عمال النظافة ، العصابة الأولى موكب الحراس وصيحات الأوامر . أنها نبطشية أمبروزو هذا الأسبوع لكن عندما دخلت الفناء وقابلت شابا لم أره من قبل . حتى هذه اللحظة . لم أحدد تحديدا كاملا غرابة الصباح الصامت ، فقط كتغير فى نغمة اليوم التى سوف أتأملة فى وقت الفراغ . (بتعلم الإنسان كيف يختزن التجارب الهاضمة التى لا يسميها الحدس تهديد بخطر مباشر) أبعدت الهدوء غير المعتاد ، وأطلت فى أخذ حمامى ، ثم مشيت بلا هدف حول الفناء . فى هذه المشية المبكرة لا يسمح بشئ إلا بتطفل النمل ، الذباب ، والفراشات وبعض الحشرات الأخرى - لم يبدء النهار فى الأنسحاب حتى ساعتين قبل الظهر ، وترك زخيرة كل يوم لهذه المحاكمة" وهذا التكيف فقط هو الذى تسبب فى اخفاقى فى تفسير الصمت المطبق فى ذلك الفجر . وقع الأقدام الثقيلة للحراس والضباط ، والأخيريين بصفة خاصة ، ووجودا إثنتى عشر قدما على الأقل غريبة كلها مكفهرة الوجوه ، واخيرا ، بالنظر للخلف ، هناك انفعالى اللا واعى بالخوف من ممارسة بعض الشعائر التى لا يمكن تسميتها .

الأقدام المقيدة لا تعطى تحذيرا عند مرورها . ولا حتى حقيقة أنهم أقل من خمسة . اليوم ستة أزواج من الأرجل تنجر عبر الإطار وهذه المره تعلو أصوات الحراس ، مغلفة بقسوة عصبية .والمؤكد ان ابتهاجهم مزيف وغير محتمل , ونتيجة توتر أعصابى مشيت مرة أخرى حول الكوخ فى مواجهة الحائط الملئء بالفتحات – حائط المبكى – هو حائط العنبر الذى تشرق عليه الشمس . وبوقوفى أمام حائط العنبر ، يمكننى أن أرى حائط المبكى ، وأرى أعالى النوافذ فى الطابق الأعلى لأقرب بلوك فى السجن . فى لحظات نادرة عندما يقوم النزلاء أو المعتقلين بتسلق حافة الشباك لأسباب غير مفهومة . لقد رأيت فعلا وجه انسان وبجسارة ، ولحسن الحظ استدار الحارس للخلف ، لوح ثانية بيده ، بل وبايماءة من رأسه اشار له ولى . تقوية للعزائم .

واليوم أغلقت كل الشبابيك ، وأنا أفسر الأن الأصوات الأخرى الصادرة من الشبابيك البعيده التى تفتح وتغلق. لقد ران الصمت على إحدى الخلايا الإنسانية الضخمة وحل عليها ظلام مطبق . ولكنى لا أفهم .

استمرالصمت ثلاثة أو أربع ساعات . وكما يفتح شريط الصوت فى أحد الأفلام ، فإن عودة الصوت جاءت فجأة وبطريقة تعسفية . والرجال الستة المقيدون بالسلاسل قد عادوا الآن . و لا أستطيع أن أعلن فى أى لحظة وافقت على أنى أفهم و لان أثر هذا التنوير أسكنى فى الفراش حيث رقضت فى صمت ودون تفكير أو حراك .أن عودة السلاسل ، فى لحظة تزداد ثقلا ، ثم تخف بطريقة مربكة ، فأين موقعها بالنسبة للحظة التنوير . خمول مخدر ، وشلل فى الأحاسيس على إثره شل الفكر الذى امتص الساعات الأولى من الصمت بدقة شديدة . فجأة ، نهضت دون مبالاة بقانونى الذى يفرض على عدم الإتصال ،لا شئ إلا الاتصالات الأساسية مع الحراس . هرعت إلى الخارج بحثا عن تأكيد لا أحتاجه من الحارس الصغير لكنه ذهب ووجدت أمبروزو فى مكانه ، محمر العينين تفوح

منه رائحة الموت ملتهب الأنف ، مثقوب ثقوبا واسعة . لم أتوقف لتقدير نبضاتى ، ولكنى تحديته مباشرة " هل شنقت هؤلاء الرجال ؟ أومأ برأسه موافقا ، وكأنه بحاجة ماسة لكى تتدفق الكلمات منه بحرية ، بين قرصات الشمشمة أو الإستنشاق .

"لابد أن يكون الأنسان قويا ليقوم بهذا العمل . إذا لم يكن قويا فلن يستمر . إذا الرأس لم يكن لائقا ، فالإنسان يصاب بالجنون . هذا يكفى لمساعدتى . آخذها قبل وبعد . كل سجن يأخذ هذا الشئ لكن هذا لا يكفى لمساعدتى ، أننى اليوم أشرب زجاجتين كبيرتين من الخمر أشربهم جميعا بعد الظهر . نأخذ فترة بعد الظهر اجازة عندما نقوم بعمليات الشنق. بعض الناس لا يحبوننى ولكنى لا اهتم عندما يقوم الأنسان بقتل شخص أخر شنقا أنا لا أحس بالشفقة . القاتل ليس رجلا شريرا . لا يوجد معنى للشفقة على .العمل الأفضل هو أن نقتلهم جميعا مرة واحدة..."4

أنهم يأكلون طعاما خاصا ، وأى شئ يريدونه . تماما كشخص من ذوى الأهمية . الحشراتالهامة جدا مثلى يجب التخلص منها عندما تزداد سمنة ؟. لقد أماء أمبروزو برأسه ، ثم فهم المعنى وصحح نفسه ، ليدحض بعنف هذا الأقتراح لا . لا أنت لم ترتكب جريمة يمكن لأى شخص أن يكون سجينا سياسيا ويمكن أن تكون غدا رئيسا للوزراء. عدت به إلى موضوع الشنق . إنهم يأكلون ما يردون . ولهم طباخون خاصون من بين من يثقون بهم .ويزورهم الطبيب بانتظام ويغير لهم قائمة الطعام على هواهم – العاب – هوايات – كل المفارقات اللاواعية التى تلوح ذات أهمية فى الكتالوج . حقوقهم المشروعة . فقط عندما يخرجون للفحص الطبى فى الصيدلية . أو عادة فإن الطبيب يزورهم فى عنبرهم عندما يطلبونه لكن حسنا ، أنهم ليسوا حقيقة ذاهبين للعلاج . إنهم يذهبون الى صيدلية وهذا صحيح ولكن لا أحد يهتم بالنظر إليهم . انه جزء من التدريب . إن الخروج مفيد لهم على أى حال هذا ما يحدث أنه أمربسيط حقيقة....

عندما تتم كل العملية القانونية ويتأكد الحكم النهائى بالاعدام عن طريق السلطة الحالية يتسلمه السجناء . يبدأ التدريب الواضح للتحايل . الرجال المحكوم عليهم يعرفون هذا الفعل . بعضهم كان فى عنبر الموت من أربع سنوات ، دخلوه مرات عديدة دون أن يعلموا . بعد أول خروجه من الصيدلية لا أحد منهم يلمس طعامه وقد هجروا اللعب - لعبة القرص – لا أحد يقترب من اللوحات . لا يتكلمون بعضهم مع بعض . كلما زادت مشاركتهم فى الكوميديا السوداء كلما زادت خبرتهم عن الموت . لأن كل من فاته دورمع وصول نزلاء جدد فى عنبر الموت يجعله يتخيل مجئ الدور على النزيل القديم . قانون بسيط للاحنمالات.إنهم يأخذونهم إلى الصيدلية فى جماعات، لتكون الجماعة نفسها أبدا.فى عملية فحص طبى دورية – هذا مايقولونه لهم – لكن لأنه لايتم فحصهم وإن ما يجرى من فحصوصات هى مسألة شكلية، فهم يفهمون ما تنذر به هذه التدريبات . فقط هوية المشنوق التالى تبقى لغز يتطلب حلا . كل يوم ربما يكون هو الأخير أن يؤخذ الفرد إلى الصيدلية اليوم لا يعنى تأجيل تنفيذ الحكم . وان يترك خلفهم فهو أمر أكثر رعبا – بالنسبة لكبار السن .إنهم يعرفون – لكن أن يذهبوا مع كتيبة المرض فقد يكون اسوأ إن هذا يعنى فقط أنه ليس اليوم لكن ماذا بشأن الغد ؟ لا يعلمون شيئا حتى يعودون . إذا لم يفقد وأحد منهم فربما يكون الأسبوع التالى ، حتى شهر شهور . ربما يكون الجلاد مريضا .

حتى القانون يطلب موتة واحدة للمجرم . هؤلاء يموتون ، فرض عليهم أن يجتازوا حركة الموت عدة مرات زائدة فى الآلية الغريبة للتعذيب القانونى والذبح القضائى .

اليوم مجموعة من تسعة وغدا أو الأسبوع القادم مجموعة مختلفة .قد يكون موكبا لثلاثة أيام متتالية . البعض يترك فى الخلف .يقول لمبروزو لا يكون العدد أحد عشر أبدا . لكن الرقم يتغير كل

يوم ما بين تسعة واثنى عشر . ربما كنت أحسب احد عشر فردا كل مرة حتى هذا الصباح . فى اليوم نفسه حتى الرجال المحكوم عليهم تركوا فى الخلف . بقيت زنزانتهم مغلقة . عند مغادرة كتيبة المرضى ، دخلت كتيبة الأعدام . حارسان لكل رجل ، يوثقان يديه خلفه ، قلة تقاوم بعنف لكنهم مضطرين للإستكانة ، البعض ينهار ويحملون دون وعى إلى المشنقة .خذ يوليفيموس .

هذا الانكشاف لم يدهشنى . يوليفيموس نال الترقية كجلاد فى خدمة الدولة ، للقتل الفردى فى مكافحة . أى سجين ..... لا يريد أن يمشى إلى المشنقة . مشهد هياج عنصرى ، جزء منه شعائرى وجزء منه تقليد ارتجالي لطقوس العصور الوسطى . أحد الرجال ألقى بقفازه . فى وجه الموت وأعلن حقه فى محاكمة جديدة ، عن طريق المعركة . وقام يوليمفيوس بالتقاط القفاز نيابة عن الدولة والموت .

بيتر نادين هذا انتظر فى زنزانته فى عنبر انيجو للموت. سلح نفسه ضد الموت بغطاء صفيحة تراب كدرع وعكاز قاتل مدعم برؤوس معدنية طراز لم يتم اكتشافه لم تشك كتيبة الموت فى شئء حتى واجهت شبح شيطانى فاصابهم الجنون وولوا الأدبار . المتحدى تحصن فى مكانه وانتظر . لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه . بوليفيموس مجرد حارس صغير ولأنه يجهل القراءة والكتابة فمن المحتمل أن يبقى هكذا معظم حياته . لكن المطلوب الأن ليس التعليم بل رصيده من القوة المؤثرة ، الجسدية . دعاه المشرف الابيض ، فأثبت أنه فدائى مستعد متطوع ، سلح نفسه بطريقة أشبه بالدرع والسلاح وتقدم . قام الحراس بتمزيق الحواجز وانسحبوا .إقترب بوليفيموس من غريمه ، اثنان من الجلادين فى صراع الموت . بطلولة الدفاع عن القانون واالخروج عن القانون فى فقدان الحياة . لا أحد يتدخل ، لا أحد يستطيع ، من حيث السرعة أو المستوى للمواجهة الذاتيه الشعائرية ولا حتى المشرف الأبيض الذى يرفرف بأحنحته ويحمل مسدسه فى يده وقد حافظ على توازنه النفسى بقلق حتى لا يطلق طلقة عند الحاجة للدفاع عن الدولة .

يوليفيموس فاز فى الصراع . فقتل خصمه بأن خنقه بيديه . لكن على الأقل فإن برنادين أفلت من حبل المشنقة بفضل بوليفيموس .

لكن فى المعتاد لا توجد مقاومة .

نحن نقبض عليهم من أزرعتهم –هكذا- والكلبش خلف ظهرههم ثم يأتى المشرف . يقرأ لكل شخص الخطاب الذى أرسله الحاكم ويخبرهم ، بأن هذا هواليوم المحدد . ثم يأتى الكاهن للحديث معهم ، أو إمام المسجد إذا كان المحكوم عليه مسلما . يقول له استعد لقد قتلت حياة الناس بيديك ، والأن المجتمع يطلب منك أن تدفع حياتك ثمنا لهذه الحياة. لقد انطلقنا إلى ساحة الأعدام . أنها على اليمين بعد عنبرهم و لكنهم لا يعرفون . أنت ترى ، أن البقية فى مكان بعيد . انهم لا يعلمون أبدا أى طريق أخذناه ، قيل أن يتم بناء ساحة الإعدام فى مكانها الجديد كان لديهم ممر طويل . بعد ذلك تذهب مباشرة خلال االعنبر، وتخرج من البوابة الرئيسية . أحيانا يتجمع الأقارب لرؤية جثة ذويهم ، وفى أغلب الأحيان يكونون هم أقارب المقتول . تذكر أن قلة من الأقارب يأتون ليعلنوا صلتهم بجثة أى رجل أعدم بسبب جريمة قتل ،لأنه أمر مخزى لكن أحيانا أقارب الرجل المقتول يأتون لذلك ، فإن المشرف العام يخرج لهم ويقول ، ها أنتم ترون جثة قاتل قريبكم . إن الدولة إقتنصت حياة بحياة ، لتنهى كل الثرثرة أو الوشايات معه .

كان هذا منذ سنوات مضت ، أما الأن فهناك بالطبع مدخل خاص تنقل الجثث عن طريقه بواسطة لوريات . المشنقة ، لا ، المشنقة لا تنصب فعليا إلا فى صبيحة يوم الأعدام . وهذا هو سبب الوقت الطويل الذى تستغرقه ، تصل أحيانا إلى ثلاث ساعات قبل أن نستعد للمحكوم عليه ..... فى هذه

المهمة هو ومساعد الجلاد . فنحن نسير بهم نحو المنصة عندئذ يتولى الجلاد المهمة . المنصة تأخذ اثنين فى كل مرة، يأخذ الرجل الأول وضعه وتلف حول رقبته الخية فإننا نجهز الرجل الثانى ، ويشنق فى الحال عندما يشد الجلاد الزراع ينفتح باب المصيدة ويسقط من خلاله الاثنان. الرقبة تنكسر كما ترى فى الحال ، ولكن لابد من تركه معلقا ثلاثين دقيقة .

هذا ما يفرضه القانون . أما الجلاد فلا ينتظر بجوار المشنقة . نحن ننتظر.هناك ، حجرة استراحة قريبة خاصة به يذهب اليها هو ومساعده . هناك مشروب قوى يشرب منه فى فترة الأنتظار .يذهب إليها الطبيب أيضا وكذلك كبار الضباط . لا ، إنهم لا يشربون افتكر أننى عرفت طبيبا واحدا يستعمل زجاجة مفتوحة فى جيبه . لا أحد يعترض عليه ، لماذا ؟ نسطيع نحن أيضا أن نشرب أى شئ أيضا لكن علينا أن ننتظر بجوار الجثث . هل تسرق الجثث ؟ لا ليس هذا هو سبب بقائنا هناك .

لا أحد يمكنه سرقة الجثث هناك ، نحن نبقى هناك لحراسة المحكوم عليهم الذين ينتظرون دورهم . إنهم يرون طبعا ما يحدث . لكنهم لا يستطعون منعه . نعم ، يرون أول شخص يذهب ، وهذا درس مفيد لهم . ذات مرة شنقتا أحد عشر رجلا فى نفس اليوم _ هذا صحيح ، قتله أبالارا لقد شنقوا هناك فى كادونا . جميعا فى نفس اليوم . لا . الجلاد لم ينزل الجثث . نحن الذين فعلنا ذلك عندما انتهت الدقائق الثلاثون ذهبنا أسفل المنصة و فككنا الحبال . انزلناهم فى أكفان من الخشب الخشن ثم جاء الطبيب وقطع جرحا صغيرا فى الرقبة ، فى المكان الذى ترتبط فيه بالرأس .لقد أخرج شيئا ووضعه فى زجاجة ، كتب أسم المحكوم عليه على الزجاجة ثم وضعها فى جيبه . ما الذى أخذه ؟ ذلك ما أردت دائما أن أعرفه . بعض الناس من أهلنا يقولون إن هذا الشئ يحتوى الحياة . فهل هذا الشئ حقيقة ؟

الفصل التاسع والعشرون

لقد اكتشفت شيئا غريبا هذا الصباح وهو أننى حامل . لقد ظللت وقتا طويلا أنظر إلى هذه العلامة ، متسائلا كيف يكون هذا . لأن هناك شيء مستدير باحكام وصرامة ، بيضة منتفخة لا علاقة لها بخصرى .

كونى رجل فالمفروض ألا يحدث هذا مطلقا . من المعروف أن أشياء غريبة حدثت وتحدث. فالتغيرات الجنسية يمكن أن تزحف ببطء على الرجل ، دون أن يلحظها أحد فى جو غياب الأعضاء التناسلية ،ومياعة الجينات الذكورية ، ثم التعايش بين الأعضاء الأنثوية والذكورية. معركة بين الهيرمونات والبقاء فيها للأضعف ،أو للأقوى ؟ من المفروض إن جينات الأنثى هى أقوى ، أو ربما إنها فقط أسرع فى الوصول إلى الرحم ؟ شئء ما يجرى على هذه الخطوط. على أى حال ، ليست هذه هى المسألة : فقد عشت حياة عزوبية صارمة لمدة تربو على العام .

فهل يمكن أن يكون حملا كاذبا ؟

لا . ان صور الحمل الكاذب كما رأيتها عبارة عن حبات قرع ضخمة تبدأ من المنطقة أسفل الصدرفى شكل باللونة مستوية من الخارج – ثم دخول حاد نحو كيس الخصيتين. لكن حملى أنا بادىء تحت الصرة مباشرة، انه صلب كالحجر، صغير الحجم ومضغوط. يبدو وكأنى أفرزت بيضة كبيره تحت الجلد مباشرة، لكنه مناقض ، فبقية جسمى عبارة عن جلد وعظم – فأنا فى الأسبوع الخامس فى دورة الصيام الخاص بى .

لقد تغلبت على هزال الجسم والهلوسة ، لم يعد هناك اجهاد عقلى أو بدنى . أن جسمى يتضاءل لكن دون أن أفقد قوتى، عقلى يتسع دون أن أفقد شيئا من وضوح الذهن بل اننى استعدت القدر الأكبر من روح المرح التى فقدتها من قبل .

لقد قررت أن أتمشى وأن أفكر فى هذه الأعراض الغريبة التى طرأت على جسدى . وقد ساعدتنى عملية النهوض على حل المشكلة فى الحال . فتمالكت تلقائيا ونفخت بطنى لكى أملأ الفراغ الكبير فى البنطلون. وكلما طال وقت الصيام كلما اتسعت الفجوة طبعا وكلما زاد الإجهاد على الجزء الأسفل من معدتى لكى يملأه. يبدو أننى تضخمت على مدار الشهور وبالنسبة إلى حجم جسمى فيبدو أننى كونت أكبر مجموعة من عضلات المعدة فى العالم كله ، ان ضحكاتى استرعت انتباه السجان الذى جاء متباطئا لكى يعرف ماذا حدث. أشعر وكأننى دعوته ليأخذ حزمة من هذه العضلات غير الشاذة. ففوق هذه العضلات تلتصق الضلوع كل بطريقة بارزة أشبه بضلع أدم الأصلى قبل أن يكسوه اللحم . ألواح كتفى وعنق الرحم محددين بوضوح حتى يمكن غمسى فى صبغة ووضعى على سطح مستو لعرض رسوم فى أى كتاب من كتب علم التشريح. لكن هنا ، يتجمع تحت الصرة ، حشو من العضلات الغزيرة الثرية المستعدة للدخول فى مباراة جامعية لدراسة المعدة.

لماذا أصوم ، كلما تحركت نحو المواجهة التى يجب على ألا اتراجع عنها ، من الضرورى أن اكون صافى الذهن . لأن السبب يكمن وراء الخطابات التى شرعت أكتبها عند بداية هذه المبارزة الجديدة . ففى هذه الخطابات التى ارسلتها إلى حراس السجن ، طلبت كتبا وأدوات كتابية ، وملابس بدلا من الهلاهيل التى أرتديها فوق جسدى. طلبت أيضا وضع نهاية لهذه العزلة غير الإنسانية .

فى مارس 1969 مكثت فى السجن ثمانى عشرة شهرا. منها خمس عشرة شهرا هنا فى كادونا بمفردى فى عزلة .وفى ديسمبرمن العام الماضى تم توقيع قرار بالافراج عنى .كما أعرف ، لأن معلام د المحقق فى لاجوس جاء ليرانى.

بالطبع كان اللقاء غريبا. لم أتحقق من وجهه فى البداية. لقد أتى . كما أتذكر ، فى النصف الثانى من ديسمبر فى صحبة كبيرالمراقبين وبوليفيموس. قال لى: لقد أحضرت شخصا ما يريد أن يراك ودخل الزائر : إنه معلام د.

كيف حالك ؟ كنت فى طريقى الى كانو- لقد نقلت الى وظيفة هناك . ولكن على بعض الواجبات التى يجب أن أؤديها هنا وفكرت أنه لا يجب أن أترك المكان قبل أن أقول لك أهلا بك ."

لا اتذكر كيف أجبته ولكنها كانت اجابة ودودة .

" عموما فالأحوال أفضل الأن ... وسوف تكتشف هذا بنفسك فى وقت قصير الواقع اننى هنا . الآن اتفقد أحوال المعتقلين لقد أفرجت عن بعضهم بالأمس ، واليوم سأفرج عن عدد اكبر من الأمس. لقد أفلت الزمام من بين يدى . حسنا ، أنت تعرف أن السجون أصبحت تفيض بالمساجين .هكذا يصاب كثير من الأبرياء بالبلاهة لتعطلهم . على أى حال ، اسمع يا وول ، حاول أن تنسى كل شئ حين تخرج من السجن، فهل ستفعل ؟ اعتبر هذا شيئا مما يحدث فى وقت الحرب . لم اشأ أن أصدق ما سمعته بوضوح وراء كلماته ، و لا التأكيد الذى استطعت أن أقراه فى وجه المراقب الكبير ، الذى يبتسم فى بهجة خالصة . حتى بوليفيموس أشرق وجهه بالإبتسامة . فى كل جزء منه . قلت " بعض الأشياء ينبغى على الإنسان أن ينساها ولكن لا أتوقع أننى أغفرها أو أنسى أننى مسجون .

" أنا لا أطلب ذلك .... " وأضاف المراقب الكبير بشغف

" لا ، لا ، بالطبع لا . لا أحد يطلب ذلك لأنه ليس أمرا سهلا " .

فجأة تساءلت عن D . لم أتوقع اجابة ولكننى استطيع على الأقل أن أقرأ وجهه . سألت . D هل تعرف لماذا سجنت أنا ؟

بالنسبة ل D فقد حصل على اعظم نعمة فريدة كرجل بوليس، كان يمكنه أن يرتبك بشكل واضح. لقد اظهر مشاعره العاطفية كإنسان عادى . خصوصا هذه المشاعرالتى تبدو وكأنها تنبع من عدم ارتياح اخلاقى .لو أنه كان أبيض البشرة لأحمر وجهه خجلا . لقد انفجر فجأة فى هجوم مضاد ." لكن لماذا حاولت أن تهرب ؟ أنت لا تعرف كم كنا نشعر بالمرارة ، وخيبة الأمل ! "

لقد نظرت إليه باهتمام جاد . لقد صدق ذلك . لكننى اجتزت من وقت طويل مرحلة الرغبة فى استنكار تلك الأكذوبة . لم أعد أتقبل أخلاقيات القاهر المستبد . فأجيب " لتفترض أن هذا حقيقى . وإن لى الحق الأخلاقى فيما يجب أن أتخذه من اجراءات ضد نظام منحط أخلاقيا يسمح بسجن رجل برئ . لو أن الهروب كان ممكنا لجعلته أول واجباتى . والآن ، اجبنى ، هل تعلم لماذا وضعت أنا فى السجن ؟"

قال ،" كانت الأمور تسير سيرا حسنا . وظننا أن كل شئ على ما يرام ، ثم تدخل السياسيون فى الأمر ".

" السياسيون ؟ "

" أوه ، وول ، أنت لا تعرف ما الذى يجب أن نتدبره . اننى سعيد لخروجى من لاجوس . قبل أن أذهب على الأقل ، لم أكن أستطيع أن اكشف شيئا مما كان يجرى هناك . لو عرف كم كان عدد السجناء الذين أفرجنا عنهم مؤخرا ، فى لآجوس وفى السجون الأخرى ، انه الأن فقط قد وجدنا الوقت للنظر فى هذه القضايا أقصد ، المئات والمئات ، معظمهم هنا . و لا أحد يعرف لماذا ؟ ليس

لهم ملفات. لا أحد يعرف شيئا عنهم فى أقسام البوليس أو فى الجيش بخصوص هذا الأمر . " شوف ، لا داعى لمناقشة هذا الأمر .... فقط حاول أن تنسى كل شئ ء".

" وهو كذلك ."

" لقد انتهى كل شئء ، الأن _ حسنا ، وسوف ترى بنفسك . لكن أرجوك حاول وانسى ."

لقد رحلوا . أما انا فقد بقيت حيث كنت ، الزيارة ، وكلماته ، وسلوك موظفى السجن .... شعرت أننى لم أكن أمينا . ليس فقط مبالغا فى الحذر ، لكن بوضوح لم أكن أمينا حين رفضت قبول المعنى الواضح لكل هذا . لقد أغلق الحارس البوابة خلفهم وجاء نحوى منشرحا .

" هذا حقيقى . لقد أفرجوا عن حوالى أربعين سجينا بالأمس وذلك الرجل وبعض الأخرين من أمن كادونا يقومون هنا بوظيفة المراقب و يفحصون سجل كل معتقل . فى الحقيقة. أنا لم أشأ أن أخبرك بذلك من قبل . قال الرئيس بنفسه هذا الصباح إن ملفك وصل . سوف تخرج بعد يومين أو ثلاثة .. ؟"

ذلك معناه ، بكلمات واضحة ، الحرية .

لقد تعلمت من الأزمات السابقة أن أسيطر على نفسى لقد أحسست بالانفعال قد أوشك أن يتسارع . فجمدتة عند المستوى العادى " اثبت ، كن هادئا أمحو شبح هذا الصباح . لكن المراقب الكبير عاد . لقد شعرت فى نفسى بعاطفة حب لهذا الرجل الذى . أفاض شعوره بالسعادة فأغرق الأخرين دون خجل . كان يحمل صحيفة اليوم فى يده.

" سوف تشغلك هذه الصفحات فى فترة الإنتظار " وقف بعض الوقت ثم ظهر عليه الوقار " مستر شوينكا " كل ما أريد أن أقوله هو ، أن تسامحنا . نعم ، سامحنا حتى من أجل السجن . سامحنا بكل ما فعلناه وكل ما فشلنا فى فعله ، بسبب عجزنا عن مساعدة أنفسنا وحجزناك هنا ."

أغروقت عيناه بالدموع .

" أنت تعرف – ويمكنك أن تسأل الرئيس فهو الوحيد الذى أطلعه على سرى ، أنا أثق به . قد يكون غير متعلم ، لكنه رجل حكيم . إننى أناقش الأمور معه حتى تغلبنى الحيرة . وقد أخبرته بذلك ، بعد وقت قصير من قيامى بالعمل هنا . كل ما عرفته عنك كان مما قرأته فى الصحف ، ومن التقارير التى يرسلها المركز الرئيسى .اننى متأكد أن هذا الرجل برئء . أسأله قبل أن تتركنا ، سوف يخبرك بهذه الحقيقة . فأنت تتذكر أننى جئت بنفسى لأسأل عن قصتك بعد شهرين من استئناف عملى هنا ؟ حسنا ، كان فى اليوم التالى الذى استقر فيه رأئ على أنك برئء . أظن أننى قد قلت لك فى ذلك اليوم ، أننى أصدق قصتك . لم أقل شيئا عن الأسباب الخفية وراء ذلك سوى وقائع استجوابى لك . " فى هذه الوظيفة يتعلم الإنسان كيف يدرس البشر ، وليس فقط المجرمين . كل السياسين الذين سجنوا خلال أزمة الجماعة بما فيهم (أولوو نفسه) ، قد مروا على فى وقت أو أخر ، وأستطعت أن أتعرف على المخلصين ، والإنتهازين الذين وجدوا هناك حبا فى المغامرة والاثارة السياسية – وهكذا . فالانسان يعرف بعض الشىء عن الطبيعة الإنسانية . بصراحة ، لقد اقتنعت أنك لم تكتب أبدا ذلك البيان . هذا هو السبب الذى جئت لأسألك من أجله . لكنك تعرف أننى شعرت أن هناك خطأ أساسى قد حدث فى مكان ما . أنا لم أصدق أن أى أنسان فى مركز رفيع مسئول يقبل أن يزور اعترافا كاذبا . لابد أن أعترف بذلك . لقد شعرت بأن الأمر كله ناتج عن خطأ . وواصل قوله " حتى الأن ، حتى لو أننى لم أسمعها مباشرة من معلام D" .

توقف ثم قال " يجب أن أعود إلى المكتب . هل تريد أى شئ ؟ أظن أنه من الأفضل أن نرسل حلاقا . فشعرك طويل – هل حدث أن حلقتت شعرك منذ أن أتيت إلى هنا ؟ " هززت رأسى " شمشون فقد قوته بهذه الطريقة ، ثم ضحك . هل تريد واحدا الأن ؟ الدنيا أصبحت غابه يا مستر شوينكا "

قلت :ليكن ، ارسله ، الذى فكرت فيه فى تلك اللحظة ويا للغرابة لم يكن شعرى ، بل وجهى فأنا لم أنظر فى المرآة لمدة عام أو اكثر . وأن الوميض الذى جاء عند ذكر الحلاق كان شكل شخص فى زى سجين يقص شعر سجين أخر ، وأن ذلك السجين يراقب تقدم الحلاق بدقة فى مرآة . ربما كان ذلك آخر مشهد رأيته قبل دخولى فى الزنزانة . لقد غمرنى حب استطلاع مفاجئء لكى أرى وجهى .

" سوف أطلب من الرئيس أن يرسل لك حلاقا فى الحال . وملابسك ؟ لابد أن هناك بنطلون احتياطى فى المخزن ."

سوف أرى إن كان نظيفا . فإذا لم يكن فسوف يتم غسله بسرعة . بأفضل طريقة " سوف ابحث لك عن بعض المجلات القديمة و أعطيها لك أيضا . "

انصرف . وأخذ الرئيس مكانه بعد وقت قصير ، ملقيا اليه بابتسامات طولها سبع أقدام وغمزات ماكرة واساءات أكثر صراحة وظل يكرر ." فى بعض الأحيان يبدو أن الوقت لا نهاية له .إلا فى اليوم الذى يسمع الله فيه الجميع،اليس كذلك؟" .

أما ء، الحلاق برأسه . لقد جهز كل معداته . وضع بوليفيموس الكرسى أولا فى ركن ثم فى الركن التالى .وسأله . هل حرارة الشمس شديدة هنا ؟ لا . أظن أن هذا المكان أفضل ؟ أخيرا انصرف : نعم ، ليس كذلك . فجأة فى يوم ما فى يوم ما ، "

جلست على الكرسى ، وشعرت بقماش أبيض تحت ذقنى ، مربوطا بمؤخرة رأسى . وتوصلت إلى المرآة ببطء وأدرتها ونظرت إلى وجهى .

كان منظر شعرى لا يصدق . كنت قد أعددت نفسى لذلك ولكنه فاجأنى. كان طويلا وغزيرا وتساءلت كيف تمكن مشطى من اختراقه لمدة طويلة . أخذت المشط من الحلاق وقلت " من الأفضل أن تتركنى أفعل هذا بدلا منك "

لكنى حتى وأنا أمشطه كنت أنظر إلى وجهى فى المرآة . تسمرت عيناى على المنظر ،لأننى لمحت فيها ما يهمس فى عقلى منذ أن سمعت أول اشارة للإفراج عنى .شكوك وشكوك أعمق . الأمر لم ينته بعد ، وأن المرحلة القادمة سوف تكون أكثر صعوبة بسبب هذا الأمل الكاذب

لقد وضعت المرأة ،وفككت القماشة من حول رقبتى وقلت " سوف اترك شعرى كما هو " ..

عدت الى زنزانتى واسترخيت على سريرى . لماذا ؟فقط الحذر ؟ لا ، لقد ازداد عمقا . لم استطع أن أحدد ذلك ، لا ولااحد يمكنه أن يفعل ، لكننى عرفت أننى لن أستطيع ترك السجن فى عيد الكريسماس .

"التعبيرات الخاصة باطلاق سراحى من السهل التنبؤ بها _ اعفاء بمناسة عيد الميلاد ."

وكذلك جزء من العقل كان يفكر من الناحية الإنسانية فى اتجاه آخر . لو أنهم اطلقوا صراحى ماذا سوف أقول أو أفعل؟ أيا كان الذى عرفته فالواجب على أن أصب احتقارى على مساخر عيد

الميلاد خطر على بالى مشهد وسمعت نفسى تصرخ بغضب حقيقى :" اتمنى أن تكون هذه اخر مرة يحاولون فيها تمثيل بابا نويل مع العدالة ."وجعلنى هذا اكثر هدوءا . بعد ذلك أغلقت جانب التفاؤل العقلى وانشغلت بالتفكير فى كيفية الحياة فى عزلة مستمرة بعد تسرب هذا الضوء العنيف .

لقد اتى حارس المخزن . نعم هذه هى بنطلوناتى و قمصانى ؟ هل تراهم معلقين هناك ؟ نعم اغسلهم أو كومهم فى الصرة كلها .أنا لاأهتم .

الزنزانة مليئة بإنذارات كاذبة . الأمين الذى أحضر طعامى نظر إلى كرجل معزول ، كائن ممسوس و مميز بعصا سحرية من إلهته المفضلة . تعقبه السجان كالعادة لكن هذه المرة ، بدون مراقبة شديدة على الاتصالات السرية كأنها صادرة عن رغبة فى الإعتماد على العناية الإلهية ، وعلى الصبر والعدالة والشجاعة بالاضافة إلى عدد من البنود فى تقواه غير المفهومة . عندما انصرف حاولت أن أتناول طعامى لكنى لم أجد شهية . لقد أشتدت المحاذير فى كل ثانية .

نهاية الوردية الصباحية . هرع اثنان من الحراس إلى داخل الساحة وهما الذين إعتادا المجئ للسرداب فى حالة الإغاثة ." عندى أجازة من الخدمة غدا يا سيدى . فقلت إن لأقول لك وداعا خشية ألا أراك حين عودتى : قال الثانى نحن جميعنا سعداء جدا لخروجك . لكن إلى اللقاء . والله يرى كل شئ " ، وجاء الحراس المختصون منذ وقت طويل فى السابق . الذين خدموا أسبوعين ، أو ثلاثة . أحيانا أربعة اسابيع أو شهور ، ثم اختفوا . لقد ظننت أن هذه التغييرات المتكررة ما هى إلا احتياطات أمنية . قد اندفعوا سريعا لمصافحتى ، قائلين ، أ أنت تعرف لماذا لن تراك ثانية ؟ نحن لا نحب هذا المكان ابدا . الإنسان يمضى ثمانى ساعات هنا لا يفعل شيئا . مع السجناء الأخرين نستطيع أن نتكلم وأن نلعب ولكن هنا نحن فى حبس انفرادى . لذلك فإننا جميعا نطلب نقلنا إلى القوة الخارجية "،

ثم ذهبوا . هناك ساعة من الهدوء بعد الظهيرة فى نهاية وردية الصباح . فالمساجين محجوزون فى زنزاناتهم فى سلام وسكون . تركت نفسى تنجرف فى هذا الصمت لتواصلة لأسابيع وشهور . يا ليتنى أنقل الى مكان آخر ! مكان جديد ، رائحة جديدة ، مناظر جديدة بيئة جديدة.

نداعب أوهام النجاة . نعم ، ربما ينبغى على الإنسان أن يتجه إلى هذا . خلال نزهتى القصيرة صادفت فى الطريق إلى المستقبل ، رحلة من المعاناة لاعلاج لها ، إنتشار فطريات رمادية تعد المسكنات ذاتها أعراضا لهذا المرض . لا يوجد خلاص ، نهائيا ، من هذا الملل الخبيث لا جديد يشد انتباه الإنسان بعيدا عن التأمل فى هذه الهاوية . الشهور الإثنى عشر الأولى استهلكت ما هو أكبر من القوة الإبداعية للعقل الذى لا يتلقى غذاء من مصادر أخرى .

كان بوليمفيوس أول من ظهرت عليه الحيرة .لقد جاء يتجول فى جولة تفقدية . بثقه العالم بأننى سوف أخرج . كانت عشية الكريسماس وكان متأكد أننى سوف أقضى عيد الكريسماس فى منزلى . لقد تخيل رحيلى بنفس الطريقة التى جئت بها فى طائرة خاصة تهبط بى فوق بقعة خضرة أمام منزلى فى عشية عيد الميلاد نفسها . جاء فى الصباح ليودعنى وتمنى لى حظا طيبا ، والآن اقترب حلول الليل وسمعته عند البوابة ، فى حيرة لأنه وجد حارسا لا يزال واقفا أمام السرداب ، والسجين ما زال منتظرا .

حك ذقنه بغضب الى حد ما ." على أية حال ، لاتهتم ، فعيد الميلاد لم ينته بعد ، ستذهب إلى بيتك غدا . يوم واحد أنا متأكد . أتوسل إليك ، ألا تبدأ فى القلق مطلقا ، وقت قصير وستصل الى بيتك

. سوف تذهب . لا هذا الإحساس الخاطئء . أنا لا أظن ، أن رجال البوليس ، أنفسهم غير مفيدين ".

فى عيد الميلاد لم يأت أحد إلا الحارس فى خدمته، ورأيت الدهشة على كل وجه . بداية الشك . ثم المواساة . التى طالما رفضتها .

مباراة الملاكمة يومى 27 ، 28 . بدأ الوجوم يختفى من وجوه هيئة العاملين الذين اصبحت المسألة شأنا خاصا بهم . فكلما اقتربت بداية السنة الجديدة ازدادت شجاعتهم . لابد أن الافراج تحدد له فى بداية العام الجديد . رغم كل شئ ، فالعفو . واضح " عيد السنة الجديدة

إنك لن تقضيه فى كادونا . "

المشرف الكبير ظهر من جديد

لقد ظهر كبير المراقبين من جديد فى اليوم التاسع والعشرين منكسر النفس . "كل ما أعرفه هو أن تعليمات الافراج عنك قد تم توقيعها . رجال ألأمن أخبرونى بأنفسهم لقد سمعت بنفسك ؟ أليس كذلك ؟

" كان صوته يطالب بالبرءة "

قلت نعم ، لقد سمعته .

هناك رجلان تم ارسالهما بالأوامر من لاجوس . سمعت أن هناك عقبات عن كيفية رجوعك الى لاجوس . أظن أنهم عجزوا عن الحصول على طائرة . أى كان الأمر ، فلندعهم يفرجون عنك رغم كل شئ ، فأنت تستطيع أن تجد طريقك للعودة . لماذا لا نبدأ فى الاستمتاع بحريتك الأن ؟

لقد جاء دورى لكى أواسيه . " كلما طال زمن السجن كلما ازدات حلاوة النهاية .لا تقلق فسوف أخرج فى يوم ما ."

اليس فى يوم ما . إننى متأكد أنك لن تكون هنا فى عيد رأس السنة الجديدة . نفس الشئ أجده مقلقا " وفجأة ارتفع صوته محتجا ... نحن نريدك أن تخرج يا مستر شوينكا . صدقنى نحن نريدك خارجا من هنا أكثر مما تريد أنت ؟ لا تسئ الظن بى . فنحن نحبك . كنت أتمنى لو أننا تقابلنا فى ظروف أفضل . وأنا أمل بالتأكيد فى أن نلتقى ثانية . لكنك أكثر الشخصيات ازعاجا بالنسبة لآى ضابط سجن يأمل فى أن يجدك ضمن مسئوليته . أنا لم أتسلم فى حياتى كلها مثل هذه المذكرات الكثيرة بخصوص رجل واحد . مذكرة من المركز الرئيسى ، مذكرة من البوليس ،، جواسيس سريين من كلاهما إشاعات . اتهامات . ببساطه أنت لا تعرف ما هى . أنا لا أستطيع فعل شئ . لا أستطيع أن أقدم لك حتى طبقا جديدا قبل أن أبلغ القيادة الرئيسية . وبالطبع لا أتلقى أى أجابة . وإذا حصلت فانهم يعرفون عنها وتجرى مساءلتى . صدقنى فى وقت من الأوقات فكرت فى التقاعدأو طلب النقل .كان التوتر فى تصاعد كبير شديد . عندما تترك هذا المكان هنا سوف نعود إلى الروتين المعتاد . الروتين المعتاد ! لو تعرف كم أود أن أراك سريعا خارج هذا المكان ".

لقد جاءت عشية السنة الجديدة ورغم أننى أوصدت الأبواب لكى امنع أى بصيص من الأمل للدخول الى قلبى . ضبطت نفسى انصت إلى وقع أقدام ، تشير الى فتح بوابة على بعد عدة ياردات . أجاهد باستحالة لكى أسمع أى صوت من المكتب البعيد أو من بوابات السجن الرئيسية .

عندما انتهى كل شئ ، عندما انتهت فترة الرحمة ، نهائيا ، وبطريقة محددة ،كنت شاكرا لتوقف هذه العلاقة عن طريق هذه الإنسانية الجديدة المفعمة . بوليفيموس فقط يأتى من وقت إلى آخر . كنت أسمعه عند الباب يعطى التمام " كل شئ على ما يرام ؟ ويتلقى الأجابة .

" كل شئ ، تمام ، ياسيد ". بمجرد ان استجمع شجاعته لكى يقترب من الزنزانة أظن أن الرغبة فى أن يرى كيف أنظرالى الأمر الآن . تحرك كأنما شئ ما قد شده إلى ما وراء مدخل زنزانتى ، وبعد أن قام بعمل ضوضاء وفحص ذلك الشئ . وهو فى طريق عودته يبدو أنه قد عقد العزم على أن يتحدث معى . كنت لازلت مستلقيا أنظر إلى الشبكة . تردد ، ثم تلعثم وفر هاربا .

بعد مرور الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى ، توقف مجئ الصحف . للمرة ثانية تم اغلاق العالم الخارجى عنى .لم يعد هناك سوى أن تمتد الأيام مستقلا . لم أستطع أن أبين أى تحديد أو علامة . رغم تذكيرى لنفسى بدقة فطنتى ، وبالرغم من الاستعداد الذى زودتنى به ، رواسب من أمل محترق بدرجة كافية لتوليد اليأس .

كم من الوقت أعد نفسى له؟ سنة؟ وكلها فى عزلة ؟

ليس فى ظل نفس الظروف السابقة . أريد ملابسا ، وظيفة شغلة . أشياء يجب أن أحصل على أدنى أحتياجاتى كإنسان ! لقد مر السجان بى . صحت بصوت مرتفع . إنه خطأ . السؤال هو إذا كان يمكن لى أن احتمل ذلك أم لا . الموضوع هو ، هل ينبغى على أن أحتمله ؟ اذا كان الحد الأدنى للمطالب ، حاجة مضمونة لمجرم محكوم عليه ، ثم أن إنكار وسائل طريقة استخدامى لعقلى هو نوع من التعذيب . أن تطعم جسدى لكن أن تنكر عقلى فهذا تحقير متعمد لانسانيتى ، أن تقبله هذا بوداعة هو نوع من البلادة . وأن تقبل بصورة مستمرة هو أن تقبل أن تخاطر بنهاية لا يمكننى أن أتنبأ بها . إننى فى حاجة لتبادل أفكارى ليس فقط مع نفسى بل مع مجتمع من عقول مختلفة . لا يمكننى أن انحصر فى اجترار أفكارى فقط . إنه أمر سئ . هؤلاء الشياطين تخرج بعقلى خارج نطاق التسامح الإنسانى .

يجب أن أتخلى عن الاعتماد على نفسى . يجب على أن أخرج من السجن العقلى الذى حبسونى فيه.

طلبت قلما وورقا وكتبت أول خطاب عن إحيتاجاتى فى السجن . كتبت للمرة الثانية أطلب كتبا وأدوات كتابة ، طلبات وملابس وعلاج خصوصا لعينى ووضع نهاية لعزلتى أو نقلى الى سجن آخر ... لقد أصبح الطلب الأخير حاسما فى تفكيرى بسبب أخر . بعد ضياع أملى فى الحصول على الحرية ، عرفت أنه حيثما كنت محاطا فى وقت سابق بمزيج من الخوف ، والعداء ، والريبة ، وهو الشرط المناسب لتقوية إرادة المقاومة ، أنا الأن محاط ببركة من الحنان سوف تنتهى بالقضاء على . رأيت عزيمتى تضعف ، ورأيت قبولا متزايدا واستسلاما لقدرى ، رأيت نفسى منجرفا الى داخل شرنقة من الحب والشفقة لكن لا حول لى و لا قوة . حنان أناس عطوفين لا سلطة لهم . غير قادرين على اصلاح ليس هناك شئ أخبث تدميرا للنفس من هذا . أريد أعين من الكراهية و الخوف تحيط بى لكى أظل يقظا . فإذا تحتم على أن أختار مواصلة استكشافاتى للنفس ، داخلا مرة بعد مرة فى تلك المنطقة التى تهيئ ظروفا ملائمة . لاطلاق سراحى ، عائدا لمناقشة وقائع الألم والظروف المؤقته . كان من الضرورى الحصول على دليل صلب لعودتى إلى الأرض ، نزعة الحيوان إلى القسوة فى عيون المأجورين ، سرعة بعض العقول فى اختلاق ما يعادى الأنسانية . أولئك المحيطون بى تحولوا إلى مكوكات مليئة بالذنب ، فى انتظار أن يخففوا محنتى بما فى ايديهم من إمكانات مادية لمساعدتى .

لا يوجد سوى القليل فى محيط حركتهم . والعطف بديل هزيل لأنه يستطيع فى النهاية أن يفتت الإرادة ، لكن الكلمة هى السلطة .

وجاء الرد بعد مرور شهر على الأقل لكن المراقب لم يرنى ذلك الرد ولكنه استشهد بعبارة منه . لقد استرعت تلك العبارة انتباهه ، لكنه لا يعرف سبب ذلك بوضوح . كانت نبرته مليئة بالاحتقار والبهجة . فكرت ما عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟ وكيف جبلوا ؟ لم تكن لهجة الشخص يمارس التعذيب بل نقمة لشخص المفوض بعمليات التعذيب . موظف حقود تأتى صلاحيته من سلطة تمارس على ملفات وأشكال عاجزة . إنها نغمة سوداء توحى بالبأس من الناحية الإنسانية وصغيرة حتى أنها أعطت وميضا . إنه شاب فى مثل سنى تقريبا له وجه نحيف ، وشعره ينسدل قليلا على صدغيه . بشرته شديدة السواد وأصابعه طويله تنتهى بأظافر مقوسه كالمشبك . انتهى الوميض لكننى كنت مستمرا فى تصويرى له وهو يمسك باحتجاجى فى يده ويقهقه بنفس راضية . رأيته يندفع فى خنوع نحو رئيسه متشفيا سمعتة يقول " أظن أنها بداية الإيقاع به يا سيدى ". أما رئيسه فقد صفعه على ظهره وتركه بعبارة ملائمة للرد عليه .

ولكن كان هناك شئ ما – مفرط . شئ ما لم نطلبه كلية ، غير مبرر بتلك النغمة . كانت هناك مشاعر فرح لم تخرج عن حدود اللياقة لكن يبدو أنها استحضرت بدون سبب . لم أستطع فى بداية الأمر ، أن افهم معنى كلمة يشتاق . لم أستطع أن أفهم أن ذلك هو حق السجانين فى استخدام هذه الكلمة . أصبح استحواذا صغيرا مماثل للإذلال ، لقد نظرت على المراقب الكبير ، لكن ملامحه فضحت شرحه ,, فسألته .

" هل أرسلت خطابى أو أنك أضفت للخطاب توجيه من عندك "

لقد كتب خطاب توجيه وليس فى هذا أى خطأ لكننى رأيت أى نوع من الخطابات كان يكتبها . تذكرت ثانية نظرة عينيه عندما زارنى لأول مرة فى زنزانتى . نظر الى اسفل وركز عينيه على بنطلونى الجينز المهلهل الذى ارتديته الملئ بالخروق والرقع . ولم يكن القميص أحسن حالا . رأيت فيه انسانية كبيرة فى تلك اللحظة وأستطعت أن أقرأ كل كلمة غامضة فى خطابه ، وصفا باكيا لحالتى والتماسا باصلاح الأمر .

ثم واصل كلامه قائلا " ليست المرة الأولى التى أكتب لهم فيها . لقد كتبت لهم منذ أن شكوت بعينيك . بل اننى تحدثت الى مسئولى الأمن هنا لكى يأخذوك الى المستشفى ولكننى لم أتلق ردا " هذه هى المرة الأولى التى اتعبوا فيها انفسهم بالرد "

إن هؤلاء الرجال ليسوا فقط أشرار ، بل هم روح الشر المتجسدة فى شكل بشرى فيجب على الأنسان ألا يقع فى أيديهم بل يسعى للحصول على القوة لتدميرهم . إنهم عبارة عن قيح ، عفن الموت فى اشكال حية . لقد أصابوا كل من اتصل بهم . بهذه العدوى ومن هذه العزلة هنا أشم رائحة فساد العقل فى رنين كلماتهم ، انهم يربون انفسهم ، أنماطهم ، والتفسير الذى يطرأ عليهم كطفرات. فالسعى الى القوة من أجل تدميرهو مهمة اخلاقية .

وفى شىء من الغموض ، كان بحثا محموما للوصول الى هذا الهدف ، شىء لابد أن نجريه حتى لو خاطرنا بالحياة . يجب على أن أصل إلى تلك الدرجة حيث لا يمكن أن يمس عقلى أو جسدى أى أذى ، اتحرك إلى ما وراء هذه العقول الصغيرة وإمكاناتها ، لتثبيت كيانى فى التربة أو الوصول الى ذلك . لم يكن الصيام وحده ، بل تركت نفسى تتجول بحرية بحثا عنهم ، وتعلم كيف أدمرهم عندما يحين الوقت .

إن الدخول فى هذا الصراع فى حدود المساحة المتاحة لى داخل هذه المعركة ، معركة الأرادة ،كنت متأثرا بالحاجة إلى إضفاء شكلا ملموسا عليها . لابد أن يكون لها مقدار كمى ، ليس فقط عملا بطوليا محتملا (قد يؤدى انهياره الحاد إلى ضياع فرصة الأختيار واهدار الكرامة كتغذية إجبارية . لو أننى استطعت الإسراع بهذا السلوك لكى اتحاشى اعراض الإنهيار ماسكا جسدى عن بطريقة هادئة حتى يعتاد على القليل فالأقل حتى يصل فى النهاية – الى لا شىء . وبانغلاقى داخل مدار سلطتهم يمكنهم أن يفعلوا بى الكثير لو أصابنى الفزع . وسألت فجأة عن كبير المراقبين كشخص فى تلك الورطة .

" أرسلت فى طلبه وسألته . ماذا كنت تود أن تفعله فى ذلك الوقت لو أننى تجاهلت التماسك بتأجيل الصيام ".

أجاب بعد كثير من التمتمة (لست متأكدا من حقيقة ما كنت سوف أفعله . بالطبع كنت سأستمر فى التوسل اليك "

هل كنت ستجبرنى على تناول الغذاء ؟

" كان ذلك يعتمد على رأى الطبيب . بالطبع اذا وصلت إلى الأمور اقصى حد فسوف أستدعى الطبيب ، فإذا قال أنك يجب أن تتناول غذاءك ..."

قلت " إننى سوف أصوم . "

" ليس كالمرة الأخيرة من فضلك . لا أريد أبدا من انسان أن يضيع على هذا النحو ، لا تفعل ذلك ابدا . إنه شئ خطير .كنت أتمنى لو أمكن أن أحدثك عن الأسلام . فالقرآن يعظ الناس بأن الحفاظ على النفس هو القانون الأول للإنسان .

" وأنا حيم اطلب شيئا أطلب مطالب ، أقل مطلب من أجل حياة لائقة ، أليس هذا أيضا من دواعى الحفاظ على النفس ؟ "

" لقد فعلت كل ما يمكننى وأنت تعرف ذلك "

أكدت له ثانية أننى أعلم ذلك . "كنك سوف تعرف أنه ليس فى سلطتك أن تفعل شيئا من أجلى ".

حتى وأنا أتحدث معه نزل على الإلهام للقيام فترة صيام تدريجى . أما هو فقد إستمر فى طلب تأكيدات منى على ألا أتركه دون أن أعده بعدم تكرار الصوم الانقطاعى مرة أخرى . اكدت له العكس ، ليس كبداية ، ولكننا قد نجد انفسنا نتجه بسهوله نحو ذلك .

الفكرة التى راودتنى كانت فكرة بسيطة . سوف أمضى الأسبوع الأول بدون طعام ، وفى الأسبوع التالى يومان والتالى ثلاثة ... حتى الأسبوع السابع ثم ماذا ؟

هذا هو الأسبوع الخامس واليوم الأخير فى دورة الصيام ، اننى ملتزم بخرق الأمن الذى ينذرنى يوميا قبل اليوم السابع ، أخر مرة فى الصيام المستمر . لقد وعدت نفسى بذلك . هناك شخص بالخارج يجب أن يعلم أن هذه المواجهة قائمة الأن .وإلا لو أثبت هذا الكورس خطورته على الحياة . فسوف يخرجون صورة نحيلة من ثقب بكتلة صلبة غير متجانسة للمعدة ، حالة حمل غير محتملة سوف يتم تشخيصها على أنها التهاب فى المخ .

كادونا

وفيكتور بانجو

لو أن تاريخ الثورات شهد ضياع ثورة ، فلن يكون ذلك فى إحدى اللحظات المشهورة بل سيستغرق بضعة أيام ! على مدى أربعة وعشرين ساعة كاملة،أوبعد يومين أو ثلاثة.بل حتى بعد أربعة أيام سيظل هناك أمل لهذه الحركة. أما بعد اليوم الخامس تكون الفرصة قد بدأت تنزلق بعيدا. وفى نهاية أسبوع واحد تضيع الفرصة إلى الأبد.

ما الذى منعه؟ ما الذى حجزه فى بنين بينما الفاسدون يرقدون فى لاجوس لاحول لهم ولا قوة بعد أن تعرت عوراتهم ،وهم ينتظرون فقط من يخترقهم؟ فى إمكانى أن أخمن الجواب،لكن ليس فى هذا أى عزاء. ففى انتظاره لأول بادرة تأييد فعالة كان قد أكدها له أولئك الذين لا تتماثل دوافعهم فى مثاليتها مع دوافعه تعنى أن بانجو قد نسى أن أمته هى أمة جلساء الحاجز،ذلك أنه فى وقت الأزمة،تبدأ السلطة المستقرة بميزة تؤدى بالجميع، باستثناء القلة المداهنة، إلى حالة شلل سيكولوجى .لأنه كان قد أعلن ان قواته الغازية هى ضد انفصال الشرقيين.لقد تخيل بانجو أن هذه إجابة كافية لمواجهة أزمة المتخاذلين .وهكذا – خطب فى الراديو،وفى اجتماعات طويلة مع قادة أشرار فى الغرب الأوسط ، ومحادثات تليفونية طويلة مع رفاق مفترضين من الجيش فى أجزاء أخرى من القطر. لقد أخذت القاعدة الثورية المفترض أنها " مدعومة " بوجوده المتواصل فى الغرب الأوسط فى التفتت.

لقد دفع حياته ثمنا ، ومعه رجال مثل ألالى،وإيفيجونا، وأجبان... وحتى مع الاتفاق على ان الأمة ليست فقط ماهى فى لحظة معينة ولكنها فى إمكاناتها الكلية، فإن الخطريبقى بالنسبة لهؤلاء جميعا الذين يتساءلون، كما أفعل كثيرا، إذا كانت الأمة التى يعرفونها ليست هى التى فى خيالهم .لأن إمكانية المستقبل المهدئة هذه هى سلاح ذو حدين، لكونها يمكن أن تكون خيرا أو شرا ،إما إللانتكاس أو للتقدم نحو تضامن رجعى أوتجديد راديكالى .يثبت التاريخ باستمرار أنه لا يوجد تاكيد لما سوف يكون عليه الاتجاه النهائى، حتى إذا تطابقت مجموعة الظروف و الملابسات.

جزئيا لأن العامل البشرى هو أكثر العناصرالمحددة، فإننى أحتاط لنفسى وأحاول استبدال الأمة بالناس، فمن الأفضل أن نؤمن بالناس أكثر من الأمة . ففى لحظات الشكوك الكبرى يصبح التعلق بواقع الشعوب هو الشىء الأساسى؛ لأن هذه الشعوب لايمكن أن تتلاشى. أولوية هؤلاء ليست موضع تساؤل.- كونهم موجودون.بالنسبة للمفكرالمستقل حقيقة فهذا سهل دائما- ومما يتصل بالموضوع غالبا – أن تتذكر التصنع، وغطرسة الفرسان ،والدوافع الاستغلالية التى اتجهت إلى الاستغناءعن الشعب الأفريقى وتحويله إلى جنسيات. فالمرء يتغلب على الاحساس بالمهانة التى تصاحب ذكرى هذه النشأة بتأسيس هويته الأساسية كتلك التى تذهب إلى حد خلق هوية شعب.لا يمكننى أن أرى هذا الجوهر على أنه جزء من هوية الحدود الخاصة بالدولة.الحكم يمكن تطبيقه فقط على الشعوب ،أى الحكم الذى يعنى ، فى معناه الأخلاقى الأساسى أن يطبق فقط على الشعوب وهو ؛الولاء، التضحية، المثالية ،بل حتى الأيديلوجيات باعتبارها فضائل تتغذى و تطبق لصالح الشعوب . وأى ممارسة لفناء الذات دفاعا عن حصانة تفسيمات حدودية مؤقتة تسمى أمم هى صورة لاعقلانية للمثالية. الشعوب ليست مؤقتة لأنه يمكن تحديدها عن طريق الأفكار غير المحدودة . أما الحدود فغير ممكن .

المركبات البديلة لسيارات الإسعاف "كيا –كيا" ، مرت خلف نافذة الشقة فى إنيجوحيث كنا جالسين نناقش موضوع الحرب، وهى تحمل الجرحى من جبهة نوساكا.بعد كم من الوقت سوف تحمل هذه المركبة جثمان كريستوفر أوكيجبو الذى انفصلت عنه قبل ساعات قليلة، اتجه هو إلى

أصوات البنادق ، أما أنا- ففى أى اتجاه بالضبط؟ أما أنا فسرت فى اتجاه يدعو للحياة فى المستقبل متهما بتقديم تنازلات ؟

سأل بانجو للمرة الخامسة " ماذا فى الرسالة الآتية من الغرب ؟ أعنى، ماذا يقولون؟ ما الذى بقولونه حقيقة عن هذه الحرب ؟

" أنا أعرف فقط ما نشعر به جميعا بسبب الانفصال".

"عاد إلى الخلف :" نعم، و نحن جميعا متفقون على هذا . لماذا لم تستطع مواقفهم أن تتساوى إزاء المذبحة ؟ لم يكن الإيبو يشكلون خطرا على أحد. إن جرائم القتل فى مايو ويولية أنهكت قدرتهم على إثارة أى متاعب. فماهى التفسيرات التى تمنعكم من الكلام فى وجه تلك الأيام الملعونة من سبتمبر وأكتوبر؟ "

قال ألالى ، "إن جوهر هذه المواجهة هورفض أو تجاوز الدافع النفعى للمذابح الجماعية.أو الشوفينية القبلية ."

المذابح الجماعية هى العلاج المختار لتثبيت الأصول المالية . ففى لاجوس بقدر ماكان الوزراء الفيدراليون ، ورؤساء المؤسسات إلخ، بقدر ما كانوا معنيين، فإنهم لم يبدأوا أبدا. فملايين السياسيين الشماليين المحميين ظلوا فى أمان لم تمسهم يد الحكومة برغم الصيحات الصاخبة للصحف الجنوبية، والجيل الجديد من أهل الجنوب. الأمثلة كثيرة -، هناك أمير شمالى كان رئيسا لإحدى المؤسسات لديه ستة ملايين فى حسابه الخاص غير محسوبة. فجأة تأجل التحقيق. وباستثناء وقفه من وظيفته فليس هناك عواقب أخرى. ثم بدأت تصدر بيانات غريبة عن الحاكم العسكرى حسان، مثل طلبه التركيز على إصلاح الشروخ فى الوحدة الوطنية أكثر من ضياع الوقت فى البحث عن الأخطاء السابقة . ظلت لاجوس محصنة بطريقة غريبة؛ المنتفعون بالجهاز المدنى المطرودون الذين يستحسنون العمل الخاص يختالون عبر البلاد، أمنين وغير معرضين لأى خطر . الغرب فقط حافظ على إلتزامه القوى بالمبادىء الثورية،علنا وبدون مهادنة.

لكن أصوات المنشقين لن يتم إسكاتها. فاتحادات التجار، والمثقفون وكتاب الأعمدة أدانوا الخيانة ، وطالبوا أن تقوم الحكومة بتنفيذ أهداف حركة 15 يونية خصوصا وأن تلك الأهداف قد أيدتها وتعهدت بها حكومة انقلاب يونية. وفى نهاية المطاف فإن المنتفعين من المدنيين والسياسيين أعترفوا بالخطر الذى يهددهم هم أنفسهم. وكان لابد من التشويش ،وكان يجب أن يحدث على هذا المستوى بحيث يعتم على اهداف المجتمع الأخرى تعتيما تاما. فالمافيا الشمالية إتفقت مع نظائرها فى لاجوس وساهمت بالاستثمار اللازم للمحافظة على النفس. فقد تم التخطيط للمذبحة بدماء باردة ، تم تخطيط كل مرحلة ،ووزع المال على المراكز المختلفة لإرتكاب الجرم لتشويش الإيبو ، ضحايا مرتين ،كان واضحا أنهم للمرة الثانية، هم ضحايا هذه المذبحة الجديدة التى تهدف إلى الربح. لكن لكى يكتمل الدرس، وحتى لاتبقى هناك فرصة لعودة خطرالتدخل القديم بين الأقاليم فى شأن هذه القاعدة لصالح كل المؤامرات الرجعية فإن الجنوبيين من" صانعى المتاعب " بصرف النظر عن مناطقهم تم ضمهم فى الاكتساح العاصف . و كان الإيبوهم الضحايا غير المؤهلين .

أقول إنه "عندما انفصل الشرق، تركوا لنا المافيا والعسكر فى تحالف لاينفصم على الجريمة المربحة .وعلى أساس فلسفة الإبادة الجماعية الناجحة . لأنه لو أن الشرق ذهب حيذاك لن تكون هناك جريمة فى الكيان الجديد التى مازالت تعرف باسم نيجيريا .وسوف تكون الأمة مشغولة جدا

باصلاح الحواجزبحيث لاتشغل نفسها- حينذاك- بالمطالب المملة من أجل تطهير أخلاقى. وبالنسبة للأمل فى بناء أى شىء يقترب من دولة اشتراكية.. ."

انفجر ألالى ثانية، " هل توافقنى على ان هذه هى الفرصة الوحيدة لنيجيريا ؟" " لا يوجد بديل آخر. فالجيش يجب أن يعود إلى وضعه كجزء من البروليتاريا . فعقلية بطاركة السياسة قد دمرت سلفا لكنها بدأت حياة. جديدة بتسللها المجهول الى داخل جيش ساذج يتحرك بدوافع غريزية خالصة. نحن فى حاجة الى قوة ثالثة تفكر فى أسس ذات مقام مشترك بالنسبة للشعب. فإذا توقف الشرق، فاطلب وقف إطلاق النار وأعطى القوة الثالثة وقتا للإنتشار فى كل المفاتيح الرئيسية...حسنا، الوقت مناسب.أنا لم آت كل هذه المسافة لأطلب من الشرق أن يستسلموا. لكن الانفصال يجب إنهاؤه"

هز بانجو رأسه. " أوجوكو لن يوافق أبدا. وإنصافا له سأقول إن هناك شىء آخر يمكنه عمله . لقد شاهدت المظاهرات ,فإذا لم يستسلم فسوف يسقطونه جسديا"

" أخبرنى هو بكل شىء عن هذا الموضوع . عن مشاهد عاطفية عنيفة رآها أمام دار الولاية . أنا مستعد لأن أوافق أن يده قد أجبرت ؛رغم ذلك أظن إنه بارع بدرجة تكفيه لأن يجد مخرجا، لو أراد هو ذلك حقيقية ."

" بالطبع هذه هى المعضلة .إنه لايريد طريقا للخروج من المأزق، وسوف أخبرك لماذا. لأنه مولود رجعى. إنه يعرف رأى أنا فيه . لقد قلت له هذا فى وجهه."

تذكير أخر باعداد الذين ماتوا فى الحرب التى وقعت على بعد عشرين ميلا منا إذ جاء به ضابط شاب دخل الشقة وناول قصاصة ورق لبانجو. قرأ بانجو الورقة وأعطاها لألالى ثم استدار نحوى .

" هل تعرف جوى أخاهان ؟"

" نعم "

" لقد مات. حادث سقوط طيارة. إشارة اعتراض فيدرالية."

ظل الضابط الشاب موجودا، قال، " كنت أنا الطابط المراسل له خلال حملة تيف "

أبدى بانجو ملاحظة "حسنا علينا ألا نقلق الآن من أى جانب سيكون هو فيه. "

قال الضابط بصراحة ، " لا أصدق أنها كانت حادثة "

هذا الحوار أشبه شىء بذلك الحوار الذى دار حول زيارتنا لإنيجو، يجب أن يظل جزءا من اللغزألأكبروهو الحرب. حيث كان حضورنا فى تلك الشقة،وهى مركز عمل بانجو التى كان يستخدمها كمكتب. لأن أحدا منا لم يكن من الإيبو، فيكتور بانجو كان مثلى من اليوروبا .أما ألالى أجاوى فكان من الوسط الغربى.،وهو ماركسى تدرب فى موسكو وعمل مع نيكروما فى الحزب الشيوعى(C P P) إلى أن أحس بحرج متزايد بسبب دعوته لتقليل عبادة الفرد وعن الانفصال المتزايد بين النخبة الحزبية وبين الجماهير وقد اكتسب لنفسه قدرة سحرية فى عمليات الاعتقال الوقائى. كان ألالى ، رشيقا وقلقا راح يذرع الحجرة فى خطوات واسعة مرنة ، ينفجر من وقت لآخر لكى يسأل :

" كيف يمكن لنمط جوون هذا أن يفكروا فى بناء أمة على مذبحة إبادة ناجحة، أو أوجوكوعلى أساس رد الفعل العاطفى للمذبحة ؟ ماذا يفعل هؤلاء المثقفون جميعا الذين نسمعهم كثيرا يرددون رطانتهم الاشتراكية الزائفة ؟ لقد أعتدنا أن نضحك على هؤلاء المزيقين حين كنا مع نيكروما. لذلك فما الذى حدث عندما وقع شىء معادى للإشتراكية مما يهدد بتفجير الوطن. لماذا لا نسمعهم الآن فى وقت الحاجة ؟"

قلت ، " أنت لاترغب فى الاستماع إليهم، إنهم يستمتعون بشجن الاختياربين إثنين من الشرور ".

قال بانجو ، " إن الأمة لاتواجه فقط الاختيار بين إثنبن من الشرور.أيا كان الطريق الذى تاخذه هذه الحرب، فالنتيجة هى فقط ترسيخ أسوأ ما فى الشرين.

فقد خاض السوفييت حربهم الأهلية وبنادقهم فى أيديهم و الأيديولوجيا فى رؤوسهم. كان ذلك منذ نصف قرن مضى .لكننا نقذف بجنودنا الآن الى الميدان بشعارواحد فقط هو : أقتل أبناء يا ينمرين أو أبناء الهوسا .ولمصلحة من ؟ إنه مطلب البرجوازيين الرأسماليين الذين بدأوا يحصدون أرباح الصناعات الحربية الناشئة . كيف يمكننا أن نتخلص من تحالف المغامرين الرأسماليين وبرجوازية العسكر بعد الحرب ؟ ألا يعرف هؤلاء المثقفون تاريخهم ؟ ألم يسمعوا أبدا عن أسبانيا ؟"

" وكلما طال زمن الحرب .." بدأ بانجو يتكلم فقاطعته لأسأل إن كان يظن أن الإيبو سوف يقاتلون حتى آخر خندق. لقد طافت فوق أفكارى ملاحظة جورج أورويل :

" إذا كان من الصواب ... أن تشجع الأسبان على الاستمرار فى القتال عنما يعجزون عن إحراز النصر فهذا سؤال من الصعب الإجابة عليه. أنا نفسى أظن أنه الصواب، لأننى أعتقد حتى من وجهة نظرى أن يعيشوأ لكى يقاتلوا ويواجهون الهزيمة أفضل من الاستسلام بدون قتال."

بناءا على ما رأيته وسمعته، كان من غير المحتمل أن يستسلم الإيبو.

تنهد بانجو ." من يستطيع أن يخبرنا بما سوف يفعله الإيبو ؟ الحكاية كلها جنون من البداية، لكن من سوف لا يجن بعد أن وقعت الكارثة ! لقد أشار مرارا وتكرارا ، كما فعل ألالى، الى لب الفشل ذاته ، وهو الإحباط المزعج النابع من إنحراف أخلاقى لآ يصدق باتت الأمة بسببه مذنبة." لكن ما الذى حدث لكم أيها الناس فى الغرب؟ أوتيجباى وكل هؤلاء الناس الذين لا تختفى صورهم من الصحف . لم تصدر عن أى واحد منهم كلمة إدانة واحدة للحرب, ولا أى احتجاج على جوون ، ولا حتى مظاهرة من الطلبة، ولا أى عمل من أعمال التضامن مع الضحايا. كيف توقع بقية أبناء القطر منهم ألا يغذون المقاطعة ؟"

" قلت ، " ربما كانوا يريدون قطيعتهم. هناك أسس متبادلة على كلا الجانبين لأصحاب المصالح المكتسبة ."

" المقاولون !" بصق ألالى الكلمة من فمه باشمئزاز شديد.

" سوف تجدهم فى مجال الأعمال والخدمة المدنية. الواقع أن الأخيرة أسوأ. على الأقل أنت تعرف رجل اعمالك.أما رجال الخدمة المدنية فهم أخطر.إذ يدعى كل واحد أنه لا يحمل سوى مصلحة

الدولة فى أعماق قلبه." شق الهواء فى تقطيعات كاراتيه دقيقة،يسار، يمين أمام."إنها ليست الأمة فقط هى التى تحتاج إلى تقطيع. إنها عقلية الشعب ككل.تحتاج أن تقطع إربا ثم تجمع مرة ثانية ."

ما جمعه الله (الرجل الأبيض)، لن يسمح لأى رجل أسود أن يفرقه. إن تعقيدات سياسة الاستعمارالجديد فى التدخل تفرض على الانسان أن يتقبل مثل هذه التعاليم الملعونة الآن كضرورة برجماتية. ربما فيما بعد تستطيع الأمم السوداء الجلوس مع بعضها البعض، وبناء على إتفاق ، يضعون البوصلات والسطور المربعة على الورق ويعيدون تشكيل نفقات الحياة ، مستخفين، بقيود هذه السلطة المقدسة المفروضةعليهم.

فما هو واضح ، بطريقة بائسة ، ومهينة أن حربا يتم خوضها بدون برنامج متزامن للإصلاح وإعادة تحديد الهدف الاجتماعى . إنها حرب صمود ؛ لأن الصمود كلمة أكثر دقة من كلمة الوحدة فى وصف حرب يمكن فقط أن تعزز القيم الأساسية التى أشعلت الحرب بالدرجة الأولى، لأن هذه القيم لم تختبر فى أى مكان أو أى زمان.لم يظهرأى برنامج تم تصميمه لضمان القضاء على المظالم التى أدت إلى الصراعات الأولية .

سوف يكون هناك انتصارات بالطبع ، لكن المنتصرون لن يكونوا من ضحايا الجماهيرالشعبية سواء فى بيافرا أوفى بقية الأمة. وبعد أن أتخموا وشبعوامن ، فإن هرم النخبة سوف يندمج فى ألية الإغراق الطبيعي فى مجال سوف يمتص قطاعات أخرى من النخبة،خالقا كتلة مافيا متضامنة ذاتيا من العسكريين والسياسيين القدامى والمقاولين . بعد ذلك كله، فإن إرادة الأمة القتالية ليست بلا حدود. فإرادة الحرب وضعتها فى توتر عنيف حتى أنه لن يتبقى منها سوى القليل الذى يمكنها من تحدى قوة المنتفعين بالحرب عندما يأخذون فى دفع الأمة إلى الموت. وكما يشاءون، وبعد أن انتفخوا بريح النصر، سوف يظل المنتفعون بعفونة الموت حكاما مقررين. بحكم الأولوية فإن القوة القتالية لأى شعب ترتبط بالعمل الحاسم للثورة الداخلية .فأن ترهقها أو تبددها بغير احتياج معناه أن تضع الشعب تحت رحمة الانتهازيين بعيدى النظر من اصحاب نظرية الاندفاع والفوضى.

المقاولون العسكريون والديكتاتورية المتعددة : هذا هو الميراث المحتوم لحرب تمت إدارتها على أساس الشروط الحالية . الفراغ فى القاعدة الأخلاقية – لأن الحدود القومية ليست قاعدة أخلاقية أو أيديولوجية لأى صراع- هذا الفراغ سوف يتم ملؤه بأخلاق عسكرية – هى الإكراه القسرى . والتكوين النخبوى للجيش، العقبولة الاستعمارية العالقة االتى بقيت بسبب العجز القومى عن إعادة التقييم سوف يستمر بذاته ويرقى بالتراث الطبقى للمجتمع. إن التشعبات فى تحالف الطغمة العسكرية الفاسدة والمافيا المغتصبة لا حدود لها فى المجتمع وهى مسألة تكاد تستعصى على العلاج . الحرب تعنى تعزيز الجريمة، والقبول بسلك القيم التى خلقت الصراع. إنه فى حقيقته ولاء وتقديس لسلم القيم هذا لأنه الآن صار مرتبطا أرتباطا حميميا بمعنى الهوية الوطنية .

كل شىء يتم تعريفه عندما يجلجل شعار الهوية الوطنية. كل شىء يتوحد فى الترحيب الهلامى بالوحدة القومية. التفكير(لا أستطيع أن اجد كلمة أخرى ، لكن العملية كلها غير عقلانية) التفكير فى أن القيم التى كانت سائدة عند تحقيق النصرهى القيم التى تخلق النصر.فى جو الضباب المشوه للغبطة القومية فإن الانحراف الأخلاقى والعقم الأيديولوجى الذى أدى إلى الصراع لم يعد نراه هكذا، ولا نراهم كأشياء مستمرة فى هوية الأمة حيث أن هذه الهوية لم تتغير، ولم تجتز أى تطهير ثورى سواء فى أحشائها أوفى رأسها. فأى حرب ، بما يتخلف عنها من معاناة انسانية طويلة ، لابد، حين يصعب تجنب ذلك الشر،أن تؤدى إلى مزيد من التجزئة لا البناء:لا بد أن تمزق أسس التفكير والابداع . بهذه الطريقة فقط يشارك كل فرد فى الكارثة و يفهم الهدف من التضحية .

أظن، بعد كل ذلك ، أن هناك تعريفا واحدا مشتركا لكلمتى شعب وأمة – وحدة من البشر مرتبطين معا بأيديولوجيا مشتركة.لابد أن يكون الشعور بهذه الهوية أو بفقدانها هو الذى أحس به فى لحظات اليأس عندما تطوف بى هذه السطور من (أفلاطون)

وهؤلاء الذين يكرهون الشر من أعماق قلوبهم

سوف يطردون من وطنهم ، عندما يتأتى للشر

أن تعبده أمة من العبيد

من الحكمة أن تنبذ هذا البلد وهذا أفضل كثيرا

من أن تحمل نير رعاع أعمته الكراهية

فى انتكاسة شعب يعود إلى مرحلة الطفولة.

أو فى لحظات أكثر بهجة عندما، أتذكر سطور كاسترو بكل ثقة "

هذه الأرض أرضنا

والهواء

والسماء

سوف ندافع عنهم دفاعا

عن هذه الأرض ، وذلك الهواء والسماء التى تشكل رؤيتنا الى ماوراء الحدود التى رسمها سادة الماضى الاستعمارى أو أعيد رسمها بفعل هبة الغضب الغريزى للمنتهكين فنحن ننطلق ، كل إلى مصير مختلف.

الفصل الرابع والعشرين

اخطر لحظات الضعف هى تلك اللحظات التى تسبق اليقظة،هى اللحظات التى تقع بين الصعود الى قمة الوعى وحالة التسلق الفعلى نحو الشاطىء .هكذا أفكر أنا فى الصباحات الخطيرة : ربما يكون هناك أنواع كثيرة من الوعى تحوم فوق سطح مشترك فى تلك الساعة وعلى الشاطىء اكوام كثيرة من الملابس وعقول مخدرة تنجرف الى الداخل والى الخارج ، فلو قدر لإنسان فى مثل هذه الحالة أن يختار لباسا خطأ ، أو انجرف حول نفسه إلى الأبد لأنه لم يجد شيئا. فكل شئ يختفى بطريقة غامضة .

فى كل يوم أقضى وقتا طويلا بحثا عن الملابس ، قطع غريبة تحملق فى وجهى . قميص ملوث ، بنطلون طويل ، شبشب غريب . ثم إننى اقع فى أخطاء وأواجه نظرات غريبة ، واحيانا ضحكة ساخرة . كم من الوقت تستغرق ؟ بريقا كما فى حلم ؟ أو تدوم دهرا ؟ كم من الوقت يأخذ البحث ؟ كم من الوقت بطول اليوم ؟ لمن هذه الوجه التى لا أكاد أتعرف عليها فى العتمة ؟ كيف يتأتى لإستعارة مجردة أن تأخذ مثل هذه الأصول ؟ من غير الممكن أن ترى نفس الحلم عند الفجر كل يوم. ربما أنجب التفكير حالة من الرعب وراح العقل يقفز بدافع غريزى نحو الخوف المدفون فى وقت اقتراب اليقظة.

تعود أحلامى النهارية الى تلك البحيرة، تعود مرارا وتكرارا بحثا بين الوجوه الغريبة ، التى تجر أقدامها فى خوف متزايد ، خوف الرعب ، خشية أن أصحو فأجد نفسى غريبا عن نفسى.

أنا اعرف السبب . أعرف احداث الأيام السابقة التى اتهرب من تحديدها . من الواضح أنها مفزعة، لكن ماهو السبب المباشر ؟ البوابة. دق المسامير فيها . إننى أشخص هذه التجربة غير المسبوقة : تجربة الخوف من الأماكن المغلقة .

نوبة زائدة من القمع عمياء ساحقة. اندفاع عنيف لرائحة سموم فى الرواسب المحبوسة داخل كبسولتى العازلة ... فجأة فى جنح الليل أرغمت على اليقظه كما لو كانت كبسولتى الذاتية مجرد فقاعة فى بركة الوعى . لكن الكبسولة صمدت وابت الانفجار ، قبضت بمخالبى على السطح الأملس وتوسلت كى يدخل فيها الهواء. كانت يقظة رطبة فى ليلة عاصفة . البرد يضاعف حدة العزلة داخل الفقاعة، يأتى الخوف من طعنات الضغط الباردة كالثلج. لماذا ؟لماذا تنسد رئتاى فجأة ؟ اضطراب وحشى ابتدأ فى نبضاتى،أ سمعه يدق فوق رأسى بمطرقةوأصبحت قبضتا يدى المنطبقتين شيئا حيا. طائرا مفزوعا يضغط ليسد راحة يدى. إنه النبض ، نبض خالص. شعرت أن قلبى يوشك على الانفجار. الكبسولة تنفك. وقطيع من الفحول تلطم خدودى.

سالت ان كان يمكن احتمال هذا، جمجمتى توشك على الإنفجار. البحيرة الساكنة انفجرت فجاة وأخرجت أنا منها نظيفا ، فقاعة من الزجاج فى قفص من البلاستيك كبسولة مبهرجة حشرة مشبوكة بدبوس صعدت نظيفا بفعل الإنفجار الذى قذفنى من جانب إلى جانب فى موجات تموجية ضخمة .امتدت يد طويلة من بين الموج فى انحراف شرير وشدتها ثانية الى قاع النهر، وانزلقتا من قمة الى قمة حيث لا ضوء و لا اتجاه . البحيرة مغارة تحت الأرض مغلقة باحكام من الطرفين ،لا يوجد

شئ يمكن لليد ان تقبض عليه. مجرد زئير فى اذان القبو، جنونفى قلب الأرض العارى - قنبلة من المياه تنفجر وتتناثر منها كرات قاتلة نحو مراكز النبض فتحدث دمارا .

لكنك تعرف ما هو الغرض منها !إحداث الفزع! أنت تعرف أنها من أجل هذا فقط! شىء بلا معنى !

سمعت صيحتى واستيقظت. قفزت وحدى من سطح البحيرة نحو الشاطىء وا تجهت دون خطأ نحو ملابسى.

لكن الكبسولة تم امتصاصها ثانية. والآن فقد كافحت فى فراشى وجلست ساقا فوق ساق. هذا ما تريد أن تفعله كما أنذرتك: اقفز، امسك هذه القضبان وهزها كما يفعل قرد هائج. واصرخ ! لأن هناك هذا الشئء، هذا الانقباض الحديدى اسفل القلب والتنفس صار عذابا. وأخذ الجسم ينكمش حجمه إلى سمك قرص لعبة الهوكى ليقفز طائراكى يصطدم بالحائط ويمزقها مكتسحا أمامه كل شئ بتلك القوة غير الانسانية التى هبطت علي فشعرت بقوة تيتانيك الجبار. حاضرة هناك! قوة ملموسة. لو تركتها تحكم جسمى حتى لكى يتحرك بخفة من ذلك القيد الرقيق لساقى المربعتين تحتى، فسوف تنطلق قوة التدمير الذاتى.

لماذا ، لكن لماذا ؟ ألست انت سبد هذه البيئة؟ ألم اتوجك ملكا للعزلة ؟

اضبط . اضبط. خذ نفسا ، إخرجه. لا تترك صوتا آخر يفلت منك. استند على الحاجزين المتوازيين للباب، درجة تعادلك توٴهلك لهذه العلوم الغريبة التى تشغلك الأن. أمامك قضيبان ، معادلة واحدة. وازن السماء بالأرض و الأرض بالسماء. اقبض عليهما بشدة لكن فى صمت. تلمس الحديد ودكه فى داخل روحك. واحفظه هناك .

لكن متى وصلت إلى الباب ؟

الأرض. الأرض.إجلس على أرضية الزنزانة. بطانية.إذا لم تصل البرودة حد التجمد. توسد إذن.اجلس على الوسادة لتحمى مفاصل قدميك. لف البطانية حول جسمك ثم تنفس.أدرج أشياءك فى قائمة بادئا بفرشة الأسنان الموجودة على الرف. مافائدتها؟ والصابون؟ عد القطع واحدة واحدة مستبعدا درجات التعادل لا، من خلال الأنف. تنفس فقط من خلال الأنف.كل ماتحتاجه من الهواء يمكن أن يأتيك من الأنف. لاتلهث .أنت لم تكن تجرى، ليس لهذا متسع هنا.لا تترك الشياطين تدخل هنا. والآن إفرغ ذهنك .وضع المرساة .

فى هذه الليلة القارصة البرودة تغطينى بحيرات من العرق.وربما يكون من الأفضل أن أبقى فى الفراش،مستلقيا.هناك سطح أكبر يغطيه التراب.إفرد ذراعيك على الأرض.إدخل كعبيك فى كتل من الحشو.أنا انتظر لحظة إهمال فى هذه الهجمة، لكى أحشد قوتى فى لحظات الصفاء. كيف تصفها؟ إنها تستقر فى نمط معين ،بإيقاع مقبول من المد والجذر، بين سوء الحكم والوضوح. هجوم وحشى بقطعان من الذئاب ثم لجوء فترة قصيرة تحت مظلة . اصابعى على منحدر صخرى آخذة فى التراخى والإعياء. قطرة فى فراغ طويل، سكون محير فى قلب الاستنشاق. استلقيت ذات مرة على وجه صخرة منتصبا تماما لا يحملنى غير القوة التى رفعتنى فوقها لأول مرة. متى ؟ لا أعرف ، لزقة يحميها توزيع للقوة خبيث لاحيلة لتركها طليقة ،ولا ثغرة لدق خابورمن العقلانية فيها . بعد كل غسلة عميقة بالماء ينكمش الحجم ويتقلص البعد. تم لقد تأكالت بفعل الغسيل حتى صارت فى سمك الورق الحساس. هل هذه هى صورة الأشعة الخاصة بى فوق الصخرة.

قصاصات

لا يمكننا ان نمسك بها

تعترض ومضات البصيرة

خطوات نعبرها ثم نعود لنعبرها ثانية نحو عتبة الإدراك

تثبت ذاكرتى على الأقل أنها واعية حافظة .تلك التسبيحة تؤدى الغرض. انطق الكلمات اطلب حالات ان لم تصمد الأفكار مرة أخرى.

مرارا وتكرارا تتدحرج الكلمات فى الفم .نتذوق نعمة النبيذ ، و نكهة حبوب اللقاح ، تراب الروح. الرحيل الى ما وراء الحاضر، دع الكلمات تعد طريقها ثم ترحل عبرهذا الطريق وهى تنشررائحة البخور حولها. ابسط خياشيمك بنهم. لكن بنهم! و ابتلع مايفوق حد الامتلاء.

هل هذا انتصار؟ لا بل، جذر ومد . لكن قد يكون واحد منهما هو القمر ويحلق عاليا فوق الأخطار،رغم أنه قد تم قذفه واجتياحه فى أعماق مظلمة، تفصل مابين الذات الأصلية وتوأمها المنعكس وتجعل كل الوجوه الجارحة أشد تعاطفا على المستوى الحسى. ظلى واقع فى مصيدة لكن جوهرى لا . أكرر. ظلى واقع فى مصيدة لكن ليس جوهرى.والآن إقذف تعويذة جديدة إذا تجدد الهجوم.

أيتها الأقمار الدهرية

أفتحى عينيك الحوراء تين

فوق معابريدى

مشطى

أعراف الريح البحرية على رمالى التى جرفها المد.

لقد شفى كبدى.وانا أنتظر النسورحيث لاوجود للصقور هنا .

الفصل الخامس والعشرين

وصل أمبروزو للعمل ، متأخرا . فإذا لم أوقفه بسرعة أو أجمده بطريقة معادية فإنه يقدم دائما شرحا إن كان قد تأخر دقيقه أو لم يحضر مطلقا فى نوبته السابقة . وغرضه الحقيقى أن يرى اذا كان هناك أى متروكات يريد أن يحصل عليها قبل عامل النظافة .

صباح الخير! أنت لم ترنى – لقد ذهبت الى المحكمة . فى المساء عدت متأخرا قليلا . نحن نحظى ببعض التملق بسبب الوظيفة.حدث فى هذا الصباح ." صباح الخير صه. كلنا نحن السجانين اخذنا حقن التطعيم. هذا سبب تأخرى. الحمى الشوكية منتشرة فى المدينة ومات كثير من الناس . كشفت قليلا من رد فعلى وأخذ هو فرصته " نعم ، أظن أنهم يقولون أن الحمى الشوكية وهذا اسمها. إنهم يديرون رأس الرجل الى الخلف .كل شخص داخل السجن يجب أن يأخذ جرعة الطعم اليوم . كل السجناء والمعتقلين . لذلك فعليك أن تجهز ذراعك وسوف تشعر بقليل من الآلم .

كل شئ نرحب به فى السجن ، حتى تهديد الحمى الشوكية ووخزات الحقن غير المحببة . هناك ساعات انتظار دخول الإبر ، لحظات وقوع الحدث ، ثم بقية اليوم عندما يتجسد ذلك الحدث فى فتح فجوات فى جو خانق لحياة لا هدف لها . أنا لا أحتاج إلى أمبروزو لكى يخبرنى متى جاءوا الى فناء المجانين ، فهناك الطرقات السلطوية المألوفة على الباب ، مدخل الفرقة الطبية، إعلان الأوامر ، الأنين الذى يعقب كل صيحة ألم . لقد اندفع أمبروزو وأعلن ، " لقد أتوا !" ثم عاد الى موقعه .

مرت ساعة.وسمعت البوابة تفتح والفريق يغادر المكان بنفس الطريقة التى أتى بها. لم يصدق أمبروزو ففتح بوابته قليلا ليرى ماذا حدث، ثم أغلقها ثانية وعاد أدراجه. قال " أنا لا أعرف . أظن أنهم نسوا أن يلقوا عليك تحية الصباح أو ربما غدا يلقونها عليك "

نزلاء السجن ، بما فيهم أولئك الذين فى زنزانة الموت ، قد حقنوا ضد الالتهاب السحائى .

حاولت أن أتذكر ما أعرفه بشأن هذا المرض . أساسا هو مرض سريع العدوة ، ولكن ليس عن طريق الاحتكاك المباشر بالمرضى فالجراثيم تنتشر فى الجو عن طريق الهواء .أثناء سيرى بخطوات واسعة فى السرداب . وجدت نفسى ألقى نظرات لا ارادية تجاه الحائط ، كأننى أفتش وأراوغ بذور

هذا الخطر الأخير الراكبة بلطف فوق الأسلاك الشائكة لتحقيق آمال أولئك النفر من الناس الذين أمروا بعدم اعطائى حقنة التطعيم .

لأننى أعرف أن هذه لم تكن رؤية مبالغ فيها.بل إنها إمكانية "طبيعية " جدا نحو الحل النهائى

هامش :حوالى أغسطس 1968،انتظرت الحكومة أكثر من شهرين قبل أن تنكر التقارير المستمرة التى تنشرعن موتى . إعلانات الوفاة كانت تكتب وتذاع ، لكن، هناك صمت من جانب الحكومة. فهى تنتظر، كنوع من الاختبار.

الفصل السادس والعشرون

لم أمارس أبدا فى حياتى عملية نشل الجيوب – الآن ، تمهل لحظة ، فربما أكون قد فعلتها . فى المدرسة يمارس الأولاد كل أنواع اللعب مقلدين أدوار الجاسوسية المثيرة والروايات البوليسية ،وتصوير الأفلام الخاصة ، أى من هذه الألعاب كانت كافية لوضعنا فى اختبارعما إذا كانت أصابعنا أو ردود أفعالنا أكثر رقيا منهم، أى من اللأطفال.

علاوة على ذلك هناك معرفتنا المكتسبة فى علوم الكيمياء والفيزياء.الآن سرقت أنا أقفالا ، ليس بقصد اللهو.إنها حافظة مفاتيح مفقودة . الخ ، ناهيك عن عدد المرات التى استعمل فيها مفتاح الباب الخلفى لادخال صحيفة تحت عقب الباب – وهذا ما استفدته من خبرتى المدرسية . لكن القيام بنشل جيوب ،لا، لم يحدث هذا على ما أتذكر. أقصى ما كان يحدث هو سرقة شىء بقصد المزاح فى وقت اللهو بالمدرسة.

لكن ، منذ أسابيع قليلة مضت – هذه، حقيقة، إنها أول سرقة يسجلها هذا القلم - أديتها بكفاءة وسلاسة كأى تلميذ من الفائزين بجائزة فاجين ، فقد سرقت جيبا ، وليس أى جيب ، ليس الجيب الخلفى لبنطلونه ، أو جيب المعطف الخارجى لكن جيب القميص الموجود على صدره . كون هذا العمل البطولى لم يبدو لى شاذا فى ذلك الوقت ،فإنه ادهشنى بدرجة غريبة.إنه برهان آخر على كيفية

تحول الإنسان يوميا، لا، بل لحظيا إلى مايشبه الثعلب بسبب حبسه بعيدا عن الوجود الحضارى العادى. إن الذى استدعى هذه الحادثة إلى ذهنى هو أن القلم – وهوقلم جاف رخيص – قد بدأ فى عرض البوادر الأولى، ووجدت ذلك بطريقة غير واعية تماما فأخذت أتمنى عودة الطبيب. متحيرا لماذا، تذكرت حادثة القلم الرصاص لعملى الأول كنشال جيوب.

أخيرا حدث أن قام الدكتور بجولة روتينية فى الزنازين إلا أنه فى حالتى لم تكن زيارة روتينة أبدا . لقد مشى الدكتور بين المساجين لم يره أحد ، يصحبه فقط ممرضة وأحد موظفى السجن الصغار. ذلك ، بالإضافة إلى الثقة المرتبطة بالصيدلىأكملت الفريق كله . ثانية ،فإن أى نزيل جديد للسجن لا بد أن يرى طبيب السجن فى الحال ، وهذا يتم بالتأكيد فى الثامنة والأربعين ساعة الأولى . لسبب واحد أنه هو الذى يصف له نظام الغذاء ، ويقرر بعد الفحص الدقيق ما هو العمل المناسب له . ورغم طلباتى الكثيرة ، فإننى لم أشاهد طبيبا لعدة شهور . عند اقامتى تولى المشرف العام نفسه وصف النظام الغذائى لى. جاء فى الصباح وسألنى ما هو الطعام الذى أعتدت على تناوله. لقد حصلت حتى الآن على نوعين فقط بينما اشارهو إلى كميات كافية. ومنذ ذلك اليوم ، حتى وصول المشرف العام الجديد كنت أكل اليام فى فترة بعد الظهر والأرز فى المساء وفى الصباح يأتى اللبن ، السكر ، الزبدة ، والبيض معظمه ليزيد وزن عامل النظافة وحراسى ، وأمبرزو بشكل ظاهرجدا.

والآن ودون سبب مفهوم ، ظهر الطبيب فى صحبه المشرف العام ، واثنين من الضباط الصغار .سجان كبير، وكتيبة من صغار السجانين . أما الممرضات فقد انتظرن فى الخارج . خضعت للفحص ، أجبت أسئلته ثم سألته بدورى سؤالا

" أنا هنا منذ شهور. وحيدا ليس لدى كتب، و لا شغل أيا كان. هل تظن ان هذا مفيد لصحتى ؟".

دفع إصبعه الابهام فى صدرى وضحكز" ها ، ها أنت تبدو لى بصحة جيدة جدا".

" لكن هل تظن أنه اجراءا صائبا؟ هل تظن أن هذا تصرفا انسانيا ؟فإذا كنت لا تظن ذلك فينبغى عليك ان تفعل شيئا. لقد تعودت على استعمال عقلى وتغذيته ، فهل من الصواب أن اتعرض لهذه المجاعة المتطاولة؟."

اتضح لى أنه أبله. لم اكره ابدا اللهجة الأسيوية كما كرهتها فى تلك اللحظة . وفيما هو يتكلم ، تذكرت تاريخ التدخل الهندى الباكستانى فى الخدمة المدنية النيجيرية، و فى مصلحتين على وجه الخصوص – السكك الحديدية والخدمة الطبية . كان الراحل ساردونا سوكوتو هو المسئول الأول عن جلب هذه المواهب الأسيوية الضعيفة إلى بلدنا. فضيحة بين ألاف الفضائح تشمل موظف بإحدى المستشفيات ،هو ابن أخ مضيفه المسلم أثناء بعثة من بعثاته الإسلامية التبشيرية فى باكستان . ففى إحدى لحظات توسعه على حساب الأمة منح ساردونا لهذا العامل منصبا رئيسيا فى شمال نجيريا قبل أن يعود معه . لقد فعل هذا وتم تعيينه ضابط طبيب. ومارس الجراحة وكانت النتائج يمكن التنبؤ بها. واخيرا فى 1963 ، نتيجة الإنزعاج الشديد من كثرة عدد الوفيات فى الجراحات التى يجريها ، تم التحقيق معه. وتم الكشف عن سوابق هذا الصنيعة الخطير. رغم هذا فإن القرار النهائى كان مجرد : يمنع من اجراء أى جراحات أخرى. هذا الجزار احتفظ بوظيفته ضابط طبيب برتبة رفيعة ، واستمريعمل بانتظام فى استقبال المرضى بالعيادة الطبية .

لقد رأيت طبيب السجن وسمعته ، بلهجته الكاريكاتورية فبدا لى أشبه بواحد من حثالة الواردات الساردونية الأخيرة . البداية ظننتها مجرد نكته رديئة المذاق عندما أصر على ترجمة شكوتى من الفراغ الذهنى بمصطلحات الطب الطبيعى ، ثم أدركت أنه فاقد الوعى .

كنت أشكو" من عينى ، إعصار هارمتان أو ربما شىء آخر قد أحدث فيهما إصابة.إننى أحتاج الى علاج."

وفى طرفة عين ضغط بإصبعه السبابة على جفونى السفلية.بسرعة، الواحد بعد الآخر." نعم ، نعم" وأضاء كشافه مرة فى كل عين " ماذا فى عينك؟ إنها تبدو طبيعية جدا."

" لكن هناك بقع تظهر امام عينى ". نظرت اليه وعينى فى عينه .على أمل أن يفهم ويمارس سلطته . " لابد أنها من قلة القراءة "أحسست بأنه أبله.

" لا، لآ " قال وهو يركض حولى وأخذ يفحص كل مقلة عين بجدية صارمة . ربما تكون قد قرأت كثيرا جدا فى الماضى . الأفضل أن تريح عينيك !""

قبضت عليه فى اللحظة التى استدار فيها الى اليمين حولى . هو الآن بينى وبين أعضاء إدارة السجن . أمسكت بيده التى تحمل الكشاف وأوضحت كل كلمة ببطء" إنها تحتاج الى القراءة "

حقا ، حقا .....آسف ، هل ذلك يزعج ؟

فككت معصمه برقة وقال " سمعت الآن أنك لم تكن تآمل جيدا. أنت تعرف أنه يلزمك أن تأكل جيدا" .

و فى تللك اللحظة فكرت أنه من المؤكد أننى لن أخرج بشئ من هذه الزيارة من ذلك الرجل حتى أن ذهنى علق على قلم الحبر الجاف من جيب الصديرى . للكتابة ! لكى أتمكن من عرض أفكارى على الورق ، ربما لبداية مسرحية،أو رواية ، أو قصة قصيرة ،أو حسابا لنفسى ..... كل ذلك كان ، لكن الأهم من ذلك ، الشغل " أنا والقلم سوف نفعل شيئا . سوف يجرى الوقت بسرعة أو يتم قرضه ببطء .

أخذت اكرر " بقع ، مثل الآن ، هناك" وأشرت الى السقف ، لكن خلفه بدرجة ما ، فوق كتفه الأيمن .كان الجيب على الشمال . كنت مرك أن رجال السجن ينظرون ولكنهم يحاولون ألا يشاهدوا ، ينصتون و لا يستمعون ، مدعين أنهم تركوا أحد النزلاء فى استشارة خاصة مع طبيبه . التفت الأسيوى فى اتجاه إصيص ، فملت عليه الى الأمام ، خطفت القلم حين استدار صدره الأيسر خلفى أطبقت عليه كفى ، ثم بسطت كفى على النضدة ، فاستكان فى داخلها "

قلت " بالطبع أنت لن تراها "

" هذا سببه أكلك بطريقه غير منتظمة" بدأ يجمع أوراقه أما أنا فقد ثبت عينى على عينيه لأرى إن كان قد لاحظ ، دافعا إياه لأن يلعن نفسه بصورة مطلقه كواحد مفروض فيه أنه عضو فى مهنه انسانية بسبب خداعه لى . لكنه لم يلحظ شيئا. تأكدت أنه لم يظهر أى رد فعل من جانبه ، "يجب أن تأكل جيدا ،تتغذى بطريقه صحيحة ، ولن ترى بقعا أمام عينيك ": هذا كل ما قاله.

عدت إلى التفكير،أظن أننى تمنيت أن يعرف أمر السرقة. لكان ذلك يعنى وجود ضمير انسانى ، مما يقلل من واقع العزلة . ربما كان ذلك هو السبب الذى حرمنى من الفخربدقة تلك العملية الصغيرة

غير المعدة سلفا . كنب مهتما جدا بمتلبعة كل لحظة تظهر فيها ردود فعله ، أملا عكس الأمل فى أن يعرف ، أن يدرك احتياجاتى وأن يتحرك لتلبيتها. لماذا الشىء الآخر الذى أتمناه الآن والحبرقد بدأ يجف من القلم ، هوأن يزورنى ثانية ؟ لكننى حسب معرفتى بحقيقته فإنه لن يعود ثانية ومعه قلم بارز من جيب قميصه . فإذا عاد فربما لأنه ، عرف وجاء عمدا لكى يسرق مرةً انية.

الحبر أخذ يجف..لابد أنه يمكننا أن نحسب حسابيا (أو هندسيا) سرعة جفاف الحبر فى قلم.او الأنسب أكثر سرعة الإرتداد النفسى لأى نزيل تحت رعاية من طبيب ساردونى .

-الفصل السابع والعشرون

بدأت أنات الحزن تسمع بعد العشاء مباشرة . كانت تأتى من ناحية ذلك الجدار الذى يواجه مدخل زنزانتى . الجدار به فتحتان للضوء ، تغطيهما شبكة من الحديد تسمح بمرور قط و من نتف الفراء التى تبقى عالقة على الشيش الحديدى أعرف دائما متى استعمل الممر بالليل . ثم انطلق فى الفضاء المتسع عاريا مرعوبا ، ليختفى خلف الكوخ بحثا عن فتاتة يأكلها.هناك مجرى ماء مباشر خلف الكوخ . يربط هذا المجرى فناء المجانين عن طريق سرداب بحظيرة النساء . هذا المجرى هو الخط الذى يجرى تحت الأرض ويربط قبور جهنم كلها .

أشم رائحة الموت الأن فى الهواء . لا يمكننى ان اخطئها لذلك فإنه يتوجب على أن افكر فى الأشياء الحية ، اطرد هذه الرائحة بعيداعن انفى،ومعها تضرعات الأيدى المعروقة بسبب عجزى وقلة حيلتى.

منذ أسابيع ولد لنا طفل هنا – سمعت صرخات رضيع وتساءلت كيف يمكن هذا .أيوجد طفل فى هذا الجحيم ؟ كان الوقت مساء ، نفس الوقت تقريبا الذى بدأت فيه الأنات الحالية المقتحمة. ربما تكون زوجة قد جاءت لزيارة زوجها السجين ومعها طفل حديث الولادة .

ليس هذا غريبا. لقد سمعت أصوات النساء من قبل لكننى ظننتها اصوات أطفال. لقد مرت عدة شهور قبل أن أعرف أن القبو الذى أقيم فيه يقع بين فناء المجانين وعنبر النساء ! كانت اصواتهن خافتة كأنها خارجة من فجوة فى مغارة بعيدة، ففى المساء يلعبون العاب صبيانية – ومن الأصوات والضحكات أتبين أنها لأبد ان تكون نوعا من العاب الأطفال. وهذه النغمات هى التى كنت اتخيلها آتية من خارج السجن ؟ فى إحدى الأمسيات الهادئة كتبت بعض الكلمات :

أخى جونى

أخى جونى

هل تنام

هل تنام

أجراس الزفاف تدق

أجراس الزفاف تدق

دينج دونج دينج

إنهن يغنين هذه الأغانى فى نغمة غيرمعروفة وغير ذات معنى، نغمة كان أطفال المدارس يرددون الأغانى الأجنبية مثل؛ أجراس اسكوتلاند الزرقاء ، وغابة الرماد ، والفتاة ذات المظهر الرقيق، تلك الأغانى التى فرضها على المنهج الدراسى عديمو الخيال من أعضاء البعثات التبشيرية. إذ تنطق هذه الكلمات بنغمة مسطحة حتى حين تصحبها ألألعاب . فالكلمات لا تحمل معنى بالنسبة لهن لأن المجال مختلف والعواطف غريبة ،وهكذا فإن هذا الأداء الهزيل هو كل ما يمكن لمدرسة الموسيقى التى أسئ توجيهها أن تحصل عليه منهم . لأبد من تذكر هذه النوعية التى جعلتنى اتخيل لوقت طويل جدا أن الأصوات التى سمعتها فى الغناء واللعب جاءت من أطفال يلعبون فى الخلاء الخارجى تحت أشجار المانحو. ذلك العالم يقع فيما وراء حائط العنبر حيث تشرق الشمس خلفها مباشرة .

هناك طريق يمر بطول حائط العنبر Amber Wall لا يبدو مزدحما بحكم الأصوات الآتية منه . أو ربما لأنه يجرى بعيدا جدا عن الحائط بدرجة تجعل أصوات المركبات تبدو مكتومة .هناك قدر معين من التشويش خصوصا فى هذه الناحية ،المؤكد أن هناك مساحة واسعة من الحشائش تفصل بين الحائط وبين الطريق وهذا الفضاء تشغله غابة من أشجار المانجو التى تبدو هاماتها ظاهرة للعيان . أشاهد البراعم تبرز ،عملية الإزهار وبوادر القرون الخضراء على الأغصان . أسراب من الحشرات تطير خلف أفراد اللصوص الذين يتسللون لسرقة الفاكهة عندما تظهر بوادر النضوج ككل الأشياء الموجودة فى كتالوج المقذوفات العريض التى تقذف بها حبات الفاكهة . وهى كثيرا ما تسقط فى القبو وأنا أسمع الحارس يقسم ويتوعد ويعيد قذف بعضها للخلف.

أنا لا أهتم . حتى خطر إصابة المخ مصادفة بأحد المقذوفات فى فصل المانجو يبدو كنوع من التوابل المثيرة للنشوة التى تجعل الحياة تدب فى جو الملل الذى أعيش فيه . أى كسر مؤلم فى الرأس هو علامة على الحياة ، والحيوية . لا أظن أنه كان يمكننى أن أهتم مطلقا .

ذات صباح نظرت الى أعلى – مشيتى فى الصباح المبكر تبدأ بعد ساعة الإفتتاح مباشرة . هناك فوق قمة غصن ، منطقة لآ تكاد تقوى على حمل ما هو اكثر من وزن الفاكهة، كما كنت أظن دائما ، إنها تحمل ثقلا أكبر من الفاكهة حيث يجثم صبى محاولا الوصول الى حبات المنجة فى أعلى الغصن . كانت رأسه أعلى من قمة الشجيرة ذاتها؛ كان يتأرجح قليلا تبعا لحركة الغصن . كنت متأكد أنه لا يوجد سوى هذه الحزمة من المانجو على الشجرة. ففى أغلب الأحيان يتحرك تبعا تبعا للشجرة ويهتز بعنف حين يأتى واحد أو اكثر من اللصوص ويتسلق الأغصان السفلية لكن لم يجرؤ أحد منهم على تسلق هذا الغصن العالى من قبل . كانت يد الطفل موضوعة على الهدف عندما التقى بعينى تحملق فيه . فتوقف . وأخذنا نحملق بعضنا فى بعض . ابتسمت له استجابة كانت تدل على الحيرة والارتباك . حينئذ أدار عينيه الى بعيد ونظر فى الجانب الأخر . رأيت عقله النبيه يسرع ويتساءل لأنه كان يطل على الحوش المزدحم لحظيرتى . أخذت الشمس ترتفع ببطء من خلفه ، كانت ساطعة بدرجة كبيرة . لا أستطيع معها الاستمرار فى الحملقة . فواصلت مشيتى حول الكوخ .عندما عدت وجدته قد رجع ليحملق فى داخل القبو وعندما عدت ثانية وجدته قد ذهب ، ومعه حبات المانجو .

عندما سمعت صوتا ثلاثيا فى ذلك المساء . تخيلته بين أخرين من أقرانه ، يلعبون فى ضوء القمر. لأول مرة استحضرها ، حاولت بقدر ما أردت أن اكتبها ، ذكريات الطفولة، دار كاهن ملئء بالأطفال . بذلت جهدى النهائى واغلقت هذا المشهد ، بعنف . فى مكانه جاءت رائحة الزهور ، وشروق الشمس ، رجع صوت الجيتار ، النهاية الوثنية الشهوانية لمسرحية أورفيوس الزنجى لجان كوكتو ، رقصة الربيع للطفلين ،ورثة شروق الشمس السحرى المثير ،بذرة تسقط فى التربة تحت أقدام الأبرياء .....

لأنه قد ولد لنا ولد .... انها صيحة طفل وليد، أصوات القهر المحزن الذى صنع عالمه الجديد كله .عقل برئ لكل ما فى جسده الضئيل من حدة . سمعت أمه تدندن وكنت متأكد. إنضم اليه صوت أنثوى أخر عصبى ومتألم بشكل واضح. المشهد كله إنسانيا صوت الأم العادية القلقة كان يقدم نصيحة وهو مهموم الى جانب الطفل . لكن الأصوات ظلت مكتومة ، النساء غير موجودين فى الواقع لم يكونوا ابناء للشمس ، لا يشتهون تزاحم حبات المانجو فى وجه شروق الشمس .إنهم أشباح ، أشباح كاملة لا وزن لها تنجرف فى مغارات الضباب . فى عالمهم السفلى الطفل هو معجزة كاملة الحنجرة . بديل . إننى أفكر الآن بحزن، لأن مولد الطفل قد جاء فى الموسم الخاطئ – كان ينبغى أن يكون الفصل ربيعا . لكن ، إذا كان بنتا فيمكننا أن نتغافل عن التوقيت ونسميها بيرسيفون.

لكن لا عزاء عند حائط المبكى والمغلقة حتى منتصف الليل .إننى اغلقت عقلى عن الأصوات الأخرى التى بدأت منذ ساعتين ، الأصوات التى سرعان ما لزمت الصمت . النزلاء الأخرون ، رفاق الرجل الذى يئن أطلقوا صيحة استغاثه . سمعت أصواتا هيستيرية تنادى ، يا سجان ، يا سجان ! واستمرت لمدة نصف ساعة دون أن يهتم بها أحد ثم زادت بالدق على الأبواب ، والشبابيك ، والجرادل ، ثلاثون صوتا على الأقل تطلب المساعدة الآن . وتحتها جميعا وباطراد إستمر الأنين ، بنغمة ومسافة لا تتغيران كأن آلامه قد تصاعدت تلقائيا حتى وصلت إلى ذلك الصوت. سمعت صوت أحذية عديدة تجرى . سمعت صليل الحديد عند فتح البوابات ، سمعت التهديدات والصيحات ، سمعت الإستجابة ، المحددة للأسئلة . سمعت هؤلاء يصمتون . سمعت وطأ أقدام طويلة للسلطة تقترب من فراش المريض ، سمعته ينحنى ويكشف عليه و لا يقول شيئا . سمعت الخطوات تعود. فقاعة من الأصوات المنفعلة تعنى أنه كان يغادرالمكان دون أن يقول ما الذى يجب عمله . لو أن شيئا سوف يتم عمله . إذن إننى سمعت الكلمة التى تتكرر – دكتور كتمها بسطحية وغضب، صلصلة الأبواب ، وشخللت الأقفال ، ومشيت الأحذية بعيدا .تمتمة الحراس العائدين كانما تعبر عن احتجاجات رجال مظلومين ، رجال قطع وقت فراغهم دون حاجة ماسة .

لم يتوقف الأنين ولم تخف حدته . واستمر صوت هذا العذاب الإنسانى غير الدموى بصورة مطردة وهو الجانب المثبط للعزيمة فى هذا كله . فهو لا يأتى بإختيار ارادى وانما ناتج عن قصور ذاتى وهبوط للنبض . وكأن الرجل قد ترك فمه مفتوحا وصار الصوت يخرج مع حركة التنفس .

وقرب الفجر توقف الصوت . فجأة حتى دون أن يضعف ، وإزدادت حدته . أعرف أنه انتهى .

إن جسدى يتوتر بتيجة لأقل صوت أسمعه . لقد نهض أحد الرجال ، اقترب من الصمت لكى يسأل . أخرون جلسوا فى سريرهم ، قلة انضمت للأول بجوار السرير. بعد دقيقة أسمع تمتمة الصلوات . واستمرت الصلاة حتى انفتحت الأبواب ، دخل أحد الحراس ، توقف ،وصاح منبها لقدوم رئيسه .

وسرعان ما حانت الساعة التى " يستيقظ فيها جميع الموتى " وعندما دار المفتاح فى قفل بابى سألت السجان ماذا حدث للرجل الذى كان يتعذب .

قال : "الرجل مات "

الفصل الثامن والعشرون

أطلقت على الحوائط الأربعة أسماء. " حائط المبكى " هو الحائط الذى تأتى من فوقه أصوات التسابيح الدينية، ثلاثة مرات يوميا ، وفى بعض الليالى ، تأتى انات حزينة لمريض يتألم أو يحتضر، هذا الجدار يوفر أحد الممرات النادرة الإستعمال . هناك تحت الحائط فتحتان صغيرتان لخروج مياء االأمطار.و فى الحالات التى تصفو فيها هذه المياه كنت أرى وميض كاحل قدم لأحد السجناء أو حذاء سميك عادى لحارس، أوحذاء خفيف لعسكرى أو لضابط كبير.وهنا ابتدأت هلوستى أيضا .

نتيجة خداع الضوء والضعف الجسمانى فى اليوم السادس لصيامى الإنقطاعى ، رأيت خلال أوراق النباتات المتسلقة ، هيئته بوضوح . وبصورة لا تخطئها العين، بخصلة شعره فى مقدمة الرأس وشاربه الذى يشبه فرشة الأسنان، إنه وجه إدولف هتلر .

جلست بلا حراك لعدة دقائق ، تاركا الطيف ينمو كما يهوى . لم يحدث أى تغير غير أن مقلة العين السوداء زادت حدة فأغلقت عينى وحولت عينى تجاه الحائط ، تنفست ببطء . وبعناية ثم ادرت

وجهى لأنظر فواجهنى نفس الوجه البارد بتعبيراته التى لا تتغير . أعرف أن صرخة أفلتت منى واننى قفزت الى داخل الزنزانة . لقد كنت جالسا فى الممر ، فى أول المساء ، وقفت فى الظلمة حتى جاء الحارس لإغلاق الباب ، ثم ذهب للفراش . أغلقت عقلى ،ورفضت كل الأسئلة .لقد مضت ساعات قبل أن أنام وبطريقة مدهشة دون أحلام .

فى الأمسية التالية ، وانا أقيس الوقت بدقةذ ، عدت إلى نفس الموضوع . هذه المرة ظهر وجه البرت شفيتتزر . بتغير الوضع وجدت أنه بالامكان أن أحصل على زخيرة من الوجوه . رفضت ومشيت ببطء ناحية الشبكة الحديدية ، شاهدت الظل ينصهر .رأيت النبات المتسلق يرسم خطوط ارتفاعاته وتستعيد صحته العقلية فترة قصيرة من الصعود . اليوم التالى خفضت كمية الصيام كله فقبلت الفول السودانى والبرتقال . فيما بعد اضطربت بسبب استمرار اليقين بأن الوجوه انقلبت ، تراجعت وأطلت بصورة هائلة . فيما بدا أنه تليسكوب من الأثير يواصل ضبط الصورة بإستمرار يتراجع أحيانا ، فتطفو متناهية تماما دون سيقان أو أجساد ، تتحرك ، تتكلم وتشير بإصرار متزايد ، ظللت أراقب بحثا عن لحظة مناسبة بالنهار لأقطع النبات المتسلق . منذ ذلك الحين عادت الفتحة لما كانت عليه ، مجرد بقعة ضوء . وفى النهاية ا ختفت من الوجود لكنها كانت ، تخطط لبعث مزيد من الصحوة العقلية المتعمدة . لقد حررت نفسها من الظلال ، من أجل احدى مسرحيات الظل المحزنة .

موكب هذا الصباح فى الجانب الأخر من بقعة الضوء . شئء لاسابقة له. فحصنها لمدة طويلة وبوقار، كاحل بعد كاحل ، قيد بعد قيد صوت القيود حقيقى . هذا ايضا فى وضح النهار ، عبر شبكة الحديد تظهر أطراف البشربببطء وبالتدريج – حركة ، رنين ، حركة، رنين ، حركة ،رنين . أقدام حافية ، القيود كلها ظاهرة ، والكواحل . انها من نفس النوع الذى كان مثبتا فى أقدامى اثناء استجوابى فى لاجوس، قيود السلاسل الثقيلة اقفالها كانت تعض فى عظمى مع كل حركة. الحركة المكوكية هى الحركة الوحيدة . وضع القدم اليمنى فوق اليسرى ، واليسرى بعد اليمنى بغير استعجال. أى رفع للأقدام أو الجلد فوق الكواحل إلا ويقشط الجلد وحتى المراوحة فى المكان تصبح عذابا . إن أحذية الحارس اللامعة تحاول فى نتاقص أخرق أن تتبارى مع رقصة الموت الذى يؤديها الشجناء منطرحين أرضا ، لكن كيف ؟ إنه ينقصهم التفوق المعدنى . أحد عشر سجينا ووإثنان من الحرس قد أحبوا الصور داخل الإطار الضوئى مبدلين أقنعة الموت فى أول الغسق بمهرجان جديد يتحتم على اكتشاف سره .

حالات صعبة؟ حلات هروب مزمن أو جنون القتل ؟ يبدو غريبا أن يتحدث الحراس إليهم . أصوات الحراس ، لها وقع هادئ عادى يبدو مفروضا عليهم . فلا أسمع كلمات ، بل أصوات. أشك فى أن هناك من بعيد حكاية تحكى وهى شئء مضحك تماما .أنا متأكد من أن الأصوات التى تضحك هى أصوات السجانين لكننى لا أحس أى قسوة. بهذا الادراك التعسفى الذى يبرز مفاتيح الجسم العارية والأحساسات فى السجن يجعلنى أستنتج أنه شىء على حساب الوظيفة الرسمية وربما يكون ضد راوى القصة نفسه . بعد الضحك ، والصمت ، وهو جهد مألوف فى أثناء الوقفة قبل استئناف الأصوات .

لماذا إذن نبذل هذا الجهد لكى نكون عطوفين ؟ فالنوايا الحسنة تنتقل عبرحواجز الجدران ، حتى من خلال الممثلين المقنعين الذين لا تظهر وجوههم . أعرف أصوات الحراس المستبدة و الضوضاء السادية التى تهدد وتبتز . حتى النغمات الهزيلة المهدئة . سمعت أصوات هؤلاء جميعا الذين يزاولون سلطتهم الخاصة ، أعرفهم جميعا . أصوات المساء بعد رحيل الضباط الكبار،عند وضع الحواجز والقيود المفاجئة بأمرالضابد الكبير او مساعديه ، فالحدود بين السجانين والمساجين

تنمحى وتبدأ بينهما مشاعر ارتياح انسانية فهم رجال يتقاضون مرتبات ضئيلة – ولهم مشاكل كبيرة فى الحب ، ومسئوليات ورغبات فى الحياة .لقد ميزت بين اصوات يهوذا الخائن عندما أخذت تواسى السجناء الذين خدعوهم هم أنفسهم .

++++++++++++++++++ للمراجعة حتى ص 291

فقواعد الثقة بين السجان والمسجون تراعى بدقة وفقط عند الضرورة تتم المواجهة بين السجين ومن غدر به. أعرف صوت يهوذا الذى يرحب بعودته من المطهر ، صوت المنافق الذى يوبخه لأنه شديد الثقة بأخوانه المساجين . إن اصوات الحراس فى هذه المشاية المظلمة تلوثت بظلال نغمة النفاق لكنها صادقة فى شعورها بالحياء .إنها أيضا ليلة تبادل االأصوات المريحة لكنها مرهقة ،كما لو أن الزيارة السرية كانت متوقفة لكن من خلال مدخل بالغ السوء ينذر بالشؤم بدرجة لاشك فيها.

لكننى مازلت غير قادرعلى الفهم ،فبعد ساعات انسحب الموكب راحعا، فنبضه المميز يكمن فى الصوت إلى أن تنسحب اصابع الأقدام الأولى الى داخل اطار الصورة . استقر فى المركز حتى يتم الهجوم عليه ببطء من قدم آخر، كعب متعب يستريح فى داخل الاطار وثقل متعب . اسمع هذه المرة استجابة أو استجابتين من السجناء .لقد أصبح الحرس يتصرف بصورة طبيعية ، لطيفة ، استرخاء بسبب العلاقة التى ربطت بين من يعذبون وبين الذين يفرض عليهم الواجب أن يتحللوا من جريمة التعذيب .

لقد مر أسبوع قبل أن يعود الموكب . بنفس النمط كما كان من قبل ، كما كانت سابقا الآلية الدقيقة أشكال ثقيلة ، متعبة ومنبسطة وملصقة على لوحة خلال الضوء . اغلقت عينى وأيقظت مسامعى لهذا الفيضان منذ مروره الأول ، لكن للمرة الثانية هناك فاصل من الأيام . ثلاثة أيام على ما أظن.

هذه المرة هناك سلسلة من المواكب تمتد ثلاثة أيام متوالية واليوم هو الثالث والأخير- لأننى الأن أفهم - ! إنه يبدأ بطريقة غريبة ومبكرا . ما هى السدادات التى أقمتها حتى فوق حدسى أو فطنتى لكى أفوت حتى الأن هدف هذه المواكب ! أن أبقى مخلصا هكذا متنبها للعبور يعنى ، وأنا أعترف ، هو وعى بفعل لم يكتمل ، احساسى بتمثيلية لم تكن فى الحقيقة سوى مقدمة قاسية. استيقظت بطريقة معجزية فى وقتى المعتاد لأن الأصوات كلها التى تستفزنى غير موجودة. يبدو للوهلة الأولى أننى استيقظت متأخر لكن ميل الشمس يبطل هذا . أدرك أننى يقظ فى جو من الصمت .إفتقدت كل الأصوات التى تدعو للأفطار والتى تمر خلال السجن ، عمال النظافة ، العصابة الأولى موكب الحراس وصيحات الأوامر . أنها نبطشية أمبروزو هذا الأسبوع لكن عندما دخلت الفناء وقابلت شابا لم أره من قبل . حتى هذه اللحظة . لم أحدد تحديدا كاملا غرابة الصباح الصامت ، فقط كتغير فى نغمة اليوم التى سوف أتأملة فى وقت الفراغ . (بتعلم الإنسان كيف يختزن التجارب الهاضمة التى لا يسميها الحدس تهديد بخطر مباشر) أبعدت الهدوء غير المعتاد ، وأطلت فى أخذ حمامى ، ثم مشيت بلا هدف حول الفناء . فى هذه المشية المبكرة لا يسمح بشئء إلا بتطفل النمل ، الذباب ، والفراشات وبعض الحشرات الأخرى - لم يبدء النهار فى الأنسحاب حتى ساعتين قبل الظهر ، وترك زخيرة كل يوم لهذه المحاكمة" وهذا التكيف فقط هو الذى تسبب فى اخفاقى فى تفسير الصمت المطبق فى ذلك الفجر . وقع الأقدام الثقيلة للحراس والضباط ، والأخيريين بصفة خاصة ، ووجودا إثنتى عشر قدما على الأقل غريبة كلها مكفهرة الوجوه ، واخيرا ، بالنظر للخلف ، هناك انفعالى اللا واعى بالخوف من ممارسة بعض الشعائر التى لا يمكن تسميتها .

الأقدام المقيدة لا تعطى تحذيرا عند مرورها . ولا حتى حقيقة أنهم أقل من خمسة . اليوم ستة أزواج من الأرجل تنجر عبر الإطار وهذه المره تعلو أصوات الحراس ، مغلفة بقسوة عصبية .والمؤكد ان ابتهاجهم مزيف وغير محتمل , ونتيجة توتر أعصابى مشيت مرة أخرى حول الكوخ فى مواجهة الحائط الملئء بالفتحات – حائط المبكى – هو حائط العنبر الذى تشرق عليه الشمس . وبوقوفى أمام حائط العنبر ، يمكننى أن أرى حائط المبكى ، وأرى أعالى النوافذ فى الطابق الأعلى لأقرب بلوك فى السجن . فى لحظات نادرة عندما يقوم النزلاء أو المعتقلين بتسلق حافة الشباك لأسباب غير مفهومة . لقد رأيت فعلا وجه انسان وبجسارة ، ولحسن الحظ استدار الحارس للخلف ، لوح ثانية بيده ، بل وبايماءة من رأسه اشار له ولى . تقوية للعزائم .

واليوم أغلقت كل الشبابيك ، وأنا أفسر الأن الأصوات الأخرى الصادرة من الشبابيك البعيده التى تفتح وتغلق. لقد ران الصمت على إحدى الخلايا الإنسانية الضخمة وحل عليها ظلام مطبق . ولكنى لا أفهم .

استمرالصمت ثلاثة أو أربع ساعات . وكما يفتح شريط الصوت فى أحد الأفلام ، فإن عودة الصوت جاءت فجأة وبطريقة تعسفية . والرجال الستة المقيدون بالسلاسل قد عادوا الآن . و لا أستطيع أن أعلن فى أى لحظة وافقت على أنى أفهم و لان أثر هذا التنوير أسكنى فى الفراش حيث رقضت فى صمت ودون تفكير أو حراك .أن عودة السلاسل ، فى لحظة تزداد ثقلا ، ثم تخف بطريقة مربكة ، فأين موقعها بالنسبة للحظة التنوير . خمول مخدر ، وشلل فى الأحاسيس على إثره شل الفكر الذى امتص الساعات الأولى من الصمت بدقة شديدة . فجأة ، نهضت دون مبالاة بقانونى الذى يفرض على عدم الإتصال ،لا شئء إلا الاتصالات الأساسية مع الحراس . هرعت إلى الخارج بحثا عن تأكيد لا أحتاجه من الحارس الصغير لكنه ذهب ووجدت أمبروزو فى مكانه ، محمر العينين تفوح منه رائحة الموت ملتهب الأنف ، مثقوب ثقوبا واسعة . لم أتوقف لتقدير نبضاتى ، ولكنى تحديته مباشرة " هل شنقت هؤلاء الرجال ؟ أومأ برأسه موافقا ، وكأنه بحاجة ماسة لكى تتدفق الكلمات منه بحرية ، بين قرصات الشمشمة أو الإستنشاق .

"لابد أن يكون الأنسان قويا ليقوم بهذا العمل . إذا لم يكن قويا فلن يستمر . إذا الرأس لم يكن لائقا ، فالإنسان يصاب بالجنون . هذا يكفى لمساعدتى . آخذها قبل وبعد . كل سجن يأخذ هذا الشئء لكن هذا لا يكفى لمساعدتى ، أننى اليوم أشرب زجاجتين كبيرتين من الخمر أشربهم جميعا بعد الظهر . نأخذ فترة بعد الظهر اجازة عندما نقوم بعمليات الشنق. بعض الناس لا يحبوننى ولكنى لا اهتم عندما يقوم الأنسان بقتل شخص أخر شنقا أنا لا أحس بالشفقة . القاتل ليس رجلا شريرا . لا يوجد معنى للشفقة على .العمل الأفضل هو أن نقتلهم جميعا مرة واحدة..."4

أنهم يأكلون طعاما خاصا ، وأى شئء يريدونه . تماما كشخص من ذوى الأهمية . الحشراتالهامة جدا مثلى يجب التخلص منها عندما تزداد سمنة ؟. لقد أماء أمبروزو برأسه ، ثم فهم المعنى وصحح نفسه ، ليدحض بعنف هذا الأقتراح لا . لا أنت لم ترتكب جريمة يمكن لأى شخص أن يكون سجينا سياسيا ويمكن أن تكون غدا رئيسا للوزراء. عدت به إلى موضوع الشنق . إنهم يأكلون ما يردون . ولهم طباخون خاصون من بين من يثقون بهم .ويزورهم الطبيب بانتظام ويغير لهم قائمة الطعام على هواهم – العاب – هوايات – كل المفارقات اللاواعية التى تلوح ذات أهمية فى الكتالوج . حقوقهم المشروعة . فقط عندما يخرجون للفحص الطبى فى الصيدلية . أو عادة فإن الطبيب يزورهم فى عنبرهم عندما يطلبونه لكن حسنا ، أنهم ليسوا حقيقة ذاهبين للعلاج . إنهم يذهبون الى صيدلية وهذا صحيح ولكن لا أحد يهتم بالنظر إليهم . انه جزء من التدريب . إن الخروج مفيد لهم على أى حال هذا ما يحدث أنه أمربسيط حقيقة....

عندما تتم كل العملية القانونية ويتأكد الحكم النهائى بالاعدام عن طريق السلطة الحالية يتسلمه السجناء . يبدأ التدريب الواضح للتحايل . الرجال المحكوم عليهم يعرفون هذا الفعل . بعضهم كان فى عنبر الموت من أربع سنوات ، دخلوه مرات عديدة دون أن يعلموا . بعد أول خروجه من الصيدلية لا أحد منهم يلمس طعامه وقد هجروا اللعب - لعبة القرص – لا أحد يقترب من اللوحات . لا يتكلمون بعضهم مع بعض . كلما زادت مشاركتهم فى الكوميديا السوداء كلما زادت خبرتهم عن الموت . لأن كل من فاته دورمع وصول نزلاء جدد فى عنبر الموت يجعله يتخيل مجئء الدور على النزيل القديم . قانون بسيط للاحتمالات.إنهم يأخذونهم إلى الصيدلية فى جماعات، لتكون الجماعة نفسها أبدا.فى عملية فحص طبى دورية – هذا مايقولونه لهم – لكن لأنه لايتم فحصهم وإن ما يجرى من فحصوصات هى مسألة شكلية، فهم يفهمون ما تنذر به هذه التدريبات . فقط هوية المشنوق التالى تبقى لغز يتطلب حلا . كل يوم ربما يكون هو الأخير أن يؤخذ الفرد إلى الصيدلية اليوم لا يعنى تأجيل تنفيذ الحكم . وان يترك خلفهم فهو أمر أكثر رعبا – بالنسبة لكبار السن .إنهم يعرفون – لكن أن يذهبوا مع كتيبة المرض فقد يكون اسوأ إن هذا يعنى فقط أنه ليس اليوم لكن ماذا بشأن الغد ؟ لا يعلمون شيئا حتى يعودون . إذا لم يفقد وأحد منهم فربما يكون الأسبوع التالى ، حتى شهر شهور . ربما يكون الجلاد مريضا .

حتى القانون يطلب موتة واحدة للمجرم . هؤلاء يموتون ، فرض عليهم أن يجتازوا حركة الموت عدة مرات زائدة فى الآلية الغريبة للتعذيب القانونى والذبح القضائى .

اليوم مجموعة من تسعة وغدا أو الأسبوع القادم مجموعة مختلفة .قد يكون موكبا لثلاثة أيام متتالية . البعض يترك فى الخلف .يقول لمبروزو لا يكون العدد أحد عشر أبدا . لكن الرقم يتغير كل يوم ما بين تسعة واثنى عشر . ربما كنت أحسب احد عشر فردا كل مرة حتى هذا الصباح . فى اليوم نفسه حتى الرجال المحكوم عليهم تركوا فى الخلف . بقيت زنزانتهم مغلقة . عند مغادرة كتيبة المرضى ، دخلت كتيبة الأعدام . حارسان لكل رجل ، يوثقان يديه خلفه ، قلة تقاوم بعنف لكنهم مضطرين للإستكانة ، البعض ينهار ويحملون دون وعى إلى المشنقة .خذ يوليفيموس .

هذا الانكشاف لم يدهشنى . يوليفيموس نال الترقية كجلاد فى خدمة الدولة ، للقتل الفردى فى مكافحة . أى سجين ..... لا يريد أن يمشى إلى المشنقة . مشهد هياج عنصرى ، جزء منه شعائرى وجزء منه تقليد ارتجالي لطقوس العصور الوسطى . أحد الرجال ألقى بقفازه . فى وجه الموت وأعلن حقه فى محاكمة جديدة ، عن طريق المعركة . وقام يوليمفيوس بالتقاط القفاز نيابة عن الدولة والموت .

بيتر نادين هذا انتظر فى زنزانته فى عنبر انيجو للموت. سلح نفسه ضد الموت بغطاء صفيحة تراب كدرع وعكاز قاتل مدعم برؤوس معدنية طراز لم يتم اكتشافه لم تشك كتيبة الموت فى شئء حتى واجهت شبح شيطانى فاصابهم الجنون وولوا الأدبار . المتحدى تحصن فى مكانه وانتظر . لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه . بوليفيموس مجرد حارس صغير ولأنه يجهل القراءة والكتابة فمن المحتمل أن يبقى هكذا معظم حياته . لكن المطلوب الأن ليس التعليم بل رصيده من القوة المؤثرة ، الجسدية . دعاه المشرف الابيض ، فأثبت أنه فدائى مستعد متطوع ، سلح نفسه بطريقة أشبه بالدرع والسلاح وتقدم . قام الحراس بتمزيق الحواجز وانسحبوا .إقترب بوليفيموس من غريمه ، اثنان من الجلادين فى صراع الموت . بطلولة الدفاع عن القانون واالخروج عن القانون فى فقدان الحياة . لا أحد يتدخل ، لا أحد يستطيع ، من حيث السرعة أو المستوى للمواجهة الذاتيه الشعائرية ولا حتى المشرف الأبيض الذى يرفرف بأحنحته ويحمل مسدسه فى يده وقد حافظ على توازنه النفسى بقلق حتى لا يطلق طلقة عند الحاجة للدفاع عن الدولة .

يوليفيموس فاز فى الصراع . فقتل خصمه بأن خنقه بيديه . لكن على الأقل فإن برنادين أفلت من حبل المشنقة بفضل بوليفيموس .

لكن فى المعتاد لا توجد مقاومة .

نحن نقبض عليهم من أزرعتهم –هكذا- والكلبش خلف ظهرههم ثم يأتى المشرف . يقرأ لكل شخص الخطاب الذى أرسله الحاكم ويخبرهم ، بأن هذا هواليوم المحدد . ثم يأتى الكاهن للحديث معهم ، أو إمام المسجد إذا كان المحكوم عليه مسلما . يقول له استعد لقد قتلت حياة الناس بيديك ، والأن المجتمع يطلب منك أن تدفع حياتك ثمنا لهذه الحياة. لقد انطلقنا إلى ساحة الأعدام . أنها على اليمين بعد عنبرهم و لكنهم لا يعرفون . أنت ترى ، أن البقية فى مكان بعيد . انهم لا يعلمون أبدا أى طريق أخذناه ، قيل أن يتم بناء ساحة الإعدام فى مكانها الجديد كان لديهم ممر طويل . بعد ذلك تذهب مباشرة خلال االعنبر، وتخرج من البوابة الرئيسية . أحيانا يتجمع الأقارب لرؤية جثة ذويهم ، وفى أغلب الأحيان يكونون هم أقارب المقتول . تذكر أن قلة من الأقارب يأتون ليعلنوا صلتهم بجثة أى رجل أعدم بسبب جريمة قتل ،لأنه أمر مخزى لكن أحيانا أقارب الرجل المقتول يأتون لذلك ، فإن المشرف العام يخرج لهم ويقول ، ها أنتم ترون جثة قاتل قريبكم . إن الدولة إقتنصت حياة بحياة ، لتنهى كل الثرثرة أو الوشايات معه .

كان هذا منذ سنوات مضت ، أما الأن فهناك بالطبع مدخل خاص تنقل الجثث عن طريقه بواسطة لوريات . المشنقة ، لا ، المشنقة لا تنصب فعليا إلا فى صبيحة يوم الأعدام . وهذا هو سبب الوقت الطويل الذى تستغرقه ، تصل أحيانا إلى ثلاث ساعات قبل أن نستعد للمحكوم عليه ..... فى هذه المهمة هو ومساعد الجلاد . فنحن نسير بهم نحو المنصة عندئذ يتولى الجلاد المهمة . المنصة تأخذ اثنين فى كل مرة، يأخذ الرجل الأول وضعه وتلف حول رقبته الخية فإننا نجهز الرجل الثانى ، ويشنق فى الحال عندما يشد الجلاد الزراع ينفتح باب المصيدة ويسقط من خلاله الاثنان. الرقبة تنكسر كما ترى فى الحال ، ولكن لابد من تركه معلقا ثلاثين دقيقة .

هذا ما يفرضه القانون . أما الجلاد فلا ينتظر بجوار المشنقة . نحن ننتظر.هناك ، حجرة استراحة قريبة خاصة به يذهب اليها هو ومساعده . هناك مشروب قوى يشرب منه فى فترة الأنتظار .يذهب إليها الطبيب أيضا وكذلك كبار الضباط . لا ، إنهم لا يشربون افتكر أننى عرفت طبيبا واحدا يستعمل زجاجة مفتوحة فى جيبه . لا أحد يعترض عليه ، لماذا ؟ نسطيع نحن أيضا أن نشرب أى شئ أيضا لكن علينا أن ننتظر بجوار الجثث . هل تسرق الجثث ؟ لا ليس هذا هو سبب بقائنا هناك .

لا أحد يمكنه سرقة الجثث هناك ، نحن نبقى هناك لحراسة المحكوم عليهم الذين ينتظرون دورهم . إنهم يرون طبعا ما يحدث . لكنهم لا يستطعون منعه . نعم ، يرون أول شخص يذهب ، وهذا درس مفيد لهم . ذات مرة شنقتا أحد عشر رجلا فى نفس اليوم _ هذا صحيح ، قتله أبالارا لقد شنقوا هناك فى كادونا . جميعا فى نفس اليوم . لا . الجلاد لم ينزل الجثث . نحن الذين فعلنا ذلك عندما انتهت الدقائق الثلاثون ذهبنا أسفل المنصة و فككنا الحبال . انزلناهم فى أكفان من الخشب الخشن ثم جاء الطبيب وقطع جرحا صغيرا فى الرقبة ، فى المكان الذى ترتبط فيه بالرأس .لقد أخرج شيئا ووضعه فى زجاجة ، كتب أسم المحكوم عليه على الزجاجة ثم وضعها فى جيبه . ما الذى أخذه ؟ ذلك ما أردت دائما أن أعرفه . بعض الناس من أهلنا يقولون إن هذا الشئ يحتوى الحياة . فهل هذا الشئ حقيقة ؟

الفصل التاسع والعشرون

لقد اكتشفت شيئا غريبا هذا الصباح وهو أننى حامل . لقد ظللت وقتا طويلا أنظر إلى هذه العلامة ، متسائلا كيف يكون هذا . لأن هناك شىء مستدير باحكام وصرامة ، بيضة منتفخة لا علاقة لها بخصرى .

كونى رجل فالمفروض ألا يحدث هذا مطلقا . من المعروف أن أشياء غريبة حدثت وتحدث. فالتغيرات الجنسية يمكن أن تزحف ببطء على الرجل ، دون أن يلحظها أحد فى جو غياب الأعضاء التناسلية ،ومياعة الجينات الذكورية ، ثم التعايش بين الأعضاء الأنثوية والذكورية. معركة بين الهيرمونات والبقاء فيها للأضعف ،أو للأقوى ؟ من المفروض إن جينات الأنثى هى أقوى ، أو ربما إنها فقط أسرع فى الوصول إلى الرحم ؟ شئء ما يجرى على هذه الخطوط. على أى حال ، ليست هذه هى المسألة : فقد عشت حياة عزوبية صارمة لمدة تربو على العام .

فهل يمكن أن يكون حملا كاذبا ؟

لا . ان صور الحمل الكاذب كما رأيتها عبارة عن حبات قرع ضخمة تبدأ من المنطقة أسفل الصدرفى شكل باللونة مستوية من الخارج – ثم دخول حاد نحو كيس الخصيتين. لكن حملى أنا بادىء تحت الصرة مباشرة، انه صلب كالحجر، صغير الحجم ومضغوط. يبدو وكأنى أفرزت بيضة كبيره تحت الجلد مباشرة، لكنه مناقض ، فبقية جسمى عبارة عن جلد وعظم – فأنا فى الأسبوع الخامس فى دورة الصيام الخاص بى .

لقد تغلبت على هزال الجسم والهلوسة ، لم يعد هناك اجهاد عقلى أو بدنى . أن جسمى يتضاءل لكن دون أن أفقد قوتى، عقلى يتسع دون أن أفقد شيئا من وضوح الذهن بل اننى استعدت القدر الأكبر من روح المرح التى فقدتها من قبل .

لقد قررت أن أتمشى وأن أفكر فى هذه الأعراض الغريبة التى طرأت على جسدى . وقد ساعدتنى عملية النهوض على حل المشكلة فى الحال . فتمالكت تلقائيا ونفخت بطنى لكى أملأ الفراغ الكبير فى البنطلون. وكلما طال وقت الصيام كلما اتسعت الفجوة طبعا وكلما زاد الإجهاد على الجزء الأسفل من معدتى لكى يملأه. يبدو أننى تضخمت على مدار الشهور وبالنسبة إلى حجم جسمى فيبدو أننى كونت أكبر مجموعة من عضلات المعدة فى العالم كله ، ان ضحكاتى استرعت انتباه السجان الذى جاء متباطئا لكى يعرف ماذا حدث. أشعر وكأننى دعوته ليأخذ حزمة من هذه العضلات غير الشاذة. ففوق هذه العضلات تلتصق الضلوع كل بطريقة بارزة أشبه بضلع أدم الأصلى قبل أن يكسوه اللحم . ألواح كتفى وعنق الرحم محددين بوضوح حتى يمكن غمسى فى صبغة ووضعى على سطح مستو لعرض رسوم فى أى كتاب من كتب علم التشريح. لكن هنا ، يتجمع تحت الصرة ، حشو من العضلات الغزيرة الثرية المستعدة للدخول فى مباراة جامعية لدراسة المعدة.

لماذا أصوم ، كلما تحركت نحو المواجهة التى يجب على ألا اتراجع عنها ، من الضرورى أن اكون صافى الذهن . لأن السبب يكمن وراء الخطابات التى شرعت أكتبها عند بداية هذه المبارزة الجديدة . ففى هذه الخطابات التى ارسلتها إلى حراس السجن ، طلبت كتبا وأدوات كتابية ، وملابس بدلا من الهلاهيل التى أرتديها فوق جسدى. طلبت أيضا وضع نهاية لهذه العزلة غير الإنسانية .

فى مارس 1969 مكثت فى السجن ثمانى عشرة شهرا. منها خمس عشرة شهرا هنا فى كادونا بمفردى فى عزلة .وفى ديسمبرمن العام الماضى تم توقيع قرار بالافراج عنى .كما أعرف ، لأن معلام د المحقق فى لاجوس جاء ليرانى.

بالطبع كان اللقاء غريبا. لم أتحقق من وجهه فى البداية. لقد أتى . كما أتذكر ، فى النصف الثانى من ديسمبر فى صحبة كبيرالمراقبين وبوليفيموس. قال لى: لقد أحضرت شخصا ما يريد أن يراك ودخل الزائر : إنه معلام د.

كيف حالك ؟ كنت فى طريقى الى كانو- لقد نقلت الى وظيفة هناك . ولكن على بعض الواجبات التى يجب أن أؤديها هنا وفكرت أنه لا يجب أن أترك المكان قبل أن أقول لك أهلا بك ."

لا اتذكر كيف أجبته ولكنها كانت اجابة ودودة .

" عموما فالأحوال أفضل الأن ... وسوف تكتشف هذا بنفسك فى وقت قصير الواقع اننى هنا . الآن اتفقد أحوال المعتقلين لقد أفرجت عن بعضهم بالأمس ، واليوم سأفرج عن عدد اكبر من الأمس. لقد أفلت الزمام من بين يدى . حسنا ، أنت تعرف أن السجون أصبحت تفيض بالمساجين .هكذا يصاب كثير من الأبرياء بالبلاهة لتعطلهم . على أى حال ، اسمع يا وول ، حاول أن تنسى كل شئ حين تخرج من السجن، فهل ستفعل ؟ اعتبر هذا شيئا مما يحدث فى وقت الحرب . لم اشأ أن أصدق ما سمعته بوضوح وراء كلماته ، و لا التأكيد الذى استطعت أن أقراه فى وجه المراقب الكبير ، الذى يبتسم فى بهجة خالصة . حتى بوليفيموس أشرق وجهه بالإبتسامة . فى كل جزء منه . قلت " بعض الأشياء ينبغى على الإنسان أن ينساها ولكن لا أتوقع أننى أغفرها أو أنسى أننى مسجون .

" أنا لا أطلب ذلك .... " وأضاف المراقب الكبير بشغف

" لا ، لا ، بالطبع لا . لا أحد يطلب ذلك لأنه ليس أمرا سهلا " .

فجأة تساءلت عن D . لم أتوقع اجابة ولكننى استطيع على الأقل أن أقرأ وجهه . سألت . D هل تعرف لماذا سجنت أنا ؟

بالنسبة ل D فقد حصل على اعظم نعمة فريدة كرجل بوليس، كان يمكنه أن يرتبك بشكل واضح. لقد اظهر مشاعره العاطفية كإنسان عادى . خصوصا هذه المشاعرالتى تبدو وكأنها تنبع من عدم ارتياح اخلاقى .لو أنه كان أبيض البشرة لأحمر وجهه خجلا . لقد انفجر فجأة فى هجوم مضاد ." لكن لماذا حاولت أن تهرب ؟ أنت لا تعرف كم كنا نشعر بالمرارة ، وخيبة الأمل ! "

لقد نظرت إليه باهتمام جاد . لقد صدق ذلك . لكننى اجتزت من وقت طويل مرحلة الرغبة فى استنكار تلك الأكذوبة . لم أعد أتقبل أخلاقيات القاهر المستبد . فأجيب " لتفترض أن هذا حقيقى . وإن لى الحق الأخلاقى فيما يجب أن أتخذه من اجراءات ضد نظام منحط أخلاقيا يسمح بسجن رجل برئ ء . لو أن الهروب كان ممكنا لجعلته أول واجباتى . والآن ، اجبنى ، هل تعلم لماذا وضعت أنا فى السجن ؟"

قال ،" كانت الأمور تسير سيرا حسنا . وظننا أن كل شئ ء على ما يرام ، ثم تدخل السياسيون فى الأمر ".

" السياسيون ؟ "

" أوه ، وول ، أنت لا تعرف ما الذى يجب أن نتدبره . اننى سعيد لخروجى من لاجوس . قبل أن أذهب على الأقل ، لم أكن أستطيع أن اكشف شيئا مما كان يجرى هناك . لو عرف كم كان عدد السجناء الذين أفرجنا عنهم مؤخرا ، فى لآجوس وفى السجون الأخرى ، انه الأن فقط قد وجدنا الوقت للنظر فى هذه القضايا أقصد ، المئات والمئات ، معظمهم هنا . و لا أحد يعرف لماذا ؟ ليس لهم ملفات. لا أحد يعرف شيئا عنهم فى أقسام البوليس أو فى الجيش بخصوص هذا الأمر . " شوف ، لا داعى لمناقشة هذا الأمر .... فقط حاول أن تنسى كل شئ ء".

" وهو كذلك ."

" لقد انتهى كل شئ ء ، الأن _ حسنا ، وسوف ترى بنفسك . لكن أرجوك حاول وانسى ."

لقد رحلوا . أما انا فقد بقيت حيث كنت ، الزيارة ، وكلماته ، وسلوك موظفى السجن .... شعرت أننى لم أكن أمينا . ليس فقط مبالغا فى الحذر ، لكن بوضوح لم أكن أمينا حين رفضت قبول المعنى الواضح لكل هذا . لقد أغلق الحارس البوابة خلفهم وجاء نحوى منشرحا .

" هذا حقيقى . لقد أفرجوا عن حوالى أربعين سجينا بالأمس وذلك الرجل وبعض الأخرين من أمن كادونا يقومون هنا بوظيفة المراقب و يفحصون سجل كل معتقل . فى الحقيقة. أنا لم أشأ أن أخبرك بذلك من قبل . قال الرئيس بنفسه هذا الصباح إن ملفك وصل . سوف تخرج بعد يومين أو ثلاثة .. ؟"

ذلك معناه ، بكلمات واضحة ، الحرية .

لقد تعلمت من الأزمات السابقة أن أسيطر على نفسى لقد أحسست بالانفعال قد أوشك أن يتسارع . فجمدتة عند المستوى العادى " اثبت ، كن هادئا أمحو شبح هذا الصباح . لكن المراقب الكبير عاد . لقد شعرت فى نفسى بعاطفة حب لهذا الرجل الذى . أفاض شعوره بالسعادة فأغرق الأخرين دون خجل . كان يحمل صحيفة اليوم فى يده.

" سوف تشغلك هذه الصفحات فى فترة الإنتظار " وقف بعض الوقت ثم ظهر عليه الوقار " مستر شوينكا " كل ما أريد أن أقوله هو ، أن تسامحنا . نعم ، سامحنا حتى من أجل السجن . سامحنا بكل ما فعلناه وكل ما فشلنا فى فعله ، بسبب عجزنا عن مساعدة أنفسنا وحجزناك هنا ."

أغروقت عيناه بالدموع .

" أنت تعرف – ويمكنك أن تسأل الرئيس فهو الوحيد الذى أطلعه على سرى ، أنا أثق به . قد يكون غير متعلم ، لكنه رجل حكيم . إننى أناقش الأمور معه حتى تغلبنى الحيرة . وقد أخبرته بذلك ، بعد وقت قصير من قيامى بالعمل هنا . كل ما عرفته عنك كان مما قرأته فى الصحف ، ومن التقارير التى يرسلها المركز الرئيسى .اننى متأكد أن هذا الرجل برئ . أسأله قبل أن تتركنا ، سوف يخبرك بهذه الحقيقة . فأنت تتذكر أننى جئت بنفسى لأسأل عن قصتك بعد شهرين من استئناف عملى هنا ؟ حسنا ، كان فى اليوم التالى الذى استقر فيه رأئ على أنك برئ . أظن أننى قد قلت لك فى ذلك اليوم ، أننى أصدق قصتك . لم أقل شيئا عن الأسباب الخفية وراء ذلك سوى وقائع استجوابى لك . " فى هذه الوظيفة يتعلم الإنسان كيف يدرس البشر ، وليس فقط المجرمين . كل السياسين الذين سجنوا خلال أزمة الجماعة بما فيهم (أولوو نفسه) ، قد مروا على فى وقت أو أخر ، وأستطعت أن أتعرف على المخلصين ، والإنتهازين الذين وجدوا هناك حبا فى المغامرة والاثارة السياسية – وهكذا . فالانسان يعرف بعض الشىء عن الطبيعة الإنسانية . بصراحة ، لقد اقتنعت أنك لم تكتب أبدا ذلك البيان . هذا هو السبب الذى جئت لأسألك من أجله . لكنك تعرف أننى شعرت أن هناك خطأ أساسى قد حدث فى مكان ما . أنا لم أصدق أن أى أنسان فى مركز رفيع مسئول يقبل أن يزور اعترافا كاذبا . لابد أن أعترف بذلك . لقد شعرت بأن الأمر كله ناتج عن خطأ . وواصل قوله " حتى الأن ، حتى لو أننى لم أسمعها مباشرة من معلام D" .

توقف ثم قال " يجب أن أعود إلى المكتب . هل تريد أى شئ ؟ أظن أنه من الأفضل أن نرسل حلاقا . فشعرك طويل – هل حدث أن حلقتت شعرك منذ أن أتيت إلى هنا ؟ " هززت رأسى " شمشون فقد قوته بهذه الطريقة ، ثم ضحك . هل تريد واحدا الأن ؟ الدنيا أصبحت غابه يا مستر شوينكا "

قلت :ليكن ، ارسله ، الذى فكرت فيه فى تلك اللحظة ويا للغرابة لم يكن شعرى ، بل وجهى فأنا لم أنظر فى المرآة لمدة عام أو اكثر . وأن الوميض الذى جاء عند ذكر الحلاق كان شكل شخص فى زى سجين يقص شعر سجين أخر ، وأن ذلك السجين يراقب تقدم الحلاق بدقة فى مرآة . ربما كان ذلك آخر مشهد رأيته قبل دخولى فى الزنزانة . لقد غمرنى حب استطلاع مفاجئ لكى أرى وجهى .

" سوف أطلب من الرئيس أن يرسل لك حلاقا فى الحال . وملابسك ؟ لابد أن هناك بنطلون احتياطى فى المخزن ."

سوف أرى إن كان نظيفا . فإذا لم يكن فسوف يتم غسله بسرعة . بأفضل طريقة " سوف ابحث لك عن بعض المجلات القديمة و أعطيها لك أيضا . "

انصرف . وأخذ الرئيس مكانه بعد وقت قصير ، ملقيا اليه بابتسامات طولها سبع أقدام وغمزات ماكرة واساءات أكثر صراحة وظل يكرر ." فى بعض الأحيان يبدو أن الوقت لا نهاية له .إلا فى اليوم الذى يسمع الله فيه الجميع،اليس كذلك؟" .

أما ء، الحلاق برأسه . لقد جهز كل معداته . وضع بوليفيموس الكرسى أولا فى ركن ثم فى الركن التالى .وسأله . هل حرارة الشمس شديدة هنا ؟ لا . أظن أن هذا المكان أفضل ؟ أخيرا انصرف : نعم ، ليس كذلك . فجأة فى يوم ما فى يوم ما ، "

جلست على الكرسى ، وشعرت بقماش أبيض تحت ذقنى ، مربوطا بمؤخرة رأسى . وتوصلت إلى المرآة ببطء وأدرتها ونظرت إلى وجهى .

كان منظر شعرى لا يصدق . كنت قد أعددت نفسى لذلك ولكنه فاجأنى. كان طويلا وغزيرا وتساءلت كيف تمكن مشطى من اختراقه لمدة طويلة . أخذت المشط من الحلاق وقلت " من الأفضل أن تتركنى أفعل هذا بدلا منك "

لكنى حتى وأنا أمشطه كنت أنظر إلى وجهى فى المرآة . تسمرت عيناى على المنظر ،لأننى لمحت فيها ما يهمس فى عقلى منذ أن سمعت أول اشارة للإفراج عنى .شكوك وشكوك أعمق . الأمر لم ينته بعد ، وأن المرحلة القادمة سوف تكون أكثر صعوبة بسبب هذا الأمل الكاذب

لقد وضعت المرأة ،وفككت القماشة من حول رقبتى وقلت " سوف اترك شعرى كما هو " ..

عدت الى زنزانتى واسترخيت على سريرى . لماذا ؟فقط الحذر ؟ لا ، لقد ازداد عمقا . لم استطع أن أحدد ذلك ، لا ولااحد يمكنه أن يفعل ، لكننى عرفت أننى لن أستطيع ترك السجن فى عيد الكريسماس .

"التعبيرات الخاصة باطلاق سراحى من السهل التنبؤ بها _ اعفاء بمناسة عيد الميلاد ."

وكذلك جزء من العقل كان يفكر من الناحية الإنسانية فى اتجاه آخر . لو أنهم اطلقوا صراحى ماذا سوف أقول أو أفعل؟ أيا كان الذى عرفته فالواجب على أن أصب احتقارى على مساخر عيد الميلاد خطر على بالى مشهد وسمعت نفسى تصرخ بغضب حقيقى :" اتمنى أن تكون هذه اخر مرة يحاولون فيها تمثيل بابا نويل مع العدالة ."وجعلنى هذا اكثر هدوءا . بعد ذلك أغلقت جانب التفاؤل العقلى وانشغلت بالتفكير فى كيفية الحياة فى عزلة مستمرة بعد تسرب هذا الضوء العنيف .

لقد اتى حارس المخزن . نعم هذه هى بنطلوناتى و قمصانى ؟ هل تراهم معلقين هناك ؟ نعم اغسلهم أو كومهم فى الصرة كلها .أنا لاأهتم .

الزنزانة مليئة بإنذارات كاذبة . الأمين الذى أحضر طعامى نظر إلى كرجل معزول ، كائن ممسوس و مميز بعصا سحرية من إلهته المفضلة . تعقبه السجان كالعادة لكن هذه المرة ، بدون مراقبة شديدة على الاتصالات السرية كأنها صادرة عن رغبة فى الإعتماد على العناية الإلهية ، وعلى الصبر والعدالة والشجاعة بالاضافة إلى عدد من البنود فى تقواه غير المفهومة . عندما انصرف حاولت أن أتناول طعامى لكنى لم أجد شهية . لقد أشتدت المحاذير فى كل ثانية .

نهاية الوردية الصباحية . هرع اثنان من الحراس إلى داخل الساحة وهما الذين إعتادا المجئ للسرداب فى حالة الإغاثة ." عندى أجازة من الخدمة غدا يا سيدى . فقلت إن لأقول لك وداعا خشية ألا أراك حين عودتى : قال الثانى نحن جميعنا سعداء جدا لخروجك . لكن إلى اللقاء . والله يرى كل شئ " ، وجاء الحراس المختصون منذ وقت طويل فى السابق . الذين خدموا أسبوعين ، أو ثلاثة . أحيانا أربعة اسابيع أو شهور ، ثم اختفوا . لقد ظننت أن هذه التغييرات المتكررة ما هى إلا احتياطات أمنية . قد اندفعوا سريعا لمصافحتى ، قائلين ، أ أنت تعرف لماذا لن تراك ثانية ؟ نحن

لا نحب هذا المكان ابدا . الإنسان يمضى ثمانى ساعات هنا لا يفعل شيئا . مع السجناء الأخرين نستطيع أن نتكلم وأن نلعب ولكن هنا نحن فى حبس انفرادى . لذلك فإننا جميعا نطلب نقلنا إلى القوة الخارجية "،

ثم ذهبوا . هناك ساعة من الهدوء بعد الظهيرة فى نهاية وردية الصباح . فالمساجين محجوزون فى زنزاناتهم فى سلام وسكون . تركت نفسى تنجرف فى هذا الصمت لتواصلة لأسابيع وشهور . يا ليتنى أنقل الى مكان آخر ! مكان جديد ، رائحة جديدة ، مناظر جديدة بيئة جديدة.

نداعب أوهام النجاة . نعم ، ربما ينبغى على الإنسان أن يتجه إلى هذا . خلال نزهتى القصيرة صادفت فى الطريق إلى المستقبل ، رحلة من المعاناة لاعلاج لها ، إنتشار فطريات رمادية تعد المسكنات ذاتها أعراضا لهذا المرض . لا يوجد خلاص ، نهائيا ، من هذا الملل الخبيث لا جديد يشد انتباه الإنسان بعيدا عن التأمل فى هذه الهاوية . الشهور الإثنى عشر الأولى استهلكت ما هو أكبر من القوة الإبداعية للعقل الذى لا يتلقى غذاء من مصادر أخرى .

كان بوليمفيوس أول من ظهرت عليه الحيرة .لقد جاء يتجول فى جولة تفقدية . بثقه العالم بأننى سوف أخرج . كانت عشية الكريسماس وكان متأكد أننى سوف أقضى عيد الكريسماس فى منزلى . لقد تخيل رحيلى بنفس الطريقة التى جئت بها فى طائرة خاصة تهبط بى فوق بقعة خضرة أمام منزلى فى عشية عيد الميلاد نفسها . جاء فى الصباح ليودعنى وتمنى لى حظا طيبا ، والآن اقترب حلول الليل وسمعته عند البوابة ، فى حيرة لأنه وجد حارسا لا يزال واقفا أمام السرداب ، والسجين ما زال منتظرا .

==========

حك ذقنه بغضب الى حد ما ." على أية حال ، لاتهتم ، فعيد الميلاد لم ينته بعد ، ستذهب إلى بيتك غدا . يوم واحد أنا متأكد . أتوسل إليك ، ألا تبدأ فى القلق مطلقا ، وقت قصير وستصل الى بيتك . سوف تذهب . لا هذا الإحساس الخاطئء . أنا لا أظن ، أن رجال البوليس ، أنفسهم غير مفيدين ".

فى عيد الميلاد لم يأت أحد إلا الحارس فى خدمته، ورأيت الدهشة على كل وجه . بداية الشك . ثم المواساة . التى طالما رفضتها .

مباراة الملاكمة يومى 27 ، 28 . بدأ الوجوم يختفى من وجوه هيئة العاملين الذين اصبحت المسألة شأنا خاصا بهم . فكلما اقتربت بداية السنة الجديدة ازدادت شجاعتهم . لابد أن الافراج تحدد له فى بداية العام الجديد . رغم كل شئ ، فالعفو . واضح " عيد السنة الجديدة

إنك لن تقضيه فى كادونا . "

المشرف الكبير ظهر من جديد

لقد ظهر كبير المراقبين من جديد فى اليوم التاسع والعشرين منكسر النفس . "كل ما أعرفه هو أن تعليمات الافراج عنك قد تم توقيعها . رجال ألأمن أخبرونى بأنفسهم لقد سمعت بنفسك ؟ أليس كذلك ؟

" كان صوته يطالب بالبرءة "

قلت نعم ، لقد سمعته .

هناك رجلان تم ارسالهما بالأوامر من لاجوس . سمعت أن هناك عقبات عن كيفية رجوعك الى لاجوس . أظن أنهم عجزوا عن الحصول على طائرة . أى كان الأمر ، فلندعهم يفرجون عنك رغم كل شئ ، فأنت تستطيع أن تجد طريقك للعودة . لماذا لا نبدأ فى الاستمتاع بحريتك الأن ؟

لقد جاء دورى لكى أواسيه . " كلما طال زمن السجن كلما ازدات حلاوة النهاية .لا تقلق فسوف أخرج فى يوم ما ."

اليس فى يوم ما . إننى متأكد أنك لن تكون هنا فى عيد رأس السنة الجديدة . نفس الشئ أجده مقلقا " وفجأة ارتفع صوته محتجا ... نحن نريدك أن تخرج يا مستر شوينكا . صدقنى نحن نريدك خارجا من هنا أكثر مما تريد أنت ؟ لا تسئ الظن بى . فنحن نحبك . كنت أتمنى لو أننا تقابلنا فى ظروف أفضل . وأنا أمل بالتأكيد فى أن نلتقى ثانية . لكنك أكثر الشخصيات ازعاجا بالنسبة لآى ضابط سجن يأمل فى أن يجدك ضمن مسئوليته . أنا لم أتسلم فى حياتى كلها مثل هذه المذكرات الكثيرة بخصوص رجل واحد . مذكرة من المركز الرئيسى ، مذكرة من البوليس ،، جواسيس سريين من كلاهما إشاعات . اتهامات . ببساطه أنت لا تعرف ما هى . أنا لا أستطيع فعل شئ . لا أستطيع أن أقدم لك حتى طبقا جديدا قبل أن أبلغ القيادة الرئيسية . وبالطبع لا أتلقى أى أجابة . وإذا حصلت فانهم يعرفون عنها وتجرى مساءلتى . صدقنى فى وقت من الأوقات فكرت فى التقاعدأو طلب النقل .كان التوتر فى تصاعد كبير شديد . عندما تترك هذا المكان هنا سوف نعود إلى الروتين المعتاد . الروتين المعتاد ! لو تعرف كم أود أن أراك سريعا خارج هذا المكان ".

لقد جاءت عشية السنة الجديدة ورغم أننى أوصدت الأبواب لكى امنع أى بصيص من الأمل للدخول الى قلبى . ضبطت نفسى انصت إلى وقع أقدام ، تشير الى فتح بوابة على بعد عدة ياردات . أجاهد باستحالة لكى أسمع أى صوت من المكتب البعيد أو من بوابات السجن الرئيسية .

عندما انتهى كل شئ ، عندما انتهت فترة الرحمة ، نهائيا ، وبطريقة محددة ،كنت شاكرا لتوقف هذه العلاقة عن طريق هذه الإنسانية الجديدة المفعمة . بوليفيموس فقط يأتى من وقت إلى آخر . كنت أسمعه عند الباب يعطى التمام " كل شئ على ما يرام ؟ ويتلقى الأجابة .

" كل شئ ، تمام ، ياسيد ". بمجرد ان استجمع شجاعته لكى يقترب من الزنزانة أظن أن الرغبة فى أن يرى كيف أنظرالى الأمر الآن . تحرك كأنما شئ ما قد شده إلى ما وراء مدخل زنزانتى ، وبعد أن قام بعمل ضوضاء وفحص ذلك الشئ . وهو فى طريق عودته يبدو أنه قد عقد العزم على أن يتحدث معى . كنت لازلت مستلقيا أنظر إلى الشبكة . تردد ، ثم تلعثم وفر هاربا .

بعد مرور الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى ، توقف مجئ الصحف . للمرة ثانية تم اغلاق العالم الخارجى عنى .لم يعد هناك سوى أن تمتد الأيام مستقلا . لم أستطع أن أبين أى تحديد أو علامة . رغم تذكيرى لنفسى بدقة فطنتى ، وبالرغم من الاستعداد الذى زودتنى به ، رواسب من أمل محترق بدرجة كافية لتوليد اليأس .

كم من الوقت أعد نفسى له؟ سنة؟ وكلها فى عزلة ؟

ليس فى ظل نفس الظروف السابقة . أريد ملابسا ، وظيفة شغلة . أشياء يجب أن أحصل على أدنى أحتياجاتى كإنسان ! لقد مر السجان بى . صحت بصوت مرتفع . إنه خطأ . السؤال هو إذا كان يمكن لى أن احتمل ذلك أم لا . الموضوع هو ، هل ينبغى على أن أحتمله ؟ اذا كان الحد الأدنى للمطالب ، حاجة مضمونة لمجرم محكوم عليه ، ثم أن إنكار وسائل طريقة استخدامى لعقلى هو نوع من التعذيب . أن تطعم جسدى لكن أن تنكر عقلى فهذا تحقير متعمد لانسانيتى ، أن تقبله هذا بوداعة هو نوع من البلادة . وأن تقبل بصورة مستمرة هو أن تقبل أن تخاطر بنهاية لا يمكننى أن أتنبأ بها . إننى فى حاجة لتبادل أفكارى ليس فقط مع نفسى بل مع مجتمع من عقول مختلفة . لا يمكننى أن انحصر فى اجترار أفكارى فقط . إنه أمر سئ . هؤلاء الشياطين تخرج بعقلى خارج نطاق التسامح الإنسانى .

يجب أن أتخلى عن الاعتماد على نفسى . يجب على أن أخرج من السجن العقلى الذى حبسونى فيه.

طلبت قلما وورقا وكتبت أول خطاب عن إحيتاجاتى فى السجن . كتبت للمرة الثانية أطلب كتبا وأدوات كتابة ، طلبات وملابس وعلاج خصوصا لعينى ووضع نهاية لعزلتى أو نقلى الى سجن آخر ... لقد أصبح الطلب الأخير حاسما فى تفكيرى بسبب أخر . بعد ضياع أملى فى الحصول على الحرية ، عرفت أنه حيثما كنت محاطا فى وقت سابق بمزيج من الخوف ، والعداء ، والريبة ، وهو الشرط المناسب لتقوية إرادة المقاومة ، أنا الأن محاط ببركة من الحنان سوف تنتهى بالقضاء على . رأيت عزيمتى تضعف ، ورأيت قبولا متزايدا واستسلاما لقدرى ، رأيت نفسى منجرفا الى داخل شرنقة من الحب والشفقة لكن لا حول لى و لا قوة . حنان أناس عطوفين لا سلطة لهم . غير قادرين على اصلاح ليس هناك شئ أخبث تدميرا للنفس من هذا . أريد أعين من الكراهية و الخوف تحيط بى لكى أظل يقظا . فإذا تحتم على أن أختار مواصلة استكشافاتى للنفس ، داخلا مرة بعد مرة فى تلك المنطقة التى تهيئ ظروفا ملائمة . لاطلاق سراحى ، عائدا لمناقشة وقائع الألم والظروف المؤقته . كان من الضرورى الحصول على دليل صلب لعودتى إلى الأرض ، نزعة الحيوان إلى القسوة فى عيون المأجورين ، سرعة بعض العقول فى اختلاق ما يعادى الأنسانية . أولئك المحيطون بى تحولوا إلى مكوكات مليئة بالذنب ، فى انتظار أن يخففوا محنتى بما فى ايديهم من إمكانات مادية لمساعدتى . لا يوجد سوى القليل فى محيط حركتهم . والعطف بديل هزيل لأنه يستطيع فى النهاية أن يفتت الإرادة ، لكن الكلمة هى السلطة .

وجاء الرد بعد مرور شهر على الأقل لكن المراقب لم يرنى ذلك الرد ولكنه استشهد بعبارة منه . لقد استرعت تلك العبارة انتباهه ، لكنه لا يعرف سبب ذلك بوضوح . كانت نبرته مليئة بالاحتقار والبهجة . فكرت ما عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟ وكيف جبلوا ؟ لم تكن لهجة الشخص يمارس التعذيب بل نقمة لشخص المفوض بعمليات التعذيب . موظف حقود تأتى صلاحيته من سلطة تمارس على ملفات وأشكال عاجزة . إنها نغمة سوداء توحى بالبأس من الناحية الإنسانية وصغيرة حتى أنها أعطت وميضا . إنه شاب فى مثل سنى تقريبا له وجه نحيف ، وشعره ينسدل قليلا على صدغيه . بشرته شديدة السواد وأصابعه طويله تنتهى بأظافر مقوسه كالمشبك . انتهى الوميض لكننى كنت مستمرا فى تصويرى له وهو يمسك باحتجاجى فى يده ويقهقه بنفس راضية . رأيته يندفع فى خنوع نحو رئيسه متشفيا سمعتة يقول " أظن أنها بداية الإيقاع به يا سيدى ". أما رئيسه فقد صفعه على ظهره وتركه بعبارة ملائمة للرد عليه .

ولكن كان هناك شئ ما – مفرط . شئ ما لم نطلبه كلية ، غير مبرر بتلك النغمة . كانت هناك مشاعر فرح لم تخرج عن حدود اللياقة لكن يبدو أنها استحضرت بدون سبب . لم أستطع فى بداية

الأمر ، أن افهم معنى كلمة يشتاق . لم أستطع أن أفهم أن ذلك هو حق السجانين فى استخدام هذه الكلمة . أصبح استحواذا صغيرا مماثل للإذلال ، لقد نظرت على المراقب الكبير ، لكن ملامحه فضحت شرحه ,, فسألته .

" هل أرسلت خطابى أو أنك أضفت للخطاب توجيه من عندك "

لقد كتب خطاب توجيه وليس فى هذا أى خطأ لكننى رأيت أى نوع من الخطابات كان يكتبها . تذكرت ثانية نظرة عينيه عندما زارنى لأول مرة فى زنزانتى . نظر الى اسفل وركز عينيه على بنطلونى الجينز المهلهل الذى ارتديته الملئ بالخروق والرقع . ولم يكن القميص أحسن حالا . رأيت فيه انسانية كبيرة فى تلك اللحظة وأستطعت أن أقرأ كل كلمة غامضة فى خطابه ، وصفا باكيا لحالتى والتماسا باصلاح الأمر .

ثم واصل كلامه قائلا " ليست المرة الأولى التى أكتب لهم فيها . لقد كتبت لهم منذ أن شكوت بعينيك . بل اننى تحدثت الى مسئولى الأمن هنا لكى يأخذوك الى المستشفى ولكننى لم أتلق ردا " هذه هى المرة الأولى التى اتعبوا فيها انفسهم بالرد "

إن هؤلاء الرجال ليسوا فقط أشرار ، بل هم روح الشر المتجسدة فى شكل بشرى فيجب على الأنسان ألا يقع فى أيديهم بل يسعى للحصول على القوة لتدميرهم . إنهم عبارة عن قيح ، عفن الموت فى اشكال حية . لقد أصابوا كل من اتصل بهم . بهذه العدوى ومن هذه العزلة هنا أشم رائحة فساد العقل فى رنين كلماتهم ، انهم يربون انفسهم ، أنماطهم ، والتفسير الذى يطرأ عليهم كطفرات. فالسعى الى القوة من أجل تدميرهو مهمة اخلاقية .

وفى شىء من الغموض ، كان بحثا محموما للوصول الى هذا الهدف ، شىء لابد أن نجريه حتى لو خاطرنا بالحياة . يجب على أن أصل إلى تلك الدرجة حيث لا يمكن أن يمس عقلى أو جسدى أى أذى ، اتحرك إلى ما وراء هذه العقول الصغيرة وإمكاناتها ، لتثبيت كيانى فى التربة أو الوصول الى ذلك . لم يكن الصيام وحده ، بل تركت نفسى تتجول بحرية بحثا عنهم ، وتعلم كيف أدمرهم عندما يحين الوقت .

إن الدخول فى هذا الصراع فى حدود المساحة المتاحة لى داخل هذه المعركة ، معركة الأرادة ،كنت متأثرا بالحاجة إلى إضفاء شكلا ملموسا عليها . لابد أن يكون لها مقدار كمى ، ليس فقط عملا بطوليا محتملا (قد يؤدى انهياره الحاد إلى ضياع فرصة الأختيار واهدار الكرامة كتغذية إجبارية . لو أننى استطعت الإسراع بهذا السلوك لكى اتحاشى اعراض الإنهيار ماسكا جسدى عن بطريقة هادئة حتى يعتاد على القليل فالأقل حتى يصل فى النهاية – الى لا شىء . وبانغلاقى داخل مدار سلطتهم يمكنهم أن يفعلوا بى الكثير لو أصابنى الفزع . وسألت فجأة عن كبير المراقبين كشخص فى تلك الورطة .

" أرسلت فى طلبه وسألته . ماذا كنت تود أن تفعله فى ذلك الوقت لو أننى تجاهلت التماسك بتأجيل الصيام ".

أجاب بعد كثير من التمتمة (لست متأكدا من حقيقة ما كنت سوف أفعله . بالطبع كنت سأستمر فى التوسل اليك "

هل كنت ستجبرنى على تناول الغذاء ؟

" كان ذلك يعتمد على رأى الطبيب . بالطبع اذا وصلت إلى الأمور اقصى حد فسوف أستدعى الطبيب ، فإذا قال أنك يجب أن تتناول غذاءك ..."

قلت " إننى سوف أصوم . "

" ليس كالمرة الأخيرة من فضلك . لا أريد أبدا من انسان أن يضيع على هذا النحو ، لا تفعل ذلك ابدا . إنه شئ خطير .كنت أتمنى لو أمكن أن أحدثك عن الأسلام . فالقرآن يعظ الناس بأن الحفاظ على النفس هو القانون الأول للإنسان .

" وأنا حيم اطلب شيئا أطلب مطالب ، أقل مطلب من أجل حياة لانقة ، أليس هذا أيضا من دواعى الحفاظ على النفس ؟ "

" لقد فعلت كل ما يمكننى وأنت تعرف ذلك "

أكدت له ثانية أننى أعلم ذلك . "كنك سوف تعرف أنه ليس فى سلطتك أن تفعل شيئا من أجلى ".

حتى وأنا أتحدث معه نزل على الإلهام للقيام فترة صيام تدريجى . أما هو فقد إستمر فى طلب تأكيدات منى على ألا أتركه دون أن أعده بعدم تكرار الصوم الانقطاعى مرة أخرى . اكدت له العكس ، ليس كبداية ، ولكننا قد نجد انفسنا نتجه بسهوله نحو ذلك .

الفكرة التى راودتنى كانت فكرة بسيطة . سوف أمضى الأسبوع الأول بدون طعام ، وفى الأسبوع التالى يومان والتالى ثلاثة ... حتى الأسبوع السابع ثم ماذا ؟

هذا هو الأسبوع الخامس واليوم الأخير فى دورة الصيام ، اننى ملتزم بخرق الأمن الذى ينذرنى يوميا قبل اليوم السابع ، أخر مرة فى الصيام المستمر . لقد وعدت نفسى بذلك . هناك شخص بالخارج يجب أن يعلم أن هذه المواجهة قائمة الأن .وإلا لو أثبت هذا الكورس خطورته على الحياة . فسوف يخرجون صورة نحيلة من ثقب بكتلة صلبة غير متجانسة للمعدة ، حالة حمل غير محتملة سوف يتم تشخيصها على أنها التهاب فى المخ .

الفصل الثلاثون

إنطلقت صفارات العربات فى حوالى الساعة الرابعة أمس.تتبعت الاصوات وخططت للقيام بتحركات فوضوية جيئة وذهاب. لا يبدو لها اتجاه محدد وقد ظللت لوقت طويل اسلى نفسى بما هو متاح حولى من امكانيات . لم تكن أبواق انذار أو كوارث طبيعية. فلم يكن شعب بيافرا قادم لغزونا بل على العكس تماماً ،كان الاحساس بالتخبط وسقوط القنابل. وقد تساءلت ما عسى ان يكون هذا . هل هى شخصية اجنبية رفيعة المستوى؟ أم هى منظمة الوحدة الافريقية؟ وكان تقديرى بأنه ربما يكون ذلك وفد من احدى اللجان أو شىء ما مثل هذه المصائب البروتوكولية. البعض منهم جاء عبر الطرق البرية والبعض الآخر جاء جواً وهناك من تقطعت بهم السبل وتشتتوا فى عرض البلاد. يبدو هذا معقولاً.فلم تكن أصوات الصفارات ترشدهم إلى مراكز الإنقاذ و الحماية فقط بل كانت تحذر المواطنين من وقوع المدينة فى يد حماة السلام بحجة هذا الغزو. الابواق بالنسبة لنا تساوى هدف وتعطى معنى الاتجاه. ورغم كل هذا فإن العربة تتحرك من لامكان إلى مكان ما واذا حدث تدرج للصوت فى الارتفاع ثم فى الانخفاض فهذا يعنى ان الاتجاه اصبح ملموساً ومن ثم يتم ضبط إيقاع الحياة جيدا فى هذه الأمة .

ان سيكولوجية الصفارات تحولت إلى نظام من اكثر الانظمة اكراهاً ليس فقط هنا بل تقريباً فى كل دول القارة الإفريقية الشقيقة فقد استطاع بلطجية باندا أن يجعلوا المخاطر والعقوبات البدنية المتضمنة فى تقديس الأبواق شيئاً لا ينسى. شاهدت النسخة السنجورية المفصلة برقة ونعومة واضحة فى موكب سنجور على طريق داكار. وعلى المستوى المحلى، رايت ذات مرة عند تقاطع الكاتدرائية الواقعة عند مارينا موكب يعقوب جوون وهو يتوقف فقفز حراسه وسحبوا سائق سيارة ورموه فى الوحل . هذا لأن عربته كانت بطيئة جدا ولم تستجب لصفارات الإنذار التى تأمرها بإخلاء الطريق..لم يفهم ذلكقائدها المسكين ! فمن يجرؤ على عدم الفهم؟ لكن الوسائط المميكنة عمدا كثيرا ما تهزم الانسان المفكر، لذلك ، لم يكد يضع جسمه على المقعد ويحرك مفتاح الموتور بيده حتى هبطت عليه دوامة وأغرقته. أحمق ! كان ينبغى عليه أن يترك سيارته البالية ويلوذ بالفرار. حدث هذا فى غضون الشهور الأولى التى كان فيها جوون يسعى لتعزيز ثقته بنفسه. فلم يحدث مثل هذا الاستعراض العلنى أبدا فيما بعد. وقد مر موكب الزعيم فى عظمة وأبهة لاتشوبها سوى هذه الوقفة .وقفة لمدة دقيقة أمسكت بتلابيب المذنب المسئول و" أخفته" فى لمح البصر

لعدة شهور، أما العودة – إذا كان محظوظا وقدرله أن يعود – فسوف يعود أكثر حكمة وأشد حزنا.

لقد انتشرت الأقاويل، بأن مساعد مفتش الشرطة كان فى طريقه لإفتتاح مباراة كرة قدم بإطلاق صفارة البدء ومعه أربعة من الحراس وأربعة عربات محملة بجنود مكلفحة الشغب . وتقابل موكبه عند مدينة شاجامو بسيارة طبيب فى المستشفى الجامعى . كان قد أبطأ فى تشخيص هذا الداء المعين (المقصود صفارات السيارة) فتوقف الموقف وقام البلطجية المجرمين ذوى الزى الموحد بالهجوم عليه وأوسعوه ضربا. وانتشر هذا الخبر. وو

عندئذ أخذت أشك أن هناك تنافسا غامضا على الشهرة، بين قادة النظم الديكتاتورية. وبالأخص الوصوليين منهم . كم ساعة أحتاج إليها لكى أنفذ من هذا الطريق ، هلى توقفت حركة المرور كلية ؟ بين باندا، وموبوتو، وجوون. لايوجد سوى اختيارضئيل . لقد شاهدتهم وهم يتصرفون. أما سنجور ، فهو طبقة خاصة وحده.

لم تكن أصوات الصفارات محل ترحيب فى استقبال أو توديع أى زائر لهذه الشواطىء. استمرت أصوات الصفارات طيلة اليوم التالى وحتى المساء ، فخرجت أتمشى لكى أسأل الحارس عن المناسبة العظيمة التى استوجبت هذه الضوضاء. غريب، للمرة الثانية كان وجها غريبا .

" ألا تعلم؟ جوون يتزوج اليوم ؟"

"خيرله.هل سيتزوج اليوم أم أن هذه مجرد بروفة ؟"

لا، سوف يتزوج فى لاجوس. هذه الحفلة من أجلنا نحن لأننا لن نذهب لرؤية الاحتفال فى لاجوس. وبعد يومين سوف يذهب لزاريا لعمل احتفال آخر."

أنا لا أفهم ذلك. هل هذه عادة محلية لم أسمع بها من قبل ؟

" لا، ليست كذلك إطلافا. فكل أعضاء الحكومة جاءوا هنا لحضور الحفل، وكل مجتمع لاجوس أيضا. لقد بدأوا يتجهون إلى لاجوس، ثم يأتون

إلى هنا ، وبعدئذ يذهبون إلى زاريا. جولة ليست كبيرة. سوف يأتى الجنود لعمل استعراضات فى الشارع هنا . لن تجد مكانا لقدم بين الجنود . الجيش فى جانب و القوات الجوية فى جانب ، و البحرية فى جانب، وجنود مكافحة الشغب فى جانب آخر. هذا كل شىء. حتى السجناء سوف يجرى لهم استعراض خاص. اليوم هو يوم زيارة الجنود الجرحى وزوجاتهم بالمستشفيات .

؟ .زاريا وهل سيحدث نفس الشىء فى

" بالتأكيد. لكننى لا أعرف اليوم الذى يقام فيه احتفال بيافرا. "

ثم قهقه وسار بعيدا. هذه نغمة جديدة. نغمة اعتراض عذبة ومتناغمة مع موكب الزفاف ونغمات الأورج التى سوف تملآ كنيسة المسيح الشهيرة، حيث عرفت دون أن يبلغنى أحد أن احتفال الزفاف لابد أن يكون هناك.

تساءلت إذا كانت أفراد النخبة المتميزة الراضية لم تسىء تقديرهذه الطبقة من الناس بعد كل هذا. هل هناك آخرون من هذا الصنف ؟ بل هل كان الأشخاص الصامتون مثله؟

لقد أرسلت كلمة إلى زميلى الذى يتصل بى فى السجن قلت له أريد قصاصات الصحف عن كل ما يتعلق بالزفاف.

لكن قبل أن تصلنى قصاصات الصحف ، جاء نفس الحارس فى اليوم التالى ومعه نسخة من جريدة " نيجيريا اليوم".

نظرة سريعة هنا.ألا تقولون إنكم تناضالون من أجل عامة الشعب . نحن هنا نعانى كل يوم .لقد طلبنا علاوة، ولم نحصل على شىء.لنا متأخرات وقد وعدت لجنة ويلنيك بأنهم سيدفعون لنا ولكن مرعامان الآن ولم نحصل على شىء. يقولون إنه وقت حرب وعلينا أن ننتظر.يقولون إن من واجب كل إنسان أن يقتصد. ونحن غير قادرين على سداد مصاريف المدارس لأولادنا أو شراء الملابس المدرسية لهم . اليوم حرب ، اليوم حرب لكن هذا الرجل أحضر مجتمع لاجوس كله إلى كادونا.إنهم يبعثرون أموالنا ذات

اليمين وذات اليسار على الزقاف ،/ فماذا يهمنى أنا من هذا الزفاف ؟ الأفضل لى أن أذهب أنا لمضاجعة زوجتى.

لقد ذهب وجلس بالقرب من البوابة، ليحافظ على الباب مغلقاً. ذهب إلى هناك. " انا لن اشرب كثيراً اليوم ولن انام ايضاً" واذا سمعت صوتاً خبىء الاوراق تحت المخدة. وسوف أخذهم عندما تنتهى من الكتابة .

انا لا اقوم بهذا العمل كى لا اقتل نفسى. فانا ذاهب للنوم اليوم. لكن اذا امسك بى الرئيس وأنا اعمل هذا فسوف يطردنى من العمل ..

تصفحت الجريدة ورأيت صورة بسيطة لمن يشعرون بالرضا. يحيط بها مجموعة تعرف بكبار الشخصيات المحلية بما فيهم بعض الأمراء من أصحاب السلطة المطلقة. ولكن كانت هناك أخبار آخرى أكثر أهمية فى ذلك اليوم. حتى الحارس لم يرها ولم تؤثر فيه. فقد سقط يومایاها. والعريس المنتصر يعلن هذا البند إلى الأمراء بالعبارات التالية: لسوء الحظ فإن سقوط يومایاها تأخر بضعة أيام ، كما انه كان مخططاً كهدية له فى يوم زفافه.

انتظرت وصول قصاصات الأخبار الخاصة بى. فهذا الخبر وحده هو الذى شد انتباهى الان. وأريد ان اتحقق منه فى ضوء التقارير الاخرى. فقد يكون هناك خطأ فى الاقتباس. فيمكننى امتصاص غطرسة النخبة التى اندمجت فى المشهد الفاخر للزفاف الذى لا أرى له هوية فى عمليات التاريخ المحيرة . فقد يمكننى ان اتجاهل البلاهة المتأخرة التى كشفت عنها وهى الفساد المتعمد والمنظم لتلاميذ المدارس الذين يسهل التأثير عليهم والذين نجد قدرتهم الغير مؤهلة للتقييم قد تم استغلالها من قبل الأجهزة التربوية الوطنية لإغرائهم بالتنافس على الحصول على الهدايا التعليمية من هؤلاء السفهاء المطمئنين. يمكننى ان اتغاضى عن الخنوع التنافسى الذى تتسم به حكومة ولاية لاجوس وسذاجة رئيسها، موبيلاجى جونسون، وهو بالفعل شخص محبوب ولكنه يسىء اختيار معاونيه. والذى اعتبر من واجبه تخليد هذا العارالذى يجب نسيانه عن طريق تغيير اسم أحد الشوارع الرئيسية وأطلق عليه اسم شارع ياكوب جوون تكريماً للزفاف، يمكننى

الضحك على واحدة من تلك النكات المرعبة التى يستعيض فيها التاريخ التشويش الدنيوى بالتفكير العقلانى و الأحاسيس الانسانية. اضحك على صورة جوون وهو فى استقبال مجتمع راقى فى نادى جزيرته هو يقود الاوركسترا بسعادة بالغة فى الوقت الذى كان يجرى فيه تدمير إحدى المدن النيجيرية - هناك يقف ياكوب نيرون جوون يلهو ويعبث فى المركز الرجعى للطبقات المترفة النيجيرية غير مبال بينما كانت الأمة تحترق. كل هذا يمكن ان اتقبله واكثر. حتى طباعة طابع تذكارى للزفاف. سنتان من السلطة وأغلبهم تأريخ للإبادة الجماعية والكراهية الجماعية والدمار والحرب الأهلية ، ومع ذلك، كان هذا الفرد فى عزلة شديدة ،من الناحية الانسانية.– ونشكر الله على الاقل- أنه قد أخذ مستحقاته العسكرية قبل ميعادها بأربعة شهور. ولكن الأدهى من هذا وبعيدا عن المحنة الإنسانية فإنه يطبع ويوزع طوابع تذكارية لهذا الفساد اللامتناهى فى كل سفارات البلاد. ثانيا، فقد كان هذا الفساد يمتد بعيدا حقاً ولكننى وجدت بطريقةُ ما اننى استطيع ان أعلق عليه. يمكننى ان أرجع محدودية حيز الصراحة فى الحكم والذى هو شأن رجال الحاشية الذليلة المحيطة بالسلطة والذين يثبتون أهمية وجودهم– وهو إحساس محرج لمن يعانون الفراغ فى حياتهم - بتلميع وإبراز جوانب الإفراط والتطرف فى رئيس السلطة المركزية.

لكن داخل هذا الرجل فإن موت العقل و الإحساس تم تلخيصه فى الإيحاء غير البناء: الذى نجد فيه الاستيلاء على قلعة بل وحتى الاستيلاء على قرية صغيرة تدافع عن نفسها بالقوس والسهام فى وقت الحرب الأهلية لم يكن بالنسبة له هو عدد أرواح القتلى من كلا الجانبين ولا أعداد المشوهين والضحايا ولاحتى المحنة الثقيلة والقرارات المقلقة الخاصة بالتضحية الإنسانية إلا هدية الزفاف !.ليس إلا تمجيدا لعلاقة شخصية بينه وبين شخص غير معروف، كمية غير ذات صلة.لا شىء سوى عقلية ملكية اقطاعية يمكنها ان تحمل مثل هذا الاستخفاف. لاشىء سوى خمرالسلطة المسكرالذى جعله يطفح بكل هذا القىء على التضحيات الوطنية كلها.

انا مدين كثيراً لزفاف جوون. فقد جاء الحارس فى ذلك ا اليوم متأخرا ساعات عن موعده من أجل الجريدة . سلمتها له لكنه كان فى انتظار تعليقات منى.

نظرت لاعلى وضحكت " حسناً ماذا تتوقع منى ان اقول؟"

جاءت لهجته حادة. " ماذا قالوا لك لكى تقوم به؟" فاجأنى فاجبته فى النهاية ،"لكن لابد من انك سمعت. إنهم يقولون أننى اريد شراء طائرة من اجل اوجوكوى" .

"هل هذا صحيح؟ انت تريد ذلك" ؟ إن تحوله إلى دور المحقق أفزعنى.. وبدهشة انكرت التهمة."

قال،" أوافق. فهم يخبروننا بأنك لم تعترف ولكنى لا أتكلم عن هذا الفعل.. ولكنى اريد ان اعرف بالتحديد سواء قمت بذلك ام لا" .

اكدت له انه لا حقيقة لهذه التهمة ذاتها.

قال ، " انت تعمل من اجلى أنا، انا سعيد لأنك تعمل من اجلى فهذه مهمة الحكومة، فإنهم لايرون متاعبنا، وممنوع علينا الكلام هذا كل شىء.. انا كنت هنا عندما قاموا بقتل الإيبو. فقد رايت ذلك بأم عينى. فالأعمال التى يقوم بها هؤلاء الناس لن يغفرها الله أبدا. وعندما ارى هذا النوع من الناس يأتون حفل زفاف فخم فاخر بينما نجلس نحن هنا فى حالة معاناة ... وعلى اية حال، فإن الله يراهم من السماء" .

طال الصمت؛ لم اكن متأكد كيف يكون رد فعلى. فالأمر كان مفاجئا جدا فضلا عن حقيقة جدته. فهل هوجاسوس تابع للأمن جاء ليجس نبض هذه الحالة الصعبة؟ مرة ثانية وسؤال حاد منه " . لماذا تصوم اليوم ؟"

قلت له :" هذه مسألة يصعب شرحها "

"لا، اخبرنى. أريد أن أعرف. فأنا مارأيت إنسانا يفعل هذا من قبل. اسبوعا بعد اسبوع بعد اسبوع، وأنا أسمع رئيسى يقول انت لست مسلما ولست مسيحيا. انت لا تؤمن بالله ؟ فلماذا تعاقب نفسك؟ فجوون جالس هنا يبعثر أموالنا على الشمبانيا . رجل يقتل نفسه.من أجل الوجاهة وانت تريد أن تقتل نفسك فى سبيل لا شىء. فلماذا؟ "

مضى وقت طويل منذ أن تحدثت إلى إنسان شغوف هكذا بالمعرفة. عقل متقلب فيما يخص وعيه بالافكار التى لا تخص حاجاته الوقتية و حدود خبراته.

سقط القناع ، قناع السجان. فأنا اقرأ عدم الرضا، أقرأ حتى الوعى الشخصى الغامض بضرورة الاتفاق على المساواة الاجتماعية باعتبارها المعيارلأى مجتمع بشرى. بدأت اسأله عدة أسئلة تباعاً ساعياً للوصول إلى مقياس لعدم رضاه ونقمته. بدا وكأنه مستعد للإدلاء ولكنى لم اكن واثقا.

قال، هل تعلم ،" عندما اتيت أنت إلى هنا، خاطبنا الرئيس بشأن عمل استعراض. ففى أى وقت يأتى فيه شخص جديد ، خصوصا إذا كان شخصية ذات اهمية مثلك، فإنهم يأمروننا بعمل عرض فى الصباح الباكر ويعطوننا الأوامر. قال لنا انك شخص خطير. لقد تكلم كثيراً عنك. قال، اذا تكلمتم مع هذا الرجل داخل الحجز لا تندهشوا إذا وجدتم أنفسكم فى داخل الحجز.. انه رجل بارع، رجل كبير لكنه رجل خطير. يقول E إنك تسببت فى مشاكل لأكنتولا ومشاكل لساردونا و أنت تريد الان أن تخلق المشاكل لجوون. لقد حذرنا فقط قوموا بعملكم واتركوا الرجل ولا تتعاملوا معه. لكن بعد قليل من الوقت عندما كنا نجلس سوياً ونتكلم اثناء الراحة يقول E هذا الرجل المقيم فى الحبس الانفرادى، انا لا أعرفه. إنه صغير،صغير، صغير، صغير، و بدأ E يتكلم وكأنه بدأ يحبك والرئيس ENH قبل E يحب بعض الأشخاص،E يرى شيئا ما..."

تركته يتكلم. كان فى امس الحاجة للكلام ، وبخاصةً عن نفسه.فقد كانت الصورة مألوفة. طموحات مبكرة تحطمت بقبوله الواقع الاجتماعى و القيود الشخصية. علاقة حميمة قتلت فى الحرب، قاتل من أجل القضية الفيدرالية. اراد ان يسجل نفسه للتطوع وفى الواقع تم ضمه إلى قائمة الاحتياط لكن عائلته اصرت ان تحافظ على حياته و تذكره بأنه الرجل الوحيد البالغ فى العائلة. هذه العائلة تمتد الآن لتضم قريبه الذى قتل مبكرا فى الحرب. بعد مقتله بعدة شهور تمت مطاردته طوال طريق العودة إلى منزله من جانب الغوغاء لانه عاش فى مأوى مستأجر مليىء بالجنوبيين و كان هو من سكان الشمال، بالمعنى القديم على الأقل ، ولكن صاحب العقار كان من الجنوبيين هو ومعظم المستأجرين ايضاً.

هناك شيء ما غيرصحيح.ففى السجن يخدعنا الوقت بحيل غريبة لكننى أعلم ان ذاكرتى بالنسبة لتسلسل هذه الاحداث لم يصبها ضعف. فعلقت قائلا ، " اذا قدمت نفسك من أجل الدفاع عن القضية الفيدرالية بعد ذلك فيجب عليك ان تكون صاحب عقيدةً".

.ضرب صدره بقوة ، "انا ؟ ابداً !

بعد ذلك قلت." دع افكارك الدموية تحارب معركتك فى الحرب ".

كان هناك تضارب فى تحديد الوقت عانيت حتى استطيع الامسال به. فسألته ان يحدد لى الشهر والسنة التى وقعت فيها هذه الحادثة..

"ربما كان فى شهر اغسطس من السنة الماضية ... "

"السنة الماضية؟

" نعم، السنة الماضية. لم يمر سبع أو ثمان شهور على ذلك الوقت ..."

" انتظر لحظة، ففى السنة الماضية كانت الحرب قد اندلعت فعلاً"

انفجر صائحا، " نعم بالفعل هذا ما احاول أن أقوله لك. فقد حدث ذلك فى السنة الماضية. وهذا أكثر ما يغيظنى "

"هل انت متأكد؟"

"انا متأكد من هذا. فالمحافظ اديبايو جاء بنفسه هنا عندما كان ابناء اليوروبا يهرولون عائدين إلى منازلهم. ... القائد E' هو الذى أذاع هذا فى الراديو."

أخيرا جمعت اطراف القصة بعضها مع بعضً. فهناك حادث شغب انفصالى تم تنظيمه بنفس الدقة التى ظهرت فى أحداث عام 1966، والتى ضمت كل الجنوبيين. وكانت الشكوى- ان هؤلاء قد اغتصبوا المناصب التى اخلاها ابناء الايبو. استيقظت كادونا ذات صباح لتجد جيشا موحدا وحصارا امنيا على رأسه حاكم عسكرى. تمكن بتصرفه السريع من منع المذبحة قبل ان تبدأ. لكن وقعت جرائم قتل قليلة فى مدينة كانو. وضعت الملصقات

العادية على الاشجار والحوائط . وتم توزيع المنشورات بكل جرأة باليد. وقد كتبت هذه المنشورات بنفس اللغة التى سبقت مذابح شهرى مايو وسبتمبر.انذار نهائى يدعو الجنوبيين للعودة إلى وطنهم... وإلا.تحرك الحكام العسكريون بسرعة ،ولكن فى عديد من الولايات كان الكثيرمن أهل الخبرة – من الأطباء والمهندسين وغيرهم، الذين وضعوا حادثة 1966 فى قلوبهم واتجهوا جنوباً. حتى التشاديين (ويسمونهم جودو جودو) تأثروا وتم فرزهم بوجه خاص. كانت وظائفهم المفضلة هى الخدمات النظامية- فى الجيش والبوليس و السجون.

بصق الرجل تعبيرا عما يشعر به من اشمئزاز. "ابحث داخل الجيش وانظر ماذا تجد؟ فشعب الجودو جودو يملأ الجيش وهم لا يخوضون الحرب لكن شعبنا يعطى الحاكم إنذارا نهائيا لحشدهم معا من اجل الدولة لمرة واحدة وإلا يمزقزن إربا كما حدث لأبناء الإيبو...".

انذاران صدرا بصفة عامة اثناء الحرب الأهلية. فالتهديد الأخير كان فى سبتمبر (الشهر الحاسم على ما يبدو) فى سنة 1968. حدث هذا حين قام الحاكم باكو باستدعاء القوات.

تحدثنا معا. حاولت ان أجس نبضه رغم أننى واثق منه. عرضت أمامه المواضيع التى يمكن أن يتجاوب معى فيها. أخيراً سألته هل سيكون فى نوبة خدمته بالقبو طوال الاسبوع. اجاب، لا، فقط حتى يرحل جوون. كانت السجون تزيد من استعراضاتها الخاصة و من اجل هذا كانت هناك حاجة لاستدعاء الذين كانوا فى الخدمة سابقاً للمشاركة بعرض الأوسمة والنياشين. ويبدو أن معظم حراسى فى السجن كانوا من رجال الخدمة السابقين. ومن المرجح أن يكون اليوم التالى هو اخر يوم لهم ،كان من المقرر ان يتم حفل العرس بعد الغد فى مدينة زاريا.ومن الناحية العقلية اخذت اقلب العملة المعدنية بين يدى لأقرأ الطالع.

كان القرار يمكن التنبؤ به. فليس لدى ما اخسره. رسالتى الأولى كانت رسالة اختبار غير ضارة. فارسلت بها قصيدة و طلبت كتباً. قلت

للرجل ببساطة " اريدك ان ترسل هذه عن طريق البريد من أجلى" فقد صممت المظروف بنفسى من قصاصات الورق. نظر إلى الرسالة واخذ يقلبها بين يديه ولكنى لم استطع قراءة ما كان يدور فى ذهنه حتى خرجت منه ضحكة مدوية.

"هل تقصد انك صنعت هذا المظروف بنفسك؟"

اريته العديد من الأشياء التى صنعتها بيدى. لقد سمع عن تلك الأشياء من الحراس الأخرين لكن ان يراها بعينيه كأشياء حقيقيه ....جعلته يميل برأسه ويقهقه.

"سوف أرسل هذا من أجلك، واذا اردت ان تكتب المزيد من هذا غدا فسوف احضر لك ورقا ومظاريف ملائمة".

"قلت له" لن انسى لك هذا"

" لكن اكتب كل ما تريده غدا. وبعد غد سوف يبدأ الروتين المعتاد. لأننا الآن لا نجد وقتا لنبحث متى سوف نجتمع هنا. فالجميع مشغولون بزفاف جوون."

اتمنى ليعقوب جوون المزيد من شهور العسل. واخذت الورقة الباقية من الخطابات وبدأت التخطيط لاحتفالى بهذا الحدث " زفاف هومبو" The Wedding of Humbo وهذا اقل ما يمكن القيام به من اجل الفحش الكثير الذى ادين به له.

الفصل الحادى والثلاثون.

فوق قطعة من الأرض لاتزيد عن ثلاثة وعشرين خطوة طولا وسبعة عشرة خطوة عرضا، إستطاع الحراس أن ينشئوا مزرعة حافلة بانواع متعددة من الخضراوات. إنها مكان خلوتهم ، الملجأ الذى يلجأون اليه ليحميهم لفترات قصيرة من واجبات الخدمة التى يراها معظمهم كعقوبة عن ذنب ارتكبه فى حياته السابقة – فالله يعاقب الانسان على القيام بأنواع معينة من الاخطاء- أو كفترة توقف حتى تعود البركات للوطن مرة اخرى. بالنسبة لقلة،بل ربما لمن هم أكثر من مجرد قلة، يعد هذا العمل تشريعا للغرائز السادية لتجد فرصة للتعبير عن نفسها فى مكان ما وبطريقة ما. لكن حتى بالنسبة لهؤلاء فإن هذه الحديقة تم استعمالها كغرفة لتغيير ملابس،فهى مكان لبس و خلع الاقنعة.فقد رأيتهم وهم يخلعون ويلبسون القناع، إما ببطء أو بلمح البصر.

أما القبو فهوغرفة التعذيب،انها كلمة قوية لايصح استعمالها لكن ما هى الكلمة الأخرى التى يمكن ان تعبر بطريقة افضل عن الجرائم التى ارتكبت فى هذا المكان؟ ومن باب تجميل العبارة تسمى زنزانات العقاب. فهم يأتون بالسجين إلى هنا ويتم حبسه فى إحدى الزنزانات ثم يتركونه يصرخ حتى تنفجر رئتاه– دون أن يهتم به أحد. ويتم غلق الباب على حافة ناتئة ترتفع عن الارض حوالى ست بوصات- وعليك ان تخطو فوقها عند الدخول. العلاج بالماء البارد يشمل سد الفتحة فى هذه الحافة وملأ الزنزانة بالمياه ثم تتم تعرية السجين بالكامل ويزج به فى الزنزانة. فى موسم الأعاصيرالذى عشته مرتين حتى بدون الاستفادة من حمام السباحة البارد، أعرف ان قضاء ليلة واحدة فى مثل هذه الزنزانة سوف يترك شروخاً فى اشد العزائم صلابة. وهذه فقط واحدة من العقوبات المتنوعة. فهناك أيضاً جلسات العصا.التى يشترك فيها خمس أو ست رجال ساديون من أفراد الحراسة المتمرسين فى شئون الحياة الخاصة بطريقة مؤكدة ،هكذا كانت المتعة طاغية على وجوه اؤلئك الذين شاهدتهم فى أيامى الأولى فى سجن لاجوس- هؤلاء الحراس يهجمون على السجين ويضربونه فى نقاط منتقاه – فى المفاصل و المرافق و الكواحل و الرأس و عظم الاكتاف وذلك فى استمرارية سريعة. وقد حضر الضابط المسئول عن سجن كيرى كيرى ذات مرة لكى يعتذر لى عن الصراخ الذى عذبنى لاكثر من ساعة. والغرض من هذا التعذيب: هو اجبار السجين على الاعتراف عن المكان الذى اخفى فيه بعض أنواع السجائر الممنوعة التى هُربت إليه فى داخل السجن. والهدف

الحقيقى بالطبع، وبكل بساطة هو كسر ارادة السجين، والتمتع بمشاهدة الضحية المعروف بصلابة إرادته وهو ينكسر أمام اعينهم. هذه الجلسات استمرت يوميا لمدة سبعة أيام ولكن لم ينكسر السجين.

هذه المشاهد كانت العرف السائد فى هذا القبو، فقبل زيادة اعداد السجناء السياسيين تحولت "زنازين العقاب" إلى حاويات تضم كبار الشخصيات. وكذلك (ساحة المطهر) المجاورة وهى الموقع الجديد لكل الانتهكات الانسانية فى حين تحول القبو إلى رحلة قصيرة لاستعادة الانسان نفسه. لقد شاهدت اشر الاقنعةً تتحطم على باب القبو وهولايزال يتحشرج ويصدرأصوات شخيره نتيجة الإنهاك الأخير فى المطهر، ثم الانحناء والقيام بتقليد بيلاطس البنطى بغسل يديه بالماء من جردل الحريق ويتحويل الى شيطان المزرعة اللطيف فى

فهذا بالطبع، عمل غير مشروع. فمنذ أن توليت منصب الإله الحاكم فى هذا البستان فقد أغلقت ابواب الفردوس امام الجميع ماعدا الملائكة الحراس الذين جاء دورهم فى المطهر. وعندما تعطى اشارة عن أقتراب المشرف العام ،فإن الشيطان ذى القرنين الذى جاء بذيله المتشعب و حوافره الشديدة الوطأة، يهب من الجانب الآخرللحائط مهتاجا محمر الوجه بعد أن أعد المسرح لجلسات الجلد ،فهذا مكسر عقد المفاصل، وشادد أبزيمات الاحزمة الملتوية، و الضاغط على أصابع القدمين، و مكسر العظام، و المصارع ، هذا الارهاب بالزنازين الخلفية لايزال يمثل قناعا اخر، القناع الجانح والمنتهك للقانون، والتملص الهزلي مصبوغ على وجهه بقوة.

لكن المشهد يبدو فى الغالب شاعرياً، لمحة قصيرة عن الاروح التى تم انقاذها والتى تطوى اوراق الكرنب حول حقل سماوى. تطهرالجميع من العنف، والوحشية، وهدأ الغضب على حافة الصراع بين ارواح عنيدة متباعدة يجب ان تنكسر كى يتم إنقاذها بنفس الطريقة. طرقة على الباب ثم يدخلون واحدا أو اثنين أو حتى ثلاثة فى مرة واحدة لكى يبينوا سرعة تقدم الأمور. فالكرمشات على الشورتات الكاكية ذات الاحجام الواسعة التى يلبسونها تبرز كاجنحة حينما ينحنون لتقليب التربة، وتقليم الاوراق الميتة

وتطويق بعض فروع الطماطم الممتدة ويعلنون عن نمو براعم الفول السودانى، و يطردون السحالى التى تعلم باسنانها على اوراق الخس فتقتلها احياناً. يشذبون وينقلون اكياس ضخمة من أوراق العنب الأخضر والاوراق ذات العصارة ليطبخونها مساء فى بيوتهم.

لكن الجوافة تحتل المكانة العليا. فهى الفاكهة المحرمة التى يتربص الجميع لاقتناصها، إنها رمانة الجحيم التى لا يؤدى مذاقها إلى تقييدهم بالسلاسل بل إلى إخراجهم من خدمة الحياة الى سجن فى العالم السفلى .

لم استطع أن أفهم ذلك على نحو اخر. فلابد ان يكون هناك نوع افضل من هذه الجوافة فى الخارج، ألذ طعما واقل شحنة بالعداوة التى تربت بسبب الجوافة. فقد استمعت احياناً إلى حالات التذمر الغاضبة التى تطورت عندما وصل الرائد المسئول عن نوبة الفجر ورأى شخصا اخرقد سبقه للوصول إلى الفاكهة الرائعة التى شاهدها ورعاها و انتظرها لوقت طويل. ذات ليلة حلت كارثة بالشجرة وكان تأثير تلك النكبة أشد من أى كارثة طبيعية حلت بالبشرعلى الاطلاق. لقد أتوا واحداً تلو الآخر ووقفوا صامتين عند الشجرة المُنتهكة.

وحول الشجرة طرحت ثمرات الجوافة التالفة ، مقضومة و معضوضة وملقاه. وحش الظلام، ليس إلا فرد غير مدرب من أفراد دورية ليلية رأى شيئا بدا له مجرد شجرة جوافة. فراح يجرب الفاكهة الواحدة تلو الأخرى ليس بيديه ولكن بأسنانه وهى الدليل النهائى. ذاق ثمرات الجوافة الواحدة تلو الاخرى بحثا عن ثمرة ناضجة ولكن دون جدوى فقد قطفها و قضمها جميعا باستهتار وحشى ثم بصق عصارتها غير الناضجة قوق التربة القاحلة. انفتحت البوابة مرات ومرات بهدوء، جاءوا واحدا تلو الاخر ليظلوا ساهرين عند موت القطاف ،لا ينطقون اى كلام فيما عدا التمتمة، " أى نوع من الوحوش يمكنه ان يفعل هذا ". فقد راقبهم بلوتو Pluto من خلال الشق الموجود فى الباب واحس بالشفقة. فكانت الجوافة شجرة الحياة الخاصة بهم، وقد خصص كالى Kali ، وقتا لزيارة تلك الشجرة اثناء نوم الحراس.

ضاعف ذلك من صعوبة عمل المراقب الكبير بدرجة لا يمكن تحملها، عندما جاءته تلك الضربة الأخيرة. فلم يكن هناك تحذير سابق، لم يكن هناك استعداد نفسى لتلك الضربة. فأنا صاحب القضية لم أكن بهذه البراءة.

أما هم فقد حصلوا على الجوافة والطماطم التى يريدونها وكذلك الفول السودانى والدخان. لابد ان يكون فى كل ذلك نصيب. لقد حصلت على سماد عضوى وحصلت ايضاً على الشمس.

كانت طبقات السماد العضوى تمثل الحياة، لأنها تنتج الأدوات. تنتج المعادن و الخرز و القوارير من مخلفات الصيدلية ، وكذلك الأسلاك والخيوط و الفخار و السوسة و والعقد بالأغصان . وجاءوا ايضاً بخنافس الروث ذات القرون التى كان طنينها المثير للقشعريرة يعنى ليلة أخرى من المخاطر- لكى نتمشى وتتغلب على صوت لاينقطع، صوت الحيوان الذى وقع فى فخ ويبدو كأنه يخرج من داخل كيس متعفن فى انهيار بطىء. تعقبته فى وقت النهار.مستخدماً اياه فى ابتكار آلى بسيط من بقايا السماد وجعلته يحرك المطحنة للحصول على قوة دافعة. كان ذلك نجاحاً جزئياً. فطبقات السماد خلقت فرصا جديدة للتشغيل. وتدريجياً ازدادت حساسية اصابعى ، وامتلآعقلى بتصميمات هوائية غير محدودة.

الاداة الأولى هى السكين.إنها الأداة البدائية، وقالب التكوينات وأشكال. ذلك القدر مقبول . لكننى شاهدت ذلك حال حدوثه. استيقظت ذات يوم لأرصد تطور العصر الحديدى و التحرر الذى نتج عنه فى سكان الكهوف. فخضروات العصر البلستوسينى سقطت ومن شرنقتها خرجت أنا فنان العصر النيلوثى. فتلك السكين الأولى، التى صنعت من قطعة صدئة مقطوعة من شريط معدنى كانت هى الانطلاقة. وقد قمت بسنها على الأرضية الخرسانية بحرص شديد. ووضعت لها يدا من شريحة احد الالياف النباتية عديمة الفائدة ، والتى تمسك الشبكة. هذا التصرف فى حد ذاته كشف، كلا، بل ذكرنى بليونة لحاء الشجرة ، فهى المادة الرئيسية لنساجى السلال، وتباعاً- نجد سلسلة ردود الفعل لا تنتهى.

بدأت العمل على الموبيلات، وهى ابتكارفردى بل أعظم الابتكارات تهدئة للروع فى هذا المكان المظلم. من بداية تصنيعها تلقائيا شرعت فى تصميمها أولاً. فالطرف الثقيل هو البكرة الفارغة من لفة ورق التواليت و تم تغلفتها وملأها من الداخل بالحصى والاحجار. غلفتها بورق السجائر لكى تلمع فى ضوء الشمس. فتلك الحصى والاحجار تعمل بسهولة على عدة نقاط وفى النهاية تتوازن. فهم يرقصون ويقفزون فى الهواء فلم أتعب أبدا من مشاهدتة حركتها الرقيقة .

وماذا بعد الاشكال البسيطة المنحوته؟ الجستالت الفنى الكامل! أبيات من الشعرخفيفة قائمة بذاتها تطير فى مهب الريح . أبيات شعر فردية غنائية بالاضافة إلى أبيات هجائية تطعن فى من عذبونى (بالاسبانية، الأشعارالأخيرة كانت تكتب دائما بلغة أسبانية ركيكة) سميتها منحوتات شعرية .و أشعارفى الهواء. ومنحوتات فى أبيات شعرية،إلخ. صنعت أكاليل من الخشب والورق ، وكتبت أبيات الشعر وشاهدتها وهى تطير.

فى البداية احتفظت بالسحالى. وبالصدفة اكتشفت عشا مليئا ببيض فى مرحلة الفقس. الصغار يندفعون من خلال التربة للوصول الى الهواء. فبنيت هيكلا لشبكة اتصالات بين الأعشاش وأقمت أنفاقا من اسطوانات ورق التواليت و الاكياس البلاستيكية التى كان يأتى فيها الخبز وحاولت تدريبهم. اطعمتهم نملا وذبابا. لقد انقضت هذه المرحلة الان.فمستعمرات النمل اصبحت قاحلة بعد أن قمت باستغلال طبيعتها القاسية لإعداد مسرح للمبارزة حتى الموت- نملة حمراء وأخرى سوداء أو فريق من كل مجموعة يتم وضعهم سوياً فى زجاجة واحدة حيث يذبحون بعضهم بعضا حتى أخر نملة. سميتهم شعب بيافرا وشعب نيجيريا.

اصبحت الموبيلات تستحوذ على الذهن تماما، وأصبحت التصميمات أكثر تعقيدا وأكثر جرأة. من قصبة مجوفة لنبات عباد الشمس قطعت اسطوانتين. وشققت شرخا طوليا فى كل واحدة. ثم لففت ورقة تواليت طويلة حول قطعة من عصا ملساء.هذا المسمارالمصنوع من الورق المصقول يدخل فى إحدى الاسطوانات. وبعناية نخرج أحد اطراف تلك اللفة من الشق الطولى، ثم إلى داخل الشق بالقصبة الأخرى حيث توجد عصا أخرى مستديرة، جاهزة ومكسوة بغراء مؤقت ،

التقطت العصا حافة الورقة ولففتها حولها.فقد انتهت لفيفة الصلاة الصينية. وكانت متصلة ومنضبطة بطول ليفة لحاء شجرة لتعمل كثقل متوازن مع التعقيد الباقى من الموبيل الجديد .غطيت الورقة بأبيات من الشعر ، وقلبت اليد لاعرض ابياتا جديدة كل يوم تتناسب مع المزاج. . ابيات اخرى تكونت و عامت على أذرع اخرى. احياناً,تقلب الرياح اللفةغير المسنودة. ويبقى الوزن كما هو لأن كلا من اللفافتين تم وزنهماا على نفس الوحدة القياسية . أول مرة راقبت هذا الحدث ،أن تنفك اللفائف بفعل الرياح واستمرار التوازن الكامل،لم يكن أمامى بديل آخر، وعلى أن أعطى الثقة لمن يستحقها . نظرت إلى نفسى وقلت ، يا إنسان الكهف ، أنت لم تبدع فقط النقال المتكامل، ، بل اخترعت مفهوما جديدا هو- العبقرية !

فجأة انفجر أول موبيل فى احد الحراس. فى نفس الوقت كان هذا الجسم المصنع.، بالتأكيد ليس بالأنظمة المغذية للهواتف. أيضاً جسم يحمل علامات الصنعة الجيدة و إحدى المواد الغريبة. تجسستها لأرى رد الفعل. فانتقلوا من حالة عدم المصداقية إلى حالة الإعجاب. وبدون استثناء قرروا ان يتركوه لحاله فى هدوء. جاء رئيس الحرس، كان مفعما بالاعجاب واخيراً جاء المراقب الكبير فى نوبة تفتيش وغمزه بطرف عينه. واخذ الموبيل عقوبة رسمية.

لم تكن المصيبة بعيدة ، لكن الأيام الأولى، ، حتى اسابيع اليقظة الميكانيكية العظيمة أتيح لها أن تستمرفى الطيران المبدع الكامل. عندما وقعت الكارثة كان الناتج الفرعى فى متناول اليد. بدأ بعد أن ازداد طموحه حتى وصل إلى حد الاستيلاء على راحتى العقلية، فأخذت أخطط لوضع صورة مصغرة لتوربين هوائى. ففى هذه المملكة يتوجب على الكل أن يعمل ويخدم. اخترت ركن الكوخ الذى تدخل منه الرياح بقوة. سخر االطبيعة غير المعهودة. كان لدى فعلا رؤية ، لتوليد القليل من الكهرباء، بتواضع شديد، توليد بضعة فولتات. أو على الاقل تشغيل آلة بالطاقة. كان الهدف الرئيسى هو الحصول على الطاقة .فكرت كثيرا فى توليد الكهرباء من الرياح أكثر من تدويرالموبلات. رأسى كان ملىء بالتوربينات، تصميمات كان يمكنها أن تشرف اى متحف من متاحف النماذج الأولية التى لم تتحقق بعد. وقفت اراقب سيولة الحركة الراقصة للموبيلات- اتسأءل احياناً اذا سمحت لنفسى بقبول هذا التنويم المغناطيسى لمرة واحدة لكنت قضيت اليوم كله

محدقاً فيها. كانت الرياح متلائمة بهدوء فى ذلك اليوم. كنت افكر فى التوربينات ولكنى، أشاهد الحركات المضادة للأذرع المنحوتة على عدة محاور.:إننى أتساءل كم عدد التركيبات المحتملة التى يمكن ان تحرك تلك الأذرع .

هكذا ولد علم الجبر. وتم نسيان التوربين. لم يبقى شىء سوى أن ترجع إلى اصول الرياضيات. من خلال الرسومات البيانية عن طريق التجربة والخطأ لتقضى اياماً فى اكتشاف ما هو أبسط المبادىء الحسابية على وجه الأرض. لقد عذرت نفسى.. ففى المدرسة، كانت الارقام بالنسبة لى محرمات والتى سعدت بانفصالى عنها بعد ورطة فى امتحانات الإجازة المدرسية. لكن ليس أكثر. فقد اكتشفت مؤخراً عالم الارقام. عندما حدث الاختراق الاول بدأت بسرعة متزايدة فى إعادة اكتشاف المعادلات الرياضية واحدة تلو الأخرى. اكتشفت جزءا بواسطة البحث والجزء الآخر عن طريق تنقيب اثرى ضخم لمقبرة مظلمة خاصة بمعلمين عانوا من مشقة العمل الطويل، وقد درست المعادلات التى تم انجازها فكرة بعد اخرى، اختبرتها واعدت اختبارها بأبسط نظم الإحصاء. كان لدى الوقت. فأنا أسيقظ فى كل صباح على مشكلة، وبعد دقيقة واحدة، كان الحارس يطرق الباب لإعطائى الإشارة الخاصة بوقت الاغلاق. لقد حطمت الزمن بمجرد ان كتبت كل المعادلات المحتملة المكونة من ستة ارقام. واثناء المعالجات، اكتشفت الطريقة الوحيدة لضمان انجاز تلك العملية لكى أتأكد، فى لمح البصر، انه لا توجد مضاعفة ولا حذف. لقد كانت النتيجة بوضوح عبارة عن خطة للوصول الى مبادىء رياضية محسوبة رقميا لعلم الجمال حتى أننى رسمت مربعات على اوراق التواليت وواصلت تكرار تلك الصيغ فى مربعات ملونة.(اخضر من اوراق النباتات، ارجوانى من التوت، اسود من الحبر الخاص بى، حبر مسمى بسوى، و وورق التواليت الابيض) فالكوانتوم الدورية للنتائج تركت انطباعا. فضممت طرف ورقة تواليت باخرى وسألت، ماالذى حصلت عليه الآن ؟ كان هناك تشابه قوى بالرموز التى يعطيعها الكمبيوتر. والآن ، كيف بالله عليك تؤدى الحاسبات وظيفتها فوق كوكب الأرض؟

كان عقلى أشبه بكومة السماد العضوى. يعج بالحياة، محشو بالقصاصات صعبة الهضم، يكافح من أجل ان يتماشى مع خصوبة ساكنيه.

كانت فوضى وواحة عندما خربت الساحة ، وارتدت إلى حالتها الأولى كصحراء.

كان عندى الارض، وهى السماد العضوى. كان عندى الشمس ايضاً فى متناول يدى , وكذلك زهورعباد الشمس ذوات الحجم الزائد التى زرعها الرجال ذو الأقنعة . فالبعض منها تجاوز ارتفاعه سبعة أقدام ، منظار ضخم مغلق دائما على الشمس .وفرة اللقاح هى التى صنعت الانطباع الأكبر. فالرياح تقطف مسحوق أوراق عباد الشمس الذى يرقد على الأوراق العريضة ويملأ أخاديد سيقانها. كانت زهرة عباد الشمس بالنسبة لى أنا بنفس الطريقة التى تنتمى فيها النباتات الأخرى للحراس. كان هذا اعتراف ضمنى بأحقيتى لأنى أنا الوحيد الذى كنت استعملها. (فهم لم يدركوا ان بعض الأجناس تأكل بذور زهرة عباد الشمس). لقد زرعوها من اجل اللون، كعادة.أما أنا فكنت ارى سيقان النباتات مثل ألات الناى ؛ والسكين تنتظر النضوج.

وعلى ذكر الناى ، فهذه الآلات لم تحقق نجاحا. حصلت على النوتة الموسيقية لكنى فشلت فى عزف موسيقى من الانابيب المثيرة للإغراء. فتصدعت الفتحات أو تشققت عند فتحة الفم. اخترعت فتحة فم من كل شىء. فقد شقت فتحة الفم القصبة.إن رأسى تموج بتلك النغمات العذبة التى سوف تملأ الليالى عندما يصل الناى إلى مستوى الكمال. فقد ثبت أن الكمال فكرة مراوغة: فقد اودعت اعواد عباد الشمس فى صناعة لفائف الصلوات الصينية،تشدو بمرثية على الموسيقى التى ظلت للأبد مغلقة على الشمس . كان العنوان الواضح هو :

Flute Manque

هناك 3 صفحات لم تترجم ص 246 ، 247 ، 248

يا ضلع ورقة عباد الشمس

لم تحقق وعدك بتكوين

هيئتك الغنائية بعد

النغمات المحفوظة فخيوط ساقك

لا زالت تخيفنى

ساعات أحلام الإله بان

تمضى فى

بيداء صامتة

فكرت فى الترنم

بقيام أصلك العريق

وثباته

وأن أرسم قوة الخلق والإبداع

النارية وهى تتجه إلى الأرض

فوق بساط ريح الغابة

فى تعويذة من خيوط

لكننى أفضل أن نتسامى

بالحفاظ على الإنسجام

دون غناء

إننى أنصت إلى أغان

ربما كانت يوما ما

عندما أخذت نسمات الكون

الدهرية تحرك التربة

ذات مرة حيث كنت أنت واقفا

لم يظهر الطلع ذو المسحوق المتماسك. كل يوم وكل محصول متزايد تحمله الريح يحيله إلى شىء أشبه بورقات صغيرة من الذهب ملفوفة الحافة إلى أن استسلم للإلحاح الذى يدفعنى للقيام بجمعه قبل أن يطير فى الهواء. عندى أنبوبة زجاجية كانت تحفظ فرشة أسنانى فى وقت مضى. لقد وصلت بين الأورا ق العريضة الخشنة ،وبدأت العمل الحسى البطىء فى جمع الطلع فيها. استمر الأمر ألى ماهو أبعد.فقد تحول أول عمل لى فى الصباح لجمع الطلع الذى سقط أثناء الليل، نافضا السداة إلى داخل الأنبوبة قبل أن تبعثرها الريح. وكان آخر عمل لى بالليل ،هو إلتقاط الشوائب بحب من الطلع وفى بطء يتصاعد الطلع إلى الغاية المرجوة – قضيب صلب من الذهب 0

جزء من تكنيك السجن فى اخضاع النزلاء يتم بصدمة مفاجئة لاثارة ارباك المساجين. لا شىء يتم بطريقة متحضرة من انسان متحضر الى آخره . إذا كان ولابد من اجراء بحث فهو يتم فى جو عاصف . دون اعطاء أى تفسير لأى شئ . فالنزيل لابد أن يظل فى حالة عدم توازن ، يترك لكى يهدم لبرهة ويتأمل أهمية الانفجار الأخير. حينئذ وحينئذ فقط يظهر المواطنون فى مجموعة ليقوموا بدور المحققين .

هكذا الحراس والمساجين مسلحين بالفئوس والجرافات وخراطيم المياه والمعاول وأدوات خلع النبات والمناجل بدأوا يحصدون شجر

الزيزفون وعباد الشمس وظهرت الطماطم والفول السودانى والخس والأرنابيط . أما شجرة الجوافة فقط فلم تقطع . المعاول استمرت فى عملها وهى تحفر عميقا حتى آخر بوصة فى الجذور ولسبب ما مع ذلك ، تأخرت الكتيبة الأخرى ولبضعة دقائق . رأيت ما كان يحدث وعرفت ان هبوب اعصار تورنادو فى خلايا جسمى سوف يكون مسألة ثوان . دون إدراك لفعلى الذى من أجله كنست كل أوراق الشىء الأخيرالذى كنت اكتب فيه .أفرزت أسنان قليلة فى علامات اصالة سبق اختيارها بعد تصفيتها من سلسلة الأحبار "الناضجة" ووفرت زجاجه فقط ..... ثم خرجت لمشاهدة عملية التدمير .

لقد اقتحموا الساحة بعد دقائق قليلة. فى هذا الوقت لم تتم أى محاولة لفحص أى شئ ، موجود فى الموقع. أتو بسلال وبالات ، وكنسوا كل شئ بما فيها ملابسى الاحتياطية فى حواياتهم . أخذوا المخدة ، والمرتبة ، الموبيلات غير المكتملة . (تم التخلى عنها من أجل بحث معتوه فى الزمان والمكان) ثم وضعها بعناية فى سلة ، وأنا مضطر أن اعترف أنه تم كنس كل الأدوات . كل الأدوات الثمينة التى تم تطويرها على مدى الزمن .لم أبذل أى جهد لإنقاذ البار الذهبى وهذا أمر غريب ، ربما لأنها كانت فى صفيحة الفناجين مع الشوكة والمعلقة . انتهى هذا كله. قاد بوليفيموس الكتيبة وعند رحيلها ، أعطى تعليماته الى الحصادين . كل شئء . كل شئء ، لابد من ازالته .

فيما بعد وصل المراقب الكبير بنفسه ، لم تكد عينه الحادة تقع على انبوبة حبوب اللقاح ، حتى أمر بازالتها ، فتش الزنزانة بنفسه بدقة شديدة واستعاد قطعة أو قطعتين من الاهمال ، ثم خرج دون أن ينطق بكلمة .

لم يبق فى الفناء أى شئ له صفة النمو ، أزالوا أى تفتوفة من الورق . حركت الكرسى خارجا دون أن أهتم بانتظار دورية المراقبة ، أكبر عملية تجفيف لعقل السجين ، جاءت فراشة تبحث عن الخضرة التى اعتادت أن تراها هناك . انطلق الطائر ورحل دون أن يرى مكانا لتختبئ فيه دودة القز . النمل فقط كان مشغولا وخرجت جموعه فجأة من الاف الفجوات حاملين محصولا من الحبوب الساقطة . فى النهاية لم يكن هناك شئ يمشى على الأرض .

==========

==========

==========

==========

==========

==========

==========

===

الفصل الثانى والثلاثون ص 249

لماذا أصوم ؟ لا يعنينى الآن لماذا اصوم ؟ لقد أرسيت ذلك ضمن أسس استمرار الصراع . لكن لماذا اضطررت، فى وقت معين وفجأة، أن أقرر- أنه يجب على أن أعيش بعض الوقت بغير طعام؟ ربما ينبغى على أن أرسخ ذلك فى عقلى قبل أن أقع فى فخ الحاجة إلى الانغماس الذاتى .

نعم، الانغماس الذاتى . انغماسا ذاتيا حسيا . من المهم ان نفصل مساحة قوة الإرادة عن الإنغماس المخدر الذى ينتج من الأثير ذى الالوان القزحية . لأننى أشك فى أن المشاعر الحسية الحقيقية هى التى تأخذنى بسهولة إلى الصيام ؟.

لقد قرأت عن التجمد حتى الموت ، لكننى لم أجرب ابدا حتى الاقتراب من الاحساس بالتجمد. إننى افهم أنه بعد فترة يتوقف الجسم عن الشعور بالألم ، ويغوص فى نوم هادىء . راحة . أظن أن الصوم يجب أن يكون كذلك . إنه يبدأ بتلك الذروة الحرجة والحقيقة أنها رحلة قصيرة جدا وتحدث خلال الأيام الثلاثة الأولى .فأما أن يستسلم الجسم عند هذه النقطة أو أنه يدين فكرة الطعام ذاتها. أفضل أن أثيرهذه الذروة فى وقت مبكر بقدر الإمكان . عندما يتخذ قرار الصيام ، اركز على الوجبة التالية فى عقلى . أترك بدنى يشتهيها وأتركهم يحضرون الطعام لى . إنى جائع . أفتح الأطباق وأشمها ، أركز على المذاق ،على المدغ ، ثم البلع فيسيل لعابى . اركز على إشباع جسدى، النوم العميق الذى يحصل عليه الجسد القانع فى أعقاب ذلك لو ملأت جوعى بهذه الكميات الوافرة. اعتراض شرس يثور فى قاع المعدة أتركه يتصاعد. وقفت جانبا مسلما بقوة اعتراضه ، واخذت أستمتع بالصراع العنيف منتظرا اشارة البدء لكى اضرب المطرقة . حانت اللحظة ووضعت الغطاء على الطعام بحركة بطيئة متعمدة وقلت : هذا الذوق لا يمكن ان يموت . لقد عرفته وسوف أعرفه ثانية . الذوق يعنى حاسة الاختيار ، لقد أنكروا حقى فى الاختيار، وهكذا اصبح الذوق غير موجود . المتعة هى ايضا شىء اختيارى .إنها تحقق واختيار. إن حياتى كسيحة معوقة ، تنحط بعملية التحقق بوضع القيود على مجالات التحقق . أن تجد متعة فى مساحة مضمونة من التحقق هو خيانة للذات ، أن آكل بدون متعة هو خيانة لطبيعتى . من الأن فصاعدا لن أخون طبيعتى.

ص 250

بعد يوم أو يومين خرجت شياطين معدتى لتلعب بى مرة ثانية . ونظرت إلى العابهم القديمة بنوع من الإهتمام البارد . ان الطعام لن يغرينى

لكننى أتساءل أحيانا ماذا عساى أن أفعل ، لو كانت أقراص الفيتامينات بين يدى. إننى أخشى إنهيار جدار المعدة لأن الأنزيمات الجائعة تضمر وتموت، بفعل الإصابات المسمترة التى يتعرض لها الجسم بسبب االإفراط .أعرف أن الحكمة تفرض على أن أشرب كوبا من عصير البرتقال يوميا لكننى لست قادرا على قبول الحل الوسط. عصير البرتقال هو أقرب شئء الى الطعام ، ومن ناحية أخرى فإن الفيتامينات لا تبدو مدمرة لقوة الإرادة . ولحسن الحظ أننى لم أتعرض لهذا الاختبار. لذلك وافقت على شرب كوب من الماء كل يوم ، أرشفها على فترات منقطعة. أوكد أننى لن أتجاوز كوبا واحدا فى اليوم .

وبالطبع ، سيحقق الجسم نقصا فى الوزن ، وأطير أنا هنا وهناك مع أخف هبات النسيم ، وأخف افكار الأغانى أو الاستعارات . فالجسم مثل البوصلة وأنا أرى الجلد يتقشر طبقة بعد طبقة ، طبقة بعد طبقة. وهذا هو الخطر،إنها الحالة التى يبدأ عندها الاستجابة للشهوات . لأنه ، بحلول اليوم الرابع لن تكون الإرادة قد تدخلت . إننى أجوع من أجل المكاشفة ، فى اللحظة التى ينبغى على فيها أن أختار بين الموت والإستسلام ، حتى كوب الماء أصبحت أكرهه وأبدأ فى التحايل . فى كل يوم ينقص حجم الكوب نتيجة كسر : وفى ذات مرة ، قضيت يوما كاملا دون أن أشرب ماء. قلت فى الصباح إننى سوف أشرب فى الظهيرة ، وفى وقت الظهيرة بدأت أتحايل وأسوف حتى قررت أننى سوف أشرب ملئ كوب ماء عندما تبدأ الشمس فى الغروب . استلقيت على الفراش حتى حلول الظلام ، ثم قلت لم أر الشمس تغرب .

ماذا افعل طوال اليوم ؟ إننى أشاهد هوام خفيفة تتطاير فى الهواء ، عندما تغمض عينى تمتلئ قبة الظلام بكل الوان الكون خلف الجفون . وفى حالات الصيام الشديدة تتعود العين المفتوحة على نفس المشهد بدرجة أخف وأوسع.إذ يندفع الهواء الى أعلى فى دوامات حلزونية ذات نقط ملونة ، كل ذرة تراب تبدو فى شعاع الشمس كوكبا مشتعلا فى المجموعة الشمسية ، حركتها مخططة بطريقة ثابته ، مشبعة بمعانى هائلة . وعندما تصمت الأصوات التى تستولى على الحواس ينجرف العقل بهدوء إلى حالة من السمو النفسى. نافضا كل ما يحيط به من البيئة والواقع ، فيتجزأ ببطء حتى يصير ذرة مع باقى ذرات التراب فى الإثير .

لكن غروب الشمس يبدو غير محتمل ، فبعد قليل تصمت الأصوات ، وتزداد حدة الألوان ، ويتحول غروب الشمس الى شئ جامد ، وحشى ، دموى له انياب كأنما الشيطان الجوال فى هذا اليوم ينشب اسنانه فى بطن

واحدة من أكثر المحظيات شهوانية . فينبعث منها رائحة كريهة . ليست هكذا السحب العاصفة ذات الحواف النحاسية ، والأعماق الذهبية الخفيفة التى تشير إلى أخاديد فيما وراءالممرات التى تسير فيهاالالهة. حيث يذبل ضوء النجوم ويتلاشى.؛ ولا يتبقى سوى الصمت الذى يدفعهم الى الأمام .

اننى استمتع برؤية جسدى يتضاءل . إننى اخبو ولكنى لا أحول دون الوصول إلى حالة الشبع الإنسانى الذى يتاتى من الألم والخوف، من الاهتمام وانعدام المصداقية اللذان يطلان من عيون السجانين االذين يحومون حولى تنفيذا للأوامر من أجل إلتقاط أى هفوة من علامات الضعف تصدر عنى لتبليغها. هناك شئ بداخلى أعترف أنه أشبه بضحكات انسانية عميقة نتواضع عندما يتوقف احد الحراس ويقول " من فضلك ، هذا ليس ممكنا ويجب أن يتوقف" . يدخل المشرف الكبير ويقول " جئت لكى أرجوك ، اطلب منك أن تفكر فى عائلتك ، فى زوجتك ، فى أولادك. " إنى احتج – ولكنى فى حالة جيدة وقوية. أنت لا تستطيع ان ترى نفسك ، أما أنا فقادر. كلنا نعرف .انت لا تعرف كيف تبدو للآخرين . أنت مجرد هيكل عظمى حى .

إنه أمر غريب ، ولكن التأثير الذى يتركه هذا كله يجعلنى أكره حتى كوب الماء . ففى كل مرة يظهر فيها المشرف العام أكون ألقيت بقية الماء . اهتمامه بالأمر يضيف من الاحساس النامى بالتفوق الانسانى . لا أريد شرابا و لا طعاما و لن أحتاج الى هواء .

الهلوسات ونوبات الإغماء القصيرة التى أرى خلالها الجدران والسماء والأرض تتحرك فجأة اتقبلها واتحكم فيها. وكذلك فإننى أعرف أنه ليس وهما عندما اكتشف ذات ليلة حركة شئء ارضى بين النجوم. لكى أبحث فيما وراء النجوم فى بركة الصمت تلك .فإن أطبق يدى فجأة على هذه الذرة السائلة المستقرة والواثقة من نفسها فى هذا المدار الذى سبق تجهيزه . أهناك هلوسة اخرى؟ الرحلة كانت قصيرة منذ ان استطعت أن اتتبع حركتها خلال نافذتى عبرشبكة القضبان الحديدية . لكنى بالتأكيد انتظر ثانية ، اليوم التالى واليوم الذى بعده . واتذكر هويته . إنه جسم سمائى ولكنه قمر صناعى انسانى . يا لهول اللحظة . – لحظة اليقين – تظل باقية لا تفنى . أنا مسجون الآن وراء القضبان وممنوع من الاتصال المباشر ، هناك توكيد انسانى قد بلغنى خلال الكون . شعلة بروميثية تتوهج بين الأجساد الميتةلاتنطفىء أبدا فى أكاليل من النجوم . ربات ساقطات،

ديكورات مشدودة فى فضاء قاحل.وقع إسمك ، أفحص وأسأل. إنى أقبلك ، جسارة انسانية لاتتخا ذل . على مدى اتساع عبنى القلقة وعقلى أنا أطلبك وامتصك .إننى أبعث لك ،إحدى مسام جسمى ، القلب الإليكترونى لإرادتى، تجول...تجول...

اليوم العاشر للصيام. حزمة من التراب على شعاع الشمس مكوك بطئ يتجول فى الكون ليلا .

ليلة صافية والقمر يصب ضوءه فى زنزانتى . ظننت أنه ، كفن ؟ لقد رجعت مرارا وتكرار الى هذه الليلة التى اشعر فيها بالضعف والكسل الشديد، إلى ساعات الرقاد الهادىءعلى قبول مطلق لفكرة تقول : إنه شئ غير مؤلم. ضعف الجسد والتنفس يشير إلى توقف . تلاشى الخوف الذى ينتج عن حافز التعلق بالحياة الذى قد يجعلنى أتراجع فى هذه اللحظة. لا أحمل فكرة واضحة عن الموت ، فقط فكرة عن النهاية المحتملة لأى فعل . شعرت بالضعف فى مفاصل عظمى وفى داخل العظام نفسها . لسان جاف خشن يتحرك سائبا فى فمى . شعرت براحة كبيرة فى داخلى و سلام العالم والكون الواهن فى الداخلى . سلام يتجاوز فى الحقيقة كل القدرة على الفهم. فكتبت: :

مسحت جسدى بالزيت

يتقدس الفكر بزيت الوحدة.

فى العزلة الرطبة

إننى أدعوكم هيا ، هبوا جميعا

فى إثر الضوء . دعوا الظلام

ينحسر.

مسحت صوتى

وتركته يرق فيما بعد

أو ينحل على طريق العزلة

فى فضائك. اصوات جديدة

سوف تردد الأصداء

عندما يظهر الشر مرة ثانية

لقد مسحت قلبى بالزيت

فى داخل شعلته

وضعت رماد كراهيتك المبذولة

لكى أدع الشر يموت .

فى اليوم الحادى عشر لم يأت أحد . ظننت أن الحارس عندما كان يختلس النظر الى زنزانتى كان يبدو عليه الإعياء بل والخوف . لقد أخطأت السبب. لقد حدث. وكان يحدث حينذاك . لقد فهمت الآن ، لماذا قام المشرف العام بتخريب فردوسهم . فهمت عندما اقتحموا زنزانتى فى اليوم التالى ، اليوم الثانى عشر واخذوا يستجوبوننى ويهددوننى. وقفت متسمرا بين الباب والجدارلكى أستند عليهما . ساعيا لإخفاء ضعفى. كانت المسافة بعيدة، والارتفاع كبير الذى يمكننى ان القى النظر وافهم . الاصوات والكلمات والاشارات كانت واضحة ولكنها بعيدة. حضور وجوه غريبة والمشرف الكبير بينهم .كان يشغلنى بطريقة حادة ولكنهم لم يمسونى بسوء. رأيته واشفقت على حيرته وارتباكه . توقفوا مرارا ينتظرون ، وقفات يأس متزايد. لاحظتهم متعلقين بصمتى لكننى لم استطع سوى أن افكر. ولكن ماهذا الأمر ؟ ماذا تريدون منى؟ لماذا يحق لكم ان تطلبوا منى ؟

لا أحتاج شيئا . لا أشعر بشئء . لا أرغب فى شئء.

هل هذه هى الممالك الجديدة التى يسعى اليها ذلك الناسك الحكيم ، ممالك العدم .أو أنه تكلم وهوممتلىء فى كينونته نابذا كل مظاهر العظمة الخارجية.

الفصل الثالث والثلاثون

فى البدء كان هناك خلاء، لاشىء, فكيف للعقل أن يستوعب ذلك , وكان هناك أيضاً الفقر والخراب , لا شئ يمكن إستيعابه ببساطة مما قد كان ولكن , كما أن الصفر هو الأساس \ فإن اللاشئ هو الأمر المؤكد , وهو الأصل . مثل قطرة غيرقابلة للقياس فيما هو قبل التفكير , وقبل الوجود , وقبل الجوهر ولكن الذى يتعين على العقل عندئذ أن يدركه هو أن يفرغ من داخله الإطار الزمنى للحياة بمراجعه المتراكمة لينطلق من أرضية مادية إلى الهاوية الأزلية ، التى تكمن فيها ، للأسف الطاقات الخلاقة التى " تمقت أى فراغ " بأكبر مما تستطيعه الطبيعة نفسها , ولابد لدورة الحياة من أن تبدأ من جديد . ومع ذلك فمازال هناك ما هو أسوأ ينتظر القيام به , ذلك أن بلوتو حاول أن يكتشف سراديب حتى فى داخل العالم السفلى الميت تغلغل إلى الأغوار الأعمق للفراغ وهى على أحسن الفروض محاولة " مسمرية " , ذلك لأن الوظيفة العادية للعقل قد جرى تعطيلها كما أصبح اليوم ساكناً فى حالة من الجمود الخفيف , وعلى أسوأ الفروض فإن الخواء أو الخلاء يستقر داخل حلقة هى الأظلم بين حلقات الطاقة الخلاقة , ثم يدور حول محوره مخلفاً آثاره على رقعة من نسيج رقيق مجبول من رماد الأبدية .

ما الذى نشأ وكان موجوداً دائماً أهو الحياة ؟ أى التى قال عنها الله " لتكن حياة " لماذا ؟ لقد كانت الحياة موجودة دائماً داخل عقله المتقلب على شكل لم يتشكل بعد ، وداخل حركة لم تتحرك , فى زمن وفضاء لم ينشأ بعد فى الوجود . ومع ذلك , لقد كانت كلها متفرقة ومجتمعة وملفوفة ومصبوبة داخل هلام لا شكل له من حيث الأصل والنبض والنفس ومن حيث أصل المادة التى لاهى ذكر ولا أنثى ومن حيث أصل الجوهر وإلى الآن لا أسعى إلى أى معاناة فقد غاص (الله) إلى العمق وأصدر أمره بأن توجد (خليقة) ! ملموسة ومرئية وظاهرة بوضوح الشمس .....

وماذا إذن , فما هى الحاجة إلى نسخة ثانية هزيلة من قبيل المظاهر الخارجية لفكرة مجردة ! ولماذا يجرى تحطيم الجوهر المعقد للحقيقة وهى التى تستعصى على أى شك فيها ؟ وهى الحقيقة التى لا توجد لها نسخة أخرى ولا صورة أخرى ولا تمثال مصبوب فى أى قالب ولا حتى مجرد إستعراض لهذه المجردة النقية من عقل غريب ؟ فلم تكن هناك أى عقول أخرى ولا من يزيف . فما هى إذن الضرورة التى تفرض الإنتقال إلى المادى , إلى عدم اليقين ؟ إلى النرجسية ؟ إلى إعادة التأكيد ؟ ذلك أن الكتاب المقدس تحدث عن وحشة العزلة . إنه الخوف من أن يكون التفكير مجرد لا شئ والخوف من شئ ليس فى الوسع التحقق منه إلا من خلال التفكير عندما يتجلى .

وعندما حدث فى بادئ الأمر أن جاءت حمامات قبض بلوتو على مصاريع أجنحتها الأرابسك رافعاً اياها عالياً فى الهواء وبعد فترة طويلة من غياب خالقيها أحرقها بوهج رصاصاته , ولكن عندما إستبد بالحمائم الخوف من إحتمال تغير المواسم وهجرتها دون عودة . تحرك بلوتو على الفور لكى يحول دون إعتماد العقل على مثل هذه الجماليات العارضة . هناك صخرة رابضة على الأرض صارت ناعمة وبيضوية الشكل وفيها صدع واضح كما لو كان بأيدى بشر وهى أشبه ما تكون بمكوك ، ولكن بصورة باهته .. وبقصور ذاتى قام (الله) بمزجها بنسيج من المصائر والمواسم نفذت إلى القلب وطردت الخمول اللانهائى بإبداع لا نهائى أخرج من تلك الصخرة جوهراً صافياً مضيئاً ، وفى آخر المطاف فإن ما للحمائم من أنشوطات أقواس تداعت وكان أسرعها إلى المشاهدة هو ما تمثل فى فعل الزمن . فقد تداعت التصميمات الهشة وفقدت إيقاعها الأصلى وارتدت إلى الأرض فى زخات من الشرارات وهكذا استحالت سراديب الأرض إلى ما هو أظلم مما كانت عليه .

ودون أن تحاول أختراع شئ أو الأعتقاد بأن ذلك هو الأفضل , فإن لحظات التوقف جعلت ظلام السرداب أقل درجة فعملية الخلق هى إعتراف بالعزلة حيث يتحول العقل إلى نول لنسيج العنكبوت مع بقاء المكوك الذى صقله الزمن فى مكانه من الأزل .

لا يعوزنى شئ . لا أسعى إلى شئ . لاأرغب فى شئ

ولا حتى فى العزلة , فالفوضى التى تعرف بأنها العالم : قد خلقت لكى تخدع جوهر العزلة الوحيد . هكذا يشهد الكتاب المقدس مكذبا أن العزلة فضيلة .

إن العنكبوت السمين الوسنان , وإن بقعة الدهان المنفرة التى تلطخ الجدران بمصائد الذباب وحقائب البيض , هذه جميعاً تتفرط فجأة فى أشكال هندسية رائقة حسب الطلب , وهى تؤدى إلى تراكم الأتربة والقاذورات , وسرعان ما تمتلئ بمستحضرات طرد الحشرات القذرة , ولا بد للعقل من أن يتشبه بالملكوت ونول النسيج , ولكنه يكون فى حالة من السكون القاتل , لأن الشخص الحى فى بيت الموت هو الخالق الوحيد ومؤكد أن الذى يحرض ويحرك ويعبر عن ذاته هو العقل على وجه التحديد . ذلك هو العقل , فالفجر والظهيرة والليل والأقمار هى من صنع الإنسان . ولئلا تتشكك فيه أرواح العالم السفلى وتكشف عنه النقاب الذى يرتديه من أكفان الموتى , وتخمد حماس عقله إزاء ضربات القصور الذاتى غير المسموعة للقلب , فإن المكوك يكون فى حالة سكون تماماً كما يتراءى فى سواد يدى امرأة عجوز . وهنا تنزاح الأغطية الثقيلة إلى أسفل حتى والمكوك يغزل أكفان الميت العجوز ويزيح أقمطة عن عالم جديد يقظ , فى حين أن أيدى العجوز المودعة للأرض تغوص شيئاً فشيئاً فى حجرها , فلماذا إذن تقوم بالغزل وتجمع الأتربة والقاذورات مادام الشكل النقى غير الترابى يستقر فى العقل ؟

لا يعوزنى شئ لا أسعى شئ لا أرغب فى شئ

غير أن الراهب لم يتكلم عبثاً , وتوجهت كلماته إلى روح حية ...

لا شئ , لاشئ , لاشئ أى لاشئ إلى جانب ما يحيط بى , بجانب هذا الإنجاز القليل بتحقيق الفرصة الخاصة بإعادة تجديد الذات , أى ببساطة لاشئ لاشئ لاشئ فإن لم يرد على سائله , وإن لم يتكلم , وإن إكتفى بالإنصراف ومضى يطلب ملجأ أعمق فى وعيه المتلألئ " أو المتخفى " فإن هذا التصرف لتأكيد الذات هو " شئ لا حاجة إليه .. فيا أيتها الحادثة

العزيزة هذا هو الرد على سؤالك . لأن ذلك قد حدث فعلاً . لأنك فى حاجة إلى أعوازك , وإلى فضولك البشرى , وإلى صوتك وإلى شكوكك وإلى أريحيتك المدعاة , وإلى جانب السماء والأرض والحبوب والحياة والعيش – فإن الخيار المطروح هو الإرادة الحرة فلا تحتاج إلى شئ ولا تسعى إلى شئ ، ولا ترغب فى شئ لدى معرفة بالرهبان النساك فلا كان الراهب مالاريبا يوجد حقاً فى لا شئ فلقد أقدم على المراوغة , وقام بالتوبيخ (وغفرأو انتقم) من الأصدقاء والتلاميذ والأقرباء والملاحدة ولا حتى يوحنا المعمدان .

فقد كانت روحه تتمشى بين السحب المثقلة بالمطر , وعبر إظلام المياة الداكنة , وعبر المياة وحيداً قلقا , وهنا ظهرت ذبابة من نوع اليعسوب وحشرة مائية متعددة الأرجل , وانبعث شعاع من مادة جوهرية وجرت محاولة لحل الألغاز بشأن التغييرات الفجائية التى بدأت ببطء , وهو ما غازات القصورالذاتى التى انطلقت صوب أول أميبيا , تسترعى الانتباه وتهمز وتستجدى العنصر المحفز الخفيف الراسخ . أنا أطلق أنا أعيد الخلق فى أنشودة مع ما يغلق أو يفتح حولى : الفجر أو الغسق , أو الظلمة , أو الضوء أو القضبان المسلحة أو الأبواب الحديدية .

ارتفعت من الباب أصوات تململ وهو الباب الكائن فى جدار الجلد بالسياط . ورأى أن الأمر يتعلق بإنعدام التوافق ولكن عيونهم كانت تتابع روحه القلقة من خلال السحاب , فقاموا بإحناء رؤوسهم مرة أخرى , ثم هزوها وهم يحدقون نحو أرض الموعد حذار من أن نزرع ؟ فهل ينتظر العراف مرة أخرى إلى وقت الحصاد ثم يصدر أمره إلى الفاسقين لكى يقوموا بالتدمير؟ هل تعتقد أن الله قد عاقبه بما يكفى على هذا العمل الخبيث ؟ لقد نظروا إلى البقعة الجرداء التى كانت مزرعة للجوافة فى وقت من الأوقات فانطلقت تنهيدة من وسطهم

- أواه
, أنت يا قليل الإيمان . إلا أنهم كانوا مجرد ظلال وليسوا رجالاً أسوياء . إن تصريحاتهم نتحدث بصدق حول التيارات السفلية للأمل , وتستر الفجوة , ولكن هناك ضلعاً جديداً من الإنسانية يمتد إلى أعلى من قفر ترابهم , ومع ذلك فإن إنعدام التوافق الزمنى خاطبهم قائلاً : إنهم تشكلوا قبل أن تتشكل عقولهم فالعقل هو الزمن وعلى هذا البريق الساطع تستقر الآن مشكلة الأبدية فى آخر الأمر , فالعقل هو المعادل للزمن والفضاء فتلفح به يا بلوتو , تلفح به فى غطاء سميك من القطن لا يمكن النفاذ من خلاله.
إن على جبينى لطعة رطبة هى المطر .

الفصل الرابع والثلاثون

وأخيرا فإ ن السماء قد أسدت لنا يدا بمعنى الكلمة وأنا أبتسم .

فهل من المفروض فى الأن ان أؤمن بالعناية الالهية ؟ حدث هذا نهار شمسه ساطعة اذ كنت جالسا فى الخارج احدق فى الذباب حين طار شىء اسود خفيف واستقر على مقربة قليلة من قدمى . فتطلعت الى أعلى حيث هناك غرابان يكادان أن يختفيا فى الأفق ، وكنت قد سمعت نعيبهما فوق راسى قبل ذلك ببضع دقائق . لم أحفل حتى ان أنظر الى أعلى لآرى هذه المخلوقات ، فدرجتها فى عالم الأجنة هى أدنى درجة من الجوارح . ولم يفوتنى أن أشعر بالاندهاش والتأثر وأدركت ان للطيور ذوات الريش القوى امكانيات ، قبل دقيقة واحدة من عمرها على الارض لقد تركتها ترقد طوال فترة ما بعد الظهر معتنقدا أنه يجب على فعلا ان أؤمن بالعناية الالهية .وانا اعيش فى ساحة شاسعة من السجن وعالمى لا يذهب الى ما وراء ذلك ، ولم يكن ثمة تفكير فى هذا العالم الخارجى الذى يمثل بالنسبة لحرية الطير مجالا بلا حدود . ولكن حتى فى هذا السجن ، كان لدى اختيار عميق جميل وهو ان الريش السائب قد تعين عليه ان يسقط فوقى داخل أصغر حيز بجوار قدم شخص مؤكد ان لدية حاجة ماسة.

هنا بدأت. وعندما استوعيت اخيرا هذه الهبة ، حككت ظفر إصبعى بصخرة , وفى الليل تحولت ريشة الطير الى سن قلم . فاكتشفت مخزون المداد الذى فاتنى رصده ، وتوقفت، ان هذه المعجزة صغيرة اضفتها الى الاف غيرها من الادعاءات بشأن الله والعناية الإلهية . إن هذه خبرة مجردة

حصلتها وهى تدوم طوال الليل البهيم فليس. هناك ما يعجل بالروح ولا بما يرفع منها ، فالحجج قديمة ولا يوجد أعظم من سقوط ريشه فرخ تشتد الحاجة اليها باعتبارها قلما , واخيرا فان غرابا طيبا متسامحا نافذ الصبر قد اطاح بركام العقل البالى . وهذه هى المهمة الأولى لريشة الطير عند استخدامها كقلم ، فهى تحدث صريرا مثل نعيب الغراب ، وهى مع ذلك تكتب ما يلى :-

النارمن حجر الكحل فى الشمس

عرف الأسد الأسود المنحنى

من حظائر للصلوات غير منطوقة

سقطت

منحته الوحيده من السماء

مطرا من فحم نارى – لأنه

قد سخرت منه عين شاعرية

وطار

بطريقته الخشنة ، ولكن بصورة جديدة

يردد نغم خام من فمك المقدس

واذ تدق الطبول عند الصدع المرتفع فى الجدران

فان ذلك هو قربان التضحية .

(ريشة من جناح غراب)

الفصل الخامس والثلاثون

جميع الأرواح تتالف – جميع الأرواح تجتمع على شكل أشباح رمادية . اما الليل . فان جميع الأرواح تكون فى وحدة يوما بعد يوم مجتمعة فى سرداب لا يدخله هواء وفى ظلمة تشبه ظلمة الكاتدرائيه . والشموع تنشر سحبا لزجة لا لهبا يتراقص . لا توجد صورة ملونة لأى قديس فى النوافذ المطعمة بالرصاص . وهناك أبسطة للرحمة ، وربوات من السحب ، وأقدام ثقيلة للحزانى ، وأكفان رمادية ، وقشعريرة الأرواح أثناء أداء الشعائر المريمية فى القبور .

أصوات خافتة واسطوانات قديمة متهالكة تعزف فى غرف الحزانى من آلة جراموفون كثيرة الازيز الصادر من أجهزتها الصدئة ، فتتسلل منه أصوات ميتة ، وهناك أقدام بلا أعصاب ذات أغشية للامتصاص تتحرك فى حركات مجهدة، بينما تصدر عن قدم عصبية ضربات متقطعة فى كهوف موحلة. وهناك قطع من الاسفنج المبلل لامتصاص أشعة الضوء .

أما السماء فهى سمكة بلا زعانف وبلا عيون ، ميتة ومنتفخة ومطروحة على المستنقع . وكتلة متورمة رمادية اللون تعانى من القصور الذاتى مهمتها إخفاء سماء الحياء . وهناك جسم متضخم الجثة متهدلا ليست له رائحة ولا فيه نتانة وهو بيضوى الشكل عامر بظلال لا نهائية

لذاته ، وهناك تيار مائى تحت البحر رمادى اللون خامل ، وهناك كتلة من الموات خاملة بدورها ، وهى تنتج ستارا خاما سائلا بمجرد تعرضه لضغط خفيف من طرف التفكير العسير ، ثم يستدير الى الخلف الى مكانه وهو فى حالة تأمل وليس ثمة ما يخترق الكتلة العديمة الشكل ، ولا يوجد ما يمزق جلدها المصنوع من الوسن الأبدى وان اجتماع الإرادات لهو اجتماع قصير الأجل يمثل ضياعا للجدوى . إنه يوم البرص يوم أعماق مقرحة ليس لها اسم ، يوم اهوال هجينة .

يمر الزمن من خلال مزيج من الجو الفاسد وغمرات المياه، وينساب من خلال عالم من وبر الحيوان ، بل من خلال صدمات ونيران طهرته من الصوت المتداعى ، وطهرته بصورة مملة من معالم الذاكرة , فلا خوف من سقوط ولا انزعاج من لهب لا نهائى يتحرك ليدفىء الأصابع المخدرة والاسنان والأذان والعيون واحاسيس اللسان رغبة فى الوصول للراحة فى وضوح الصوت . وما هذا بضرب من ضروب التصنيف الثرى الشديد الوعى بالمقاييس الفردية ، بل إنه الماء الراكد والدفة المفقودة وهى تخوض وسط ابخرة نتنة مهتاجة ، وهذا كفيل بالقضاء على روابط هزيلة بفعل لا شىء. وان الزمن اذ ينطلق من الانكار الفائق لجميع الاتجاهات فهو يتحول الى دائرة زلقة من نسخ رديئة تتفتت على شكائم قضبان السكة الحديد فى طريق عارض يغوص فى حفرة محاولا البقاء شيئا فشيئا ، حيث يكون الضجيج خافتا ، وحيث يكون هناك خواء صامت كثير الألوان .

وهناك مغارات مظلمة فى حين يتوزع وميض خافت من خلال الجدران المرتفعة على البحر امام المستنقعات . وهناك أشكال لا حصر لها تمر بمنأى من فتحة مغارة نائية ،وهناك سحلية ترقد على الحائط لا حول لها ولا قوة . وهناك خندق حول الفراش الذى أحدثت فيه بقة ثقبا وندبة . وهناك منحدر من غابة تقع عبر ممرات تعرضت للنخر فى منحدرات تل صغير كئيب. وهناك سحلية تنطق عيناها بامارات التسلية والخرس ، وهناك ناقوس رطب يدق داخل وخارج أطراف الوعى ،وهناك نوبات من فتور آلهة لا توقظ شيئا ، ولا حتى الاصداء .

والأسطح مغطاة برصاص لا مع ، يبدو ان هناك زجاجا ذا لمعان خادع تسقط منه نقاط رمادية رصاصية بعد توقف المطر . وهناك اسفنجة من الخارصين (الزنك) المجعد تمتص الرطوبة من الهواء وهى قد حلت

محل الفضاء المحتجب والسماء المنفوخة . وهى تجلس القرفصاء متجمدة تماما مثل حضور يفتقر الى القوة مثل عالمى فى هذا اليوم وهو بلا كيان او تعريف فى فضاء لا وجود له .

لفصل السادس والثلاثون ص 263

تبدأ جولات الافتراس بالامطار دفقة قصيرة عنيفة ذات مساء وبدأت قرقعة البرد . (قصف قطع البرد) هذه نهاية اعصار هارمتان . لقد استمر الإعصار لمد ة ساعة ، واندفعت الريح تكتسح المكان فى طريقها الى الجنوب . ونزلت الارض خلفها مبتلة بعمق وتموجات حلوة فى الهواء لقد انتهت فترة البيات الشتوى ، وخرجت الخنافس ، والنمل الطائر ، والذباب والهاموش ، وسرب عنيف من ذوات الاجنحة الهشة يهاجم المصباح الوحيد فوق العامود , انها دورة شغب عنيف اعمى بعد نوم ساكن طويل . اشبه بجلود مائية فى واحه بعثت منها الحياة من جديد .

قنوات الحياة جميعا بدأت تنتفخ زنبات الحشرات ، ومخالب الوحوش . المخالب الجافة تتطلب شد ، زنبات الحشرات تنتفخ استعداد ، وذيول السلاحف تاخذ منظراحسنا .الحياة تتسلح استعدادا لجولة طويلة مع الوحوش المفترسة .

يدخل سيد الغابة إنه مفرط الضخامة ، طيف ملكى . هذا القرش المخاتل بين الأسماك الصغيرة،.من المؤسف إن الأمر صحيح ، فليس له سوى عين واحده " لقد سمعته من قبل ، ورأيت لمحات من كيانه الغامض ، ولكنرأيته كخيال فى الليل ، غبش وحشى مرتعدا من كرونوس ، ملك الارتداد الزمنى فى العالم السفلى. كنت بالنسبة له شيئا مميتا كالحذاء الذى يحسه فى اغلب الاحيان، كركلة أمبروزو الغاضبة عندما يستدير بانفه نحو اليسار . لقد تعلم ترتيب الدربخة (ترتيب يخضع فيه الطائر لنقر الطائر الذى هو اقوى منه) من المشرف العام على ورق الشجر. تعلم أمبروزو ان يهز راسه ببطء ، ثم يمد ساقا أمامه بعد الأخرى فى فتحة المياة ، متنبها لكى يسمع صوت أو يشم رائحة عدائية ، حينئذ لاح بريق على طول الجدار فى داخل الظلمة البعيدة مخلفا قطعا من الفراء المسلوخ على الشبكة الحديدية , مع نزول المطر يعود الملك ليو الى مملكته جسورا وفاسدا، وهو الملك الأعور فى عالم الحشرات ، إننى أرى تدهور منظره كقط سنورى .

قط ، متوحش او أليف فهو يتحرك فى أبهة لا مثيل لها فى عالم الحيوان ، تغير ملكى للمحاور العضلية فوق الكتف وتدفق متواصل للنبض المرن حتى فى اللحظة التى يتجمد فيها . فى الظلمة يبدو أى قط أشبه بوجود فراء يتذبذب ، بشكل مخيف بعد أن تحمر عيناه الزمردتين المنومتين مغناطيسيا فى الظلمة .

النمر ، النمر ، يتألق محترقا .....

أو بليك ، بليك المسكين ، كان يجب عليك ان تر ى الملك فى هذه الغابة من الجدران حيث نتعلق جميعا بكل حيلة من أجل الحياة ، بهيكله ، بهيكله الخفيف والمضبوط المتناسق، يخطو ليو خطوات وقورة من طرف انفه حتى ذيله، حتى ذيله المتذبذب الباحث عن شىء ، لكنه يبدو فقط فى بروفيل

من الجانب الأيسر ، لآن الجانب الأيمن قرصان غوغائى شرير له رقعهة عين معتمة تجعله هزأة باسلافهم من فصيلة القراصنة .

مشى يتبختر. ينكمش. يقفز. القربة – إنها خنفسة أو فرس النبى ، لكن ليس هناك أسوأ من صوت مأدبته الملكية ، حيث يقرقش طعامه باستمتاع شره وأنا – اقسم لك – ان صوت اصطدام شفتيه بعد أن اتى على أخر جناحيصلنى من بعيد . يأسف هذا الأعور بعد قضمه المقزز لقطع اللحم ويداعب معدته عقليا ؟ هذا يمكن أن يكون مجرد تخمين لكنى اقسم إنه حقيقة ، اننى ارفع رأسى للسقف لكى أمحو هذا المشهد .

فوق العارضة الخشبية للسقف ، يتمدد وحش مفترس اخر فى انتظار الفريسة , إنه برص الحائط السام ، مصابيح عينيه ذات لمبات خرزيه مركزة فى ثبات ساحر على الضحية الغائبة الوعى. أضواء أمامية عالية من المصباح تلقى به الى الوراء إلى أسلافه من الحيوانات المنقرضة ، عينا البجار القديم اللامعة الضخمة . تأتية الذبذبات الواحدة بعد الأخرى دون مقاومة . تدخل فى مدار هذه العيون المغناطيسية ، فينفتح فكيه ويمتصهم داخله .

تبدأ قرينته زحفها البطىء نحو فرس النبى ، العيون عبارة عن أضواء أمامية فى دبابة مدرعة ترقد الأن ساكنة على جانب من العارضة الخشبية ولكن هذا الجانب فى الزاوية اليمنى من فرس النبى الذى يتحرك وهو فاقد العقل . إن مشكلتها الآن هى هذه الزاوية ، كيف يمكنها أن تلف حولها بسرعة كافية تمكنها من ضرب فرس النبى قبل أن يتنبأ بوجودها ، وتحافظ على قبضتها على العامود الخشبى . وتحتها نمر ، نمر ،. يحترق بدرجة أضعف يواصل مشية الخنافس الملكية وفجأة يحط على جانبه الجميل برص الحائط وفرس النبى . يفزع ، ليو يقفز الى الخلف طائرا ولا يحس برص الحاط بالراحة على مستوى الأرضية ، لكنه يعود فى الحال

يقفز فوق الحائط تاركا خلفه باراشوط أخضر سيء الإضاءة من فرس النبى الذى تم القبض عليه ، يتأكد ليو من مسافة أمنة ، برغم هذا يمشى فى حركات نحو هذه الفريسة المشلولة ويمشى يتبختر ، ويقرقش يقرقش ثم يمصمص شفتيه .

يعمل جامعوا اللقاطات بلا انقطاع . بق ، نمل طائر، صراصير ، خنافس ميتة وأخرى فى حالة احتضار أغفلها القرصان تجرها جيوش النمل لا تكل ولا تتعب الى كوات تحت الأرض . يمشون فوق ضفاف عالية من الرمل الناعم ، يقودهم جنود ذو رؤوس كبيرة .وهناك كومة من نفايات الأجنحة ترقد خارج الطرقات المؤدية الى جحورهم ، ترتفع قليلا مع حركة النسيم كأشباح تراقب ممرات العالم السفلى . تتضاءل رفرفة الأجنحة حول المصابيح المضاءة . غارقة فى جردل الحريق ، يمتصها أبراص الجدران ، إزدردها القرصان ميتة بعد دورانها فى تدريبات غير معقولة. إن قوة الطيران مصحوبة بضجيج أثارتها نداءات المطر وهى تتضاءل حتى أخر حشرة وحيدة تزحف على المصباح . وأخيرا يتم حمل اخر جثة على أكتاف غير مرئية نحو مخازن لانراها ، جناح واحد سقط على مدخل الكومة من أجل مشروعات بناء فيما بعد .

شئ واحد، هاموشة مخالفة ابتعدت بعيدا عن إحتفال الضوء .هناك وجود لكائن سمين ، راض على الحائط ، لقد ظل فى هذه البقعة ، دون أن يهتم بالضجيج الذى يجرى من حولة . عينا البرص مقنعة أخيرا ، يمتد نتوء معدته السفلى فوق العارضة الخشبية فى تخمة ظاهرة . لقد انتهت جولة المطر الأول الليلية .

++

الفصل السابع والثلاثون

النهار يأتى لنا برجل ساخر لانهاية لنكته ،هو ذكر السلحفاة.
راس كبيرالحجم مصنوع من عجينة الأوراق فى لون برتقالى صناعىواضح . يغطيه ثوب شديد الزرقة حتى الذيل بطرفه لون برتقالى باهت .وهوغير محترم فى الصيد ، يفتقد حتى عظمة القرصان الساقطة .

أنه يجرى فى عماه وراء ذبابة لكى يحيط بها من كل ناحية . ثم يشتبك فى عملية مغازلة لآنثى مغناجة. إنها تعيره وتقوده الى الامام بذيلها المرفوع وفتحتها التى تخرج البخار ، تعرض مؤخرتها فى مزيج من التوقع والحذر. إنه ينوى العودة إليها مرة ثانية لكنفى نفس اللحظة مرت من خلفه فراشة على بعد ميال فوق راسه. يهز راسه جانبا ثم الى الجانب الاخر، يدحرج عينا بعد أخرى على أمل ظاهرفى الحصول على لقمة سائغة لم تكن أبدا بعيدة عن متناول يده.

إنهم يمارسون الجماع بصورة لا تنقطع ، حتى أصبح القبو وكرا شهوانيا لممارسة الجنس ، سوف يصبح حرما للسلحفاه ايضا لكن أمبروزو ، عندما تصيبه روح الملل ، يضربهم بالحجارة والعصى . احيانا يذبح ثلاثة أو أربعة فى ظهيرة واحدة ، إننى أساله. لا . إنه لا يكره السلاحف. انه يقوم بتكويم الاجسام ويشير فى فخر الى حصيلة اليوم .

ذو الراس البرتقالية يقوم بتقديم محاكاته الساخرة للبرص . إنه يقطع شجرة الليمون منبطحا على الفرع ، أسلوب البرص يدمر الكمين القصير بالإندفاع الى الفرع التالى ليبقى فى توازن مع الفراشة التى استمرت تحوم بعيدا حتى لا يصل إليها أحد ، فهو يخفى راسه تحت بعض الاوراق ، يعى جيدا كل حيل التخفى . نسى بطريقة طبيعية جلده الأزرق المغطى بالأصداف والبرتقالة البشعة فى ذيله . لقد اختفت الفراشة منذ وقت طويل . وظل ذو الرأس البرتقالى منتظرا ، رغم أنه فى حالة تخفى كامل لا يظهر، مستمرا فى الانتظار.

أخيرا نزل الى أسفل ليجد العزاء فى عيدان الخس الجديدة التى يقرضها بنوع من الاستمتاع العصبى. وحينئذ يخطىء فيظن أن البرتقالة التى فى وسط الخضرة من بعيد زهرة؟. تنزل الفراشة على بعد بوصة فقط ، يتحقق من خطأه فيجمع قواه استعدادا للتراجع . لقد فات الأوان . هناك هوائى على طرف الجناح . يمتدح ذو الرأس البرتقالى هذه المنحة الربانية بصوت مسموع ، وهى بالتاكيد ليست من ثمار مهارتة او مكره، فهو يندفع بعصبية فى جميع الاتجاهات. يلتقط قطعة من جناح ساقط، ثم يعود الى الخس .

هناك أسباب فى الفن الشعبى ، لماذا تهز السلحفاة راسها. أو فرس النبى . دون شك مهما كان المرض الذى ترثه السلحفاة من جدودها ، فاننى أمل أن تخرج منها يوما ما عند مقابلة سلحفاة عظيمة . المشهد الأن عبارة عن تجمع قبلى لكبار السن المنحرفين يتمشون أو ينشرون قشورهم الصدفية فى الشمس يحكون الجزء السفلى الحساس من معدتهم فى الحافة الخشنة من الحائط . يهزون رؤوس القرع المهروس فتتوازن فى سكرها كما لو كان يطفو فى مشهد فخم يسلبه مكانه بين كبار المفترسين . وعندما يقوم بضبطهما فهو ليس إلا طفل يلعب الإستغماية .

معذلك ففوق قمم الجدار ، نجد ذا الرأس البرتقالية عبارة عن وحش فى تحولات شكلية ضخمة. تحول وانتقل عائدا الى المملكة الخفية بين الأشواك الحارة لشظايا الزجاج فى كل نغمات الأكوامارين ، العنبر ،والأخضر ، وحش برمائى يسحب راسه الحديدية المسطحة الى الخلف فيصل بسهولة الى أعلى قمم الأشجار. عندما يرفع ساقيه الأماميتين ليقوم بعملية مسح للسموات والمستنقعات . هذه الرؤوس المخروطية تمتزج مع أرض الوحش المكعبة ، منظر طبيعى ذى مدرجات خضراء فى تتويعات الصبار المستقيمة الطرف ،عمليات نماء او تنمية لها ألوان زاهية صافية تقذف النقاط المسننة من أجل تكوين خط سمائى للتحذير . وتد مفاجئ من البرتقال والصلب الأزرق يصنع مجارى ذات زوايا تميل الى ما بين أضلاع المنشورالمخرومة بكثافة من ناطحه السحاب هذه تاتى موسيقى القبو وهى عبارة عن دندنة شرقية تخرج من انابيب مجوفة كلما اصطدمت صدفات السلحفاه بلوحة المفاتيح الزجاجية بسرعة عالية. عندما تقع مبارزة بين الوحوش – جزء يضرب ، وجزء يهرب ويطارد وتظل الموسيقى مستمرة طويلا ، موسيقى حقيقية لأجواء تتحرك عبر فيلترات شمسية تقرر النغمات الثرية الجميلة لتحقيق التناغم كلما اصطدمت الصدفات بالمفاتيح المتزامنة فى صراع بدائى.

لقد هبطت الشمس تحت مستوى الجدار ، وأخذت تنزل خارج دائرة الرؤية . أخخذت اشعتها الصامتة تتناغم الأن مع الكونشرتو ، وهى سيمفونية ساعة الشفق عند السحالى العملاقة ،إنه فجر العصرالأول الجليدى .

إننى جالس فوق عالم ميت . سماء نحاسية حمراء بأعماقها الرمادية الزرقاء تعكس المستنقعات الأزلية البعيدة المختفية . لقد بدأ سكان العصر الجليدى نموهم الخفى ، قطع الثلج الضخمة تنبت من جانب الوادى ، جيش بارد من الأقماع المخروطية تتدافع دائما الى الخارج فى مزايدة لا ترحم من اجل الحياة التى تتوازن نحو حالة سكون نهائى . عنبر . أخضر ، أكواماريان ، ومنشورات الطيف صفراء باهتة ، إنهم يحملون الشمس التى تحتضر ، يضعونها حتى تدمى عبر ألاف المنشورات العاكسة .

صياد ، يدخل أمبروزو الذى يمثل المفارقة الزمنية ، يزحف على الحائط لقد اندفعت السحالى الى الآمان فى زخات الجليد ، حيث بعرفون أنه لا يستطيع أن يتعقبهم ، إنهم لا يفهمونه ولكنهم يخافون الإنسان . يرتفع نحيب رقيق من طيرانهم وبشكل غريب ، سلسلة من النغمات والصفير من أنابيب أورج رائقة صافية . يتصدى الإنسان لفحصها ، وهى تقفز الى أعلى وتضرب بعكاز ناعم ، كثيرا من قطع الجليد التى إنفصلت وسقطت فى أعماق الوادى محدثة طنطنة حزينة . أمبروزو الأن متوحش إنه يجرى الى أعلى وأسفل الجدران يدفعها الى الأمام والى الخلف على طول الفقريات الجليدية . يقوم زميلآخرمن الصيادين بقيادتهم الى الخلف حين يهربون الى الجانب الآخر بحثا عن ملجأ . تتابع سريع للنغمات ، حشرجة طبلة ، هرولة عصبية للآصداف نحو الشمس . يخطىء أمبروزو إحدى الفجوات فى الزجاج ، فيطير حجر الصوان ،عاليا نحو السماء فينفجر صوت نشاز مميت فى نبضات لها لون جديد ، تفكك لونى يزغلل العيون ويصم الأذان ، يهطل الى أسفل فى شذرات رطبة لأخر دقات الشمس .

ألعازر يقوم من الأموات ، يدخل القبو الداخلى وينتظر دحرجة الحجر الى مكانه بالليل .

الفصل الثامن والثلاثون

لابد أن المباريات التى لعبتها بالرياضيات قد ذهبت بعيدا . لقد انتقلت الى عمليات عينية كبيرة وإنغمست فى بعض المبادىء التى تتعدى المعقول الى مناطق غير صحية . أما ذكرياتى عن هذه المرحلة فهى غائمة ومخيفة قليلا .

من مجرد الإنبهار بالزمن كمعيار ، كوحش يحمل عبئا من الرحم والقبر. أخذ الوقت ينسج انواعا من الفنتازيا حول أرقام ورموز تمريناتى الجبرية . لقد بدأت ،على ما أظن ، بفكرة أن الزمن يجب ان يكون مرتبطا عضويا برفيقه فى الأبدية وهو المكان : إن هذا يتطلب فقط إكتشاف المبدأ الرياضى الصحيح . أن يكون هذا فى مجال الإيجاز الإنسانى فهو أمر ليس محل إختلاف ، لقد كان فى الحقيقة مجرد سؤال عن الزمن قبل الإكتشاف ، وكان الزمن سلعة كنت موهوبا فيها. لا أستطيع للآسف أن أتذكر معادلة اينشتين الخاصة بنظرية النسبية لكننى واسيت نفسى بانها لم تتناول سوى جانب ضيق من جوانب الزمن . من وجهة نظر استنفاد الزمن فتلك كانت مسألة مثالية ، لكونها لا يوجد لها حل ، لأن العقل الذى اصابتة عدوى الإنحياز نحو التركيز الخاص المستمر ، فإن فكرة ربط الزمان بالمكان رياضيا ، فى نطاق فكرة الأبدية (اللآنهائية) كانت فنتازيا شديدة الخطورة .

لقد كنت دائما على حافة إنجاز هذا الإكتشاف . ساعات من النوم كانت تضيع يتم فيها إستهلاك الزمن بطريقة صحيحة جدا . ومازلت حتى الآن غير متاكد كيف وصلت الى النهاية ، فالشخبطة العصبية للوسواس بالليل ، وزيادة الحسابات المهملة بالنهار ،و الطيران المعجزى للزمن ، هو محو للواقع ، للمحيط الواقعى الملموس والبيئة كلها من حوله ، عدم التسامح فى تناول الطعام وفقدان الوعى الخاص بشخصى أنا . هذا الخداع التصورى حفر حفراً عميقة وواسعة داخل عقلى المخصب بالسماد البلدى (بذبل الطيور والحشرات) تعطى براعمة سيقانا مسمومة تتفجر بين وقت واخر ، وتنشر دخانا حارقا فى مسام عقلى .

لقد ا نتهت على أى حال ، وفى يوم من الأيام ، بعد وقت طويل أخذت ابحث فى بعض المخابئ الخاصة بى عن بعض ابيات الشعر المفقودة فاكتشفت مساحات كبيرة من ورق التواليت ، وعلب السجائر وسطح اخر ثمين مغطى بمعادلات لم أستطع فهمها ، رموز لم أتمكن من نسبتها الى أى قيمة كمية ، دون أن أتذكر فى أى وقت وكيف على وجة الدقة جاءت الى وكتبتها ، فى أى مرحلة من مراحل التسكع ، على الأقل متى او كيف خبأتها . وبفعل الخوف والفزع مزقت كثيرا من القطع الخطيرة وبدأت أفرض رقابة واعية على أعمالى ، وأفكارى ، ونبضاتى ، فاحصا الحراس أيضا لأكتشف أى علاقة أو تغيير فى طريقة مراقبتهم لى .

الفصل التاسع والثلاثون

أربع مخلوقات داخلية ، ميكروبات لكنها تملك موهبة الأسئلة . عن ما ذا تبحث ؟ او الى أى شئ تسعى ؟ عقلى عبارة عن لفافة من القطن والصوف الواعى ، يمتص كل شئ ، ولايخلق شيئا . وفى حالة الموت التى تسكن القبو أجلس بلا حركة فى الشمس وانتظر .

لقد إختفى الباحثون ، لقد جاءوا يسالون ، يتجسسون ويستقصون ، بإصرار.أنت تريد الطائر الذى طار .

أنا لا يعوزنى شئ . لا أبحث عن شئ . لا أرغب فى شئ .

صيحات ، شديدة . تلطف ومخادعة . هذه الميكروبات المثابرة. وقصاصات هامة من الورق ترفرف فى أيديهم .

لقد تضاءلوا حتى جاء اخيرا المشرف الكبير. هل تظنون أنكم تلعبون بنزاهة ؟ أنكم تقومون بحماية أحد الأشخاص ولكن هل فكرتم فيمن تدمرونهم فى هذ ه العملية . إن لديكم مراسل . نحن نعرف أنه واحد من .....

الملائكة الحراس يحملون عصى مشتعلة ؟ حتى بوابات الجحيم يمكن الوصول اليها . لقد طار الطائر فهل سيستريح الآن ؟ هل يمكن أن تضعوا ملحا على ذيله ؟

لقد كنت عطوفا معك . لقد إنحنيت عليك لكى أجعل هذا المكان أكثر حيوية ؟ لقد اشفقت عليك فى محنتك وقدمت لك مزايا ... مزايا! أخيرا تجاوزالحدود . غضبى مقدس ولكننى أنظر إليه باهتمام . وأتذكره . الشخص الوحيد الجدير ، ليس الضابط الكبير ، التى يبتسم ابتسامة خالية من كل معنى ، إننى أنصت :

"لقد كافأت ثقتى بالخيانة . أنت تخبرنى الأن إننى أخطأت لأننى كنت أتعامل بإنسانية . أنت تعرف الحالة التى وجدتك عليها هنا . شعرت أنك لايجب أن تخضع لهذه الظروف التى لا تناسب أى كائن بشرى . لقد خففتها حيثما استطعت . لم أفعل شيئا سوى الإستجوابات . يمكننى ان أريك الملف ، إنه ملئ بالإستفسارات . لا أعرف أى جواسيس هنا أو من الذى نشر الإشاعات حول حرية التصرف التى أعطيتها لك منذ توليت وظيفتى هنا . لقد جاءت لنا جماعة من الباحثين من المركز الرئيسى ، جاءوا بقصص

إننى كنت اسمح لك بالتجول بين النزلاء الآخرين ، حتى إنك كنت تتولى فصولا وتقوم بتدريس فلسفات هدامة . لقد طلبت منهم ان يتجولوا بحرية فى العنابر ويسألوا جميع الحراس . دعوتهم للذهاب مباشرة ، دون أن يرافقهم أحد الى حيثما كنت توجد ليحكموا بأنفسهم . لقد رفضوا لقد اطهدونى بسبب معاملتى لك . حذرونى فى اخر خطاب ، بألا أسمح لمشاعرى الطيبة بأن تتغلب على إحساسى بالواجب . تمنيت أن أحضر لك هذا الخطاب لكننى لم أسمح له بأن يتدخل فى مفهومى لما يجب ان تكون عليه اللياقة . فأنت إنسان بل انت إنسان- ذكى . يجب أن تعامل كانسان . حسنا إذن ، إننى أتوسل اليك كإنسان ذكى ، هل من الأنصاف لى أن تكون حمايتى لإنسان خان وظيفته عمدا أن تحطم حياتى العملية وأن تضعنى فى مأزق ؟ تقر أنك محارب من أجل العدالة. وانا أسالك؟ هل ذلك عدل ؟"

سوفسطائى ! اللعنه على الموظفين الفسطائيين . عليك اللعنة !هذا الجحيم هوميزة ؟

لقد اتصرف ، وهو فى حالة انفعال شديدة . فى هذه الحالة الجديدة قام مانح القوانين بامتحان مطالب العدالة . ينبغى على أن أضع مجموعة جديدة من االتوصيات ، ولدى الوقت. فالذى يظن أن الوقت ضاغية يجب عليه ان يتعلم الصبر – مثلى .

لكنه عاد سريعا جدا. هذا ما لا يستطيع بلوتو أن يفهمه . بدا شديد القلق، يرفرف كدجاجة . ما هى تلك المشكلة الضخمة التى ضمها فى الكتالوج وهو يلهث ؟ لقد ازداد نموه الانسانى اكثر فى كل زيارة وقد بدأ ذلك يترك انطباعا . لأن المشرف الكبير كان شخصية طاهرة لا تشوبها شائبة فى خارج كما فى داخل عقله الشديد الملاحظة . ان زراير سترتة مطعمة بالنحاس ، علاماتة تلمع ، حزامه ، كاب الرأس يبدو ملونا بالمانيكير عن طريق زوج من الخدم ، وأن مسكه العصى متعة رجل تقى القلب يحب القرآن .

والأن قد عاد بدون الكاب والأزرار التى لم تغلق ، وارتخت البدلة عليه . وبدا أن بنطلونه يحتاج الى حزام أو حمالة . ليس فى يده عصا وحذاءه . المدبب يغطية التراب يتحرك بخطوات ثقيلة من باب الى باب ، وهذا مؤكد ، يبان من مكتب من ؟ واخيرا ، كان غير حليق الذقن ، الحلاقة

على وجهه كانت منذ يومين على الأقل وفجأة ظهر ارتخاء زيه الرسمى – إن المشرف الكبيرقد فقد كثيرا من وزنه !

لقد جئت لآسألك إن كنت قد غيرت رأيك. هل ستقدم المعلومات التى طلبتها منك ؟ .

لقد نزل بلوتو الى الأرض ، لكى يتأمل حال الانسان . انسان يصرخ طلبا للنجاة ، لكن يسألونه فى المقابل إدانة إنسان أخر . فغر فاه واستغرب ، ليعبش للمرة الثانية صدمة وورعب المحنة الإنسانية التى أعيشها . حتى فى هذا المكان الجهنمى . محروما من الهوية ، من الاختيار ، عاجز ومقيد بالسلاسل وممنوع من ممارسة النشاط الانسانى ، ليطلب منى ان أختار بين مصيرين . من يجرؤ على فرض هذا الدين الاخلاقى ؟ ثانية فى دورة للبحث عن أمان انسانى من الوحوش المفترسة .الخيانة بديل عن تحمل التضحية . الأقل من أجل الأكبر . الذى لا صوت له من أجل الوظيفة . ليس هناك تقدير أو حكم ، لا توجد إدانة حيث الخوف مفرغ وحقيقى فجأة بدا لى أن هذه المشكلة صغيرة ، صغيرة الى حد الآزدراء وتحتاج فقط الى خيال دنيوى . . لماذا . لأنه مازال الناس القدامى هم الذين يضايقوننا ، نفس الطغيان .

قال أنا لا أفهمك . لكن من الأفضل أن أخبرك أن هؤلاء الناس مقتنعين الأن إننى كنت أهرب الأوراق من اجلك . فى الحقيقة هم يبحثون بإستماتة عن الأصول لأنهم يريدون أن يراجعوها إذا كانت الورقة قد جاءت من مكتبى . عرضت عليهم كل الأوراق التى أخذناها منك ، وزجاجة حبر الصويا أو كيفما نسميها .لكنهم مازالوا يظنون اننى كنت أحتج على كل أعمال التهريب .إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا كيف يمكنك إقتحام الترتيبات الأمنية . إننى أخبرك ، هناك لحظات أوشك أن أقتنع فيها بأنهم على حق لآننى لا أعرف كيف فعلت أنت ذلك إنهم يفتشون الحراس قبل وبعد مجيئهم للعمل . من الذى ساعدهم يا مستر شوينكا . فقط أخبرنى من هو وأعدك أنه لن يمسه أذى .

صوت غريب سحقته حينئذ – ماذا كان ذلك ؟ صوت يتلاشى من بعيد ، حافز نحو إعاده تعريف الإنسانية .

مستر شوينكا ؟ نعم ، لقد نسيت . اننى لازلت شوينكا من الجنس الإنسانى .

" حسنا أمهلنى بعض الوقت لأفكر فى الأمر "

رفع يديه الى أعلى " لكن ما الذى لديك لتفكر فيه ؟ هؤلاء الناس مازالوا ورائى ....".

"أرجوك ! رغم كل شئ فقد وقفنا عند هذا الأمر بضعة أيام

وأنا اطلب فقط ساعتين ....."

" كم من الوقت إذن ؟ كم من الوقت ؟ "

" ساعتان "

" حسنا . الساعة الآن الحاديه عشرة . سوف أكون هنا الساعة الواحدة . وسوف أحضر معى رجال الأمن حتى يسمعوا الحكاية بأذانهم . لا أريد أن أسمعها بنفسى ثم أكتب تقريرا . لأنهم قادرون على أن يتهموننى بأننى اخطط معك . سوف اخبرهم فقط أنك طلبت منى الحضور الساعة الواحدة لكى تعترف بكل شئ ".

" أنا لم أقل شيئا عن الاعتراف ".

" مستر شوينكا . دعنى أقول شيئا . إننى آمل ".

أرجو مخلصا إننى عندما يتم حجزى فى الزنزانه التاليه لزنزانتك . نعم سوف اطلب ذلك بصفة خاصة . لآننى اريدك أن ترانى كل يوم وأن تجبر على التفكير فيما فعلت بى. سوف أطلب من أولئك الرجال ان يرافقونى الى هنا فى الحال . فقط أرجو أن يتغلب إحساسك بالعدالة .

عند البوابة ، حيث يتجمع الضجيج – فى مثل حالات الأزمات حيث لايجرؤ أى حارس غير العاملين أن يدخل فى القبو ، اتصلت المفارقات الزمنية من خلال صلصلة الباب ولخصت الموقف على أنه إنتقام إلهى من المراقب العام لتدميره المحصول ، ناسيا أو ربما لم يستطع ان يتصور أن هدم الأساسيات كان منسوبا لآول علامة خرق لجدران السجن

. سحقت النغمة الإنسانية الصغيرة للتوقع ، الآثارة التى تحدث لسقوط رجل آخر .

لقد حدث. والأكثر من ذلك ، هو إننى أحسست وليس لدى أدنى شك بتأثير رسائلى ، عالم الاحياء . لقد حان الوقت لوضع نهاية لفترة صيامى . لقد انتهى القتال ، النضال من أجل حب انسانى . لقد ناديت على الحارس بعيدا عن الثرثرة عند البوابة وأرسلت كلمه للطباخ .

كلمة بسيطة بصورة عبثية : مجرد أن الإنسانية الحنونة إخترقت حالة إنفصالى الطويلة ، طفيليات اللامبالاة التى إنتشرت وغطت جلد المشاعر الى درجة تشويه الوعى ولو للحظة . لقد ذهب رجل القانون لينام وخرج الثعلب ، أندهشت كيف أمكن لكلاب الظلمة هذه أن تخلق وتتابع مهنة لا داعى لوجودها . لقد قام تعلب السجن وشم الهواء ، وهجر وكره الشتوى .

لقد جاءوا سريعا دفعة واحدة ، ضابطان من الأمن ، والمراقب العام ورئيس الحرس ، وعسكرى ومعه قلة من الحراس الصغار جاءوا للشهادة. كان وجه ضابط الأمن مشرقا.

" حسنا ، مستر شوينكا ، إننى مسرور أنك قررت أن تتعاون . أؤكد لك أن الرجل سيأخذ انذارا فقط ." قاطعته وأعلنت الآتى : أحد رجال دورية ليلية هرب المذكرة لى .

خرجت منه تنهيدة مسموعة ، نعم حرفيا ، رنت وسط الجمع .

" هل يمكن أن تخبرنا باسمه ؟ "

" لا أعرفة " .

" متى ؟ هل تذكر ."

" لا "

"على وجه التقريب , من ثلاثة أسابيع ؟ أربعة ؟ خمسة ؟ "

"إن الانسان يفقد الإحساس بالزمن هنا . فبعد قضاء فترة لا يكاد المرء أن يميز بين أسبوع أوشهر ".

يالهم من سذج ّ! هل ظنوا إننى سوف أمسك متلبسا بهذا الشخص ؟

" هل يمكن أن تصفه لنا ؟"

" صعب .. كان ذلك بعد موعد الإغلاق ، لم أستطع أن أراه رؤية كاملة ".

" كيف تعارفتم ؟ "

بالكلام . أعتاد أن يسألنى هل أنا بخير وهكذا . وحوالى اليوم الثالث ادهشنى أنه أثبت أنه كان مقيد فى هذه الناحية .كان صوته رقيقا "

" هل كان شابا أم هرما ؟ "

" من الصعب ان أقول ذلك ، من النوع المتوسط ، على ما أرى "

" هل عليك أن تصف وجهه ؟ لابد أنك رأيت وجهه فوق هذا البرواز "

"لا يوجد ضوء كافى فى الممر كما تعرف . وكان دائما يرتدى غطاء الرأس، وهذا يلقى ظلا على وجهه . اذا نظرت الى مصباح النور ...."

" لكن من المؤكد أنك عرفته معرفة جيدة جدا . فانت لا تستطيع أن تثق فى خطابات من رجل تقابلت معه . لا بد أنك تكلمت كثيرا معه . لأبد انه شد انتباهك كانسان يمكن الإعتماد عليه ، حقيقة ، يا مستر شوينكا ، إنك لاتتوقع ان نصدق أنك تعطى رسائل لشخص غريب تماما . "

" لماذا لا ، ليس فيما كتبتة شئ خطير . مجرد رغبة انسانية فى الاتصال بالناس فى العالم الخارجى . لقد خاطرت ، فربما شخص مزروع للإيقاع بى .

" لكنك رأيت جزءا من وجهه . إطار غامض على الأقل أو ه ، رأيته ".

من أى قبيلة هو ؟ "

" تكلمنا لغة انجليزية مكسرة ؟

" لكن بالتأكيد أنت....."

" لست قبليا . قبيلة الشخص لا تهمنى "

عقد الجستابو والسجن جلسة تشاور قصيرة .

الاقتراح التالى يمكن توقع مجيئة من شخص أحمق مخدر .

" حسنا . إفرض أننا نظمنا استعراض للتعرف ،هل يمكنك ان تتعرف عليه ؟ "

" بسهولة ..." لقد قضيت اللحظة أمضغ أستمتع بها خارج كل الحدود.فأنا لم أجد ارصة منذ وقت طويل لأسجل نصرا ضد الجيستابو. لذلك تركت الإثارة تخمد ثم أضفت" إذا استطعتم أن ترتبوا لى أولا زيارة لطبيب العيون. لقد طلبت علاجا لعينى على مدى عام ز وألان .

والأن أنا لا استطيع أن أتعرف على والدى . "

" مستر شوينكا .... ! "

" اسمعنى الآن . انت لا تريدنى ان أضع يدى على رجل برئ ؟

أليس كذلك؟ . إسأل المراقب . انه يشاركنى الرأى فيما يتصل بالعدالة .

الفصل الأربعون

كيف يمكننى ان أصف ورقه كتابة بيضاء صافية ؟ فضاء من الورق ، لم يمسة او يشوبة شئ بغير كرمشة أو طوى ؟ ماذا أسمى ما يعادله من الإحساس الذى يمكن إستيعابه كاملا ؟ ينبوع ؟ راحه حين يضيع الأمل ويلتصق اللسان بجذورة ؟ كالنبيذ ؟ لا ليس النبيذ . لا يمكن مقارنه النبيذ حتى بعد سنوات الحرمان يشم رائحة صفحة بيضاء من الورق الكواركو وتحسسها .

شأنها شأن الابن الأصغر الذى يحبه الأب حبا جما ، يحب ان يراه فى كتابات جميلة وحلقات فضية صغيرة ، لشقيقة صغيرة أرتدت أفضل حللها استعدادا لتناول العشاء الربانى – رقيقه القوام غير منيعه ، فى قداسة السيدة العذراء أم المسيح ومحبوبة جدا . لم تكن صفحة واحدة فقط كانت مئات . وهناك جلست ، مضطر على ترقيمهم واحدة بعد الأخرى 50، 51، 52 ، 53 ، 54، .....103 ، 104 ، 105 ، .....207 ، 208 ، 209 ... شئ مؤذى . لقد كتبت بأصغر حرف فى ركن الورقة . كان شئ يتسم بالغباء . هذه الفكرة الخاصه بوضع الارقام كان تؤكد اننى لم استخدم هذا الورق فى رسائل غير قانونية . كان هناك ضابط يقف فوق راسى وأنا اقوم بهذه الشغلانة الإجرامية الفلسفية . من صفحة 219 رجعت الصفحة 120 ، زلة قد تبدو طبيعيه جدا لو إكتشفتها لكنها لم تكتشف . فى النهاية حصلنا على رقم 375 . لقد طلبت منه أن ينقل هذا الرقم للمراقب الكبير لكن الرقم المكتوب على الباكو هو رقم 500 قلت ، إننى لم ارغب فى ذكر ذلك حتى قمنا بالمراجعة ، لكن ألا تلاحظ ان الرزمة كانت مقطوعة ؟ . لم يكد يتصرف حتى أخذت فى فرز القطع التى رقمت مرتين ، لم أكن فى عجله من أمرى . فالرقم كان مقبولا.

لكننى لم أصف بعد جمال ورقه الكوارتو الفضيه . كشاطئ مترامى الأطراف بعد أيام من تحطم السفينة الذى لم ينجو منها سوى شخص واحد ؟ ربما ، لكن حنين هذا الناجى من الغرق لابد أن يستمر وقتا طويلا حتى يخلق الشكوك فى عقل هذا البائس المنتمى للإنسانيه . كان عليه ان يرتد الى أصولة الأميبية للأنسان ، ليعطى نفسة أحد التعريفات المختلفة الى تطرأ على الكائنات البحرية التى يقذفها المحيط الى الشاطئ ، مجرد أكتوبلازم يحتاج الى إعادة تأكيد أثره على الرمال . نعم ، نعم ، أظن إننا

نقترب من استعارة وافية ، لكن رائحة هذه الرزمة الورقية النقية لا ترتبط بـأى من تجربة ناضجة ، أنها تنتمى فقط للطفولة – رائحة الخبز البكر فى المخبز، حلاوة كومة من العشب بعد المطر ، أوراق الليمون والجدة تفتح علبة النشوق الخاصه بها . كأن الشعور هو أول تذوق لشفاة مراهقة .

كان هناك ورق فقط .،كانت هناك أقلام ملونة وملف ، صندوق ملفات من فضلك ّ! بد ل الصندوق صندوقين . هناك ورق كربون !كربون يعمل نسخ من الصفحات انتظر لحظة ، اذا جاء الكربون يمكننى – لا أجرؤ على تصور ذلك – هل يعد ذلك تخلفا كثيرا ؟ .

لقد أنهى ذلك عملى . أله كاتبه ! وفى الحال أعطونى الإذن لكنها تريد أى عمل اريدة .

أله كاتبه . لقد نسيت عدد المرات التى قلت فيها اريد آله كاتبة ، والكتب . والجرايد ، كتب رائحة النعناع المنعشة ، كان يبدو انها جاءت من فرن حول الركن . كتب ! لقد رأيت هذه الاشياء – كتب ! لكن السجين ليس انسانا . لأن فعل كونك سجين ليس فى حد ذاته عملية تحول لكنه تحول فورى . إنه لم يعد إنسانا ، أنه يقترب ، على ما أظن من اختراع جديد ، الرادار البشرى ، إنه له عيون لا تنتمى له ، سطح جسد يصير كتلة من العيون . بينما كان المشرف الكبير يشغل نفسه يتذكر قائمة الكتب والجرائد التى سوف احملها الى زنزانتى ، كنت أحول الجريدتين ،أو الثلاثة أو الاربعة الى جريدة واحدة . لقد تذكرنا الإسم لكن ثلاثة صحف وثلاثة كتب الى الكومة . كان بوليفيموس يقوم بالمساعدة ومن ثم لم تكن العملية صعبة ، فى الوقع الذى كانوا ينشغلون فيه بأمر ملابسى ، حصلت على عددة أقلام لم تقع تحت نظرهم .

لقد جاءت زوجتى من المركز الرئيسى لفرع "E" لقسم لم يحدد مدة معينة لزيارتها ولم يذكر عدد الزيارات .

لقد فرض عليها أن تقضى الليل فى كادونا لتراقب صحتى وكل الشكاوى الأخرى المعلنة . لم أكن أريد رؤيتها مرة ثانية السلام فى السجن يتطلب

العزلة التى لا تحتمل -اختراقات من عالم الاحياء . طلبت منها أن تذهب ولا تعود مرة أخرى – لكنى طلبت زوجا من الشباشب – وكان عليها أن تحضر هذه اأاشياء فى اليوم التالى وتتركها مع المراقب العام .

ثم إفترقنا .

بعد خروجها من السجن بساعة واحدة . جاءت كتيبة من العسكر وكنست كل شئ ، اعطته لى . كل شئ ! لقد توقعت ذلك . لم أستطع أن اجد تفسيرا لذلك . ذلك ما كان يمكن ان نجده فى عقول هذا النوع من شياطين التعذيب ،بعد البقاء طويلا معهم. يخططون بخسة وحقارة ، لكونهم محطمين نفسيا ولو جزئيا يأكلهم الشر فى داخلهم ، هذا ما تستطيع ان تتوقعه منهم . رغم قوة الاغراء فاننى لم أفتح الراديو . لقد قام الحارس بالدورية ومشى مئات المرات ، معطيا لمحات غير ذكية حول برنامجه المفضل ، ما عسى أن يكون فى تلك اللحظة . بهذه المحطة . لقد تجاهلت ذلك الأحمق . فأصعب الأمور هو أن تتجاهل رغباتى ، أن تمنعنى من ضبط نفسى مع بعض نغمات الموسيقى التى يتعطش كيانى لها منذ فترة طويلة بعاطفة جديدة. لم أكن لمست الراديو عندما جاءوا . لقد سمعت وقع أقدام على البعد وفهمت ماذا تعنى . لقد حصلت على سر حول بعض المواد المسجلة بداخل الصمت . لقد مزقتها . وعرفت أيضا أن هذا لن يكون تفتيشا دقيقا ، إنهم قادمون لإزالة كل هذه المواد التى سمح بها مؤخرا .الحمار لا يساوره شك لقد حفظتهم صدفة تحت المرتبة .

لقد سمحت لنفسى بخطبة طويلة رفضت فيها الغش وطلبت ان أرى المراقب الكبير . لقد ظهر المراقب الكبير على حقيقته . نظر أحدهم اليه أما أنا فقد أشفقت على دوره فى تنفيذ التعليمات .

ذلك المصدر الغامض لكل التعليمات المؤذية ! لكننى لا أستطيع ان اتجاوز الحاسة السادسة التى اكتشفت هذه الانذارات فى مكتبه . لقد سألته ، هل كانت لديك تلك التعليمات حين كانت زوجتى هنا ؟. حين كنت معها فى هذا المكتب ؟

اعترف هو بذلك .

سألته ، هل كان ذلك ضمن التعليمات ، أن تستغفلنى ؟ خريطة المواد هذه ، قائمة اسماء المواد ،كتب ، ورق ، جرائد هل كان هذا جزء من تعليمات المركز الرئيسى ؟ أكان من الواجب عليك أن تحى أمالى ثم تحطمها وتعيدنى الى الحياة النباتية؟

هل كان هذا الإستعراض مرسوم بدقه للعالم الخارجى فقط ؟

أخذ يحتج ...

لقد عرضت أنت مسرحية هزلية! أردت أن تترك زوجتى مقتنعة بأننى الأن أتلقى معاملة إنسانية على يديك . لقد قدمت عرضا إستمر حوالى ساعتين . لقد تأكدت انها رأتنى اعود الى الزنزانة محملا بالكتب والورق . بل ومعى راديو . ثم جاء المغفلون من اتباعك هنا وكنسوا كل شئ . أريد أن أعرف يا معلام A إذا كان هذه جزءا من تعليماتك .

فأجأنى المراقب الكبير وصدمنى . تلك الحيلة كانت كلها من بنات أفكاره . لقد تسلم فى البداية مذكرة من فرع E ومن مكتبه فى لاجوس الرئيسى أن زوجتى قادمه لزيارتى وسوف تاتى لى بهذه الأشياء ، لكن خطابا أخر جاءه من مكتبه الرئيسى فى صبيحة يوم الزيارة ، تبلغه أنه لم يتم أى تغيير فى وضعى .

أخذته الحيرة فماذا يفعل – لقد قرر ان يفعل شيئا نيابة عن رؤسائه – موظف مدنى ملتزم بالواجب . معلام A أصبح شديد الحساسية بسبب الشهرة السيئة الأخيرة التى أعطيت لمكتبه بسبب مسألتى . هذا الولاء لمصلحته فرض عليه ، بكل الوسائل ، ترك زوجتى تذهب وهى شاعرة بوضعى الجديد فى الحجز . أوامر من المركز الرئيسى كانت تطلب منه ألا يسمح بالمقابلة . لكن لحسن الحظ هنا . أنه كان لديه نوعين متناقضين من التعليمات . أننى كنت محتجزا يحق للبوليس أن يصل الى فى أى وقت . وزوجتى وصلت فى صحبة أحد رجال الأمن . ولم يكن لدى معلام A أى اختيار غير ان يخرجنى للزيارة . مع ذلك ، فقد اتخذ لنفسه قرارا أن يسترد كل الأشياء التى احضرتها زوجتى بمجرد أن تدير ظهرها .

لقد وصلت ملاحظتى خلسة الى يد زوجتى عند خروجها من التاكسى أمام بوابات السجن ، حاملة الشبشب ، هذه المرة أطال زبانية التعذيب يدهم . فطارت عائدة الى لاجوس وبحثت عن رئيس فرع E ، كان هذا سر لا يعرفه . ما شأن السجن فى كل هذا ؟ لقد أكد لزوجتى انه لم يعارض فى أن اكون مستريحا بقدر ما يمكن . لقد أقسم انه كان يتخيل اننى أنال نفس المعاملة كأى نزيل أخر . اخيرا عبر عن دهشته اننى محجوز فى حبس انفرادى طيلة هذا الوقت .

إننى أصدقه ، ومازلت أصدقه . هناك أشياء كثيرة لا يعرفها يوسيفو (Yesufu) حتى فى داخل مصلحته ، اقلها جميعا الجستابو السياسى ، الذى يديره عيسى اديجو . أما الذى فعله يوسيفو هو أن يضع السجون فى مكانها . وفى تبيان ذلك فان العمل الجوهرى هو أن تفرق بين الساديين والبيروقراطيين الذين يسكنون المركز الرئيسى فى تلك المصلحة وهم فى الحقيقة عملاء لأكثر أنواع الأنشطة الحكومية إجراما . وضباط السجن المثقلين بالأعمال والكثير منهم أشخاص متزنين وانسانيين وأكفاء.

من المهم جدا أن نتعرف على المصابين طبيعيا بمرض السادية الذين اصدروا معظم التعليمات التى تتصل بمعاملتى فى السجن ، الذين أصدروا التعليمات التى ابطلت تعليمات فرع " E " . فى أغسطس 1969 ، الذين كانوا يعملون فى نفس اللجنة القائمة بتدمير العقول مثل كيم ساليم ، عيسى أديجو ، وجيو أو ساجى . لقد كان تأثيرهم على شديدا فى الحبس ، هذا الثلاثى الشرير لديه الكثير الذى يقوله ويعمله .

الفصل الحادى والأربعون

قال بوليفيموس:" استعد، سنذهب للمستشفى ."

كانت قافلة الحرس تتكون من ثمان سيارات.؛ خمسة خاصة برجال الأمن، وثلاثة للسجن،إحداها خاصة بالمراقب العام. لم أعرف عدد حراس السجن وفيلق رجال البوليس ذوى الملابس العادية عندما اقتربت السيارة الأولى من موقف السيارات أمام العيادة – فى وقت متأخر بعد الظهيرة ، يخف فيه الزحام بصفة خاصة – انفتحت الأبواب الأربعة دفعة واحدة وخرجت منه جماعة أخذ أفرادها يتسللون عبر الدرجات ، والطوابق وممرات المبنى ثم إختفوا فى الفتحات .أما أنا فقد كنت فرحا بهذا الاحتفال : فقد مضى وقت طويل منذ أن تم استقبالى برقصات منتظمة هادئة وإن كانت من أساليب بوليسية .وقد تم هذا بهدوء وحزم وانخفض عدد البصاصين فى حجرة الكشف الطبى إلى مستوى يمكن احتماله.

لقد أسهم حراس السجن المساكين مع المراقب العام فى إخراج هذا العرض،الخاص بتعرية المومياء للمرة الأولى ، هؤلاء المساكين من حراس القصوروجدوا أنفسهم مكشوفين،خارج المكان،خارج المناورة بواسطة دراويش المفتى الذى خسر المجادلة خارج البوابات حين أصر على أن هذه الكثرة من رجال الأمن لم تكن غير ضروريا فقط بل محرجة أيضا. فسيارته اللاندروفر الكسيحة ليست ندا لسيارات البيجو الفارهة التى يركبها أفراد كتيبة الأمن .بل إن صالونه الخاص تراجع فى المكانة ولم تعد تفوح منه رائحة السلطة الخاصة بالمباحث السرية .

مازالت هناك خمسة أيام وزيارتان ، مقررتان فيما بعد ضمن سلسلة الفحوصات المحددة لى حسب الأوامر، وظهر عن طريق الرجل الكبير نفسه ، إن تشكيلة السلطة قد انكمشت ،إلا من سيارة لاندروفر تابعة للسجن وسيارة شرطة واحدة. لقد أعلنت احتجاجى على ضياع المكانة ،وهددت بألا أتعاون معهم حتى يتم رفع مكانتى كرجل خطير إلى مستواها السابق . ووعدنى الضابط بأنه سوف يبلغ هذا الأمر للمراكزالرئيسية المختصة.

فى وقت الزيارة الخامسة ، والأخيرة ، وصلت عملية انحدار مكانتى إلى أدنى درجة. لم تأت أية مركبة من جهة الأمن، وارسلوا شخصا واحدا فقط. جاء سائرا على الأقدام. كان الدورعلى طبيب الأسنان ودخلنا صالون المراقب الكبير فى صحبة رجل المباحث البسيط المتبرم . شكوت للمراقب العام أن رجال الأمن أصبحوا يثقون بى ثقة كاملة. لكن عملية إذلالى لم تكن قد اكتملت بعد.وحين جلست على كرسى الطبيب، وخفت الضوء فجأة. توقعت أن يقفز رجل البوليس للعمل ،فيسحب بندقيتة ويأمرنى بالصمت، أو يقفزعلى توقعا لأى حركة مفاجئة.لكنه بدلا من ذلك خرج بهدوء من حجرة الجراحة ، لأنه لم يجد ضوءا كافيا يمكنه من قرائة الجريدة التى معه. بل إنه أغلق الباب خلفة ! إنه أمر محزن أن تحس بأنك لم تعد رجلا خطيرا .

ظل المراقب العام مغموما بسبب تأخير امر العناية بصحتى. كان مرهف الحس يشعربوخز الضميرخوفا على صورة الإدارة التى يرأسها فراح يندب حظه " هذا ما كان يجب علينا أن نفعله منذ البداية، ثم ماكنا تعرضنا للإساءة من الصحف الأجنبية وحتى من أبناء بلدنا."

رسم القلب، ضغط الدم،تحليل بول ، ردود انفعالات... هطلت هذه الفحوصات كلها على فى الزيارة الثانية ، وكان هذا الطوفان عبارة عن يقظة غريبة غير حقيقية .لقد نسيت أن الرياح والفيضانات كظواهر تستوطن الفضاءات المفتوحة .

هذه مياه ينابيع نظيفة، مشحونة بالقوة فى عوالم لانهائية، ليست فقط سموم باردة ، نازلة من فوهة حلقة حديدية فى السماء.لقد أغلقت عقلى حتى الآن فلا يسمح لتطفل هذا الفضاء الواسع بالدخول إليه،

ووصفته بأنه غريب وخطير، ومعاديا للمستقبل الذى يتراءى بعد هذه النزهة القصيرة فى حرية مصطنعة. لقد أنكرت معرفتى حتى لوجود النساء فى الشوارع ونحن نسير فيها، أنكرت أن جسدى قد أحدث صدعا فى جدران السجن. مستسلما فى النهاية لضغط الجمهور فى هذه الناحية، فالناس المفضوحون بالعار قد يسعون للإنتقام بطرق مختلفة من الشخص حتى يستسلم. لذلك فإن خروجى مازال فألا غامضا. لقد رفضت أن استمتع بتنفس هواء أقل احتباسا.

فى الوقت الذى اندفعت فيه الأمطارداخل حواجز العزلة. هبت عاصفة منعشة ، فاخترقت كل الدفاعات االجسمانية والعقلية ، سحقت الكبسولة لتطلق رائحة الحرية الحلوة. لقد استسلمت لها ، حولتها إلى قوة ألف محارب شديد العزائم يندفعون الى الخارج واحدا بعد الآخر. غارقين حتى الجلد، تلسعنا الريح والمطر عندما هربنا فى الممرات المكشوفة للمستشفى. فجأة أصبت بالدهشة من ظهور هذه الحركات الحرة العنيفة بل والمنضبطة من عناصر الطبيعة ومن جانبنا ، وتناقضها مع تلك المسيرة الأولى، مسيرة الموت إلى إحدى المقابر الصناعية . وفى وجه بوليفيموس الأصفرالذى يسبقنا هناك بعيدا فى المقدمة.يقبض على ثوبه بيده فى معركة خاسرة مع الريح.لقد جربت اعتقادا حادا ومؤكدا كأنه إلهام متشائم بدورة العام، هذه المرة فقط،، فى رؤية ايجابية. تتعلق هذه بالحرية وليس بالحصول عليها.كانت تأكيدا مثيرا لحرية الروح،ومعرفتى أنه بسبب هذا الحب ،خسر خصومى نتيجة الصراع. ذلك أنه لايهم فى النهاية كم من الوقت ناوروا لكى يحبسوننى خلف الجدران، ولكنهم لن يفلتوا نهائيا،من مصير المهزومين.على يد كل الذين تحالفوا والتزموا بمبدأ الحياة الحرة الخالية من القيود.

تذييل:

خلال زيارة يعقوب جوون الأولى لعبدان بعد الحرب ذهب فى جولة تفتيشية لمدرسة الزراعة التى كان يديرها آنذاك واحد من أصدقائى ، هو مستر بولا إيجى. وفى نهاية الزيارة صحب صديقى جوون حتى سيارته ، حيث جرى هذا الحديث طبقا لما قاله بولا :

جوون: كيف حال صديقك؟

إيجى : من ؟

جوون:وول ، كيف حاله ؟

إيجى : على خير حال .

جوون: فى حالة جيدة تماما؟ مستقر الوضع؟

إيجى : تمام، على حد علمى .

جوون: حسنا . أريدك الآن أن توصل له هذه الرسالة منى.أريدك أن تعيد عليه كلماتى بالضبط ، فهل ستفعل ذلك؟

إيجى : بالطبع ، سوف أفعل.

جوون : قل له : اللى فات مات . تمام ؟ استخدم كلماتى بدقة . اللى فات مات .

ملاحق:

ملحق ا – من فم الحصان.

خلال حفل حزبى عقد فى السنة الأولى لوجودى فى كادونا ، انتحى أحد الأصدقاء القريبين برئيس البوليس أواوو فى ركن من المكان وسأله عن أخبارى." سمعنا أنه مريض فى حالة خطيرة ." فى ذلك الوقت انتشرت شائعات عن موتى .وطبقا لكلام هذا الصديق فإن إجابة أواوو كانت كالتالى:" أنت تعلم أننى سمعت الإشاعة بنفسى وذهبت إلى جوون. قلت له ، انظر، إذا حدث شىء لهذا الشاب أثناء وجوده فى السجن لا أحد يضمن ما سوف يحدث فى الإقليم الغربى.حينئذ أخذنى جوون جانبا وأطلعنى على تقرير طبى . عرضه أمامى وقال ، اقرأ هذا ؛ إنه تقرير من طبيبه الخاص. فقرأت التقرير. إن هذا الشاب كان يعانى من مرض الزهرى المزمن ."

لقد حضر الكاتب والشاعر ج.ب. كلارك مؤتمر نادى P.E.N فى مدينة أبيدجان حين كنت مسجونا فى كادونا وكانت الحكومة قد زودته بمعلومات ، فشن حملة دعاية ضد شوينكا،بدءا من شرق أفريقيا حتى الولايات المتحدة رجوعا إلى أفريقيا السوداء . وفى كل مجطة توقف فيها مستر كلارك ، كان يلقى محاضرة عن الحرب الأهلية فى نيجيريا ، كان نصفها مخصص لمسألة شوينكا. كانت أطروحته المفضلة ، كما أكدها بإصرار معارفى كبار السن وكذلك من أطلق سراحهم الذين استمعوا لهذه المحاضرات إن" شوينكا رجل المسرح الخالد مصمم على أن يلعب دور النجم فى كل مسرحية من تأليفه" كان ذلك هو المكون الرئيسى للمحاضرة .وكان له ، مع ذلك، أصدقاء موثوق بهم يشركهم معه فى جلسات الشراب الخاصة التى يتناول فيها الويسكى.

كان بين المستمعين لما قاله مستر كلارك فى" اعترافاته السرية' واحد من أهل الأدب ، كان زميلا لى بالمدرسة، وهو الآن رئيس قسم فى جامعة إبادان ، بروفسور" A " تصادف مروره بأبيدجان فى وقت انعقاد مؤتمرال " P.E.N".وحضرأحد البرامج التعليمية العالمية لكنه عبر عن شكوكه حول إعترافاتى المفترضة وعن بيانات رسمية أخرى حول نشاطاتى. فواجهوه فى الحال بما يعتبره مستر كلارك الرد النهائى الذى لايقبل الجدل على مثل هذه الشكوك.

" حسنا، وما أهمية ذلك فى أى ناحية ؟ إن علاجه بالأدوية يكلف الحكومة مالا كثيرا. صد يقك يعانى من مرض الزهرى المزمن، هل تعلم ذلك؟ "

عند الإفراج عنى تساءلت إذا كان دكتور أدلديفوه قد تم ترويعه حتى يكتب هذا التقرير. إن منظر ذلك الطبيب القادم حديثا من موسكو الذى تضاءل حجمه فى سبيل الحصول على الخلاص بتغيير إسمه مازال يخيفنى، لذلك قررت أخيرا أن أعالجه.لقد قضيت أياما عدة أراجع فيها كلماتى، ثم ، بعد ستة شهورمن حصولى على الحرية والتعافى بالاسترخاء فى جو العلاقات القديمة انتظرت حتى ارتوينا بالبراندى وناشدته " حاول وصدقنى يا كوكو إذا قلت أننى سوف أفهم حتى خيانة الزوجة لزوجها فى أثناء فترة الجستابو وارهاب الجيش. لم يكن مطلوبا منك أن تخاطر بحياتك من أجلى وأنا لن أسامح نفسى أبدا لو أوقعتك فى تلك الضائقة.لكننى أريد أن أكتشف أصول مستند معين و أريد إجابة صادقة.هل تم إكراهك على أن تكتب تقريرا تقر فيه بأننى مصاب بمرض لاعلاج له؟ "

أنكر ذلك بقوة .

" التقرير موجود ويحمل توقيعك. لقد رأيته."

هذه بالطبع أكذوبة، فأنا لم أره.

قال. " هذا توقيع مزور. سوف أقسم على ذلك فى أى مكان. لقد كتبت بيانا بالطبع . كتبت فيه أننى طبيب عائلتك ، إنك جئت تشكو من الألم. قلت إننى لم أجد حتى الفرصة لتوقيع الكشف عليك قبل أن يقوم البوليس بمداهمة العيادة. لاشىء أكثر من هذا. فماذا يقول فى التقرير ؟"

" زهرى مزمن . ذلك ما أفترضوا أنك أعلنته عن حالتى المرضية ."

صفر كوكو ." لابد أنهم أتوا بطبيب مؤهل ليفعل ذلك .إنه واحد من الأمراض التى تجعل من الطبيعى أن تتدهور فجأة ، من الناحية العقلية والجسدية ، وتموت .كان ذلك اختيارا بارعا للمرض "

فى غضون سبعة وعشرين شهرا قضيتها فى السجن تعاطيت هذه الأدوية من مصلحة السجون :

Thalazole

Aspro and Aspirin

Sleeping Pills (in Lagos only)

Limint.

إذا كا التقرير الطبى هو الشىء الوحيد من أعمال عيسى أديجو القذرة ، إلا أنه قد تم تمريره على أعضاء النظام الهرمى ،وكان هناك من الواضح ذو الرتب العالية الذين إذا سألناهم إن كانوا يصدقون حقا هذا التقرير ،فإنهم كانوا مقتنعين تماما بأن ينتظروا الإنهيار النهائى ،لذلك تم حجب الأطباء عنى بخبث فلم يزرنى أحد منهم فى محبسى الانفرادى فى كادونا.

الغش والخداع هما عدة وعتاد فن البقاء فى السلطة ؛النفاق المدروس و المداهنة المسيحية هى عوامل مساعدة لأسلوب السلطة القائم على صورة الخنوع .

كانت لدي الحيلة ، هذا هو يعقوب جوون . لقد نجحت جيدا فقط مع رجال قليلى الكفاءة، ولابد من الاعتراف مع رجال أذكياء من طبقة عقلية كريمة. لاحاجة بنا لذكر المجموعة الثالثة والكبرى ، والزوار الأجانب وسادة النظام الكولينيالى السابق الذين أسغدهم أن يقوموا برعاية شخص غرير، فشل فى أن يعرف مناورات أساتذة لعبة الدمى الدهاة خلف ظهره، ومكره الوطنى. من الناحية الرسمية فإن الكل قد فرحوا بأن يتلقوا اعترافات رجال عظام ، أعلن أنهم رجال جديرين بلحظة حميمية مع ديكتاتور من العسكر. أمتلأت رتبهم بأساتذة جامعيين ، ودبلومات أجنبية وكهنة، ورجال أعمال من فصيلة أسماك القرش بل وأصغر أسماك المجتمع وأكثرها هامشية .

بالنسبة لهم فإن إهتمام جوون كله هو أن يفرض سلطته على كل الأمور ،بما فيها أمورى أنا..لقد جعل كل واحد من مستمعيه يشعر بأنه الوحيد الذى يخصه بسر من أسرار الدولة ،تحفزه حاجه عادية لمن لايحس بالأمان ويجب مساندته بالقبول والاستحسان من جانب جميع طبقات الناس فى الخارج والداخل،لهذا قام جوون بأخذ الضحية المختارة جانبا وأقسم " يشهد الله لولا تدخلى شخصيا، لتم قتل هذا الرجل برصاص كبارضباطى،أقسم بشرفى.كان ذلك محبة منى ، لو تعرف..."

يندهش الجمهور الجاهل بالخضوع ، والحميمية فى اللحظة الخاصة والإعلان العاطفى.يفترق عن مالكى السر المتميز..يستنتج الصحفى الأجنبى فيقول . اعترف أنه ليس شخصا لامعا، ولكن لابد لك أن تعترف بأمانة الرجل"

مثل هؤلاء الناس يصعب عليهم أن يرتكبوا الخطأ.الأمانة يمكن عرضها على، اعتقاد صادق فى أن الزيف لابد له من نهاية .علاوة على ذلك فإن الناس، فى عهد جوون- نيجيرون وأجانب- يواجهون عينة أصيلة من التحول، سلالة نادرة تربت فى جو الحرب الشديد التعصب .لقد جاء جوون إلى السلطة على رأس حركة انفصالية .فقد أعلن فى أحد بياناته الأولى عبارة ،استقبلها أهل بيافرا بفرح وتمسكوا بها – هى "إن قاعدة الوحدة النيجيرية ليست موجودة هناك " . كم مرة تم استغلال هذا الإعلان الأصلى عن الكفربواسطة الانفصاليين الآخرين بعد ذلك ،من أهل بيافرا.والحقيقة إنه لايمكن للحكومة محو هذه المرحلة فى تطور جوون مهما بذلوا من جهود فى عمليات تقطيع الفترات التاريخية وتزويقها. والحقيقة أن الحالة العقلية التى اعتبرت استقلال الشمال حقيقة مسلم بهاأغاظته وجعلته يسمح - على الأقل- بكل أحداث التطرف ضد سكان الجزء الشرقى .

إن تحول جوون – بفضل أساتذته االأمريكان والإنجليز- أرغمه على أن يبرهن لنفسه ولمرشديه أنه أشد القوميين النيجيريين تعصبا اليوم.ربما يكون كذلك. لكن ، فى داخل العملية ،فإن المحافظة على هذه الصورة المزيفة تتطلب بالضرورة القضاء على كل أولئك الذين كانوا

يمثلون الجزء غير المتصالح فى معمدانية النارالنيجيرية التى جرت من يوم ألى آخر فى غضون السنوات بين 1965-1969. فقط المثقفون المحترفون ، الميالون كثيرا للتودد والملاطفة ، والمستعدون أن ينظروا الى التاريخ نظرة انتقائية مقابل الحصول على سلطة بالنيابة وأن الوهج المحيط بالسلطة يمكنهم من الحصول على احساس بالأمان داخل هذا المدار الذى يفرز الانبثاقات الزائفة .إنهم أشخاص أغنى تجاربهم فى الحياة هى قدرتهم على ان يعلنوا لمجموعة الحاسدين من أشباههم الفارغين من الناحية الأكاديمية :

" تعرفو ن أننى كنت مع رئيس الدولة الأسبوع الماضى فقط ، وتعرفون ، أنه قال لى فعلا – بأقصى درجات السرية ، طبعا ..."

ملحق ب – المنتفعون الحقيقفيون بالحرب

1) فقرة من خطاب ترحيب قدم لرئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة النيجيرية ماجور جنرال يعقوب جوون قدمه رؤساء، ومستشارون من أهل مدينة أيكوم فى مناسبة زيارة فخامته الأولى لمدينة أيكوم بتاريخ 20فبراير 1971،

صاحب الفخامة، تحية الولاء !

نحن رؤساء ، ومستشارى وشعب قسم أيكوم،نشعر بعظيم الشرف لزيارة رئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة، الماجور جنرال يعقوب جوون لنا اليوم . هذه مناسبة فريدة لأنها المرة الأولى التى نستقبل فيها رئيس دولة فى هذا الجزء من القطر.نحن سعداء بالتعرف شخصيا على الرجل الذى أنقذنا من أيدى "اللوردات" الأشرار السابقين أبناء الجزء الشرقى من نيجيريا وقد تجمعنا اليوم هنا لنقدم احترامنا لكم .سعادتنا لاحدود لها ، وحبنا فى التعبير عن امتناننا لفخامتكم لا نهاية له لأنكم جعلتم هذه الزيارة ممكنة برغم مصاعب الطريق الذى عبرتموه مع أعضاء الفريق الذى يصحبكم . هذه هى المناسبة التى تطلعنا إليها طويلا ونحن مجتمعين هنا اليوم لنعبر عن بالغ شكرنا وتقديرنا لفخامتكم .

تحرش الجنود بالمدنيين :

إن أهل أيكوم معروفون بحبهم للسلام والتزامهم بالقانون .نحن فخورين بهذا لأنه لم تحدث أى حالات شغب أو خروج على القانون فى أيكوم منذ أيام الاستعمارحتى الحكم المدنى الأخير.عندما اندلعت الحرب الأهلية فى 1967، وقفنا وقفة رجل واحد وحاربنا جنبا إلى جنب مع جيش التحرير. وإدراكا منا لمابذله الجنود من تضحيات من أجلنا ، فإننا لم نحمل أى سوء نية تجاههم. لكن اليد العليا لبعض هؤلاء الجنود أذهلتنا وتركت الكثير منا تتقطع أنفاسهم ، لنقتبس بعض الأمثلة ؛ربما نذكر مستردينيس أوكباراكوإديم من أوكانجا الذى أطلق عليه الرصاص فى 1968 بمنزله بدون أى سبب، ومستر أجوم أجفور الذى قتل فى انكوم 1969، لأنه رفض أن يسمح لهم باغتصاب إبنته التلميذة الصغيرة ،ومستر آجى انتو الذى تم طعنه حتى الموت .وأخيرا طالب بالسنة الثالثة الثانوية بمدرسة أيكوم، مستر أجبورنوهور، تم ضربه حتى الموت عندما حوصرت المدرسة بواسطة مجموعة من الجنود المسلحين .وحجتهم الوحيدة هى أن المدرسة رفضت أن نسمح لهم باستعمال فناء المدرسة لتربية قطعان الماشية .باستثناءهذا ،فإن التلاميذ والمعلمين بل وزوجاتهم تعرضوا لأسوأ أنواع المعاملة ، وتم تدمير كثير من الكتب والممتلكات ذات القيمة الكبيرة .فى كل حالات القتل هذه لم يتم إحضار الجانى ليعاقب باعتباره مجرم قام بعمليات تنكيل ، حتى يشعرعامة الناس بأن القانون يحمى حريتهم من المعاملة غير الانسانية مثلما يحدث فى بقية أجزاء القطر الأخرى. ثم هناك الحالات اليومية التى يتم فيها ضرب الرجال والنساء وأحيانا الأطفال وجرحهم دون تمييز،وحجزهم فى زنازين الجيش بعد حلق شعورهم بصورة قبيحة بدون قضية عادلة

(انظر ألى صور وتعليقات بعض الضحايا)

نحن نتوسل إلي فخامتكم أن تستخدم سلطاتك لضمان حريتنا فى الحركة وفى العيش دون خوف ، لكى نتمكن من المساهمة بنصيبنا فى بناء الأمة. لقد أضحت الحياة غير محتملة بالنسبة لنا نتيجة للمعاملة التى نتعرض لها يوميا من الجنود فى كل الولاية الشرقية الجنوبية ، أيكوم هى المدينة الوحيدة التى لم ترفع منها نقاط التفتيش القائمة على الطرق منذ نهاية الحرب الأهلية.هناك ثلاث نقاط تفتيش داخل المدينة واثنان عند الحدود مع الكميرون وأن أكبرالفظائع التى يتعرض لها المدنيون تأتى من

هناك .فالجنود يسلبون البضائع مثل عرق البلح والمواد الغذائية من المشاة وراكبى الدراجات عند مرورهم عبر نقاط التفتيش. بعضهم يرفض أن يدفع ثمن مشترواته من الطعام أو المشروبات ويضربون الباعة ضربا مبرحا حين يصممون على أخذ الثمن .لقد فرضوا على المدنيين أن يحملوا دراجاتهم فوق رؤسهم و يجرون بها لمدة خمسة عشر دقيقة أو أكثرعند هذه النقاط . فمأأفظع هذا !

- مختصرات من تقرير عن أفعال ترويع وتجنى على الناس بالحيلة فى قسم أيكوم بالجزء الشرقى أثناء زيارة حاكم الولاية للقسم.

مؤرخ 11مارس 1971، وتم ارساله إلى يعقوب جوون بثكنات دودان، فى لاجوس.

5- ابتدأ صاحب الفخامة بسؤال مستر أوجارإذاكان قد اشترك فى كتابة خطاب الترحيب بالنظر للطلاقة التى قرأ بها الخطاب .أنكر مستر أوجاراشتراكه فى كتابة الخطاب فسمح له بالإنصراف.عندئذ استدار فخامته الى الرؤساء، الذين سفه موقفهم لكونهم " رؤساء حمقى وأميين لأنكم سمحتم لأنفسكم بقبول التضليل الذى قام به مجموعة من الأوباش." أنكر الرؤساء أنهم ضللوا أبدا أو خدعوا، وأعلنوا أن خطاب الترحيب كان انعكاسا صادقا لمشاعرهم ورغباتهم ،وهى سبب توقيعهم على الخطاب .

6- التفت فخامته إلى اعضاء اللجنة التى كتبت مسودة الخطاب وبعد وابل من الأسئلة أمر الجنود بجلد مسترإيابا ، 42 عاما ،السكرتير العام لاتحاد المزارعين بقسم أيكوم ، وفيليب نتوى،36 عاما، رجل أعمال قطاع خاص، هذين الرجلين تم تعرية أجسادهم فى الحال ووضعوا أمام فخامته، وفى حضوربطانة فخامته، والرؤساء المحليين ورجال الصحافة ، وتم إعطاء خمسين ضربة بالعصا لكل منهما ، وسجن الإثنان فيما بعد بناء على أوامرفخامته. أشار المحافظ إلى عضو آخر كتب مسودة الخطاب، هو مستر رفائيل تاتى،الذى تصادف عدم وجوده هناك،ووجب البحث عنه، وإلقاء القبض عليه ،ومعاقبته وحبسه كالآخرين.(لقد تمكن بالصدفة من الهرب إلى لاجوس بحثا عن الأمان.) لقد أعطى تعليماته بمنع مستر تاتى من ارسال نسخة من خطاب الترحيب إلى عصبة أوجوجا الإجتماعية فى لاجوس ، التى قال عنها أنها ، سوف تصنع منه كتابا.

7 – تم نقل مستر إيابا ونتوى عن طريق البوليس إلى مستشفى أيكوم المشترك، حيث تم علاجهما من جروح حادة حدثت أثناء جلدهما .

حكومة بالجلد :

8- صاحب الفخامة، من المحزن لنا أن نخبركم،أن مواطنيكم الشرفاء الملتزمين بالقانون يجلدون هكذا علنا،كما لوكانوا محتالين ،وهو عمل ليس فقط مخجل ومحط بقدرالانسان ،بل يتصادم مع المبادىء التى تدافعون عنها. إن حادثة الجلد التى ذكرت هنا والأفعال الأخرى المشابهة، فى سبيلها لأن تصبح وبأسرع مايمكن نمطا للحكم فى الولاية الجنوبية الشرقية .نحن نتذكر فى وقت ما مضى أن المسترهوجان، وهو موظف فيدرالى كان يعمل فى كلابار،تم جلده بالمثل وقشط شعره قبل أن يهرب إلى لاجوس .

تليجراف تم ارساله إلى إيزوين وجوون من جانب الموقعين أنفسهم إلى كولين إيزوين، دار الولاية ، كلابار

1- ألى الكولينيل إزوين ،دار الولاية، كلابار

نجحت جولتكم الأولى فى أوكجولا بتفعيل رغبات الناس بتوبيخ رؤساء الهيئات الثقافية الذين يعذبون الشبان الأبرياء,انهم لايصلحون حكا ما لأن قهرهم للشعب لا يخدم أبناء مجتمع أوكجولا الذين يحتجون بقوة لعدم ممارسة الديموقراطية الشعبية،لقد أطلق هؤلاء سراح المحبوسين تشبها بالولايات الأخرى.

إكبونج

2- إلى يعقوب جوون، ثكنات دودان،لاجوس

أنقذ ارواح الرؤساءالشباب بأوكوجا جولة إزوين الأولى لأوكوجا الأسبوع الماضى شهدت عمليات ترويع وتحرشات تعذيب واعتقال جماعات من شباب أيكوم والرؤساء. زيارتكم المقترحة لمجتمع أكوجا

لاجوس أقلقت نفوسنا تعالى لمساعدتنا لوقف الاعتداء على الديموقراطية . إكبونج

3- إلى يعقوب جوون ، ثكنات دودان ، لاجوس

انقذ أرواح مجتمع أوكوجا المضطرب النفس الحاكم إزوين أخضع شعب أيكوم خلال زيارته الأولى فى 25 فبراير- لقد تحرش إزوين بالرؤساء بوحشية وجلد موظفى السكرتارية فى حضورمفتشين وصحافة عقابا على خطاب الترحيب الذى قدمه لفخامتكم مواطنون مخلصون . الموظفون الذين تم جلدهم واحتجازهم بطريقة مهينة يتوسلون إلى فخامتكم أن تحتج فمواطنوكم لم يرتكبوا جريمة أكثر من أنهم طالبوا بحقوقهم.

. إكبونج

من كلابار، فقرات من خطابها E.B 71-6-13من مسز

لقد تم تدمير مصالحى المالية فى الولاية الجنوبية الشرقية. بإيجاز

ربما أصبح بغير أصدقاء. فالناس يهربون منى إرضاء للرئيس صاحب السلطان.لقد تجرأ الحاكم ألى حد أن قال أننى شيوعية جئت إلى الولاية لعمل انقلاب لنظام الحكم .ومع ذلك فإنه يتوسل إلى رومانيا لكى تساعد الولاية .

بالاضافة إلى ذلك فإننى قلقة بشأن أولادى .إذ لايوجد لديهم نقود فى البيت ليس لديهم إلا قليل من الطعام . على أى حال كان هذا نعمة لأننى أجبرت على العودة ثانية إلى كلابار.

لقد ذهبوا لسؤال والدى عن أماكن وجودى .

بصرف النظر عن أن الحاكم جعل حياتى تعيسة فى الولاية ،فإنه وجد الششجاعة أن يذهب هناك ويطلب قطعة من الأرض من أهلى . لقد

كتبت لكى أتفاوض معه لكى يترك الأرض . . فذهب إلى إكيت لتهديد أهلى بأنه لولا شفقته بأهلى الكبار السن لأخذنى ووضعنى فى الحجز.لقدفكرت وشعرت بأن هذا أكثر مما يمكننى احتماله ولذلك أرسلت استغاثة ألى كيم ساليم .

أنا لا أعرف ماهى نتيجة التحقيق ولكنى متأكدة أن الخوف من الاعتقال أو التهديد بالجلد كما هى العادة هنا سوف يكون أقل. فالناس يتم جلدهم ويجرسون أو أو يطردون من الولاية رغم أن الواحد منهم يمكنه أن يكون شرقى جنوبى إذا رغب الحاكم أو إذا تجرأ شخص وتكلم عما يحدث فى الولاية .

أنا الآن جديدة فى الولاية والناس يفرون منى كأننى مصابة بالجذام. الأعمال الغريبة التى كنت أقوم بها لكسب عيشى وعيش أولادى ومصاريف دراستهم لم تعد تدر ربحا بعد الآن .

إننى أتساءل لماذا يغلق رئيس صالح هكذا أذنيه عن صرخات الناس فى الولاية الشرقية الجنوبية . هناك مخبرون فى كل مكان فماهى الحاجة ألى وجودهم أنا لاأعرف. الوزراء فى جمهوريتنا الأولى البشعة لم يكونا على هذا المستوى من الفساد الذى يمارسه أعضاء الحكومة فى الولاية الشرقية الجنوبيةإذا نظرنا لقصر فترة بقائنا. كل الأماكن تفوح منها رائحة الفساد.

الناس مثل أوكوى أريكا اضطر للهرب بعيدا عن كل شىء يهم الولاية خوفا من حملات التشهير. إنه أسوأ مكان عرفته . إن شعارهم الغش من أجل الغش.لم يكن الحال هكذا أبدا فى الولاية الشرقية الجنوبية حتى فى خلال المرحلة التى سميت بعهد القهرفى نظام الإيبو.

+ الحروف الصغيرة من عندى وهى ملاحظة كانت تردد فى كل نواحى الأمة ، كذلك معضلة جوون الشخصية .

الرجل مات (مقتطفات من بيانات شخصية)

كان من المقرر أن نقوم بتغطية حفلة أقامها الرئيس أونى . رفضنا أن ننفذ هذا التكليف بناء على معلومات أولية من مكتب الحاكم بمنع الصحف والتليفزين من تغطية أى حفلة يحضرها هو . ثم جاء موظف فى إذاعتنا وأكد لنا أن الحاكم رفع المنع عن هذه الحفلة بالذات.

لذلك ذهبنا.

جلسنا فى الحفلة بعيدا عن أى شخص آخر، حتى طلب منا الرئيس أوليوصولا أن نبدأ فى التصوير.كانت الحفلة فى حجرة جلوس فسيحة . فى وقت القبض علينا كنا نعمل بعيدا عن الحاكم –رغم أن زوجة الحاكم كانت ترقص مع رجل أونى. فجأة خرجت المرأة من حلبة الرقص وشكت من عيال التليفزيون الذين يوجهون لها الاهانات . فى الوقت نفسه غضب الرئيس أونى من هذه المعاملة ، وتم تركه واقفا هكذا فى حلبة الرقص .وكان الشىء التالى الذى علمنا به هو صياح" أين أبناء التليفزيون . وقفنافقال لنا " أخرجوا من هنا – فورا ."

جمعنا معداتنا ونزلنا على السلم . وبمجرد نزولنا اكتشفنا أن الحاكم موجود هناك فى انتظارنا .

أيا كان الكلام الذى سمعه من زوجته فنحن لم نعرف أبد لكنه كان غاضبا مهتاجا وهو يتحرك فوق البقعة الخضرة من حولناويقول كم

كناوقحين الخ،الخ.. ثم أمرنا بالذهاب ألى منزله. أخذونا الى منزله تحت تهديد السلاح ،حتى جاء بعد ربع ساعة تقريبا .

وعنما جاء قال :" خذ هؤلاء واعطهم علقة ساخنة ثم أعدهم إلى هنا فى الصباح .إذا حاول أحد منهم أن يقوم بأى حيلة اضربه بالنار. لحسن الحظ أن الضابط المسئول كان من رجال الله وبدلا من أن يأخذنا إلى الثكنات العسكرية ذهب بنا إلى مركز بوليس إياجانكو. لقد طلب منا أن نخلع ملابسنا وأخذ أبناء البولي المتحركين فى القفز علينا بأحذيتهم الثقيلة .وفى نفس الوقت أرغمنا على أن ننام على أرضية الأسفلت .

بعد الضرب ألقوا بنا فى زنزانة مزدحمة بقساة المجرمين...

... فى التاسعة من صباح اليوم التالى أعادونا إلى الحاكم وكان أول شىء قاله: "هل استمتعتم بالعقاب ؟" واحد منا فقط سائق أجابه ،حينئذ أمرنا الحاكم بأن نعود الى مكتبنا حيث سيوافينا المدير العام بالمزيد عن قراره.

وفى المكتب امرت الادارة بوقفنا عن العمل، دون سماع روايتنا للقصة "

إن حكايات الضحايا الآخرين تماثل هذه القصة فى التفاصيل . التقرير الآتى كتبه أجد أعضاء فريق البحث الذى يعمل معى عن شخص مات :

إن أسرة هذا الرجل لم تعرف عنه شيئا سوى أنه قد ضرب ،وأرسل إلى إنجلترا ، وأنه الآن فى عداد الموتى . لقد تمكنت عن طريق زملائه وأصدقائه من الحصول على هذا التقرير المختصر لما حدث له :

كان واحدا من فريق التليفزيون الذى تم ضربه بناء على أوامر الحاكم . أثناء الضرب كسر مفصل كعب قدمه.رفضت إدارة التليفزين أن تقوم بعلاجه على أساس أنهم ليسوا مسئولين عن ما "حدث" له .

أخذوه إلى مستشفى أديو لعلاجه. عندما فشلت المستشفى فى تحقيق علاج كامل للكسر ، حولته غلى المستشفى الجامعى . ومن مستشفى الجامعة نقل إلى مستشفى تابع للبعثة التبشيرية فى أوجبوموشو، بعد جولته فى المستشفيات فى الغرب أرسل إلى انجلترا. وكان من المفروض أن تتقرر مزانية علاجه من وزارة التعليم أو وزارة التنمية الاقتصادية .لم نحصل على معرفة محددة على أى من الوزارتين .

فى انجلترا بدأت قصة استئصال قدمه. أولا تحت الركبة ، ثم فوق الركبة،ثم الساق كله- من حق رأس الورك تم قطعه. أصيب الجرح بتلوث شديد (غرغرينة) وسرعان ما عجزت الرئتان . لم يستطع الانجليز مساعدته ، لذلك تم ارجاعه إلى الوطن _ باعتباره حالة ميئوس منها .وبعد عودته الى الوطن بستة أسابيع فقط توفى الى رحمة الله.

نادى الطلبة الدولى –كورتفيلد هوس ، لندن

مستر وول شوينكا 4 ديسمبر 1972

الجارديان

192 جرايز إن رود

لندن

عزيزى مستر شوينكا

لقد كنت فى غاية الشوق لقراءة جريدة الجارديان فى الأسبوع الماضى لأقرأ عن شخصك وعن كتابك الجديد " الرجل مات "وأسعدنى بصفة خاصة أن أراك تذكرسيجان سوميمو فى مقالك ، لأن الكثير منا هنا كانوا يعرفون سيجان معرفة جيدة عندما كان هنا فى انجلترا .

إننى أتساءل إن كنت تعرف ما الذى حدث لسيجان بعد أن ترك نيجيريا.إنها قصة ظويلة محزنة عن المرض المستمر وتدهورحالته.لقد جاء سيجان ليعيش هنا منذ ثلاثة سنوات بعد أن بتر الجزء الأسفل من ساقه فى مستشفى رويامتون. لقد تعلم أن يمشى باستخدام الساق الصناعية واستطاع فى شجاعة أن يواصل دراسته فى الكلية .وكان من المحزن أن نرى معاناته تشتد ويسقط فى النهاية صريع المرض بدرجة أعجزت الأطباء عن فعل أى شىء لإنقاذه وحينئذ تمت الترتيبات لكى يعود للحاق بأسرته فى نيجيريا.أعتقد أننى كنت واحدا من آوخر الناس الذين رأوه فى انجلترا.

لقد واصلت الاتصال بأسرته وكنت أسمع أخباره بين وقت وآخر من أبيه وعمته ، ولكن لم يمر وقت طويل على عودته حتى أدركته المنية وتوفى إلى رحمة الله.

ربما كنت تعرف أنت قصته الكاملة هنا فى انجلترا.وليس فيما أقوله الآن شيئا جديدا بالنسبة لك. لكن أيا كانت حالته، فإنه يسرنى أن أرحب بك هنا وأن نلتقى إذا شئت أن تأتى لزيارتنا فى

(لى آبى)Lee Abbey

لك أجمل تمنياتى الطيبة، خصوصا وأنت تتخذ قرارك إذا كنت سوف تعود إلى نيجيريا أم لا.

المخلص :

كريستوفر هيوارد

ملحق س - مؤجل

ولكن هذا إعلان تحذيرى ، هذه المرة كتاب مصور عنوانه

" نيجيريا – عقد من الأزمات فى صور " هذا يذكرنا بحقيقة واضحة جدا ولكنها نسيت بسهولة وسوف يمضى وقت طويل جدا ربما عمر جيل من الأجيال قبل أن تموت العواطف تماما بالنسبة للحرب الأهلية النيجيرية

، رغم أن الكتاب صادر 1972 ، فى السنة الثالثة على المصالحة وبه مقدمات كتبها أعضاء قياديين فى النظام الحالى منهم مدنيون وعسكريون، إلا أنه يحتوى على صورتحتها تعليقات مثل " جثة جندى متمرد ترك وحيد بعد أن نهشت منه الجوارح وشبعت." إن مزاج المؤلف والمساهمين الآخرين فى الكتاب من الممكن فهمه تماما، لكنه أيضا إحياء لذكرى قد يساعدنا على الاحتفاظ برؤية ناضجة، بل إن عاطفتنا الدافئة نحو الحقيقة الموضوعية لابد أن تكون رعاية مستمرة.

وبسبب هذه الذاكرة حذفت الجزء الأخيرمن هذا الكتاب الذى يحتوى على تفاصيل تمت مراجعتها وتحقيقها حول أنشطة القوات الفيدرالية فى الغرب الأوسط بعد النصر، مفضلين الانتظار حتى تظهر أى محاولة للإنكارأو لتجميل الحقائق من مؤرخى المؤسسة المتحفزين. أفضل منذ الآن أن أقررأن هناك جريمة ارتكبت عمدا، وهى جريمة سياسية يقع الذنب فيها على نظام يعقوب جوون .أرى أنه من المهم على أعلى مستوى أن الجنديين المتهمين تم الافراج عنهما بعد سقوط بنين وتم ارسالهما إلى" الغرب الأوسط. " لقد بدأت عمليات الاعدام المنظم بعد ذلك بوقت قصير . إننى مستعد أن اتفق معكم على أنه ليس ثمة صلة لكتى لا أستطيع أن أتجاهل جنون الانتحار المستولى على الحكومة بسبب محاولتى إبلاغ بعض أصدقائى من المثقفين عن حقيقة إطلاق سراح اثنين من القتلة العنصريين وتسليحهمأ وإطلاق العنان لهما للفتك بالمدنيين الأبرياء بعد انتهاء القتال فعليا . إننى على استعداد لتقديم الكثير فى سبيل تتبع هذين المجرمين فى إقامة الهولو كوست (المذبحة) فى أعقاب انتصار الجيش الفيدرالى.

لقد قيل الكثير حول شهامة يعقوب جوون ونبل أخلاقة نحو المهزومين ، وعبروا عن دهشتهم الكبيرة من حقيقة انه لن يكون هناك محاكمات خيانه وعمليات إعدام تالية بعد انتهاء الحرب . هل مثل هؤلاء الناس سذج الى هذا الحد ؟ ألا يعلمون ان أى محاكمات مفصلة لبيافرا – ما لم تعقد فى السر طبعا – سوف تنتج أخطر التحديات المضادة لمن يوجهون الاتهامات ، تحديات سوف يكون لها أثر شديد لانهم جميعا – بدءا من يولية 66 قد ثبتت حقيقتهم بسهولة وبقدر كبير . سوف تكون ردة كلاسيكية تشمل ليس فقط كبار الرتب من العسكريين بل والسياسين وبعض الموظفين المدنيين

. فالمتهمون قد يثبت فى النهاية انهم مذنبون ويتم اعدامهم لكن ابناء الامة قد تعلموا تعليما فريدا سوف يؤدى الى وضع نهاية لكل هؤلاء الحكام الحاليين بقوة الاشمئزاز فقط . ان قادة بيافرا لم يحاكموا لنفس الأسباب التى احاكم بها رغم الإعترافات الواضحة ومطالبى المتكررة من السجن لم يحاولوا ابدا تلبيتها .

وهناك هذا السبب أيضا ، وهو الضغط المعتاد التى تمارسه دول كثيره وبالاخص أولئك الذين عانوا من تبكيت الضمير بسبب سلوكهم خلال فترة الحرب .

صورتنا بالنسبه للخير أو الشر هى صورة أمة مرائية . من ثم جاء إعتراف المراقبين مثلا بعد أرتوواءهم بالدم أن المذبحة الجماعية :

الأسبوع الخامس والسبعين

المراقبون يرحيون . جولات

رخيصة منظمة _ أنظر

ايدينا نظيفة

لقد سقطت الأمطار مرتين والأرض منخفضة.

الضغوط التى تمارسها الدول الأجنبية يمكن امتصاصها بسهولة بل وتحويلها الى شئ جيد ، وفى أغلب الاحوال تكون هذه الضغوط نتيجه للفهم المتبادل والابتزاز المهذب . بريطانيا هى مثل واضح لهذا .

لقد بحثت بعض هذه الأمثله القارصة لمبدأ طمس الحقيقة كما تمليها السياسة الحقيقية . مازالت بريطانيا هى معلم هذا الفن ، مثل كلاسيكى كان يضم أحد الأباء المبجلين ، وكان يعمل فى مستوطنة أوسيامو للجزام فى الغرب الأوسط ، محاولته فى أن يعلن شهادتة الشخصية حول مذبحة الإيبو المدنيين الأخرين حول المستوطنة تم قمعها من جانب وزارة الخارجية البريطانية بحجة أن " الاعلان سوف يجعل الأمور تزداد سوءا بالنسبة

للإيبو . " مثل هذا النوع من النفاق لا يحتاج الى تعليق . ولا يجب لطائفة المذنبين (اضافات على الحقيقة ؟) ان تقلل من قدرهم فى ذلك الفن الآخر للابتزاز المهذب الذى يؤدى الى دعوة " إختبارية " للمراقبين المحايدين والى عملية تتويج الشهامة ونبل الأخلاق ." بعد انتهاء عمليات القتل . ايا كانت اخطاؤه الأخرى ، فلابد ان يدون فى السجل ان بنجامين أويكونلى كان أول قائد ميدان يقوم بإعدام جندى فيدرالى لأنه اطلق النار على مدنيين عزل . إن سيل الأعدامات المماثلة التى أعقبت تلك السابقة المثيرة للجدل ووصول المراقبين لا يستحق حتى الذكر .

قد يكون من السهل لكنه من عدم الامان أن عفو يعقوب جوون النبيل يشمله هو وكبار رجالة فى السلطة . لتقول معهم " مافات فات " ان ننسى ذلك حتى فى الوقت الذى تحرض فيه الأمة على تواصل الحرب فى حدود المعنى الإصطلاحي " شعب واحد " واتباع سياسة خبيثة لتفتيت الأمة .

لو أنا ، أو الشعب الذى أنا جزء منه ، قبل هذا التعريف للقيادة القومية ، إذن فقد حان الوقت لنفكر بعمق فى السؤال الخاص ما الذى يشكل الأمة ومكانى فيها . بالنسبة للبرجماتيين الذى يحبون أن يكشفوا – بطريقة غير حقيقية ، لكن دعك من هذا –إنه بزعم أن كل ما فعله جوون انه كسب الحرب فهناك إجابة واحدة وهى تحتوى على تحذير " هكذا فعل جيزال فرانكو ".

المؤلف فى سطور:

وول شوينكا

ولد فى غرب نيجيريا، وتعلم فى جامعة إبادان ، ثم رحل إلى انجلترا حيث درس الانجليزية فى جامعة ليدز، وحصل على الليسانس 1958ثم عاد البلاده حيث عمل باحثا بجامعة إبادان ثم محررا بمجلة " أورفيوس الأسود" . ألف عددا كبيرا من المسرحيات التى أخرج بعضها بنفسه كما ألف العديد من من الروايات والدراسات الأدبية والسياسية وهو مناضل شرس من أجل الحرية والعدل والمساواة وقائد للمعارضة ضد النظم الديتاتورية وبالأخص نظام يعقوب جوون الى يفضح جرائمه فى هذا الكتاب . وشوينكا معروف على المستوى العالمى تنشر كتبه وتمثل مسرحياته فى أوربا وأمريكا . من أشهر امسرحياته : الطريق . الأسد والجوهرة ، حصاد كونجى . مجانين وأخصائيين .

وكان أول إفريقى يحصل على جائزة نوبل فى الآداب سنة 1986.

المترجم : نسيم مجلى

ولد فى 10 يولي 1934 بسمالوط - محافظة المنيا

حصل على ليسانس الآداب فى قسم اللغة الانجليزية عام 1960

حصل على دبلوم الدراسات العليا فى النقد الأدبى عام 1970

عمل بتدريس اللغة الانجليزية بالمدارس الثانوية وأكاديمية الفنون

وجامعة القاهرة .

من مؤلفاته :

المسرح وقضايا الحرية

ابن سينا القرن العشرين

أميرشعراء الرفض

لويس عوض ومعاركه الأدبية

صدام الأصالة والمعاصرة

حنين ابن اسحق وعصر الترجمة العربية

وله العديد من الترجمات منها :

كافكا

محاكمة سقراط

العصر الذهبى للإسكندرية

كيف تقرأ ولماذا

بالاضافة ألى عدد كبير من المسرحيات الأفريقية والانجليزيية .

==========

==========

==========

==========

==========

==========

==========

==========

==========

==========

==========